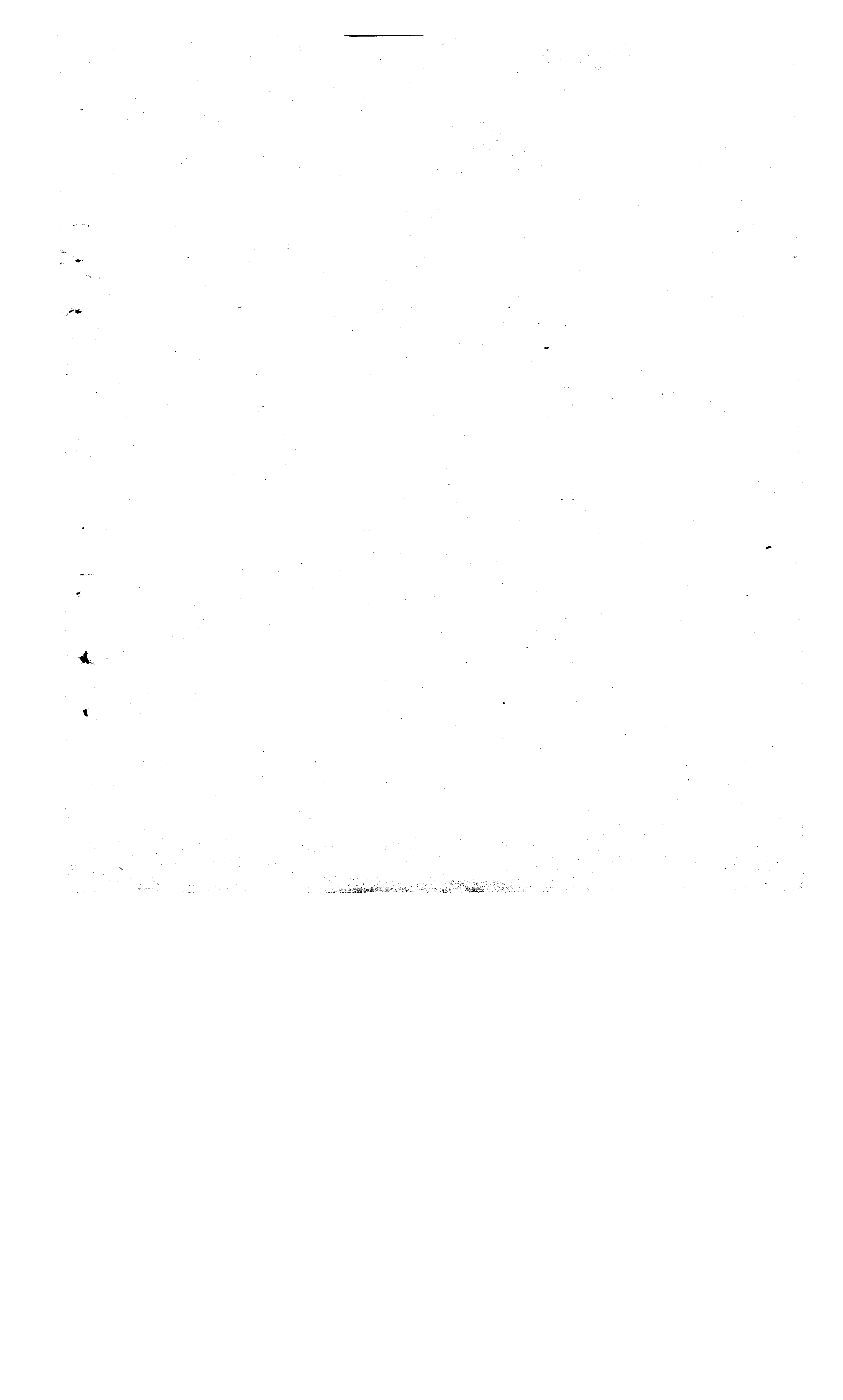
دكتور
عبد الشافي محمد عبد اللطيف

تاريخ الإسلام

في

عصر النبوة والخلافة الراشدة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين ، وعلى خاتمهم محمد بن عبد الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين .

وبعد ..

فإن هذا الكتاب قراءة جديدة ، ومحاولة متواضعة لفهم أعمق وأشمل لأعظم فترة في تاريخ البشرية ، وهـي عصر الرسول ﷺ ، وخلفائـه الراشدين .

ولا يظنن أحد أن المؤلفات الكثيرة التي ظهرت حول هذا العصر المبارك قد أحاطت بـه من كل جوانبه ، وأوفت على الغاية المنشودة ولم تبق شيئا لمستزيد ، ذلك أن معظم كتاب السيرة النبوية ـ قدامى ومحدثين ـ قد ركزوا في أحاديثهم على بعض الجوانب في حياة الرسول ﷺ خاصة الجانب العسكري ـ عبر الغزوات بعد الهجرة ـ ولم يعطوا جوانب أخرى ـ لا تقل أهمية عنه ـ حقها من الدراسة ، مثل أثره ﷺ في بناء الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم القوي القائم على الإيمان بالله وعلى الحب والثقة والتعاون ، وجهاده في إقامة الدولة الاسلامية ، على أسس متينة من العقيدة والأخلاق ، ووضع أسس علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم .

كل هذه الجوانب وغيرها ، لا تزال في حاجة إلى جهود المسلمين المخلصين لدينهم لابرازها ، وسيظل الميدان فسيحا أمام الباحثين للكشف عن جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ . وما أصدق قول الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، شيخ الأزهر الأسبق ، في تعريفه بكتاب حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل . فقد قال رحمه الله : « منذ وجد الانسان

على الأرض ، وهو مشوق إلى تعرف ما في الكون المحيط به من سنن وخصائص ، وكلما أمعن في المعرفة ، ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذي قبل وظهر ضعفه ، وتضاءل غروره . ونبي الاسلام ، صلوات الله عليه ، شبيه بالوجود ، فقد جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره ، يتلمسون جوانب العظمة الإنسانية فيه ، ويتلمسون مظاهر أسماء الله ، جلت قدرته ، في عقله وخلقه وعلمه ، ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ، وأمامهم جهاد طويل ، وبعد شاسع ، وطريق لا نهاية له » . نعم ، لا يزال أمام الباحثين طريق طويل لاكتشاف جوانب العظمة في شخصية الرسول .

ومما هو جدير بالتنويه ، أنه لا ينبغي النظر إلى دراسة السيرة النبوية على أنها مقرر دراسي ، يدرسه الطلاب في المدارس والمعاهد والجامعات ، بل يجب أن تدرس على أنها حياة حافلة بجلائل الأعمال ، ومدرسة كبرى خرجت عظماء الرجال ، الذين فتحوا البلاد ، وأقاموا الدول ، وأسسوا الحضارة الإسلامية السامقة ، التي أمدت البشرية بزاد روحي وعقلي وفكري وثقافي قرونا طويلة ، ولا تزال ، والمسلمون اليوم أحوج ما يكونون إلى الانكباب على دراسة سيرة نبيهم ، ليتعلموا منها ، ويسيروا على منوالها ، ليصلحوا ما فسد من حياتهم وأحوالهم .

هذا وقد ركزت في هذه الدراسة على إبراز الدور العظيم والخطير الذي قام به النبي ﷺ في تغيير أحوال العرب ، وكيف هيأهم لتغيير العالم من حولهم ، فلا شك في أنه نقل العرب نقلة هائلة ، إلى الامام ، وجعلهم قادة الدنيا . فقبل ظهوره لم يكن للعرب تأثير يذكر في شؤون العالم وأحداثه وقضاياه .

ولم تكن الدول المحيطة بهم ـ الفرس والروم ـ تحفل بهم ، أو تحسب لهم

أي حساب ، فأين العرب من الفرس والروم ؟ هاتين القوتين الجبارتين ، اللتين كانتا تتنافسان في الزعامة والسيطرة على العالم وقتئذ ، وكانتا تنظران إلى العرب ، على أنهم مجموعة من القبائل الرحل ، التي تعيش حياة بدائية بعيدة كل البعد عن حياة الاستقرار والنظام والمدنية ، وإذا كان هذا حال العرب قبل ظهور الاسلام ، فقد تغير ذلك كله بعد ظهوره تغيرا كاملا ، وأصبحوا سادة العصر . وقهروا من كانوا يحتقرونهم بالأمس في ميادين القتال ـ لما اعتدوا عليهم ـ ، لكنهم لم يظلموهم ، ولم يستعلوا عليهم ، بل كانوا معهم في غاية الرحمة والتسامح ، وعلموهم الدين الصحيح ، والنظام السليم ، والحضارة الفاضلة والأخلاق القويمة ، فالإسلام ورسوله هو الذي اكتشف العرب ، واستثمر طاقاتهم الكامنة ، وأخرجهم من جزيرتهم التي عاشوا فيها قرونا طويلة ، منطوين على أنفسهم ، ـ لا يؤبه لهم ـ ومكنهم من أداء الدور الانساني الخالد ، الذي اضطلعوا به لصالح البشرية ، ونحن لا نقصد من هذا الكلام أن نقول :

إن العرب كانوا قبل الإسلام كمًّا مهملا ، عاطلا من كل الفضائل الإنسانية ، فالأمة المهملة العارية من كل الفضائل الإنسانية ، لا يعقل أن يعهد إليها الله سبحانه وتعالى ، بحمل رسالة سماوية عالمية خالدة ، هي آخر الرسالات وأعظمها ، ولا أن يصفها في كتابه الكريم :بأنها خير أمة أخرجت للناس .

فالأمة العربية كانت تحمل إمكانيات إنسانية هائلة ، وطاقات خلاقة كامنة وكل ما في الأمر أنها كانت تنتظر من يكتشفها ويستثمرها ، وتنتظر اللحظة المناسبة لتنطلق وتؤدي دورها في تاريخ البشرية ، وجاءتها هذه اللحظة بظهور الاسلام ، على يدي خاتم الأنبياء ، النبي العربي محمد بن عبد الله .

والخلاصة أن حياة العرب تغيرت على يدي الرسول الكريم ، من الشرك

والوثنية إلى التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، ومن الفوضى إلى النظام ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن البدائية والتخلف إلى قمة الحضارة والمدنية والتقدم ، وتغيرت بهم أحوال العالم ، الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية والفكرية تغيرا كاملا .

فمنذ قيام الدولة الإسلامية في دار الهجرة (المدينة المنورة) ، انطلقت الدعوة والفتوحات في عهده ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين من بعده ، ولم تتوقف حتى إرتفعت راية الاسلام على رقعة واسعة من قارات العالم القديم ، آسيا وأفريقيا وأوربا ، وإمتدت حدود الدولة الاسلامية من الصين شرقا إلى الأندلس غربا .

وكان عصر هؤلاء الراشدين امتدادا لعصر صاحب الرسالة ﷺ :

- فقد حفل بجلائل الأعمال في ميدان الفتوحات وتدعيم أركان دولة الاسلام وتأسيس حضارته .

ساروا على هديه وترسموا خطاه ، فكانت دولتهم دولة العدل والرحمة والإنسانية والحرية بأوسع معانيها ، وقد نعم الناس ؛ كل الناس يومئذ بكل هذا ، سواء من أسلم أو من بقي على دينه القديم . ومن أعجب العجب أن هذا العصر الباهر قد تعرض لبعض التشويه من أعداء الاسلام ، قديما وحديثا ، خصوصا في الفترة الأخيرة منه - أواخر خلافة عثمان بن عفان وخلافة علي بن أبي طالب - فيما سمي بالفتنة ، فحاولنا في هذه الدراسة أن نبين وجه الحق في ذلك كله معتمدين على أوثق المصادر .

ففيما يتعلق بعصر الرسول ﷺ ، كان الاعتماد في الأساس على القرآن الكريم ، لأن سيرته العطرة أضيف إليها كثير مما ليس منها ، إما بدافع

الحب وحسن النية من جانب بعض المسلمين ، وإما بدافع الحقد وسوء النية من أعداء الإسلام .

وهذا ليس بغريب على سير العظماء ، ونبينا ﷺ أعظم العظماء ، بشهادة غير المسلمين ، فقد جعله الكاتب الامريكي مايكل هارت على رأس المائة الخالدين في تاريخ البشرية . وليس في التاريخ البشري إنسان كتب عنه وحوله قدر ما كتب عنه ﷺ ، فليس بمستغرب إذن أن يضاف إلى سيرته ما ليس منها ، لذلك فإن أصدق مصدر لتلك السيرة هو القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي حوى كثيرا من أخبار جهاده ﷺ في تبليغ رسالته وإقامة دولته ، وكذلك أخبار حياته العامة والخاصة .

ثم اعتمدت بعد القرآن على كتب السنة الشريفة ، وعلى رأسها صحيحا الإمامين البخاري ومسلم ، ثم أمهات كتب السيرة ، وفي مقدمتها ، سيرة ابن اسحاق ، المعروفة بين الناس بسيرة ابن هشام ، والدرر في اختصار المغازي والسير ، للإمام ابن عبد البر ، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، لابن سيد الناس ، وغير ذلك من المصادر الكثيرة التي كتبت عن شمائله ، ودلائل نبوته ﷺ .

وقد استفدت كثيرا في هذه الدراسة من مؤلفات المحدثين ، ومن أهمها: كتاب « خاتم النبيين » للشيخ محمد أبو زهرة ، وكتاب « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة » للشيخ محمد أبو شهبة ، وكتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، وكتاب « المنهاج التربوي للسيرة النبوية » للأستاذ منير محمد الغضبان ، وكتاب « من أخلاق النبي » للدكتور أحمد الحوفي .

وكتب السنة الصحيحة ، ومصادر السيرة النبوية تعتبر أيضاً أهم مصادر عصر الخلفاء الراشدين ، لأنها اشتملت على الكثير من أخبارهم وأحوالهم مع رسول الله ﷺ وتتلمذهم على يديه ، وجهادهم معه في تبليغ الرسالة

وتأسيس الدولة . ثم تأتي بعد ذلك كتب الطبقات وتراجم الصحابة ، مثل « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، و« فضائل الصحابة » للإمام أحمد بن حنبل ، و« الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لابن عبد البر ، و« الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر العسقلاني . ثم كتب التاريخ ، ومنها « تاريخ الطبري » و« الكامل » لابن الأثير ، و« البداية والنهاية » لابن كثير وغيرهم ، ومن أهم المصادر التي أفدت منها في تحقيق أحداث عصر الراشدين ـ وبصفة خاصة أحداث الفتنة وما ألصق بالصحابة من تهم باطلة ـ كتاب « العواصم من القواصم » للقاضي أبي بكر بن العربي ، وكتاب « منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » للإمام أحمد بن تيمية . كما أفدت من المؤلفات الحديثة عن عصر الراشدين ، ومنها مؤلفات الدكتور محمد حسين هيكل « الصديق أبو بكر ـ الفاروق عمر بن الخطاب ـ عثمان بن عفان » ، وعبقريات العقاد ، والمؤلفات التي نحت نحوا غير تقليدي في دراسة بعض الخلفاء الراشدين ، ومن أهمها كتاب الدكتور سليمان الطماوي عن « عمر بن الخطاب ، وأصول السياسة والإدارة الحديثة .. دراسة مقارنة » ، وغير ذلك من المؤلفات العربية والمترجمة التي تناولت ذلك العصر ورجاله .

وبعد فإن كنت وفقت إلى ما قصدته من إبراز بعض جوانب ذلك العصر المبارك ، فالفضل والمنة لله وحده ، وإن كانت الأخرى فمنه وحده سبحانه وتعالى نرجو العفو والمغفرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله .

أ.د. / عبد الشافي محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الإسلامي

في كلية اللغة العربية بالقاهرة

جغرافية شبه جزيرة العرب [1]

تقع شبه جزيرة العرب في جنوب غرب آسيا ، وهي تمثل وحدة جغرافية متميزة ، تحمل عوامل استقلالها عن جيرانها ، مما جعلها تتمتع بشخصية جغرافية مستقلة ، وفي الوقت نفسه لها كل المزايا التي تجعلها على صلة بهؤلاء الجيران ، عن طريق المضايق والخلجان البحرية ، مثل مضيق عدن في جنوبها الغربي الذي جعلها على صلة دائمة بشرق أفريقيا ، ويكمل هذا البحر الأحمر ، الذي يربطها في أقصى شماله عن طريق خليج السويس بمصر ، ثم عن طريق خليج العقبة بشبه جزيرة سيناء ، ومن ثم مصر أيضا وفلسطين وبقية الشام ، كما يربطها بحر العرب وخليج عمان بالمحيط الهندي وبقية آسيا ، ثم يربطها الخليج العربي بإيران والعراق ، وعلى هذا نجد شبه جزيرة العرب تمثل حلقة ربط ووصل بين قارات العالم القديم : آسيا وأوربا وإفريقيا ، وهذا الموقع المتميز جعلها دائمة التأثر بجيرانها والتأثير فيهم عبر مراحل التاريخ المختلفة ، وأبرز مثل على ذلك ظهور الإسلام ، فما أن ظهر فيها حتى فاض على ما حولها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ووصل إلى أهم مناطق قارات العالم القديم ، فلم يكد القرن الهجري الأول ينصرم حتى كانت حدود الإسلام قد لامست حدود الصين في الشرق وجبال البرنية في أوربا في الغرب ، ومن بحر قزوين في الشمال إلى شبه القارة الهندية في الجنوب .

ويحد شبه جزيرة العرب من الغرب البحر الأحمر ، ومن الشرق خليج عمان والخليج العربي ، ومن الجنوب بحر العرب والمحيط الهندي ، ومن الشمال بلاد الشام والعراق . ويبلغ متوسط عرضها من الشرق إلى الغرب نحو ألف ومائتي كيلو متر ، ومتوسط طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ألفي كيلو متر ، ومساحتها الكلية تبلغ نحو مليونين ونصف من الكيلو مترات .

---

(١) أنظر د. محمود طه أبو العلا ، جغرافية شبه جزير العرب ، جـ ١ ص ٧ وما بعدها .

ويقسم الجغرافيون شبه جزيرة العرب إلى خمسة أقسام رئيسية ، تهامة - الحجاز - نجد - اليمن - العروض .

وأقليم تهامة ، هو الشريط الساحلي الغربي ، الذي يطل على البحر الأحمر ، ويقال سمي هذا الإقليم تهامة لشدة حره ، وركود هوائه ، لأن التّهم في اللغة العربية هو شدة الحر ، وركود الهواء ، ويطلق الجغرافيون على إقليم تهامة منطقة الغور ، لانخفاض أرضه ، وتمتد هذه المنطقة من البحر الأحمر غرباً إلى إقليم الحجاز شرقاً .

وإقليم الحجاز إقليم متميز ، تخترقه سلسلة جبال السراة من الجنوب إلى الشمال ، ويمتد من اليمن جنوباً حتى مشارف الشام شمالاً ، ويقال سمي الحجاز لأنه يحجز بين إقليم تهامة في الغرب ، وإقليم نجد في الشرق ، وهذا الإقليم الأخير يقع شرقي سلسلة جبال السراة ، ويمتد من حدود اليمن جنوباً ، حتى بادية السماوة شمالاً ، وينتهي من الشرق عندما يبدأ إقليم العروض ، وسمى الجغرافيون هذا الإقليم نجداً ، لارتفاع أرضه .

أما إقليم العروض فيشمل معظم الأجزاء الشرقية من شبه جزيرة العرب ، ويطل على الخليج العربي ، وسمي العروض لاعتراضه بين اليمن في الجنوب ونجد في الغرب والعراق في الشمال .

والقسم الخامس هو إقليم اليمن وهو الجزء الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ، وتوجد به التهائم والنجود ، أي المنخفضات والمرتفعات .

وهذه المساحة الشاسعة التي تحتلها شبه جزيرة العرب على سطح الكرة الأرضية ذات طبيعة صحراوية ، فليس فيها نهر واحد يجري [1] ، ولا تسقط

(١) هذا في الوقت الحالي أما في تاريخ العرب القديم فتدل آيات القرآن الكريم على أنه ==

بها أمطار منتظمة يمكن الاعتماد عليها في تنظيم الزراعة ، فمعظم أجزائها جرداء تندر فيها المياه والأمطار ، فيما عدا الأجزاء الساحلية ، مثل اليمن ، التي تنزل فيها بعض الأمطار الموسمية ، مما يسر لأهلها نوعان من الحياة المستقرة والثراء ، الذي ساعدهم على إقامة حكومات وأنظمة سياسية ، وحضارة راقية ، ولذلك اشتهرت بلادهم باسم اليمن السعيد .

أما بقية أجزاء شبه جزيرة العرب فتقل فيها الزراعة ، ولا توجد إلا في بعض الواحات حول عيون الماء ، حيث تنمو بعض المحاصيل الزراعية والحشائش التي ترعاها الماشية . ولعل خير ما يصور هذه الطبيعة القاسية لمعظم شبه جزيرة العرب ، ما جاء في القرآن الكريم على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، حيث يقول تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ سورة إبراهيم الآية ٣٧ .

وطقس شبه جزيرة العرب طقس صحراوي ، شديدة الحرارة في فصل الصيف ، حيث تشتد درجة الرطوبة على السواحل خاصة في منطقة الخليج .

أما في الشتاء فالطقس معتدل إلى حد ما . هذه هي المعالم الرئيسية لجغرافية شبه جزيرة العرب ، وأحوالها المناخية .

= كانت هناك دول وحضارات قديمة وهذا لا يتأتى إلا إذا كان هناك مياه فالماء هي أساس الحياة ، وسنذكر ذلك قريباً .

العرب قبل الإسلام

هناك مقولة تعزى إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، فقد روي أنه قال : « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »[١].

وأظنها مقولة صادقة وصائبة تماماً ، لأن معرفة العصر الجاهلي ، وكيف كانت أحوال العرب في ذلك العصر ، ضرورية لمعرفة الإسلام معرفة حقيقية ، ومعرفة النقلة الهائلة التي نقلها للعرب ، وكيف ارتفع بهم إلى عنان السماء ، فمهما كان من أمر العرب ، وأمر حضارتهم قبل الإسلام ، وهي حضارة ذات قيمة لا شك فيها ، بعد أن كشفت الحفريات الأثرية في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية عن آثارها ومعطياتها ، التي ربما لا تقل عن مثيلاتها في بلاد الشرق الأدنى القديم الأخرى ؛ أقول مهما كان من أمر حضارة العرب قبل الإسلام ، إلا أن ما صنعه الإسلام لهم ، وما صنعوه هم بفضل الإسلام شيء أعظم من ذلك بكثير ، فقد شرفهم الله تعالى بحمل الرسالة السماوية الخاتمة لرسالات الله إلى العالمين . وقد اضطلعوا هم بحملها بأمانة وشرف ورجولة ، وضحوا من أجلها ، وجاهدوا في سبيلها بأموالهم وأنفسهم ، ونشروها بين الناس ، وبنوا على أساسها حضارة عربية إسلامية ، ذات سمات وخصائص خاصة ، وعالمية المحتوى والتوجهات في الوقت ذاته ، وقد نوه القرآن الكريم عن ذلك الفضل الكبير الذي خص الله به العرب ، وذلك الشرف والمجد الذي حباهم به بقوله تعالى للنبي محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ سورة الزخرف ، الآية ٤٤ .

فدراسة تاريخ العرب ، ومعرفة أحوالهم قبل ظهور الإسلام ، أمر ضروري لمعرفة قيمة الإسلام نفسه ، وتقديره حق قدره .

---

(١) تفسير المنار ، للشيخ رشيد رضا جـ ١ ص ٢٤ .

ومن العجيب أن ذلك التاريخ لم ينل حقه من الدراسة الجادة العميقة حتى الآن ، رغم الأهمية الكبيرة التي يمثلها تاريخ ذلك الجزء من العالم للحضارة الإنسانية بوجه عام ، وللحضارة العربية الإسلامية بوجه خاص . فمن الحقائق التي لا يماري فيها إلا جاحد ، أن شبه الجزيرة العربية ـ خاصة بعد أن شرفها الله تعالى بظهور الإسلام فيها ؛ على يدي خاتم الأنبياء ، محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ـ قد أدت في التاريخ البشري دوراً رئيسياً ومؤثراً ، لا يزال تأثيره مستمراً وسيظل بإذن الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا .

ويكاد إجماع علماء الأنثروبولوجيا ينعقد على أن شبه الجزيرة العربية هي المنبت الأصلي للجنس السامي ، الذي أخذت موجاته تنتشر منها تباعاً ـ بسبب شح الأقوات ـ منذ الألف الخامسة قبل الميلاد ـ على رأس كل خمسمائة سنة تقريباً موجة ـ تارة شمالاً ، باتجاه منطقة الهلال الخصيب ـ العراق والشام ـ لتصنع الحضارات السامية القديمة ؛ وفي مقدمتها ، الأكادية والبابلية والأشورية والكلداثية ، والآرامية والكنعانية والفينيقية ، وتارة غرباً ؛ عبر بوغـاز باب المندب ؛ في الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ، عابرة ذلك البحر ، لتسهم في صنع الحضارات الإفريقية القديمة ، وفي مقدمتها الحضارة المصرية ، هذا فضلاً عما صنعته في شبه الجزيرة العربية نفسها من حضارات ، بدأت تكشف عن نفسها ، وينتظر الباحثون الكثير من مخبئات تلك الحضارات ؛ مثل المعينية والقتبائية والسبائية والحميرية واللحيانية ، وتفرعاتها وامتداداتها نحو العراق ـ المناذرة في الحيرة ـ ونحو الشام ـ الغساسنة ـ . وربما تكشف الأبحاث والحفريات الأثرية مستقبلاً عن المغمور تحت الرمال من حضارات عاد وثمود ومدين . وأخيراً أهدت شبه الجزيرة العربية للعالم يداً بيضاء جلَّلت الرقاب ، فمنها وعلى يد أشرف أبنائها ، بل أشرف أبناء آدم جميعاً ، محمد بن عبد الله ، جاءت الرسالة الإسلامية لتشرق على الدنيا بنورها الوهاج ، فتضيء الخافقين ، وتهدي الناس بعد الضلال ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتكون أساساً

للحضارة العربية الإسلامية بكل أبعادها ومقوماتها وآثارها وتأثيراتها في الحضارة الإنسانية بعامة ، وفي الحضارة الأوربية بصفة خاصة .

إهمال مؤرخي الإسلام للعصر الجاهلي :

يُتَّهم المؤرخون المسلمون الكبار ، مثل البلاذري والدينوري والطبري واليعقوبي والمسعودي ، وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم ، بأنهم لم يهتموا بتاريخ العرب قبل الإسلام ، الإهتمام الكافي ، بل لم يقدموا ما قدموه منه في صورة صحيحة ؛ وإنما قدموه مليئا بالمبالغات والخرافات ، وأنهم استقوا معلوماتهم عنه من مصادر يهودية ومسيحية ، فهؤلاء هم أهل الكتاب ، وأهل العلم الأول ، على حد تعبير محمد بن اسحاق .

فعن هذا الطريق دخلت الخرافات والأساطير عن العرب قبل الإسلام في الفكر الإسلامي ، ونقلها المؤرخون ؛ بل المفسرون في كثير من الأحيان ، دون نقد أو تمحيص ، ولم يقتصر الأمر على تاريخ العرب قبل الإسلام ، وإنما حتى تاريخ صدر الإسلام ناله الكثير من هذا التحريف والتشويه .

ويعترف شيخ المؤرخين المسلمين وعمدتهم ، أبو جعفر بن جرير الطبري صراحة ، بأن تاريخه احتوى على كثير من الأخبار التي لا يعرف لها وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فقد قال في مقدمة كتابه الشهير : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا » (١) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ٧ ، ٨ الطبعة الثانية . دار المعارف .

وهكذا تصور المؤرخ الكبير - رغم اعترافه بشناعة بعض أخباره وبعدها عن الحقيقة - أنه أعفى نفسه من المسئولية ، وألقاها على عاتق الرواة ، وهو بقوله هذا كأنه توقع أن يوجه إليه النقد من اللاحقين على رواية أخبار كثيرة ما كان يصح أبداً أن يرويها عالم كبير مثله ، له باع طويل في علوم كثيرة ، من أشرف وأجل العلوم الإسلامية ؛ كالتفسير والحديث والفقه والتاريخ الإسلامي ، وكان عليه أن ينقد وأن يمحص قبل أن يسجل ويدون ، ولنا أن نتخيل ولو مجرد تخيل أن الطبري صنع في التاريخ ما صنعه البخاري في الحديث ، فلو فعل لكان قد أراح الباحثين من عناء كبير وحيرة شديدة بين الروايات المتضاربة والمتناقضة في كثير من الأحيان .

وإليك بعض الأمثلة مما ذكره المؤرخون المسلمون من مبالغات وخرافات وأساطير حول تاريخ العرب قبل الإسلام ، من ذلك ما ذكره المسعودي [1] عن عاد قوم هود ، وأنهم كانوا طوالا كالنخل ، ولم يكن للطبيعة تأثير على أبدانهم لغلظتها ومتانتها ، وأن جدهم عاد تزوج ألف امرأة ، وعاش ألفا ومائتي سنة ، ثم لم يمت إلا بعد أن رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ... إلخ من المبالغات التي لا يصدقها عقل ، وكل هذا يرويه المسعودي عن وهب من منبه وكعب الأحبار ، وهما من أهل الكتاب .

لقد تحدث القرآن الكريم عن قوم عاد ، وأخبرنا عن شدتهم وقوتهم في أكثر من موضع مثل قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ٤٠ طبعة خامسة ، دار الفكر .

إلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ من الايات ١٢٣ - ١٣٠ .

فهذه الايات الكريمة تفيد على وجه الإجمال أن القوم كانوا أقوياء ذوي بطش شديد ، ولكن أين هذا من مبالغات المسعودي .

ولكن الإنصاف يقتضينا من ناحية ثانية أن نقول إن نقص معلومات مؤرخينا الكبار عن العصر الجاهلي لم يكن لهم يد فيه ، وكانوا مضطرين للأخذ من المصادر اليهودية والمسيحية التي كانت في متناول أيديهم ، لأن تاريخ ذلك العصر ظل مجهولاً - في جملته - إلى وقت قريب ، ولم يبدأ الناس يعرفون عنه الكثير إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، عندما بدأت البعثات العلمية الأوربية والعربية تتوافد على شبه الجزيرة العربية ، لتستكشف وتنقب عن آثار تلك البلاد ، وبدأت الرمال والحجارة تفصح ، والنقوش تنطق وتبين عن عظمة الرجال الذين بنوا حضارة العرب قبل ظهور الإسلام في سالف الزمان . أما قبل ذلك فكان القليل المعروف عن تاريخ العرب قبل الإسلام يعتمد على ما جاء في التوراة ، وعلى ما كتبه المؤرخون والجغرافيون الأغريق والرومان ، وكل ذلك لم يكن يشفي غليل العلماء ، الذين أخذوا في التنقيب ، وكابدوا مشقات كبيرة ، يشكرون عليها ، في سبيل الوصول إلى تاريخ حقيقي لتلك البلاد ، يعتمد على أدلة مادية ، لا مجرد التخمين . ولقد اكتشف العلماء ، على سبيل المثال ، أكثر من خمسة آلاف نقش في اليمن وحدها ، من مختلف المناطق ، وعن مختلف العصور ، وعشرات الآلاف من المخربشات على واجهات الصخور في شمال بلاد العرب ، بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها ، فضلا عن تلك التي وجدت خارج شبه جزيرة العرب ؛ وبخاصة النقوش الصفوية ، التي وجدت فوق جبال الصفا ، جنوب شرق مدينة دمشق بالشام ، وهي قريبة من حيث الخط واللغة

وأسماء الآلهة من المخربشات الثمودية ، وهكذا أصبح لدينا صورة واضحة إلى حد ما عما كان يجري في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وحتى ظهور الإسلام ، في مطلع القرن السابع الميلادي ، وأصبحنا نعرف الكثير عن الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية للعرب قبل الإسلام [١] .

وسوف تكون صورة تاريخ العرب قبل الإسلام أكثر وضوحاً في المستقبل القريب ، لأن الجامعات ومراكز الأبحاث - خاصة في المملكة العربية السعودية ، وبقية دول الخليج العربية ، قد أخذت دورها في الكشف عن تاريخ العرب القديم . ولا بأس أن ننوه هنا بالجهد الكبير الذي تبذله جامعة الملك سعود بالرياض ، من خلال برنامجها الطموح عن دراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية وندوتها العالمية ، وبحوثها - عن مصادر - تاريخ شبه الجزيرة ، والجزيرة العربية قبل الإسلام ، والجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين - والتي طبعت في طبعات فاخرة . وهذه مبادرة طيبة ، وجهود مشكورة من جامعة الملك سعود ، نرجو أن تواصل مسيرتها في الكشف والتنقيب عن كنوز الحضارة العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية بصفة عامة ، وفي منطقة الربع الخالي ، في جنوبها الشرقي بصفة خاصة ، علّها تكشف لنا عن حضارة عاد ، قوم هود - عليه السلام - وعن عاصمتهم إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، كما أخبرنا القرآن الكريم .

نعود إلى مؤرخي الإسلام الكبار ، لنؤكد القول إننا لا نريد التقليل من جهودهم الكبيرة في تسجيل التاريخ الإسلامي ، ولكننا نلفت الأنظار إلى الأخطاء التي وقعوا فيها ، بحسن نية ، لنقوم بتصحيحها في ضوء ما أتيح لنا من معلومات جديدة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، لم تكن متاحة لهم .

وكما قدم مؤرخو الإسلام الكبار تاريخ العرب القديم اعتمادا - في

---

(١) د. محمد بيومي مهران - تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٧ .

غالب الأحوال ـ على أهل الكتاب ، ووقعوا في الأخطاء التي وقعوا فيها ، فإنهم نظروا إلى الفترة السابقة على ظهور الإسلام مباشرة ، والتي اصطلح على تسميتها بالعصر الجاهلي ، بعين غير راضية ، ولعل الموقف السيء الذي وقفه أهل مكة وغيرهم من مشركي ذلك العصر من الإسلام ، ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وما ألحقوه به من الإيذاء هو وأصحابه ﷺ ومحاربتهم له طوال ما يقرب من عشرين عاماً ؛ لعل هذا الموقف هو السبب في نظرة المؤرخين المسلمين إلى ذلك العصر ، فلم يذكروه إلا مقروناً بالذم والسوء ، والتحقير ، كما أن انبهارهم بشخصية الرسول ﷺ وأصحابه ، ونجاحه العظيم في نشر رسالته على خير وجه ، وإقامة الدولة الإسلامية العملاقة على أسس تلك الرسالة العظيمة الخالدة ، كل ذلك جعلهم يحتقرون العصر الجاهلي ، ويستصغرون شأنه ، ويرونه عصر اضمحلال حضاري ، وتدهور أخلاقي ، وانحطاط سياسي ، وغير جدير بالاهتمام بالمرة ، وهذه النظرة إلى ذلك العصر تحتاج إلى تصويب ، فرغم إدانتنا الكاملة للموقف العدائي الذي وقفه مشركو ذلك العصر من الرسول ورسالته ، إلا أننا لا ينبغي أن ننسى أن حياة العرب خلال ذلك العصر لم تكن كلها سيئة ، وأن دراستها بما فيها من سيء وحسن ذات أهمية كبيرة لتقدير الإسلام حق قدره ، ولمعرفة النقلة الهائلة التي نقلها للعرب ، حيث جعلهم سادة الدنيا .

وإذا كان المؤرخون المسلمون الأوائل الكبار قد نظروا إلى تاريخ العصر الجاهلي مدفوعين بحماسهم الشديد للإسلام ، وغيرتهم عليه ، واعتقادهم أنهم كلما بالغوا في ذم ذلك العصر ورجاله ، كان ذلك إظهارا لفضل الإسلام ، وكأن فضل الإسلام عندهم لا يعلو إلا بالعيب والطعن في حياة العرب في الجاهلية ، فوصفوها بالهمجية والوحشية والقسوة ، وكأن العرب في الجاهلية لم يعرفوا من الحياة إلا جوانبها السيئة ، ومن الأمور إلا وجهها القبيح [1] .

---

(١) د. محمد أحمد حسب الله ، د. محمد الخطيب ، دراسات في السيرة النبوية ص ٥ :

والحقيقة أن الصورة التي رسمها المؤرخون المسلمون للعصر الجاهلي غير واقعية ، فحياة العرب لم تكن على تلك الدرجة من السوء ، ولم يكن العرب أمة همجية ، ولو كانوا كذلك لما شرّفهم الله تعالى بحمل الرسالة الاسلامية الخالدة ، بل لا بد أنهم كانوا يتميزون بصفات خاصة أهلتهم لحمل عبء ومشقة نشر رسالة الاسلام ، وكانت لهم حضارة تناسب عصرهم ، ومتطلبات حياتهم ، وكانت لغتهم أقدر اللغات في ذلكَ العصر على التعبير ، وآية ذلك أن الله تعالى اختارها لتكون لغة القرآن الكريم . وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدّق أن القرآن الكريم قد ظهر في أمة همجية [١] .

بل إن مشركي قريش - أو معظمهم على الأقل - الذين عادوا الإسلام وحاربوه ، هم أنفسهم الذين نصروه ونشروه بعد أن هداهم الله إليه ، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ ، فهو الذي كان يستشرف ذلك ويتوقعه منهم .

وآية ذلك أنه حينما عاد من رحلته إلى الطائف مغضبا شاكيا الى الله ضعف قوته وقلة حيلته ، وجاءه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ، فقال له : « إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » [٢] فقد قال ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » ثم دعا لهم بالهداية قائلا : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وقد استجاب الله دعوته فهداهم ، وشرح صدورهم للإسلام ، فأصبحوا جنده وحماته ، فلم تكد تمضي عشر سنوات على وفاة الرسول ﷺ ، حتى كانوا قد نشروا الإسلام في مناطق شاسعة في الشرق ، شملت العراق وبلاد فارس والشام ، ومصر ، ولم يكد يمر قرن على وفاته ﷺ ، حتى كانوا قد

---

(١) د. طه حسين - في الأدب الجاهلي ص ٨٠ .

(٢) ابن سيد الناس ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير جـ ١ ص ١٦٨ .

كونوا أكبر امبراطورية عرفها التاريخ ، امتدت حدودها من المحيط الأطلسي إلى الصين ، وأنشأوا أعظم حضارة عرفتها البشرية ، في تاريخها الطويل .

وإذا كان بعض رجال ذلك العصر الجاهلي يتصفون بصفات مرذولة ، فإن كثيرين منهم كانوا يتحلون بصفات حميدة كثيرة ، مثل الكرم والشجاعة والصبر على المكاره ، والمروءة والنجدة ، إلى غير ذلك من الصفات والأخلاق النبيلة ، كما كان لهم قيم وتنظيمات نافعة تدل على إنسانيتهم ، ولقد كان الرسول نفسه ﷺ يعتز بالنافع من تلك القيم ويثنى عليه ، كثنائه على حلف النضول - كما سيأتي - .

فحياة العرب في الفترة السابقة على ظهور الإسلام تحتاج إلى دراسة جادة وعميقة ومفصلة ، كمدخل لدراسة الاسلام وفهمه ، وهذا هو مغزى عبارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، التي ذكرناها في صدر هذا الحديث .

ثم إن القرآن الكريم نفسه قد عرض حياة العرب في الجاهلية بكل ما فيها من خير وشر ، وصالح وطالح ، ونوه بأحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، والباحث في الأحكام التي وردت في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وما استنبط الفقهاء والقضاة ، من فتاوي وأقضية وأحكام . يجد صلة وثيقة بأحوال العرب في الجاهلية ، وعلاقة قوية بحضارتهم .

ولذلك كان لزاما على المفسرين والمحدثين والفقهاء ومؤرخي الأديان ، والتشريع الاسلامي ... أن يعنوا بدراسة العصر الجاهلي عناية كبرى من جميع نواحيه ، وأن يتفهموه تفهما صحيحا ، ليقفوا على ما فيه من تعقيدات وملابسات كانت سببا مهما في نزول النصوص القرآنية ... إذا عرفنا ذلك كله أدركنا السر الذي جعل الرسول ﷺ لا ينسخ كل ما عند العرب ، بل دعا

قومه إلى ترك الضار منه ، ورفضه رفضا باتا ، وفي الوقت نفسه أقر الحسن النافع من هذه العادات ، وعدّل البعض الآخر منها ، وصقله وهذبه ، ثم جاء بأمور جديدة لم يكن للعرب بها عهد . وبذلك يكون الإسلام قد راعى إلى حد بعيد عادات العرب وتقاليدهم ، والعرف الذي كان سائدا عندهم ، وتمكن أن يعالج نظام مجتمعهم معالجة جذرية ، واستطاع أن يأتي بنظام جديد يرمي إلى تكوين دولة تستند إلى الأنظمة والقوانين التي جاءت بها الشريعة الاسلامية [١] .

معنى كلمة الجاهلية :

في ضوء ما تقدم ينبغي أن نعرض لكلمة الجاهلية ، وأن نبيِّن ماذا تعني ؟ لأن بعض الناس قد يظن أنها تعني الجهل المضاد للعلم والمعرفة ، ويرتب على هذا أن العرب قبل الإسلام كانوا أمة جاهلة في كل شيء ، وهذا بعيد عن الحقيقة والواقع ، لأن كلمة الجاهلية ، تعني الجهل بالدين الحق ، أي بالتوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، وتعني الجهل الذي هو ضد الحلم والتعقل . وليس الجهل الذي هو ضد العلم ، لأن القرآن الكريم وصف العرب المعاصرين للرسول ﷺ بالعلم ، فقال تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة فصلت آية ٣ ، وسجل أنهم كانوا يعرفون القراءة ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ سورة الاسراء الآية ٩٣ .

---

(١) د. ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ص ٤٣ .

وقد وصلت لغتهم مرحلة عالية من الرقي ، نلحظ ذلك في الشعر الجاهلي ، والحكم والأمثال ، التي أثرت عن بلغائهم وفصحائهم وحكمائهم ، والدليل على رقي اللغة العربية ، أنهم كانوا يفهمون القرآن الكريم - الذي هو أعلى درجات الفصاحة والبلاغة : بل إن كثيرين من عظمائهم أسلموا مأخوذين ببلاغة القرآن وبيانه المعجز ، كعمر بن الخطاب ، على سبيل المثال .

فمعنى كلمة الجاهلية إذن ليس الجهل المضاد للعلم والمعرفة ، وإنما هي وصف لقوم ضلوا طريق الدين الحق ، وكانوا مكابرين معاندين ، وأصحاب لدد في الخصومة ، وكان يغلب على مسلكهم الطيش والخفة والنزق ، والمفاخرة والاعتداد بالحمية في غير موضعها ، ولذلك وردت كلمة الجاهلية في سياق ومناسبات كثيرة دالة على هذه المعاني ، من ذلك قول الرسول ﷺ لأبي ذر الغفاري ، رضي الله عنه : عندما سب بلالا رضي الله عنه وعيره بسواد أمه « يا أبا ذر أعيَّرته بأمه - قالها النبي ثلاثا - إنك امرؤ فيك جاهلية » أي فيك شيء من روح الجاهلية وهو التعالي والعنصرية . وقوله ﷺ : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل » وما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عن سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه ، « كان امرؤاً صالحا إلا أنه كانت فيه جاهلية » .

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والمقصود بالجهل هنا التهور والاندفاع . والاسراع إلى الشر .

والمفسرون يفسرون الكلمة في القرآن الكريم بما لا يخرج عن هذا المعنى ، فإبن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لمعنى الجاهلية كما جاءت في سورة القصص ، آية ٥٥ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا

أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ يقول : إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق ، أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب » (١) ، وكذلك يفسر الكلمة في سورة الفرقان آية ٦٣ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ فيقول : إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ ، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما » (٢) .

فمعنى الكلمة يدور حول السفه والطيش وسوء الأدب ، وتلك صفات يمكن أن يتصف بها أكبر العلماء وأوسعهم معرفة ، وهذا مشاهد في حياتنا كثيرا ، فبعض الناس الذين يحملون أرقى وأعلى الدرجات العلمية ، نجده أحيانا في غاية السفه والطيش والحمق وسوء الأدب ، بينما نجد إنسانا بسيطا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، لكنه في غاية التعقل والاتزان وحسن التصرف .

مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام

كيفما كان الأمر فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الاسلام من بدايته إلى ظهور الاسلام - وإهمال مؤرخي الاسلام له ، أو تجافيهم عنه ، للأسباب التي سبق ذكرها ، فعلى الباحثين المحدثين أن يسدوا هذا النقص ، كل في مجال تخصصه ، لا سيما بعد أن عرفنا عن تاريخ العرب القديم ، ما لم يكن يعرف القدماء ، مما كشفت عنه الحفريات الأثرية من نقوش وكتابات ، ومنشآت عمرانية كثيرة ، وتعددت مصادر ذلك التاريخ الآن وأهمها بطبيعة الحال :

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٣٨ .

القرآن الكريم : يقول الدكتور جواد علي : « الحق أننا إذا أردنا البحث عن مورد يصور لنا أحوال الحياة الجاهلية ، ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام ، فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم ، ولا بد من تقديمه على سائر المراجع الإسلامية ، وهو فوقها بالطبع ، ولا أريد أن أدخله فيها ، لأنه كتاب مقدس ، ولم ينزل كتابا في التاريخ أواللغة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه نزل كتابا عربيا ، لغته هي اللغة العربية التي كان يتكلم بها أهل الحجاز ، وقد خاطب قوما نتحدث عنهم في هذا الكتاب ، فوصف حالتهم وتفكيرهم وعقائدهم ، ونصحهم وذكَّرهم بالأمم والشعوب العربية الخالية ، وطلب منهم ترك ما هم عليه ، وتطرق إلى ذكر تجارتهم وسياساتهم وغير ذلك ، وقد مثلهم أناسا كانت لهم صلات بالعالم الخارجي ، وإطلاع على أحوال من كان حولهم ، وفيه تفنيد لكثير من الآراء المغلوطة التي نجدها في المصادر العربية الإسلامية ، فهو مرآة صافية للعصر الجاهلي ، وهو كتاب صدق ، لا سبيل إلى الشك في صحة نصه ، وفي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز ، وذكر لجدلهم مع الرسول في الاسلام ... ووقوفهم على تيارات السياسة العالمية ، وانقسام الدول إلى معسكرين ... وفي كل ما ورد فيه دليل على أن صورة الاخباريين التي رسموها للجاهلية لم تكن صورة صحيحة متقنة ، وأن ما زعموه من عزلة جزيرة العرب ، وجهل العرب وهمجيتهم في الجاهلية الجهلاء ، كان زعما لا يؤيده القرآن الكريم الذي خالف كثيرا مما ذهبوا إليه »[1] وبعد القرآن الكريم تأتي :

أولا : الدراسات الاسلامية ، مثل مؤلفات الاخباريين وكتاب السير، وعلماء التفسير والحديث والفقه ، والرحالة والجغرافيين ، وتتبعهم لأصول ومنابت الأمة العربية .

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

ولا ننس كتب الأدب ، شعره ونثره ، خاصة الشعر ، الذي هو ديوان العرب ، وسجل حياتهم .

ثانيا : الدراسات العبرانية ، التوراة وأسفارها ، ونسختا التلمود الأورشيليمية والبابلية ، وكتابات المؤرخ اليهودي يوسف فيلافيوس Josephus Flavius خاصة في الفترة التي انقضت بين التوراة والتلمود ، وقد سبق أن ذكرنا أن كثيرين من المؤرخين المسلمين أخذوا كثيراً عن هذه المصادر اليهودية .

ثالثاً : الدراسات الكلاسيكية ، المستمدة من كتابات المؤرخين الأغريق ، الأقدمين ، وفي مقدمتهم هيرودوت Herodotus ٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م وديودور الصقلي Diodorus وسترابوStrabo ٦٣ - ٣٤ ق . م .

رابعاً : المؤلفات الحديثة ، الأجنبية منها أو العربية أو المعربة ، ومن أهمها « المفصل في تاريخ العرب » للدكتور جواد علي ، و« أرض القرآن » للسيد سليمان الندوي ، و« التاريخ الجغرافي للقرآن » للسيد مظفر الدين الندوي .

خامساً : تقارير الكشوف والحفريات الأثرية ، التي دونها الرحالة الأجانب ، الذين قاموا بزيارة شبه جزيرة العرب اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث كانت المغامرة وحب كشف المجهول هو طابع تلك الفترة.

سادساً المصادر المسيحية ، والكتابات التي أرخت لانتشار المسيحية في بلاد العرب ، ومن أشهرها مؤلفات بوسيبيوس - ٢٦٤ - ٣٤٩ م - الذي كان واحداً من آباء الكنيسة البارزين في عصره ، وأول مؤرخ كنسي يعتد به ، حتى لقبوه بأبي الكنيسة ، وبـ « هيرودوت النصارى » ، وكان مولده في فلسطين ، وكان على صلة بالأمبراطور قسطنطين الكبير ٣٠٦ - ٣٣٧م ، وبكبار رجال الكنيسة والدولة ، وقد مكنته تلك الصلة من معرفة الكثير من الأسرار ،

والاطلاع على المخطوطات والوثائق الثمينة ، والإفادة منها في مؤلفاته التاريخية ، ثم هناك بروكوبيوس المتوفي سنة ٥٦٣م ، الذي يعد المؤرخ الكنسي لعهد الأمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م ، المليء بالأحداث ، ومما جعل مادته التاريخية موضع ثقة ؛ أن بعضها مستقي من الروايات الشفهية ، وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية ، هذا إضافة إلى ما جاء بشأن العرب في المخطوطات السريانية والمحفوظة في المتحف البريطاني ، وكتابات المؤرخين النصارى - خاصة السريان - الذين عاشوا في عهود الأمويين والعباسيين ، وكتبوا عن العرب في الجاهلية والإسلام ، والتي أمدتنا بمعلومات كثيرة - لا نجدها في المصادر الإسلامية - خاصة عن انتشار المسيحية في بلاد العرب ، وعن علاقة العرب بكل من الفرس والروم [١] .

الجنس العربي وأقسامه

الجنس العربي الذي يعيش في شبه جزيرة العرب هو أحد الأجناس السامية ، وأكثرها محافظة على خصائص الساميين ، ويتكلم اللغة العربية ، وهي إحدى اللغات السامية ، وأكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي [٢] .

ويكاد يتفق الرواة والإخباريون وعلماء الأنساب على تقسيم العرب إلى قسمين رئيسيين ؛ عرب بائدة ، وعرب باقية ، والعرب الباقية تنقسم بدورها إلى قسمين ؛ عرب عاربة ، وعرب متعربة أو مستعربة .

فالعرب البائدة هم القبائل العربية القديمة التي بادت وهلكت ، ولم نعد نعرف لها باقية - أي أعقاب وذرية - ولكن لها آثار حضارية لا تزل باقية حتى الآن ؛ ومن هؤلاء ، قبائل عاد وثمود ، وطسم وجديس ، وأميم وعبيل ، وجرهم

---

(١) د. جواد علي ، المرجع السابق جـ ١ ص ٦٥ .
(٢) د. جواد علي ، المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٤ وما بعدها .

والعماليق ، وحضور او مدين وغيرهم [١] .

أما العرب الباقية ، وهم الذين لا تزال تتسلسل أعقابهم وذريتهم في شبه جزيرة العرب ، وفي البلاد القريبة منها ، والتي كان العرب قديماً يهاجرون إليها ، مثل العراق والشام ، ثم في البلاد التي فتحها المسلمون بعد ظهور الإسلام ، ـ إضافة إلى العراق والشام ـ مثل مصر وشمال أفريقيا ، وبلاد فارس وآسيا الوسطى ... إلخ .

وهؤلاء هم الذين ينحدرون من العرب العاربة ؛ أي أبناء قحطان ، ويعرفون بالقحطانيين ، وجدهم يعرب بن قحطان ، وموطنهم الأصلي اليمن ، ومن العرب المستعربة ، وهم أبناء معد بن عدنان ، وهؤلاء يتصل نسبهم بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويعرفون بالعدنانيين ، وموطنهم الأصلي منطقة الحجاز ، الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب ، ثم انتشروا في بقية أجزائها ، مثل نجد والأجزاء الشمالية الشرقية ، والساحل الغربي للخليج العربي .

وينبغي أن نلقي الضوء على هذه الأقسام ، ولنبدأ **بالعرب البائدة** ، وسنقتصر فقط على عاد وثمود ، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم أكثر من غيرهم ، في مواضع كثيرة ، وأفاض في ذكر ما حل بهم من كوارث ونكبات ، ويسوق ذلك مساق الاعتبار .

عاد : هم قوم هود ، عليه السلام ، وقد ذكرهم القرآن الكريم في أكثر من موضع ، وهناك سورة كاملة تحمل اسمه ؛ وهي سورة هود .

وأخرى تحمل اسم المكان الذي كانوا يعيشون فيه ؛ وهو الأحقاف ،

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٥ .

حيث يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾ سورة الأحقاف ، آية ٢١ ، والأحقاف ؛ أو الربع الخالي ، تقع في جنوب شرق شبه جزيرة العرب .

ومن خلال حديث القرآن الكريم ، عن عاد ، نفهم أنهم كانوا يعيشون حياة رغدة ، وأن بلادهم كانت أرض خصب وزروع ، تجري فيها أنهار وعيون ، وأنهم شيدوا المصانع الضخمة ، وأقاموا المتاجر الكبيرة ، ووصلت عمارتهم إلى درجة عالية من الرقي ، حتى إن عاصمتهم إرم ذات العماد وصفت بأنها لم يخلق مثلها في البلاد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ سورة الفجر ، الآيات ٦ - ٨ .

وقد أعطانا القرآن الكريم صورة كاملة ، في أوجز وأبلغ عبارة عن حياتهم ، في سورة الشعراء ، حيث قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

قَالُواْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ الآيات ١٢٣ - ١٣٩ .

فهم كانوا ـ إذن ـ أشداء أهل بطش وبأس ، وبناة حضارة ومدنية ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت في أرضهم مقومات الحضارة ، ومن أهمها الماء الذي هو أساس كل شيء حيٍّ ، وهذا ما يؤكد ما يذهب إليه بعض العلماء من أن شبه جزيرة العرب كانت من قديم الزمان مليئة بالأنهار ، وأنها كانت موطن الجنس السامي كله ، بل كانت منطقة جذب سكاني ، لما فيها من خيرات ، ثم طرأ عليها الجدب والجفاف والتصحر ، فتحولت من منطقة جاذبة إلى منطقة طاردة للسكان ، ومن ثم حدثت الهجرات العربية إلى مناطق الخصب القريبة منها ، مثل العراق والشام .

ظل عاد ، قوم هود ، يعيشون هذه الحياة الرغدة ، إلى أن جاءهم أخوهم هـود برسالته ، ودعاهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، كما أخبرنا القرآن الكريم ، حيث يقول : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ

ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ الآيات ٥٠ - ٦٠ .

فالقوم كانوا أهل وثنية ، يعبدون آلهة متعددة ، وتمسكوا بها ، واتهموا هودا - عليه السلام - بالجنون ، لما دعاهم إلى توحيد الله تعالى ، وترك عبادة الأصنام . ولما لم يستجيبوا له تبرأ منهم ومن شركهم ، وأشهد الله تعالى على ذلك . عندئذ حق عليهم العذاب ، وجاء أمر الله بإفنائهم في الدنيا ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أليم ، ولم ينج منهم إلا هود والذين آمنوا معه ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ الحاقة ٤ - ٨ .

ثمود : تكاد تجمع المصادر العربية على أن مساكن ثمود، قوم صالح - عليه السلام - كانت في منطقة الحجر - الواقعة بين الحجاز والشام [١] ؛ والتي تعرف الآن بمدائن صالح، وذهبت قلة من الباحثين إلى أن مساكنهم كانت باليمن، وذلك لارتباط قصتهم وتاريخهم بقصة وتاريخ عاد قوم هود، الذين كانوا يسكنون منطقة الأحقاف، في جنوب شرق شبه جزيرة العرب، وهي متاخمة لحدود اليمن، فلما ملكت حمير أخرجتهم من اليمن إلى الحجاز، وهذا الافتراض يبدو بعيدا عن الصواب، لأن الدراسات الحديثة أثبتت أن الثموديين قد عاشوا في شمال غرب شبه جزيرة العرب، منذ أعماق التاريخ، وتركوا آثارا ونقوشاً كثيرة تدل عليهم في تلك المنطقة، وقصتهم أوضح بكثير من قصة عاد - قوم هود - فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، والنقوش الأشورية تتحدث عنهم، كما تحدثت عنهم كتابات مؤرخي اليونان والرومان [٢] .

وقد ذكرهم القرآن الكريم في كثير من سوره، وهناك سورة كاملة سميت باسم المكان الذي كانوا يعيشون فيه وارتبط تاريخهم به ؛ وهي سورة الحجر، وتوضح لنا الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عنهم، أنهم كانوا على درجة عالية من الحضارة، وكانت لهم قصور، يعيشون فيها حياة مترفة، ولما لم يحافظوا على هذه النعم، وكفروا بالله تعالى، وكذبوا نبيهم صالحاً عليه السلام، دمَّرهم وأهلكهم، قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن

---

(١) د. جواد علي، المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٢) د. محمد بيومي مهران، المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦ .

بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ ءَالاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّـٰصِحِينَ (٧٩) ﴾ الايات ٧٣ - ٧٩ .

ثم تحدث عنهم القرآن الكريم في سورة الشعراء أيضاً حديثاً مستفيضاً ـ الايات ١٤١ - ١٥٨ ـ مصوراً حياة الترف والبذخ التي كانوا يعيشونها ، وكيف كانت عاقبتهم لما كذبوا نبيهم صالحاً عليه السلام .

لقد أوجزنا القول عن عاد وثمود ـ لأن المقام لا يتسع للإطالة ـ وأضربنا عن ذكر بقية العرب البائدة للسبب نفسه ، لأن في ذكر قصة عاد وثمود ما يكفي للدلالة على أن شبه جزيرة العرب كانت في قديم الزمان موطن رسالات سماوية توحيدية ، وحضارات قوية راسخة ومزدهرة ، ومن ثم فهي جديرة بأن تكون مبعث خاتم الأنبياء ، محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

العرب الباقية :

وينقسمون إلى قسمين ، عرب عاربة ، وعرب مستعربة ؛ أما العرب العاربة فهم الذين ينحدرون من نسل يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشز بن سام بن نوح [١] .

وأما العرب المستعربة ، فهم الذين ينحدرون من نسل معد بن عدنان ، والإخباريون يرفعون نسب عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويقال لهم العدنانيون ، أو النزاريون ، أو المعديون ، نسبة إلى عدنان أو نزار أو معد ، وهم من صلب إسماعيل ، من امرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وقيل لهم العرب المستعربة ، لأنهم انضموا إلى العرب العاربة ـ أي القحطانيين ـ وأخذوا العربية منهم ، فصار نسلهم من العرب واندمجوا فيهم ، وموطنهم الأول ـ على ما يستنبط من كلام الإخباريين ـ مكة ، ففيها تعلم إسماعيل العربية ، وفيها ولد أولاده ، فهي المهد الأول للإسماعيليين [٢] .

وسنخص كلا من هذين القسمين (العرب العاربة ـ والعرب المستعربة) بحديث موجز نقص فيه بعض أخبارهم ودولهم وإسهاماتهم الحضارية إلى ظهور الإسلام ، وسنبدأ بالعرب العاربة .

العرب العاربة :

ويطلق عليهم أحياناً القحطانيون ، وهم العرب الخلّص ، الذين ينتسبون إلى يعرب بن قحطان ، الذي يقول بعض الإخباريين ، أنه أول من نطق باللغة العربية ، وموطنهم الأصلي بلاد اليمن ، وهي الجزء الجنوبي الغربي من شبه

---

(١) د. جواد علي ، المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٧٥ .

جزيرة العرب . وقد تعددت وتشعبت قبائلهم من أصلين كبيرين هما : حمير وكهلان . كما تعددت وتشعبت قبائل العدنانيين ، من ربيعة ومضر .

وقد عاش العرب القحطانيون في اليمن حياة رغدة سعيدة ، وقامت لهم دول ، وبنوا حضارات ، ومن أشهر دولهم وممالكهم ، مملكة معين ، ومملكة قتبان ، ومملكة حضرموت ، ومملكة سبأ ، ومملكة حمير ، وسنقتصر على إعطاء نبذة عن تاريخ كل من المملكتين الأخيرتين ، لأن هذا الكتاب ليس مخصصاً لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام - فهذا موضوع كبير ويحتاج إلى مؤلف خاص - وإنما نذكر فيه من تاريخ العرب القديم ما يكفي لتصوير حياتهم بإيجاز من شتى جوانبها ، السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية قبل الإسلام ، ليتسنى لنا معرفة كيف كان العرب قبل الإسلام ، وكيف أصبحوا بعد أن شرفهم الله تعالى بالإسلام .

دولة سبأ

سبأ اسم لرجل ، ولد أولاداً كثيرين ، وكان منهم قبائل وشعوب كثيرة ، وهو عند بعض الإخباريين ، سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد انتشرت بعض القبائل السبئية في أماكن كثيرة من جزيرة العرب ، بل في خارجها .

والذي يعنينا هنا أن هناك دولة قامت في اليمن باسم دولة سبأ ، وأن هذه الدولة كان لها شأن عظيم ، وكانت لها سطوة وحضارة ، والمؤرخون يختلفون اختلافاً بيِّناً حول التاريخ الذي قامت فيه دولة سبأ . ولكن المؤكد أن هذه الدولة كانت قوية وشامخة ومزدهرة في القرن العاشر قبل الميلاد ، والذي يجعلنا نؤكد هذا ورود قصة ملكة سبأ - هي بلقيس حسب ما ذكر المؤرخون - مقرونة بذكر سليمان عليه السلام ، وسليمان معروف تاريخه ، أنه كان يعيش في القرن

العاشر قبل الميلاد ، وكان حكمه بين سنتي ٩٦٠ - ٩٢٢ ق . م [1] .

وسياق قصة ملكة سبأ واتصالها بسليمان في القرآن الكريم ، يعطينا أوضح صورة بأصدق وأوجز عبارة عن تلك المملكة ، وازدهارها وبداية اضمحلالها كذلك .

وتبدأ القصة عندما كان سليمان يتفقد الطير كعادته ، والمعروف أن سليمان كان يعرف لغة الطير ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ النمل ، آية ١٦ ، فافتقد الهدهد ، وهدده بالعذاب الشديد وبالذبح ، ما لم يأت بسبب مقنع لغيابه ، وجاء الهدهد ، وشرح لسليمان سبب غيابه ، كما برهن على صدق كلامه ، وندع القرآن الكريم يقص علينا الأمر كله : قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا

(١) د. محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ٢٦٧ .

تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ
سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ
إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّى
أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ
الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ
أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحْنُ
أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)
قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَـٰنِ اللَّهُ
خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ (٣٧) قَالَ
يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ
عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ
لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَـٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى
لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى

غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

سورة النمل ، الآيات ٢٠ - ٤٤ .

هذا هو حديث القرآن الكريم ، وهو أصدق الحديث كله عن قصة الاتصالات بين ملكة سبأ وسليمان ، عليه السلام ، وقد اضطررنا لإيرادها كاملة ، لأنها ترسم صورة حقيقية للوضع السياسي والديني في اليمن في ذلك الزمان ، فقد قدم الهدهد تقريراً مفصلاً لسليمان عن القوم وملكتهم وعبادتهم ، وأنها أوتيت خيرات كثيرة ولها عرش عظيم ، وسليمان لم يأخذ كلام الهدهد قضية مسلمة ، وإنما أراد أن يتأكد من صدق كلامه ، فأرسله إليها بكتاب ثم جاءه رد ، وأخيراً وصلت الملكة بنفسها إلى سليمان في فلسطين ، وأسلمت معه لله رب العالمين . إذن لا مراء في أن دولة سبأ كانت قائمة وقوية في القرن العاشر قبل الميلاد .

وقد تحدث القرآن الكريم في موضع آخر ومناسبة أخرى عن سبأ وثرائهم وغنى بلادهم ، والعجيب أن الحديث جاء هذه المرة في سورة من سور القرآن الكريم سمِّيت باسمهم ، وهي سورة سبأ ، وجاء بعد الحديث عن داود وسليمان ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الآيات ١٥ - ٢٠ .

تشهد هذه الآيات الكريمة للقوم بأنهم كانوا على درجة عالية من الثراء والقوة ، وأن بلادهم كانت عامرة مليئة بالخيرات ، وأن هذا الازدهار تحقق لهم بسبب براعتهم في الفنون الهندسية ، وإقامة السدود والخزانات لخزن مياه الأمطار - التي كانت تذهب هباء في الرمال - والاستفادة بها في الزراعة والصناعة ، فكانت لديهم سدود وخزانات كثيرة ، كان أشهرها سد مأرب ، عاصمة سبأ - تبعد عن صنعاء عاصمة اليمن الحالية بنحو مائة وثمانين كيلو متراً إلى الشرق منها - وبقايا هذا السد العظيم لا زالت باقية تشهد على تقدم العلوم ، وعلوم الهندسة بصفة خاصة في الدولة السبائية ، لأن إقامة السدود والخزانات ليست أمرا هيناً ؛ وإنما هي عمل حضاري معقد يتطلب المهارة في علوم وفنون كثيرة ، وخبرات عميقة في ميدان العمارة وهندسة السدود .

وبسبب هذا السد الذي أقاموه في مكان ملائم تماماً ، حيث اختاروا أضيق

مكان بين جبلين ، وجعلوا له أبوابا يصرفون منها المياه حسب الحاجة فأمكنهم الاحتفاظ بالمياه واستخدامها في الزراعة ، فكثر الخصب وعم الرخاء وعاش أهلها في نعيم ، وسميت بلادهم اليمن السعيد . استمرت الحياة رغدة هنيئة ما استمرت رعايتهم وصيانتهم للسد ، فلما ضعفت الدولة في أواخر أيامها سنة الله في خلقه ، وكفروا بأنعم الله تعالى عليهم ، ولم يقوموا بما يتطلبه السد من عناية وصيانة ، ضعف هو بدوره عن مقاومة السيول الجارفة فتخرب وتهدم ، ونتيجة لذلك اضمحلت الزراعة وحل القحط محل الخصب والثراء ، وهجر اليمنيون بلادهم وأصبحوا مثلاً يضرب في الشتات والتفرق ، فيقال عن القوم الذين يتفرقون ويتشتتون « تفرقوا أيدي سبأ » ويلخص هذا كله قول الله تعالى :

﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ سبأ ١٦ - ١٧ .

نشأت دولة سبأ إذن نشأة قوية ، وبلغت قمة ازدهارها في القرن العاشر قبل الميلاد ، وكانت دولة طموحة ، ومن حسن حظها أن نشأتها صادفت دولتي معين وقتبان ، وقد أدركها الكبر والهرم ، وتضعضعت أحوالهما ، وبدأ نجمهما في الأفول ، ونفوذهما إلى الزوال ، فتقدمت مملكة سبأ لتملأ الفراغ ، فقضت عليهما جميعاً ، وضمت ممتلكاتهما إلى مملكتها ، وبذلك سيطرت على معظم أقاليم اليمن ، وقد نالت شهرة واسعة في التاريخ العربي القديم عامة ، وفي تاريخ اليمن بصفة خاصة ، وذلك لحديث القرآن الكريم عنها وعن صلتها بمملكة سليمان بن داود ، عليهما السلام ، التي أشرنا إليها قبل قليل ، وبسبب الازدهار الاقتصادي الذي تحقق لها من الزراعة ، وكذلك لازدهار التجارة ، الذي يسره لها موقعها الجغرافي الهام ، على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، فأصبحت بلاد اليمن وسيطاً تجارياً نشطاً بين الشرق والغرب بالمفهوم القديم

لذلك التعبير .

وفي أواخر أيامها - القرن الثاني قبل الميلاد - بدأ الضعف يدب في أوصالها وأسلمت نفسها إلى حياة الترف وركن الناس إلى رخاوة الحياة ونعومتها ، وأهملوا أمر بلادهم ، خاصة السدود والخزانات التي كانت مصدر ثرائها وعظمتها وحضارتها واستقرارها ، فبدأت السدود تنهار ، وتدهورت حياتها الاقتصادية ، وتضاءل شأنها ، وبدأت تزوي وتختفي لتقوم على أنقاضها دولة فتية أخرى ، ستلعب دورا هاما في تاريخ اليمن القديم ، وهي الدولة الحميرية ، وصدق الله العظيم ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

دولة حمير

قامت دولة حمير على أنقاض دولة سبأ ، أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، واستمرت قائمة حتى سنة ٥٢٥م حين داهمها الاحتلال الحبشي ، ويبدو أن دولة سبأ لم تزل بشكل كامل في بداية قيام الدولة الحميرية ، حتى أن بعض الباحثين يرى تداخلاً تاريخيا بين زوال دولة سبأ وقيام دولة حمير ، ويعتبرون الفترة الأولى من ١١٥ قبل الميلاد إلى ٣٠٠ م تاريخاً مشتركاً بين سبأ وحمير ، وأحياناً يطلقون عليه اسم « عصر الدولة الحميرية الأولى » [١] .

أما من سنة ٣٠٠ م إلى سنة ٥٢٥ م فهو تاريخ حميري خالص .

على أية حال قامت دولة حمير على أنقاض دولة سبأ ، واستطاعت - شأنها في ذلك شأن الدول في طور نشأتها وقوتها وفتوتها - أن تقوم بعدة إصلاحات ، فأصلحت وأقامت السدود ، لتخزين المياه لاستخدامها في الزراعة ، ثم اعتنت بالتجارة ، فجعلت من اليمن أكبر مركز تجاري في شبه

---

(١) د. محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ٢٧٢ .

جزيرة العرب ، وامتلكت أسطولاً تجارياً كبيراً ، لنقل التجارة بين موانئ اليمن وموانئ الشرق الأقصى ، مثل الهند والصين وكذلك بين بلاد اليمن وشرق أفريقيا ، التي أصبحت لها فيها مستعمرات ، وبينها وبين ميناء القلزم في شمال خليج السويس في الأراضي المصرية ، وكما ازدهرت التجارة البحرية ، ازدهرت كذلك التجارة البرية ، التي كانت تحملها القوافل إلى موانئ الشام على البحر الأبيض المتوسط ومن ثم إلى أوربا .

ودخلت اليمن - في العهد الحميري - نتيجة لازدهار التجارة والزراعة في دور من أدوار الثراء العريض ، الذي مكنها من بناء حضارة راقية بمقاييس عصرها ، لكن الحياة لم تسر باليمن كما يهوى أهله ، فقد أثار ازدهاره وثراؤه حفيظة الدول الكبرى في ذلك الوقت ، فتعرضت الدولة الحميرية في أواخر أيامهـا - مطلع القرن السادس الميلادي - لأطماع الروم والفرس ، فهاتان الدولتان ، شأنهما شأن الدول الاستعمارية في كل زمان ومكان ، لم تنظرا بعين الرضا والارتياح إلى وجود دولة صغيرة ، غنية وقوية بالقرب من حدودهما ، خصوصاً إذا كانت هذه الدولة تتمتع بمثل ما تتمتع به اليمن من موقع جغرافي هام يسيطر على واحدة من أهم طرق التجارة العالمية ؛ وهو المدخل الجنوبي للبحر الأحمر . لذا أخذ الروم والفرس كلاهما يخطط ويتحين الفرص للانقضاض على اليمن ، وبسط سلطانه عليها .

وجاءت الظروف مواتية للروم في البداية ، وكعادة الدول الاستعمارية دائما في إخفاء أهدافها الحقيقية في السيطرة على الدول الصغيرة وراء أسباب سطحية تتذرع بها ، فإن الروم عندما أرادو أن يبسطوا سيطرتهم على اليمن جاءتهم الفرصة في خلاف ديني نشب على أرض اليمن ، بين أتباع اليهودية وأتباع المسيحية ، حيث كانت الديانتان قد دخلتا إلى البلاد ، واعتنق بعض اليمنيين المسيحية في نجران ، واعتنق بعضهم الآخر اليهودية ، ومنهم الملك الحميري ، ذو نواس ، الذي كان متحمساً ومتعصبا ليهوديته ، وقرر استخدام

القوة في حمل نصارى نجران على اعتناقها ، ولكنهم رفضوا ترك ديانتهم المسيحية ، فما كان من الملك إلا أن صب عليهم جام غضبه ، وعاقبهم عقاباً قاسياً ، فقد حفر لهم أخدوداً في الأرض ، ودفنهم فيه ثم حرقهم بالنار [١] .

ويبدو أن بعض نصارى نجران استطاع الهرب من القتل بهذا الشكل الوحشي ، وذهب إلى امبراطور الروم ، الذي كان يعتبر حامي حمى المسيحية في الشرق ، وعرض عليه قصتهم ، وحرك مشاعره وغيرته على دينه ، وطلب منه تأديب الملك الحميري ، بل عقابه على فعلته الشنيعة هذه . فانتهز الامبراطور الفرصة ، ولكنه لم يتدخل بشكل مباشر ، بل أوعز إلى امبراطور الحبشة أن يقوم بهذه المهمة ، لما بينهما من علاقات قوية ومصالح مشتركة ، فوق اشتراكهم في الدين .

رحب امبراطور الحبشة بالقيام بهذه المهمة ، وأعد جيشاً أسند قيادته إلى قائده أرياط لاحتلال اليمن ، وقد استطاع الجيش الحبشي أن يحتل اليمن بعد هزيمة الحميريين ، أما الملك ذو نواس الذي تسبب بحمقه في هذه الكارثة لبلاده ، فعندما رأى الهزيمة تحل بشعبه اقتحم البحر بفرسه ، ومات غريقاً ، تاركاً بلاده ترزح تحت الاحتلال الحبشي .

أما الفرس الأعداء التقليديون للروم ، فقد ساءهم أن تقع اليمن بما لها من أهمية استراتيجية تحت سيطرة الأحباش حلفاء الروم ، وظلوا ينتظرون اللحظة المناسبة لإخراجهم منها ، وأخيراً جاءت الفرصة .

سيف بن ذي يزن وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي

ظلت اليمن ترزح تحت الاحتلال الحبشي حوالي نصف قرن من الزمان

---

(١) يرى بعض المفسرين أن سورة البروج تشير إلى هذه الحادثة .

٥٢٥ - ٥٧٥ م ، هب الشعب فيها عدة مرات للتخلص من حكم الأحباش ، وظل كذلك حتى جاءت الفرصة في شخص زعيم وطني من أمراء حمير ، يدعى سيف بن ذي يزن ، آلى على نفسه أن يحرر بلاده ، ولكن كان من الضروري أن يعتمد على عون خارجي لمساعدته في مهمته ، فاتجه إلى بلاط كسرى أنو شروان ملك بلاد فارس ، وشرح له مطلبه ، فقبل بعد تردد ظاهري ، وأرسل حملة بقيادة أحد قواده ، واسمه وهريز ، استطاع هزيمة الأحباش ، وإخراجهم من اليمن . وهكذا ، تحقق حلم فارس القديم في السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر ، فضلاً عن القضاء على نفوذ الروم السياسي والاقتصادي والديني في اليمن (١) .

السيطرة الفارسية على اليمن

نجح سيف بن ذي يزن في تحرير بلاده من حكم الأحباش ، ولكن بعون خارجي ، ومع ذلك فإن خلاص اليمن من الاحتلال الحبشي البغيض كان له رنة فرح هائلة ، ليس في اليمن فحسب ، بل في جميع أنحاء شبه جزيرة العرب ، وجاءت وفود العرب لتهنئة سيف بهذا الحدث العظيم ، ومن هذه الوفود وفد قريش برياسة سيدها وزعيمها ؛ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، جد النبي محمد ﷺ ، وقد حظي هذا الوفد بالذات بإجلال سيف لهم ، فأكرمهم وأغدق عليهم الهدايا والعطايا أكثر من غيرهم (٢) .

ويبدو أن الفرس قد قنعوا بإقامة حكم وطني في اليمن يدين لهم ؛ بالتبعية ، ولئلا يظهروا من البداية بمظهر الطامع فقد نصبوا سيف ملكا على اليمن ، سنة ٥٧٥ م .

---

(١) د. محمد بيومي مهران ، مرجع سابق ٣٨٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٧ .

ولكن مدة حكمه لم تطل ، فقد اغتاله بعض حراسه من الأحباش ، وهنا لاحت الفرصة للفرس ليتذرعوا بالخوف من وقوع البلاد مرة أخرى تحت السيطرة الحبشية ومن ثم السيطرة الرومية ، لغياب ذلك الزعيم الوطني ، فعمدوا إلى وضع اليمن تحت الحكم الفارسي المباشر ، وأرسل كسرى وهريز مرة أخرى لينوب عنه في حكم اليمن ، ذلك الحكم الذي استمر إلى ظهور الإسلام ، وكان آخر نائب لكسرى في حكم اليمن ؛ هو باذان ، عاش إلى أن أدرك الإسلام ، وأكرمه الله تعالى ، فاعتنق الإسلام ، لما دعاه إليه الرسول ﷺ ، في العام السابع الهجري ، وأبقاه ملكا على اليمن ، التي كانت من أوائل مناطق بلاد العرب التي دخلت في حكم الإسلام .

الإمارات العربية في العراق والشام

استكمالا لرسم صورة عامة عن الوضع السياسي للعرب قبل الإسلام ، نعرف ببعض الإمارات العربية التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية الشرقي والغربي ، وسنكتفي بالحديث عن إمارة المناذرة في العراق ، وإمارة الغساسنة في الشام .

وهاتان الإمارتان ، تكونتا من قبائل اليمن التي هاجرت إلى المناطق الخصبة في العراق والشام ، بعد تدهور الأحوال الاقتصادية في اليمن .

إمارة المناذرة في الحيرة [1]

تكونت هذه الإمارة في الجزء الجنوبي من العراق ، المتاخم للحدود الشمالية الشرقية لشبه جزيرة العرب ، وقد أسسها المناذرة اللخميون ، أو إن

---

(١) انظر عن نشأة إمارة الحيرة وتطورها ومصيرها ، المفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي جـ ٣ ص ١٥٥ وما بعدها .

شتنا الدقة أنشأها الفرس ، لحماية حدود بلادهم من عدوان وإغارات القبائل العربية على قرى الحدود الفارسية ونهبها .

ولم تقتصر دوافع الفرس من وراء إقامة إمارة المناذرة على حماية حدود الدولة الفارسية من إغارات القبائل العربية ، بل أرادوا أن تكون عوناً لهم في صراعهم التقليدي مع دولة الروم .

على كل حال قامت على حدود شبه جزيرةِ العرب الشمالية الشرقية إمارة عربية في كنف الفرس ، وتحت سيطرتهم وفي خدمة مصالحهم ، وإذا كانت بداية تلك الإمارة العربية يكتنفها الغموض ، فمن الواضح أنها كانت قائمة ، بل ومزدهرة في القرن الثالث الميلادي [١] ، واستمرت تؤدي دورها المرسوم لها ، وتحقق أهداف الفرس من قيامها ، حتى تنال رضاهم ، ولذلك دخلت في حروب كثيرة مع أبناء عمومتها من الغساسنة ، الذين كانوا بدورهم في خدمة الروم ، ويؤدون لهم نفس الخدمات التي كان المناذرة يؤدونها للفرس. وقد سجلت لنا مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام [٢] . وكذلك كتب الأدب العربي القديم ، أسماء كثيرة من سلسلة ملوك الحيرة ، كانوا أشهر من غيرهم وأعلى ذكرا ، مثل عمرو بن عدي ٢٦٨ - ٢٨٨م [٣] . والمنذر بن ماء السماء ، والنعمان بن المنذر ، وقد ازدهرت إمارتهم ، وأصبحت عاصمتهم ؛ الحيرة مدينة في غاية البهاء والثراء والترف ، وتفننوا في بناء القصور ، وكانت قصور الخورنق والسدير حديث الناس لجمالها وعظمتها ، وقصدهم شعراء العرب يمدحونهم ، التماسا لهباتهم وعطاياهم ، وفي أواخر أيامهم - قبيل ظهور الإسلام بقليل - بدأت علاقتهم بالفرس تتبدل ، ويشوبها النفور ، بل العداء ،

---

(١) د.محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ٥٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٨١ .

فقرر الفرس أن حكم إمارة الحيرة لا ينبغي أن يستمر خالصاً للعرب ، بل لا بد أن يكون حكما مشتركاً ، بين حاكم عربي وآخر فارسي ، فعينوا حاكماً عربياً جديداً ، هو إياس بن قبيصة للإمارة ، وأشركوا معه حاكما فارسياً .

وهكذا خيل لكسرى فارس أنه رتب أوضاع إمارة الحيرة ، بما يجعلها أكثر تبعية له ، بل خاضعة خضوعاً مطلقاً ، ولكنه لم يكن يدري أن الأمور كانت تجري في شبه جزيرة العرب بما لا يخطر له على بال ، فقد بعث النبي محمد ﷺ ، وظهر الإسلام وانتشر ، وتأسست دولة الإسلام القوية الفتية ، التي ستغير كل الأوضاع في المنطقة ، فبعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه انطلقت الفتوحات الإسلامية ، وكانت إمارة الحيرة من أول المناطق التي فتحها سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وضمها إلى دولة الإسلام ، ولم يلبث المسلمون أن فتحوا بلاد فارس نفسها في عهد الخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبدأ للمنطقة ، بل للعالم تاريخ جديد .

إمارة الغساسنة [1]

نشأت إمارة الغساسنة في جنوب الشام ، نشأة شبيهة بنشأة إمارة المناذرة في الحيرة ، وهم في نفس الوقت أبناء عمومة . هاجروا من اليمن في فترات متقاربة [2] . فاستقر المناذرة في العراق والغساسنة في الشام .

ولعل من أول القبائل العربية التي استقرت في الشام قبائل قضاعة ، وأول من بدأ يكون إمارة منهم الضجاعمة ، نسبة إلى جدهم ضجعم بن سليم ، وقد

---

(١) انظر عن نشأة مملكة الغساسنة وتطورها ومصيرها : المفصل في تاريخ العرب ، مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٨٧ وما بعدها .

(٢) د. محمد بيومي مهران ، مرجع سابق ص ٥٦٤ .

ظل الضجاعمة يلون أمر العرب في المناطق الجنوبية من بلاد الشام ، حيث شهدت مناطقهم هجرات قبائل عربية من أولاد جفنة الذين اشتهروا في التاريخ باسم الغساسنة ، وسبب هذه التسمية ، كما يذكر المؤرخون [1] ، أن أولاد جفنة حطوا رحالهم حول بئر كان يسمى غسان ، فنسبوا إليه ، استطاع أولاد جفنة هؤلاء أن يغلبوا الضجاعمة على أمرهم ، وأن يسلبوا منهم سلطانهم ، وأن يؤسسوا لهم ملكا بالشام على حسابهم ، تحت زعامة جفنة بن عمرو ، وقد بارك الروم هذا التغيير وأيدوه ، لأنهم رأوا في الغساسنة قوة جديدة فتية ، قد تكون أنشط في خدمة مصالحهم من الضجاعمة ، فكل ما كان يهمهم أن يقوم بعض العرب بحماية حدودهم ضد هجمات القبائل العربية ، والدفاع عن تلك الحدود ضد أي هجوم فارسي .

فما دام هذا الدور قائماً ، فلا يهم إن كان الذي يقوم به الضجاعمة أو الغساسنة .

وقد استمر الغساسنة في خدمة الروم ، وحراسة حدودهم . وتوالى الملوك منهم ، وازدهر عصرهم ، وأشرقت أيامهم وكانت عاصمتهم التي كانت تسمى جلّق ـ وهي دمشق الحالية ـ مقصد الشعراء لمدح الأمراء ، ونيل عطاياهم ، ومن هؤلاء الشعراء الذين قصدوهم ومدحوهم حسان بن ثابت الأنصاري ـ الذي سيصبح شاعر الرسول ﷺ ، بعد ظهور الإسلام .

فقد كان حسان صديقاً لملوك آل غسان ، وهو وهم ينتمون إلى أرومة يمنية واحدة ، وكانوا هم يكرمونه ويقدمونه على غيره من الشعراء ، ومن قوله فيهم :

لله در عصابة نادمتهم يوما ... بجلق في الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ، مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٨٧ وما بعدها .

ومن أشهر ملوك أولاد جفنة ، الحارث بن جبلة ، والمنذر بن الحارث ، وجبلة بن الأيهم ، الذي كان آخر أمرائهم ، وقد ظلت إمارة الغساسنة قائمة ، حتى ظهور الإسلام . وبعد وفاة الرسول ، فتح المسلمون الشام كله .

وأنهى الإسلام سيطرة الفرس والروم على بلاد العرب ، وحررهم من حكم أجنبي بغيض .

أحوال العرب الاجتماعية قبل ظهور الإسلام

لا شك أن الإسلام أحدث في حياة العرب تغييراً جذريا هائلا . ولم يقتصر هذا التغيير على تبديل عقيدتهم الدينية من الوثنية إلى عقيدة التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى . وإنما تناول التغيير كل شئونهم السياسية وأحوالهم الاجتماعية . كما رأينا فقد كانت في الجزيرة العربية حواضر ومجتمعات مستقرة ومنظمة كما هو الحال في اليمن ، وكانت هناك حياة البدو الرحل كما هو الحال في أقليم الحجاز . وتختلف حياة الحضر عن حياة البدو من وجوه كثيرة ، ففي المناطق التي كانت تتمتع بحياة الاستقرار ، ويقوم فيها نظام سياسي يمكن تقسيم المجتمع إلى طبقات . طبقة الملوك والأمراء والحكام وهم في الذروة من المجتمع ، ويعيشون حياة الترف والنعيم وطبقة التجار والأثرياء ، وهؤلاء وإن كانوا يستطيعون مجاراة الطبقة الأولى في حياة النعيم والتمتع بأطايب الحياة ، إلا أنهم لا يستطيعون مجاراتها في النفوذ والسلطان . وهناك طبقة ثالثة ، هي طبقة الفقراء وهؤلاء كانوا في المرتبة الدنيا في السلم الاجتماعي . أما حياة البدو فكانت تتألف من طبقتين رئيسيتين . طبقة السادة ؛ وفي الواقع يمكن اعتبار العرب كلهم سادة سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، فالفقر لم يكن ليحد من حرية العربي وسيادته . وإلى جانب طبقة الأحرار كانت هناك طبقة العبيد والخدم . وكان الأغنياء من العرب يملكون أعداداً كبيرة من العبيد والخدم يسخرونهم في خدمتهم ويستعملونهم في تجارتهم . وهؤلاء ظلوا مغلوبين على أمرهم حتى

جاء الإسلام ، ورفع من شأنهم ودعا إلى المساواة المطلقة بين البشر ، فالناس جميعاً أمام الله سواء أكرمهم عند الله أتقاهم ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وهذا المبدأ ؛ مبدأ المساواة من أعظم المبادئ التي جاء بها الإسلام ، بل لعله المبدأ الذي من أجله وقفت قريش بضراوة في وجه الدعوة الإسلامية ، ولم تستسغ أن يسوي الإسلام بين السادة والعبيد ، ولكن انتصرت إرادة الله في النهاية ، وهزمت قريش واستسلمت وقبلت الأمر الواقع الذي أراده الإسلام .

هذه الحياة البدوية التي كان يحياها البدو في صحرائهم كانت لها مميزات كثيرة ؛ فمن مميزاتها إلى جانب الحرية الفردية التي كان يتمتع بها العربي ؛ المحافظة على النسب ، فالرجل العربي نسبه صريح غير مجهول وكذلك لغته سليمة وفصيحة ، لأنه قليل الاختلاط بغيره .

ومن سمات الحياة البدوية العصبية والتعصب للقبيلة ، فالشيء الذي لا يقبل المناقشة من وجهة نظر العربي هو انحيازه للقبيلة وشعاره دائما : أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً .

وكانت تشيع في المجتمع العربي البدوي مجموعة من العادات والتقاليد ، بعضها جميل ومحمود أبقى عليه الإسلام ودعمه وباركه ، وبعضها قبيح ومرذول حاربه وقضى عليه .

ومن العادات الحميدة عند العرب ؛ الكرم ، فالكرم صفة إنسانية محمودة في كل مجتمع إنساني في كل زمان ومكان . فالعربي كان يجود بأغلى ما عنده لإكرام ضيفه . وأخبار الكرماء من العرب أمثال حاتم الطائي لا زالت تضرب بها الأمثال .

وكان العرب في البادية من شدة تعلقهم بالكرم يوقدون النيران أمام

بيوتهم بالليل ليهتدي بها السائرون والأغراب ، الذين قد يكونون في حاجة إلى الطعام والضيافة . وكان الكرام من العرب يقتنون نوعاً من الكلاب يدربونها على هداية الضيوف إلى بيوتهم . وكان الكلب الذي يأتي بضيف إلى صاحبه يكافأ على ذلك بنصيب إضافي من اللحوم التي تذبح للضيوف ، وكان العرب يفخرون بهذا النوع من الكلاب ويقولون فيها الشعر ومن ذلك قول الشاعر في وصف أحد هذه الكلاب :

عوى في سواد الليل بعد اعتسافه
لينبح كلب أو يفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى
له عند إتيان المستنين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا
يكلمه من حبه وهو أعجم

فهذه الصفة ، صفة الكرم من الصفات التي يحبها الله ورسوله .

ومما يروى عن الرسول ﷺ في مدح الكرم والكرماء قوله : « أغفروا زلة السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح عليه كلما افتقر » . ومما يروى في الحديث القدسي أن الله تعالى عندما خلق جنة عدن نظر إليها فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال الله تعالى : « وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » .

ومن عادات العرب الجميلة النجدة وإغاثة الملهوف ، وتفريج كرب المكروب ، ولهم في ذلك قصص نادرة .

إلى جانب هذه العادات الجميلة كانت تشيع في المجتمع البدوي عادات قبيحة ومرذولة ، جاء الإسلام ليحاربها ويقضي عليها ، من هذه العادات القبيحة وأد البنات ، أي قتلهن بدون سبب ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ . وفي الواقع كان بعض العرب ينفر من إنجاب

البنات ، ويعتبره نكبة وعارا يهرب منه ، وقد نعى القرآن الكريم عليهم ذلك ، واعتبره من عاداتهم السيئة التي يجب التخلي عنها وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الآيتان : ٥٨ - ٥٩ من سورة النحل .

ولكن للحقيقة نقول أن احتقار المرأة وعدم الاهتمام بها لم يكن عاما بين العرب ، بل كان شائعاً بين قبائل معينة ، وكان للمرأة في بعض القبائل مكانة كبيرة ، والعربي بطبعه يحرص على العرض ويذود عن شرفه بكل ما يملك ، ومن اعتزازهم بالمرأة كانوا يأخذون النساء معهم في الحروب حتى يتذكر المحارب أنه إن انهزم فإن نساءه سيقعن في يد العدو ، فعندئذ تثور نخوته ويستبسل في القتال دفاعاً عن حريمه وعرضه . كذلك كانت بعض القبائل تعطي المرأة حريتها في اختيار زوجها ، وهو وضع أرقى بكثير مما يحدث في مجتمعنا الحاضر ، حيث يعتبر بعض الناس أن مشاورة البنت عند تزويجها عيب لا يصح . هذه جملة من أحوال العرب الاجتماعية قبل الإسلام نكتفي بها لضيق المكان .

أحوال العرب الثقافية [1]

على الرغم من أن أغلبية العرب كانوا أمة أمية ، لا تعرف القراءة والكتابة ، فقد كان لديهم قدر لا بأس به من المعلومات العامة . فهم كتجار لم يكونوا مقطوعي الصلة بالعالم الخارجي ، وإنما كانت لهم رحلاتهم التجارية

---

(١) لمعرفة المزيد عن أحوال العرب الثقافية قبل الإسلام ، انظر : كتاب أصالة الحضارة العربية للدكتور ناجي معروف ص ١١٣ وما بعدها .

التي كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، فكانوا يعرفون الكثير عن البلاد التي كانوا يتصلون بها تجارياً ، مثل الشام والعراق . فضلا عن أن قدراً كبيراً من الثقافات الأجنبية قد تسرب إلى شبه الجزيرة العربية ، مثل الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية . فالثقافة الفارسية تسربت عن طريق إمارة الحيرة العربية ، وتسربت الثقافة اليونانية عن طريق الشام . وكان بعض طلاب العلم من العرب يذهبون إلى معاهد العلم الأجنبية ليتعلموا فيها . فتروي المصادر العربية أن الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور - الذي ظل على قيد الحياة حتى ظهور الإسلام ، وكان يعالج بعض الصحابة عند مرضهم - يروى أن هذا الطبيب قد تلقى علومه الطبية في مدرسة جند يسابور الفارسية ، وفي هذه المدينة كانت هناك أكاديمية طبية يدرس فيها الطب اليوناني ممتزجاً بالطب الفارسي والطب الهندي ، فكون طبيب عربي يتخرج في هذه الأكاديمية على هذا النحو ، يدل على أن العرب لم يكونوا مقطوعي الصلة بالعالم الخارجي .

وهناك قدر من المعلومات العلمية اكتسبه العرب بالخبرة والتجربة ، وبدافع الحاجة . فكان لديهم قدر طيب من المعلومات العامة في الفلك والجغرافيا . لأنهم ومعظمهم بدو رحل كانوا في أشد الحاجة إلى معرفة جغرافية الأماكن التي ينزل فيها المطر ومواسم نزوله ، وهذا أدى بهم إلى معرفة مواعيد هبوب الرياح واتجاهاتها . وهذا لا يتأتى إلا إذا كان لديهم بعض المعلومات عن الفلك والجغرافيا . كما أن حاجة العرب إلى السير في الصحراء ، ومعرفة طرقها ومسالكها جعلهم يعرفون الكثير عن مواقع النجوم التي تهدي السائرين في الصحراء . ومن يتصفح أي ديوان من دواوين الشعر العربي القديم يجد الكثير من المعلومات الفلكية والجغرافية التي عرفها العرب بالخبرة والتجربة .

وهناك لون من المعارف امتاز به العرب عن غيرهم ، وهو معرفة الأنساب ، فالعربي الذي يعتز بنسبه وحسبه كان يهتم بمعرفة أنساب القبائل

العربية وأصولها وفروعها ، وهذه المعلومات أصبحت أساساً لفرع كبير من فروع التاريخ الإسلامي ، وهو علم الأنساب . ومن شدة تعلق العرب بمعرفة الأنساب فإنهم لم يكتفوا بمعرفة أنساب البشر ، وإنما اهتموا كذلك بمعرفة أنساب بعض الحيوانات ، وبصفة خاصة أنساب الخيل ، وهناك مؤلفات عن أنساب الخيل لا زالت موجودة لدينا [١] . أما الميدان الذي تفوق فيه العرب وأصبحوا فرسانه الذين لا يبارون فهو ميدان الفصاحة والبلاغة ، فالعربي كان فصيحاً بطبعه بليغاً بفطرته ، دون أن يتعلم في مدرسة أو جامعة ، وكان ينطق لغته بطريقة سليمة . وأكبر دليل على تفوق العرب في ميدان الفصاحة والبلاغة هو نزول القرآن الكريم بلغتهم . فالمعروف أن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والفصاحة ، ولو لم يكن العرب مؤهلين لفهمه وتدبر معانيه لما نزل بينهم وبلغتهم . ولا يخفى أن كثيرين منهم أسلموا متأثرين ببلاغة القرآن مأخوذين بروعة معانيه . وهذا يفسر أنهم كانوا أهلا لأن يفهموه ويعقلوا معانيه وهذه أكبر شهادة لهم بأنهم أهل فصاحة وبلاغة .

والشعر العربي هو الميدان الذي برع فيه العرب . والشعراء في الأمة العربية لا يعدون بالمئات ، بل يعدون بالألوف . وكانوا يحتفلون بهذا اللون من ألوان الأدب احتفالا كبيراً . وكان ظهور شاعر في قبيلة يعتبر حدثاً كبيراً ، تحتفل به القبيلة ، وتعلق عليه الآمال الكبار ، ليرفع شأنها ويعلن مآثرها ويعلي ذكرها ، ويفخر بأمجادها وأنسابها وأحسابها .

وكانت القبائل الأخرى ترسل وفودها لتهنئة القبيلة التي ظهر فيها شاعر .

والشعر العربي إلى جانب كونه لوناً راقياً من ألوان الأدب العربي ، فهو أكبر مصدر بعد القرآن الكريم لمعرفة الحياة العربية بكل خصائصها ومظاهرها .

---

(١) مثل أنساب الخيل لابن الكلبي .

ولعناية العرب بالشعر ، كنقده ومعرفة جيده من رديئه ، كانوا يقيمون الأسواق الأدبية التي يتبارى فيها الشعراء ، ويحاول كل منهم أن ينشد أجود ما عنده ، وكانت هناك لجان للتحكيم ، تحكم بين الشعراء والأدباء ، وكانت القصائد التي تفوز وتحوز الإعجاب يتناقلها الناس ويشيدون بذكر صاحبها . ومنها ما كان يعلق في الكعبة وهي المعلقات المشهورة . وهناك أسماء لامعة في مجال الشعر العربي مثل امرئ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والأعشى ، ولبيد وغيرهم [١] .

الحالة الدينية عند العرب قبل ظهور الإسلام [٢]

الدين شيء فطري وطبيعي في حياة الإنسان ، والشعوب البدائية عندما كانت لا تهتدي إلى دين حقيقي فإنها كانت تخترع أدياناً تتعبد بها لترضي غريزة التدين فيها ، وكانوا يتجهون إلى الأشياء التي يظنون أن لها قوة فوق قوة البشر ؛ مثل الظواهر الطبيعية والكواكب والأفلاك ، وكذلك بعض الحيوانات ، ويتخذون منها آلهة يعبدونها لشعورهم بأنها أقوى منهم .

والعرب ليسوا بدعاً من الأمم في هذا الشأن ، بل يعتبرون من أوائل الأمم التي عرفت الدين ، لا الدين الخرافي فقط بل الدين الحقيقي السماوي . وعرفوا عبادة الله الواحد الأحد ، من خلال الرسالات السماوية التي جاءتهم على أيدي رسل منهم [٣] . كما عرفوا عبادة الأصنام أيضاً بدليل رد قوم هود عليه بقولهم : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذكر ما كان يعبد آباؤنا » .

---

(١) انظر : سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام ، للدكتور ناصر بن سعيد الرشيد ، ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) أنظر أصالة الحضارة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) سبق أن تحدثنا عن رسالات هود وصالح عند حديثنا عن عاد وثمود .

وانقطعت الرسالات السماوية عن العرب فترة طويلة ، حتى جاء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وإذا كان إبراهيم قد عاش معظم حياته في فلسطين ، فإن إسماعيل عليه السلام قد عاش حياته كلها في مكة ، وأدى رسالته إلى العرب الذين آمنوا بها في حينها .

ولكن بمرور الزمن تحولوا عنها إلى الوثنية مرة أخرى . ويروى أن السبب في انتشار الوثنية في بلاد العرب يرجع إلى شخص يسمى عمرو بن لحي الخزاعي ، الذي كان سادن الكعبة . فيقال إنه قام بزيارة إلى الشام ، فوجد عبادة الأصنام منتشرة هناك ، ولما سألهم عنها قالوا له : آلهة نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو . فطلب منهم أن يعطوه منها فأعطوه ، فحمل هذه الأصنام وعاد بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة وجعل الناس يقدسونها ، وكان هذا بداية لدخول الوثنية من جديد إلى قلب الجزيرة العربية .

ومن أشهر الأصنام عندهم :

هبل : وهو عبارة عن صنم على صورة إنسان من العقيق الأحمر ، وقد كسر ذراعه فأبدلته قريش ذراعاً من ذهب ، ويعتبر هبل كبير الآلهة وكان موجوداً بجوار الكعبة .

اللات : وهي الاله المقدس عند ثقيف بالطائف ، وهي عبارة عن صخرة مربعة الشكل وكانت تتفوق على جميع الآلهة عندهم .

العزى : كانت تعبد في الحجاز ، وتحتل المركز الثاني في القداسة بعد هبل عند قريش .

مناة : وكان العرب جميعاً يعظمونه ، وكان الأوس والخزرج سكان المدينة بصفة خاصة يقدمون له القرابين . وكان يوجد على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة .

ود : وهو عبارة عن تمثال رجل عظيم ، معه أدوات الحرب وكان يوجد بدومة الجندل ، وتقدسه قبائل كلب وقضاعة .

سواع : وكان إلها بأرض ينبع لهذيل .

يعوق : بأرض الطائف وتقدسه طئ ومذجح .

يغوث : باليمن وكانت تقدسه همدان .

نسر : وكان باليمن أيضا وكانت تقدسه حمير .

والغريب أن هذه الآلهة الخمسة كانت تعبد وتعظم منذ عهد نوح عليه السلام وورد ذكرها في سورة نوح في قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّم يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ الآيات ٢١ - ٢٣ .

وهذا يدل على أن العرب كما عرفوا عبادة الله الواحد الأحد من قديم الزمان ، عرفوا كذلك عبادة الأصنام منذ أجيال سحيقة .

ومع انتشار الأصنام في شبه الجزيرة العربية هذا الانتشار الواسع ، إلا أن هناك مظاهر تدل على أن العرب لم يكونوا يعتقدون اعتقاداً حقيقاً جادا بها .

والقرآن الكريم أشار إلى ما يفهم منه ذلك المعنى في قوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ الآية ٣ من سورة الزمر .

بل أن الأكثر من ذلك أن بعض العرب كانوا يزدرون هذه الأصنام ، بل

ويحتقرونها . فيروى أن بعض العرب كان يقدس صنماً .. وذات صباح ذهب إليه فوجد ثعلباً قد بال على رأسه . فأنشد قائلاً :

أرب يبــول الثعلبان برأســه   تبا لرب بالت عليه الثعالب

ويروى كذلك أنه كان لكنانة صنم بساحل جدة يقال له سعد ، فأقبل رجل منهم بإبله عند هذا الصنم ليتبرك به ، وكان على الصنم أثر دماء ، فلما رأت الإبل أثر الدمـاء نفرت وتفرقت ، فغضب الرجـل من الصنم وأنشد يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فـلا نحـن مـن سعد
وهل سعد إلا صخرة لا قوى لها
ترجى فـلا تدعـى لغـى ولا رشد

وسط هذا الظلام الدامس ، وهذه الوثنية الضاربة أطنابها في شبه الجزيرة العربية . كان هناك مجموعة من عقلاء العرب احتفظوا بتوازنهم العقلي ، ولم يعبدوا هذه الأصنام ، وكانوا يرثون لحال قومهم الذين غرقوا حتى قمة رؤوسهم في عبادة أصنام صماء لا تسمع ولا تبصر ، لا تضر ولا تنفع . وكان هؤلاء العقلاء على بقية من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولكنهم لم يعرفوا الطريق الصحيح لعبادة الله الواحد الأحد . فاكتفـوا برفض عبادة الأصنام ، حتى تدركهم عناية الله برسول ينير لهم الطريق إلى الله . هؤلاء الرجال هم الذين سموا بالحنفاء .

الحنفاء من العرب (١)

من هؤلاء الرجال قس بن ساعدة الإيادي ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وأمية بن أبي الصلت . كان هؤلاء الرجال يتمتعون بفطرة سليمة ، ويروى أن أربعة منهم وهم : زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، اجتمعوا يوماً فقال بعضهم لبعض : « والله ما قومنا على شيء ، أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع ولا يبصر ، التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين » . هذا الموقف يصور الحالة النفسية التي كان عليها هؤلاء ، فهم لا يرتاحون لعبادة الأصنام ، وفي نفس الوقت لا يعرفون الطريق السليم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، كما عبر عن ذلك زيد بن عمرو بن نفيل عندما كان يناجي ربه قائلا : « يا رب لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكن لا أعلم » وبعض هؤلاء حاول الخروج من حيرته فاعتنق المسيحية ، وهو ورقة بن نوفل . ومن مات منهم وهو لا يشرك بالله شيئا ولا يعبد الأصنام فإنه يعتبر قد مات مسلماً مثل قس بن ساعدة الأيادي . فيروى أنه عندما جاء وفد قبيلة إياد إلى النبي ﷺ قال لهم : « ما فعل قس بن ساعدة الإيادي » قالوا : هلك ، أي مات . قال النبي : « أما أني سمعت عنه كلاما ما أرى أني أحفظه » فقال بعضهم : نحن نحفظه ـ فقال النبي : « هاتوا » أي أسمعوني ، فقال قائلهم : « وقف قس بن ساعدة في سوق عكاظ فقال : أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأنهار مجراة ، إن في السماء لخبراً ، وأن في الأرض لعبرا ، أرى الناس يمرون ولا يرجعون ، أرهقوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا فناموا » .

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٢ وما بعدها ، وعيون الأثر لابن سيد الناس جـ ١ ص ٨٣ .

ثم أنشأ الرجل يقول : « أقسم قس بالله قسما لا أثم فيه ، إن لله تعالى دينا هو أرضى مما أنتم فيه » . فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الكلام أقبل على الوفد وقال : « هل وجد لقس بن ساعدة وصية ؟ » فقالوا : نعم . وجدنا له صحيفة تحت رأسه مكتوب فيها :

يا ناعي الموت والأموات في جدس
عليهم من بقايا ثوبهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم
كما ينبه من نوماته الصعق
منهم عراة وموتى في ثيابهم
منها الجديد ومنها الأورق الخلق

فقال النبي ﷺ بعد سماع هذه الأبيات : « والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث » .

الأديان السماوية في شبه الجزيرة العربية

المقصود بالأديان السماوية هنا ، اليهودية والمسيحية ، وكلتا الديانتين نشأت في فلسطين من أرض الشام ، وفلسطين من أقرب البلاد لشبه الجزيرة العربية ، فكان من الطبيعي أن تتسرب هاتان الديانتان إلى بلاد العرب وقد حدث هذا فعلاً [١] . إلا أنهما كانتا قليلتي الانتشار ، الأمر الذي يبدو غريباً إذ كيف يبقى العرب على عبادة الأصنام مع وجود هذه الأديان السماوية فيما بينهم ؟ ولكن المرجح أن ذلك يرجع إلى اليهودية والمسيحية أكثر من كونه يرجع إلى العرب أنفسهم ، فالديانة اليهودية تعتبر ديانة مغلقة ، واليهود

---

(١) ذكرنا من قبل قصة الملك الحميري ذي نواس واعتناقه لليهودية وتفضيله لها وتنكيله بنصارى نجران ، مما يدل على وجود الديانتين ببلاد العرب .

يعتبرونها ديانتهم الخاصة التي لا ينبغي أن يشاركهم فيها أحد سواهم من البشر ، فهم شعب الله المختار حسب زعمهم الباطل ، وديانتهم لهم وحدهم ، وكانوا يعتبرون ذلك امتيازاً خاصا بهم ، لذلك لم يرحبوا باعتناق غيرهم لدينهم ولم يتحمسوا لذلك ، إذ لو تحمس اليهود في الدعوة لدينهم لكان من المحتمل أن نجد لها أتباعاً كثيرين في بلاد العرب ، خصوصاً في يثرب . ولكننا للأسباب التي ذكرناها وجدنا إحجاماً عن اعتناق اليهودية ، خصوصاً من عرب يثرب الذين كانوا يخالطون اليهود ويعيشون معهم . هذا بالنسبة لليهودية .

أما بالنسبة للمسيحية فهي كذلك لم تنتشر على نطاق واسع في بلاد العرب ولأسباب تختلف عن أسباب عدم انتشار اليهودية . فالمسيحية ديانة مفتوحة بلا شك للناس جميعاً ، ودعاتها من أنشط دعاة الأديان السماوية في جذب الناس إليها ، وترغيبهم فيها ، ولكنها عندما وصلت إلى بلاد العرب كانت قد وصلت إلى درجة من الخلافات والتعقيدات اللاهوتية التي استعصت على الفهم ، فقد أغرقت المسيحية نفسها في خلافات كثيرة وجدل عقيم حول علاقة المسيح عليه السلام بالله سبحانه وتعالى ، وهل المسيح إله ؟ أو ابن إله ؟ وهل الله واحد في ثلاثة ؟ أو ثلاثة في واحد ؟ خلافات معقدة وصعبة ولا يسيغ فهمها إلا كبار المتخصصين في علم اللاهوت ، الذين وقفوا حياتهم لشرح وتفسير هذه المعميات والطلاسم ، لذلك لم يستسغ العرب فهم هذه العقيدة المركبة ، والشأن في العقائد الدينية أن تقدم لعامة الناس بسيطة وسهلة حتى تفهمها عقولهم وتؤمن بها قلوبهم .

* * *

مكة المكرمة ومكانتها التاريخية

لم يكن لمكة المكرمة وجود قبل ذهاب إبراهيم الخليل عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى ذلك الوادي الذي أقيمت فيه ، وإسكانهما هناك بأمر ربه عز وجل ، كما أخبر القرآن الكريم في سورة إبراهيم في قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ الآية ٣٧ .

هذه هي البداية ، ففي ذلك الوادي أقام إبراهيم قواعد البيت الحرام ـ الكعبة المشرفة ـ يعاونه إسماعيل ، وحوله قامت مكة المكرمة ، وبدأت تشد انتباه التاريخ ، وبعد ظهور الإسلام أصبحت المدينة المقدسة ، لكل المسلمين في كل أرجاء الأرض ، وقبلتهم جميعاً ، إليها يتجهون في صلواتهم ، وإليها يحجون لأداء فريضة الحج .

وتروي كتب الحديث والسيرة قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل من فلسطين وإسكانهما في ذلك الوادي بشكل مفصل[١]. ملخصها أن إبراهيم جاء بهاجر وإسماعيل وتركهما هناك ، وهمَّ راجعا إلى فلسطين ، فقالت له هاجر : يا إبراهيم إلى أين أنت ذاهب وتتركنا بهذا الوادي الذي لا أنيس فيه ؟ قالت ذلك مراراً ، فلما لم يرد عليها قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، وبقيت هي وابنها ، ثم نفذ ما معهما من الماء وعطشا ، فأخذت تبحث عن الماء وتسعى بين الصفا والمروة ، ـ وأصبح

---

(١) راجع السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للشيخ محمد أبو شهبة جـ ١ ص ١٣٠ وما بعدها .

سعيها شعيرة وركنا من أركان الحج ـ وهنا جاءها جبريل عليه السلام ، وحفر لها ـ بجناحه ـ بئر زمزم . وقال لها : « لا تخافوا الضيعة ، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله » .

كان هناك على مقربة من الوادي قبيلة جرهم التي ما إن انتبهت إلى وجود بئر زمزم حتى جاءت وطلبت من هاجر أن تأذن لها في الانتفاع به ، فأذنت بشرط ألا يكون لها حق تملكه ، فوافقت ، وعاشوا ـ أي جماعة قبيلة جرهم ـ معها ، وأنست بهم هي ووليدها . ولما كبر إسماعيل تزوج منهم وأنجب ذريته الذين هم أصل العرب المستعربة ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ وتروي المصادر أن إبراهيم عليه السلام تردد عدة مرات على الوادي لرؤية ابنه وزوجه ، وفي إحدى هذه المرات ، أمره الله تعالى ببناء البيت الحرام ـ الكعبة المشرفة ـ كما تشير الآيات ١٢٥ - ١٢٧ من سورة البقرة ، فامتثل إبراهيم لأمر ربه وعاونه ابنه إسماعيل في بناء الكعبة ، وقد جعل ارتفاعها تسعة أذرع ـ نحو أربعة أمتار ـ وطول جداريها الشرقي والغربي نحو إثنى عشر متراً ، وطول جداريها الجنوبي والشمالي نحو عشرة أمتار ، ولم يجعل لها سقفا ، وجعل لها فتحة باب واحد من جهتها الشرقية ، ملاصقا للأرض ولم يعمل له بابا ، بل كان مجرد فتحة ، ووضع الحجر الأسود في الركن الجنوبي الشرقي ، ومنه يبدأ الطواف حول الكعبة .

ولما فرغ إبراهيم الخليل من بنائها جاءه جبريل عليه السلام ، وعلمه المناسك ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج ، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال : تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ سورة الحج ، الآية ٢٧ ـ فقال إبراهيم : « وما يبلغ صوتي » ، فقال الله تعالى : « أذن يا إبراهيم وعلي البلاغ » ، فوقف

على جبل أبي قبيس ، وأخذ ينادي : « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا » فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه من آمن وسبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة قائلين : « لبيك اللهم لبيك »[١] .

قصة الذبح والفداء

ارتبط بإسكان إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وإبنهما إسماعيل في مكة المكرمة وبناء الكعبة ؛ البيت الحرام ، قصة الذبح والفداء ، وملخصها أن إبراهيم عليه السلام رأى في منامه أنه أمر بذبح ولده إسماعيل ، ولما كانت رؤيا الأنبياء حق ، فإن إبراهيم عليه السلام ، لم يشك لحظة واحدة في صدق الأمر ، فامتثل لأمر ربه صابرا محتسبا ، ورأى أن يعرض الأمر على أبنه ليكون على علم ، ولئلا يباغت بهذا الأمر الخطير ـ وإن كان إبراهيم لا يشك في أن ابنه إسماعيل سيمتثل للأمر ويصبر على البلاء كما صبر هو ـ فما أن سمع الغلام ـ الذي وصفه ربه سبحانه وتعالى بالحليم ـ كلام أبيه ، حتى بادره دون تردد ، قائلا : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـٰبِرِينَ ﴾ سورة الصافات ، الآية ١٠٢ .

بعد أن اطمأن الخليل إبراهيم عليه السلام على إيمان ابنه وتسليمه لأمر ربه ، أخذه ـ وهو وحيده عندئذ ـ وخرج به إلى منى لينحره ، فأضجعه على وجهه ، وأخذ السكين بيده ، وأمرّها على عنقه ، فما قطعت ولا أثرت ، وحينئذ نودي من السماء أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وإنا قد فدينا ابنك بما يتيسر لك من كبش سمين ، فجاء إبراهيم عليه السلام بكبش وذبحه بيده ، فداء لولده

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٤ - ١٣٥ ، وسنذكر تاريخ تطور بناء الكعبة المشرفة والمسجد الحرام حتى الوقت الحاضر ـ بإيجاز شديد عند الحديث عن إعادة بنائها قبل بعثة النبي ﷺ .

وفلذة كبده ، وأصبحت تلك سنة باقية في عقبه إلى يوم الدين ـ وهي سنة الأضحية في يوم النحر ـ واستحق الخليل إبراهيم ، وابنه إسماعيل عليهما السلام أن يكونا مثلين عاليين في التضحية ، والامتثال لأمر الله ، وأن يكونا قدوة صالحة لكل المؤمنين في طاعة الخالق سبحانه وتعالى . .

والله كان يعلم أن إبراهيم سيمتثل لأمره وكذلك إسماعيل ، وإنما أراد أن يعلّمنا نحن المسلمين إلى أي مدى يكون امتثال عباد الله المخلصين لأمره ، حتى لو بدى لهم هذا الأمر غريباً ، غرابة طلب أن يذبح الأب ابنه ، ولكن ما دام الأمر صادرا من الله سبحانه وتعالى ، فليس أمام العبد المؤمن إلا أن يطيع وينفذ حتى لو جهل الحكمة من الأمر [١] .

ولايـــة البيت

بعث تفجّر الماء من بئر زمزم ـ تكرمة من الله تعالى لهاجـر وابنها إسماعيل ـ الحياة في الوادي الذي أقيمت فيها مكة المكرمة ، وهرعت إليه القبائل لتقيم فيه حول الماء ، وبدأ المكان يزدهر ، خصوصاً بعد أن أقام إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام . الذي أخذت المساكن تقام حوله مكونة ما عرف بمكة المكرمة ـ أم القرى ـ والتي أخذت تتطور سريعاً ، وأصبح الأمر يتطلب زعامة تدير أمورها طبقا لمتطلبات الوقت ، وكان من الطبيعي أن يلي إسماعيل ـ عليه السلام ـ أمر مكة والبيت الحرام ، وظل كذلك إلى أن لقي ربه ، فولى بعده ابنه نابت ، ثم آل الأمر إلى مضاض بن عمرو الجرهمي . ومن هنا بدأت زعامة قبيلة جرهم وولايتها لمكة ، وظلت عدة أجيال ، والمدينة تنمو وتزدهر اقتصاديا ، وقـد راجت تجارتها خلال تلك الأجيال رواجا كبيراً ، جعل أهلهـا يتحولون إلى الترف ، وحملهم الترف على البغي والظلم واستحلال الحرمات ، فمع أن

---

(١) راجع الآيات ٩٩ - ١١٣ من سورة الصافات .

الله تعالى جعل البيت حرماً آمناً منذ أول يوم ، وجعله مثابة للناس وأمنا [١] ، إلا أن الجراهمة لم يشكروا نعمة الله عليهم ، وأنهم يعيشون في كنف ذلك البيت العظيم آمنين ، ويتخطف الناس من حولهم ، فكفروها ، وبغوا وظلموا من كان يدخل مكة من غير أهلها ، وأكلوا حتى أموال الكعبة التي كانت تهدى إليها ، فلما كثر فسادهم وعم ظلمهم استاءت القبائل الأخرى من ذلك ؛ خاصة بنو بكر بن عبد مناة من كنانة ، وغبشان من خزاعة ، الذين تحالفوا على جرهم ، وعزموا على إخراجها من مكة ، فأخرجوهم منها .

ولما أدركت جرهم أنها مغلوبة على أمرها ، عمدت إلى نهب أموال الكعبة ، ثم طمَّت زمزم [٢] - أي ردمتها - لئلا ينتفع بمائها ، ويقال إنها ظلت مطمورة منذئذ ، بل مجهولة ، حتى أذن الله تعالى أن يعاد حفرها ، على يد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، جد النبي ﷺ .

ولاية خزاعة على مكة :

بعد أن نجحت خزاعة وكنانة في طرد جرهم من مكة ، انفردت خزاعة بولاية البيت وزعامة مكة ، وكان أول من وليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني الخزاعي ، واستمرت ولايتهم على مكة قرابة ثلثمائة عام ، وكان آخر من وليها منهم ، حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ، الذي تزوج زعيم قريش قصي بن كلاب ابنته حبيً ، وقدر لقصي أن يلعب - عن طريق هذا النسب - الدور الهام في تاريخ مكة ، وأن يصبح زعيمها بلا منازع ، وأن تظل زعامتها في عقبه من بعده حتى ظهور الإسلام .

---

(١) راجع الآيتان ٩٦ - ٩٧ من سورة آل عمران ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المعنى .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

وكانت قريش قبيلة قصي متفرقة في بوادي مكة القريبة منها ، وعندما بدأت خزاعة تسيء السيرة في مكة ، دارت عليها الدائرة - كما دارت على جرهم من قبل وأخرجت مكة من بغى فيها - على حد تعبير ابن إسحاق [١] . وآلت زعامتها إلى قصي بن كلاب .

زعامة قصي بن كلاب لمكة :

قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، هو الجد الرابع للنبي - محمد ﷺ - فهو ؛ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . وقصي هو أول رجل من قريش يفرض سلطانه على مكة ، ويتولى أمر البيت الحرام ، وتوجد عدة روايات حول الطريقة أو الكيفية التي وصل بها إلى أن يصبح زعيم مكة غير منازع وأن يضع لها نظاماً متطورا من الإدارة والإشراف على البيت وخدمته ، سيستمر إلى ظهور الإسلام .

وكيفما كان الأمر [٢] ، فإن قصيا قد أصبح زعيما لمكة وبدأ في تجميع قومه من منازلهم إلى مكة ، وسمي من أجل ذلك مجمِّعا . وقد رضى بزعامته أهل مكة جميعاً - لأنهم فيما يبدو قد ملّوا سفه خزاعة وفسادها - وبذلك كان قصي - كما يقول ابن إسحاق [٣] : « أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه ... فحاز شرف مكة كلّه ، وقطّع مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم ... فسمّته قريش مجمّعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره ، فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم ؛ إلا في داره ؛ يعقد لهم بعض ولده ، وما تدّرع جارية - أي تلبس الدرع - إذا بلغت أن تدّرع من قريش إلا في

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٤ .

(٢) راجع تلك الروايات في المصدر السابق جـ ١ ص ١٣١ - ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه .

داره ، يُشَقّ عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته ، ومن بعد موته ، كالدِّين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها » (١) .

وعن قصي قال أحد الشعراء :

قُصَيٌّ لعمري كان يدعى مجمِّعا
به جمَّع الله القبائل من فهر

وبعد أن انفرد قصي بزعامة مكة ، وأصبح فيها كالملك المتوج ، بدأ يرتب أوضاعها في صورة جديدة ، أكثر تنظيماً وتحديداً ، سواء من الناحية السياسية والاجتماعية أو من الناحية الدينية ، فمن الناحية السياسية ؛ أنشأ دار الندوة الذي كان يجتمع فيه زعماء القبيلة بزعامته ، للتشاور في أمورهم السياسية والاجتماعية والدينية ، التي تتعلق بالكعبة ، ومن خلال التشاور مع قومه بدأ يرتب الوظائف الدينية التي ترتبط بالكعبة ، ويضع لها مدلولات محددة ، ومهام معينة ، على الصورة التالية :

١ ـ **الرفادة** : وهي إطعام الفقراء من الحجيج .

٢ ـ **السقاية** : وهي توفير الماء للحجيج عند زيارتهم الكعبة في الموسم ، وكانت هذه مهمة صعبة للغاية ، وشاقة ، خصوصاً بعد أن طمت جرهم بئر زمزم ، وكان قصي يجهد نفسه في جلب الماء من الأماكن البعيدة لسقي الحجاج .

٣ ـ **الحجابة** : وهي سدانة الكعبة ؛ أي خدمتها وحفظها وتولي مفاتيحها .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٣٧ .

٤ ـ **اللواء** : وهو راية الحرب ؛ التي كانوا يرفعونها فوق رمح عند إعلان الحرب على قبيلة أخرى ، وكان يتبع اللواء قيادة الحرب .

هذا هو مجمل الوظائف التي أنشأها قصي بن كلاب بن مرة ، عندما آلت إليه زعامة مكة ، والقوامة على الكعبة ، وكان ذلك حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي . وقد تولى قصي هذه المهام ، في حياته ، سواء بنفسه ، أو تحت رعايته وإشرافه ، وقبل وفاته خص ولده البكر ، عبد الدار بكل تلك الوظائف والمهام .

عبد الدار بن قصي يخلف أباه في وظائف الكعبة :

كان لقصي أربعة أولاد ؛ وهم عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزي ، وعبد ، وكان عبد الدار ؛ وهو أكبرهم لا يدانيهم في الشرف والمكانة ، فأراد أبوهم أن يعوض ابنه البكر عما قصرت به مواهبه عن إخوته ، فعهد إليه بالمهام والمناصب التي كان يتولاها ، ولم ينازع أبناء قصي الثلاثة الآخرون أخاهم فيما عهد به إليه أبوهم ، بل أذعنوا ، احتراماً لرغبة أبيهم ، ولكن المنازعات بدأت بعد وفاة عبد الدار .

الخلاف بين أحفاد قصي :

بعد وفاة عبد الدار نشب النزاع بين أبنائه وأبناء عمومتهم ، خاصة أبناء عبد مناف بن قصي ، وهم عبد شمس ، وهاشم ، ونوفل ، والمطلب ، فهؤلاء الأربعة أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي ، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم ، وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد مناف ، يرون أنهم أحق من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم ، وكانت طائفة مع

بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم [١] .

فالذين انحازوا لبني عبد مناف ؛ هم ، بنو أسد بن عبد العزي بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب بن مرة ، وبنو تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر ابن مالك بن النضر ، وسمي هؤلاء - أو سمي حلفهم - بالمطيبين ، لأن بني عبد مناف أخرجوا جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين [٢] .

أما الذين انحازوا إلى بني عبد الدار ؛ فهم ، بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص ابن كعب ، وبنو عدِي بن كعب ، تعاقد هؤلاء جميعاً وتعاهدوا مع بني عبد الدار ، عند الكعبة أيضاً ، على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسُمُّوا الأحلاف [٣] .

وبقيت بعض البطون من قريش على الحياد ، فلم تتحز لأي من الفريقين ، وهم بنو عامر بن لؤي ، وبنو محارب بن فهر .

النزوع إلى الصلح :

كان الأمر جداً ، وأخذت تلك القبائل تتأهب إلى القتال ، بل عبَّيت كل قبيلة إلى عد لها ، وأوشكوا على الدخول في الحرب ، لكنهم سرعان ما تنادوا إلى الصلح وحقن الدماء ، وتوصلوا إلى حل وسط ؛ وهو أن يعطوا بني

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

عبد مناف ، السقاية والرفادة ، وأن يحتفظ بنو عبد الدار ، بالحجابة واللواء ودار الندوة . ورضي كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب .

حلف الفضول :

من الأعمال الحسنة التي كان يصنعها عقلاء الرجال في الجاهلية ، حلف الفضول ، وكان القصد منه منع الظلم والوقوف إلى جانب الضعفاء من أهل مكة أو من غيرهم .

وكان الداعي إليه ؛ الزبير بن عبد المطلب بن هاشم ؛ عم النبي . وكان سبب ذلك أن رجلا يمنيا ـ من زبيد ـ قدم مكة تاجراً معه بضاعة يتجر فيها ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ـ والد عمرو بن العاص ـ وكان ذا قدر وشرف في مكة ، فماطل الزبيدي وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف ، الذين سبق الحديث عنهم ؛ وهم بنو عبد الدار ، وبنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدِّي فأبوا أن يعينوه على العاص ـ لمكانته فيهم ـ وزجروا الزبيدي ، فلما لم يجد عندهم خيراً ، ورأى أن حقه قد يضيع ، صعد على جبل أبي قبيس ، عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، ثم صاح بأعلى صوته منشداً :

يـا آل فهـر لمظلـوم بضاعتـه ... ببطن مكة نائي الدار والنفـر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال بين الحجـر والحجـر
إن الحـرام لمـن تمـت كرامتـه ... ولا حـرام لثوب الفاجر الغدر

فلما سمع ذلك الزبير بن عبد المطلب ثارت نخوته ورجولته ومروءته ، وقال : ما لهذا مترك ، ودعا إلى نصرته ، فاجتمعت بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم ، في دار ابن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتعاقدوا ، وكان حلف الفضول ، وأنصفوا الزبيدي من العاص بن وائل .

حديث رسول الله عن حلف الفضول :

هذا هو الحلف الذي شهده رسول الله ﷺ ، وكان شابا في حوالي العشرين من عمره ، وأثنى عليه بعد بعثته ، وقال عنه : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعي به في الإسلام لأجبت » (١) .

ازدهار مكة في عهد زعامة بني عبد مناف

نتيجة للصلح الذي حدث بين أحفاد قصيّ بن كلاب ؛ آل إلى هاشم بن عبد مناف أمر الرفادة والسقاية ، وقد سلَّم له بذلك ، إخوته وبنو عمومته ، لأن أخاه عبد شمس كان رجلاً سفّارا قلما يقيم بمكة ، كما كان مقلاً - أي قليل المال - وذا ولد ، فترك أمر الرفادة والسقاية - لأنه يتطلب إنفاق الأموال - إلى أخيه هاشم ، الذي كان موسرا ، ذا مال ، ولذلك يروى أنه أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وقيل إنما سمي هاشماً لأنه كان يهشم الخبز لقومه بمكة ، وكان اسمه عمرا . ولم يقف كرمه وبره عند حجاج بيت الله الحرام في الموسم ، بل كان غيّاثاً لأهل مكة جميعاً في الشدائد ، وهو الذي سن لهم رحلتي الشتاء والصيف ، الأولى إلى اليمن ، والثانية إلى الشام . فقال شاعر من قريش ، أو من غيرهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف
سنّت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الإيلاف (٢)

« ازدهرت مكة وسمت مكانتها في أنحاء شبه الجزيرة العربية ، واعتبرت العاصمة المعترف بها ، وطوّع هذا الازدهار لأبناء عبد مناف أن يعقدوا مع

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٧ .

جيرانهم من الدول الكبرى معاهدات أمن وسلام ، عقد هاشم بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية - الشرقية - ومع أمير غسان - في الشام - معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الإمبراطورية على الإذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة ، وعقد عبد شمس - ابن عبد مناف - معاهدة تجارية مع النجاشي - إمبراطور الحبشة - كما عقد نوفل والمطلب - ابنا عبد مناف - حلفا مع فارس ، ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن ، وكذلك ازدادت مكة منعة وجاها ، كما ازدادت يسارا ، وبلغ أهلها من المهارة في التجارة أن أصبحوا لا يدانيهم فيها مدان من أهل عصرهم - في شبه جزيرة العرب - كانت القوافل تجيء إليها من كل صوب ، وتصدر عنها في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الأسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها » [1] .

المنافسة بين هاشم وابن أخيه : أمية بن عبد شمس :

ظل هاشم بن عبد مناف - لسعة ماله وكرمه ومروءته وشرفه - على مكانته في قريش ، ورئاسته لمكة ، لا ينازعه أحد ، ولا يفكر في منافسته ، إلا ما كان من ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ؛ الذي خُيِّل إليه ؛ وقد أصبح غنيا ذا مال أنه قد بلغ مكاناً يسوغ له منافسة عمه ؛ لكنه عجز عن ذلك ولم يقدر عليه ، يقول البلاذري : « كان أمية بن عبد شمس ذا مال ، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في إطعام قريش ، فعجز عن ذلك ، فشمت به ناس من قريش ، وعابوه لتقصيره ، فغضب ونافر - عمه - هاشما على خمسين ناقة ؛ سود الحدق تنحر بمكة ، وعلى الجلاء - أي ترك مكة - عشر سنين ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي ؛ وكان منزله عسفان ، فقضى الكاهن لها ثم على أمية ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها ، وأطعم لحمها من حضر ، وخرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين » [2] .

---

(١) انظر : د. محمد حسين هيكل .. حياة محمد ، ص ٩٧ .

(٢) انظر : أنساب الأشراف للبلاذري جـ ١ ص ٦١ .

وظل هاشم يلي أمر السقاية والرفادة إلى أن توفي فخلفه فيهما أخوه المطلب بن عبد مناف ؛ الذي كان جوادا سمحا ، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته . وبعد وفاته خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم .

قال ابن إسحاق : « ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمِّه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبَّه قومه ، وعظم خطره فيهم » (١) .

ولقي عبد المطلب مشقة كبيرة ؛ في النهوض بتبعات الرفادة والسقاية ، وعانى من السقاية بشكل خاص ، لأن الحصول على الماء ـ بعد أن نضبت زمزم منذ ردمتها جرهم ـ كان يتم من آبار مبعثرة حول مكة ، وكان يوضع في أحواض إلى جوار الكعبة ، وكان هذا العمل الشاق يتطلب كثيراً من الرجال والأيدي العاملة ، وعبد المطلب لم يكن له من الولد ، سوى ولد واحد ، هو الحارث ؛ ومن ثم كان الأمر شاقاً عليه ، وقد بدأ يفكر في طريقة تسهل له الحصول على الماء للحجيج ، بشيء أقل من المشقة .

حفر زمزم :

كانت العرب ـ وخاصة قريش ـ لا تزال تذكر بئر زمزم ، متناقلة أخبارها عبر الأجيال ، وكان عبد المطلب بن هاشم يتمنى لو أن الله هداه إلى مكانها ، فأعاد حفرها وجدَّدها . وبينما هو يفكر في الأمر ، جاءه هاتف في المنام دلَّه على مكانها ، بل وحضَّه على حفر البئر التي تفجرت تحت أقدام جده إسماعيل عليه السلام (٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٣ .

(٢) انظر : د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ٩٩ .

يروي ابن اسحاق أن عبد المطلب قال : « إني لنائم في الحجر - حجر إسماعيل - إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة ، قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عنِّي فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر برَّة ، قال : قلت : وما برَّة ؟ قال : ثم ذهب عنِّي ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر المضنونة ، قال : قلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنِّي ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر زمزم ، قال : قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف ولا تذم [١] ، تسقي الحجيج الأعظم ... » [٢] .

شرع عبد المطلب في حفر زمزم ، وظهر ماؤها وكان هذا حدثاً عظيماً في مكة . قال ابن اسحاق [٣] : « فعفَّت زمزم على المياه التي كانت قبلها ، يسقى عليها الحاج ، وانصرف الناس إليها ، لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب » .

قصة النذر والفداء :

عندما أخذ عبد المطلب بن هاشم يحفر بئر زمزم ، بعد أن جاءه الهاتف في المنام ، لم يكن معه سوى ابنه الحارث ، وقد أحسَّ بحاجته إلى أعوان يعينونه على مشقات الرفادة والسقاية ، فنذر إن رزقه الله بعشرة من البنين ، ثم بلغوا معه أن يمنعوه ، من مثل ما لقي في حفر زمزم ، لينحرنَّ أحدهم قرباناً للآلهة عند الكعبة [٤] .

---

(١) لا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا تذم : أي لا يقل ماؤها .
(٢) أنظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٤ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٣ .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٤ .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ؛ جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه ، وقالوا كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل - كبير آلهتهم - في جوف الكعبة ، وقال لصاحب القداح : اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذره ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بني أبيه [1] ، كان هو والزبير وأبو طالب ، لفاطمة بنت عمرو بن عائذ - المخزومية - ... وكان عبد الله ، فيما يزعمون ، أحب ولد عبد المطلب إليه ... فلما أخذ صاحب القداحِ القداحَ ليضرب بها ، قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح ، فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة - السكين - ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ، ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه والله لا تذبحه حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ .

وانتهت القصة بأن اقترح زعماء قريش على عبد المطلب بأن يذهب به إلى عرافة مشهورة بالحجاز ، يستفتيها في الأمر ، ويعمل بما تشير به ، فذهب إليها ووجدها في خيبر ، فقص عليها القصة ، فسألته عن دية الرجل فيهم ، فأخبرها أنها عشرة من الإبل ، فقالت له ارجع بابنك إلى بلدك ، وقرب عشرة من الإبل ، واضرب عليه وعليها القداح ، فإذا خرجت عليه ، فزيدوا في الإبل حتى ترضى الآلهة - أو قالت حتى يرضى ربكم - ففعل عبد المطلب ما أشارت

---

(١) كان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أخوته عند ذلك الوقت - أثناء حادثة الذبح والفداء ، لأنه ولد لعبد المطلب أولاد بعد ذلك كانوا أصغر من عبد الله ، فالعباس بن عبد المطلب ، ولد قبل رسول الله بثلاث سنوات ، وحمزة بن عبد المطلب من سن رسول الله ، لأنه كان يرضع معه من ثويبة جارية أبي لهب .

به ، وضرب القداح فخرج السهم على عبد الله ، فما زال يزيد في الإبل حتى بلغت مائة ، عندئذ رضيت الآلهة ، وخرجت القداح على الإبل ، ففرحت قريش - وكان أشدها فرحا عبد المطلب وأولاده بطبيعة الحال - فأمر بنحر الإبل المائة ، وأطعم أهل مكة ، وانتهت تلك المسألة التي أرقت مكة كلها ، بهذا الفداء ، وإلى هذا كان يشير رسول الله ﷺ عندما كان يقول : « أنا ابن الذبيحين » يقصد أباه عبد الله ، وجده الأعلى إسماعيل عليه السلام .

زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب :

كان عبد الله بن عبد المطلب - كما تصفه كتب السيرة - فتى وسيما ، جميل الطلعة ، رضي الخلق - وهذا ليس غريبا على من اختاره الله ليكون أبا لخير البشر ، محمد ﷺ ، ولقد أضفت عليه حادثة النذر والفداء مزيداً من السحر والجاذبية ، وأصبح حديث مكة كلها ، وكان أكثر من يتحدث عنه بشوق وإعجاب فتياتها المرشحات للزواج ، وكل واحدة منهن تمني نفسها بأن تكون زوجاً لذلك الذي شغل مكة كلها بقصة فدائه .

لكن أباه اختار له من بينهن جميعا السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش ، نسبا وموضعاً ، وأبوها سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، وأمها برَّة بنت عبد العزَّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي .

وتم زواج عبد الله من آمنة ، وفي نفس اليوم تزوج عبد المطلب نفسه من ابنة عمها هالة ، فولدت حمزة بن عبد المطلب ، عم النبي ، وضريبه في سنه .

وأقام عبد الله مع آمنة ثلاثة أيام في بيت أهلها ؛ على عادة قريش في ذلك الوقت ، ثم انتقل بها إلى بيت أبيه ، لكنه لم يقم معها طويلا ، إذ سرعان ما خرج إلى الشام تاجراً ، وخلفها حاملا في خير الخلق ، محمد ﷺ ، وكأن عبد الله لم يخلق إلا لهذه المهمة الخطيرة ، ويا لها من مهمة !!

لأنه لم يعد من رحلته تلك ، إذ وافته منيته ، وهو عائد من الشام ، في يثرب عند أخوال أبيه عبد المطلب من بني النجار [١] ، وترك ابنه ـ خير الأبناء في كل التاريخ البشري ـ جنيناً في بطن أمه ، وترك له ثروة ؛ هي عبارة عن خمسة من الإبل ، وقطيعاً من الغنم ، وجارية ؛ هي أم أيمن ـ التي حضنت النبي ﷺ فيما بعد .

عبد المطلب وحادثة غزو الأحباش مكة :

اضطلع عبد المطلب بن هاشم بعبء السقاية والرفادة ؛ وتألق نجمه ، وازدادت مكانته رسوخاً ، وهيبة في مكة ، خصوصاً بعد أن حفر بئر زمزم ، وجدَّد ذكرى جده إسماعيل ، وبعد أن رزق بعدد كبير من الأولاد ـ زاد على ما كان يتمناه .

لكن عبد المطلب لم يقتصر على القيام بأمور السقاية والرفادة ، لأنه كان عالي الهمة ، مفطورا على الزعامة ، والنهوض بجسام الأمور ، فقد أصبح أهم شخصية في مكة ، ومرجع الأمور كلها .

وقد ارتبط اسمه بحادثة مشهورة في تاريخ شبه الجزيرة العربية في أواخر العصر الجاهلي ؛ وهي محاولة الأحباش غزو مكة المكرمة ، وهدم الكعبة المشرفة . ذلك أن عظم مكانة مكة وعلو شأنها ، لوجود البيت الحرام فيها ، جعلها مهوى أفئدة العرب جميعاً ، يفدون إليها من كل فج عميق ، قاصدين الكعبة ، طائفين حولها ، في إكبار وإجلال ، ولم يكن مجيء العرب ـ من كل أنحاء شبه الجزيرة إلى مكة ـ مقصورا على الحج والعمرة فقط ، وإنما يحققون

---

(١) د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ١٠٨ . وكان هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب قد تزوج من امرأة من يثرب من بني النجار اسمها سلمى بنت عمرو ، هي أم ابنه عبد المطلب بن هاشم .

من وراء تلك الرحلة فوائد أخرى كثيرة ، سياسية واجتماعية وأدبية واقتصادية ، وذلك كله ما أجملته الآية الكريمة ، عندما أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام ، أن يدعو الناس إلى الحج حيث قال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَـٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ سورة الحج ، الآيتان ٢٧ – ٢٨ .

ففي أيام الحج ، كان العرب الوافدون يتبادلون الأخبار والأفكار ، ويناقشون شؤونهم ، ويعرفون أخبار بعضهم ؛ بل أخبار الدول المجاورة لبلادهم ، خاصة فارس والروم . ثم تقام حول مكة الأسواق الأدبية والتجارية ، مثل عكاظ ومجنة ، وذي المجاز وغيرها .

باختصار أصبحت مكة محورا للحياة الدينية والسياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية ، وهذا لم يرض رجال السياسة في المناطق المجاورة ، فحاولوا صرف الناس عن مكة ، بإقامة معابد في بلادهم ، علَّ الناس يحجون إليها بدلاً من مكة ، وكان من بين تلك المعابد وأشهرها ؛ تلك الكنيسة التي شادها الأحباش في صنعاء باليمن ، وقد بالغ أبرهة الأشرم ـ حاكم اليمن الحبشي في ذلك الوقت ـ في زخرفة تلك الكنيسة وتزيينها ، وجلب إليها أفخر الأثاث ، كل ذلك ليغري العرب بالحج إليها بدلا من مكة وبيتها الحرام . ولكن كل ذلك لم يجد أبرهة الأشرم ، فلم يقبل اليمنيون على زيارة كنيسته ، واستمروا على زيارة وتعظيم البيت الحرام بمكة ، والحج إليه [1] ، مما أحنق

---

(١) أنظر د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ١٠١ .

أبرهة ، وجعله يفكر في طريقة أخرى للقضاء على الكعبة . ومما زاده حنقا وغيظا ، أن أهل الحجاز ، وجيران البيت الحرام بمكة ، لما ترامت إليهم أخبار كنيسة صنعاء ، وما يرمي إليه أبرهة من وراء بنائها ، غضبوا هم بدورهم ، وعز عليهم أن يقوم في بلاد العرب بناء ينافس الكعبة ، ويطاول مكانتها ، فقام رجل من بني كنانة بزيارة إلى صنعاء ، وتظاهر بأنه جاء لزيارة كنيستها وتعظيمها ، وفي الليل قام وبال فيها ، وعبث بها ، ولطخ جدرانها بالقاذورات ، وفي الصباح اكتشف الأمر ، ووصل إلى علم أبرهة الأشرم ، أن الذي فعل ذلك رجل عربي من أهل مكة ، فاستبد به الغضب ، وأقسم ليغزون مكة ، ويهدم كعبتها .

وبالفعل أعد جيشا كبيرا لتحقيق غرضه ، وجعل في مقدمة الجيش فيلا ضخما ـ وهذا لم يكن مألوفاً لأهل الحجاز ، ولعلَّهم لم يروا فيلاً قبل ذلك ـ وسار أبرهة إلى مكة يقود جيشه ، ولما وصل إلى مشارفها استولى على بعض قطعان من الإبل ، والماشية التي كانت ترعى ، والتي كانت مملوكة لبعض زعماء مكة ، وكان بعضها لعبد المطلب بن هاشم ، وقبل أن يصل إلى مشارف مكة كان قد ضرب معسكره حول الطائف ، فهرع إليه أهلها ، وأخبروه أن بيتهم ـ اللات ـ ليس هو الذي يريده ، وبعثوا معه دليلاً يدله على مكة ، فلما اقترب منها بعث بعض رجاله ليسأل عن زعيم مكة ليفاوضه ، وكان رئيس وفد أبرهة الذي أرسله رجلا يحمل اسما عربياً ، وهو حناطة الحميري ؛ الذي ذهب إلى عبد المطلب بن هاشم ـ زعيم مكة ـ وأبلغه رسالة أبرهة ؛ ومضمونها أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء لهدم البيت ـ الكعبة ـ فإن لم يحاربه أهل مكة وخَلَّوا بينه وبين البيت يهدمه ، فلن يحاربهم ، لأنه لا حاجة له بدمائهم ، فأبلغه عبد المطلب أنهم هم أيضاً لا يريدون حرباً ـ لأنهم لا قبل لهم بها ـ وسار عبد المطلب مصحوباً ببعض ولده وبعض زعماء مكة وأعيانها ، مع مبعوث أبرهة لمقابلته ، وإجراء مزيد من المفاوضات ، حول أهداف الحملة الحبشية على مكة ، وقد استقبل أبرهة عبد المطلب ووفد مكة بالترحيب والإكرام ، ظنا منه

أنهم جاءوا إليه مذعنين مسلمين له بما يريد ، لكنهم لم يكونوا على ما ظن ، وحتى إذا لم يكونوا قادرين على حربه فليس معنى هذا أن يعلنوا لـه استسلامهم ، بل إنهم فاوضوه مفاوضات جدية محاولين صرفه عن هـدم البيت بكل وسيلة ، فعرضوا عليه أن يتنازلوا لـه عـن ثلث ثروة تهامـة [١] ليرجع ويتركهم وشأنهم ، ولا يمس الكعبة بأذى ، ولكنه رفض ، وعندئذ طالبه عبد المطلب أن يرد إليه إبله التي كان جنوده قد استولوا عليها ، فدهش الرجل وهو يرى زعيم مكة وسيدها ، والمتحدث باسمها يسأل عن الإبل ، ويترك أمر البيت ، ويروى أنه قال لعبد المطلب : « لقد أعجبتني حين رأيتك ، والآن زهدت فيك ، إذ تكلمني عن الإبل ، وتترك أمر البيت الذي هو دينك ، ودين آبائك وأجدادك » ، ولكن عبد المطلب لم يترك الكلام في أمر البيت زهادة فيه ، ولا تفريطا أو تقليلا من شأنه ، وإنما رأى تصميم أبرهة على تحقيق هدفه ، وهدم البيت ، ورأى أن أهل مكة أعجز عن التصدي للجيش الحبشي ، ولا طاقة لهم بحربه ، فقرر أن يترك أمر حماية البيت لرب البيت ، ورد على أبرهة ذلك الرد الحاسم القاطع الواثق : « أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه » . يا لها من كلمة خالدة ، وقد كتب لها البقاء والخلود ، وصارت مثلا يضرب ، لأن الله تعالى لم يتخل عن بيته ، ودمَّر جيش أبرهة الطاغية المعتدي تدميراً كاملاً .

فما أن بدأ تحرك الجيش صوب مكة لهدم الكعبة ، حتَّى سلط الله سبحانه وتعالى ، عليه جنوده التي لا يعلمها إلا هـو ؛ ومنها وباء الجـدري الذي تفشى فيه ، وبـدأ يفتك بـه فتكا ذريعاً ، لم يسلم منه أبرهة نفسه ، الذي أمر ـ عندما أحس بوطأة الكارثة ـ الجيش بالعودة إلى اليمن ، ولكن نقمة الله ؛ رب البيت لاحقته ، فسلط عليه طائفة أخرى من جنوده لتجهز على الجيش بأكمله ، تلك هي الطير الأبابيل ، التي أمطرته بوابـل من الحجـارة فأبادته ، وذلك هـو ما سجله القرآن الكريم فـي سورة كاملة ، سميت سورة الفيل ؛ وهو قوله تعالى :

---

(١) انظر د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ١٠٢ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ وهكذا كانت نهاية أبرهة وجيشه ، وصدق قول عبد المطلب : « للبيت رب يحميه » .

علو شأن مكة بعد حادثة الفيل

لا شك أن ما حدث لجيش أبرهة أمر من خوارق العادات ، وكأن عبد المطلب بن هاشم ، كان ملهما عندما فوض الأمر لصاحب الأمر ، في حماية بيته من هذا العدوان الطاغي ، وكان من الطبيعي أن يندهش الناس ؛ لهذا الحدث الهائل ، وتزداد مكانة مكة وقريش علواً ومهابة عند سائر العرب ، وأصبح ذلك اليوم ـ الذي انتقم الله فيه من أبرهة وجيشه ـ من أخلد أيام مكة ، بل أخلد أيام العرب قاطبة ، وأرّخوا به ، الحوادث الخطيرة في حياتهم ، فكانوا يقولون ؛ حدث هذا الأمر في عام الفيل ؛ أو قبله بكذا أو بعده بكذا ، وكان هذا العام أسعد الأعوام ، على أهل مكة وسائر العرب ، بل على الإنسانية جمعاء ، فهو العام الذي ولد فيه خير البرية : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وجاء بالرسالة العالمية الخاتمة ، رسالة الإسلام التي عم نورها العالم أجمع .

حمل آمنة بنت وهب بسيد الخلق

لم يطل مقام عبد الله بن عبد المطلب مع عروسه ؛ السيدة آمنة بنت وهب ، إذ أرسله أبوه في رحلة تجارية إلى الشام ، وكأن عبد المطلب أراد أن يعود ابنه الاعتماد على نفسه ، فهو الآن رجل يعول أسرة ، ويجب عليه أن يشق طريقه في الحياة معتمداً على نفسه ، ليكسب قوته ، فليس من شيمة الرجل

الكريم أن يركن إلى النساء ، ويكسل عن الكفاح والعمل من أجل الحياة ، وقد إمتثل عبد الله لأمر والده ، وجهز نفسه للسفر ، وكانت سفرة لم يعد منها ؛ فقد توفى في يثرب عند أخوال أبيه من بني النجار وهو عائد . وحزنت مكة كلها ـ وكان أشد الناس حزناً عبد المطلب وآل بيته ـ لموت هذا الشاب ؛ الذي لا زال في مقتبل عمره ـ كان في حوالي الرابعة والعشرين ـ والذي لم يمض على قصة نذره وفدائه وزواجه المثيرة إلا وقت قصير . كان من الطبيعي أن تكون آمنة بنت وهب هي أكثر الناس حزنا على موت عبد الله ، ذلك الزوج الحبيب ، التي سعدت عندما اقترنت به ، ورأت أن المستقبل سيكون أعظم اشراقا لها ، وأنها ستهنأ بالحياة ، في كنف هذا الشاب الوسيم الحسيب النسيب ، الممتلىء قوة وفتوة ورجولة ومروءة وشهامة ، ذلك الذي كانت فتيات مكة جميعا يتهافتن عليه ، وفازت هي به دونهن ، ولعلهن حسدنها عليه . فإذا بالموت يختطفه منها ، ولم تسعد به سوى شهور قليلة .

حقاً كان حزن آمنة على موت عبد الله مؤلماً ، ومصيبتها فادحة ، ولعلها تصورت أنها سيئة الحظ ، وأن الدنيا قد أظلمت في عينيها ، ولم تكن تدري وقتها أن القدر رسم تلك القصة ـ قصة عبد الله ونذر أبيه ذبحه ، وفدائه ، وزواجه منها ـ بكل ما فيها من أمور عجيبة ومثيرة ، لحكمة يعلمها هو وحده ، ولم تكن تدري أن عبد الله بن عبد المطلب لم يخلق إلا ليحملها تلك الأمانة الغالية ، وأنها ستكون أما لخاتم رسل الله وأشرفهم ، وأنها ستهدي للبشرية كلها أفضل مما قدمت أي أم في العالم . ولله در أمير الشعراء أحمد شوقي إذ يقول :

وأسدت للبرية بنت وهب ... يدا بيضاء جلَّلت الرقابا

أخذت موجات الحزن العارمة تنجاب عن آمنة شيئاً فشيئاً ؛ حيث قضت حكمة الله تعالى أن كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر ؛ عدا الحزن ، فإنه يبدأ كبيراً ثم يصغر ، وذلك من لطف الله وعنايته بخلقه .

بدأت آمنة تحس بجنين يتحرك في أحشائها ، وبدأ أملها يتعلق بهذا الكائن الحي ، لعله يعوضها عن زوجها الحبيب ، ولعل هذا الحمل يصل ما انقطع من أملها ورجائها ، وأخبرت عبد المطلب بحملها ، ففرح فرحا طاغيا بهذا الخبر ، فرحا بدد كثيراً من حزنه على ولده الشاب عبد الله ، فلعل الله يأتي بهذا الحمل ولدا ذكرا ، يعيد ذكرى أبيه ، ويعوضه عن فقده ، وظل يرقب مرور أشهر حمل آمنة ، بشوق ربما لا يقل عن شوقها هي نفسها ، ومرت أشهر الحمل عادية هادئة ، ولم تر آمنة في أثناء حملها تعبا ولا نصبا ، كما هو المألوف في مثل حالتها ، فمن المعتاد أن الحمل الأول يكون مصحوباً بكثير من المتاعب والآلام ، وتغيرات فسيولوچية في جسم المرأة الحامل . ولكن آمنة لم تعان شيئا من ذلك ؛ بل كانت تسر إلى المقربات منها من النساء ـ وهي مندهشة ـ أنها لا تعاني في حملها ألما ولا تعبا ، وأنها كانت ترى في منامها رؤى ، وتأتيها هواتف ، حارت في تفسيرها ، وإن كانت تحس بينها وبين نفسها ، أن حملها غير عادي ، وأن وليدها سيكون له شأن غير شأن سائر الأطفال . فقد روى ابن إسحاق [١] أنها حين حملت برسول الله ﷺ قد أتيتْ ـ أي أتاها آتٍ في المنام ـ فقال لها : « إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض ـ ساعة ولادته ـ فقولي : " أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد " ، ثم سمِّه محمدا » ، ورأت أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام ، وروي أنها كانت ترى في منامها ؛ وهي حامل به ، سلسلة من الذهب تتدلى من السماء إلى الأرض ، لتصل ما بينهما ، وأن أشعة من النور كانت تفيض من هذه السلسلة .

وليس هذا كله ببعيد أو مستغرب ، فهو نفسه ﷺ نور ، وبعض المفسرين يرى أنه هو المقصود بكلمة نور في قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ آية ١٥ [٢] .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٠ .

(٢) سنذكر بعد قليل بعض أسمائه وأوصافه التي وردت في القرآن الكريم .

ولم تكن آمنة بنت وهب - أم النبي ﷺ - وحدها هي التي رأت تلك الرؤى الجميلة ، العجيبة أثناء حملها به ، وإنما يروى أن جده عبد المطلب بن هاشم ، رأى هو أيضا رؤى شبيهة بما رأته آمنة ، فقد سئل لم سميته محمداً ، قال : « إنه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها [1] .

اجتمعت رؤيا آمنة ورؤيا عبد المطلب ، واتفقا على تسميته محمدا ، ولم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ويكاد يجمع علماء السيرة على أنه لم يتسم بهذا الاسم الكريم - محمد - في الجاهلية سوى ثلاثة أشخاص . قال السهيلي [2] ؛ لا يعرف من تسمَّى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز ، أن يكون ولدا لهم ... وهم : محمد بن سليمان بن مجاشع ، جد الفرزدق ، الشاعر ، والآخر ؛ محمد بن أحيحة الجلاَّح ، والثالث ؛ محمد بن حمران بن ربيعة .

الميلاد المبارك

الذي عليه جمهور علماء المغازي والسير أن مولده ﷺ ؛ كان في ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، عام الفيل ، وهو الموافق لعام ٥٧٠م ، وكان مولده بعد خمسين يوماً من هلاك جيش أبرهة بالطير الأبابيل [3] .

ويقول ابن اسحاق : « فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت إلى جده

---

(١) محمد أبو زهرة - خاتم النبيين جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٢ . وانظر : اتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ١ ص ٥٦ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس جـ ١ ص ٣٤.

عبد المطلب ، أنه قد ولد لك غلام ، فأته فانظر إليه ، فأتاه ، فنظر إليه ، وحدَّثته بما رأت حين حملت ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه ، فأخذه فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ، ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه ، فدفعه إليها » .

إرهاصات النبوة يوم مولده

ذكرت كتب السيرة أموراً كثيرة من الخوارق والعجائب ، التي لم يكن الناس يألفونها ، عند ولادة النبي ﷺ .

من ذلك ما يرويه ابن اسحاق ، مرفوعا إلى حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول ﷺ ، أنه قال : « والله إني لغلام يَفَعَةٌ - أي طال قَدُّه - ابن سبع سنين ، أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت : إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطُمِه - أي على حصنه - بيثرب : يا معشر يهود؛ حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له : ويلك مالك !! قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به » [١] .

وهناك رواية أخرى عن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : [٢] « كان يهودي قد سكن مكة يتجر فيها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ، قال في مجلس قريش : يا معشر قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ، فقال القوم : والله ما نعلمه ، فقال : الله أكبر ، أما إذا أخطأتم فانظروا ، واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخير ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات » [٣] .

وليس ذلك ببعيد لأن اليهود كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فهو

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) أنظر اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، للنجم عمر بن فهد جـ ١ ص ٥٤ .

(٣) أنظر خاتم النبيين - المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٤ .

مذكور عندهم في التورات والانجيل كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

ومن الأمور العجيبة التي صاحبت مولده ، تصدع إيوان كسرى فارس وسقوط شرفاته وخمود نيرانهم التي كانوا يعبدونها [١] .

ولا يصح لعاقل أن يقول : إن هذه أوهام سيطرت ، وخيالات خيلت ، وظنون ظُنَّت ، لمجرد أنها خالفت مجاري العادات ، وما ألف الناس في كل مولود ، فليس محمد ككل مولود !! ومع ذلك فنحن نرجح صدقها ، ولا نلزم الناس بالإيمان بها ، فليس من الإيمان أن نؤمن بأن إيوان كسرى ارتجف ، ولا النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار ، عندما شرف هذا الوجود بميلاده لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعى النبي ﷺ إلى الإيمان به ، إذ أن ما يجب الإيمان به هو ما دعا إليه ، وما تكلم به عن الله سبحانه وتعالى ، وما نطق به القرآن الكريم ، وما حكم به الديان .

ولو رجعنا إلى ما كتبته الأناجيل الحاضرة ، في مولد عيسى عليه السلام ، وما ألزمت الأناجيل به النصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل ، التي يزعمون

---

(١) عيون الأثر جـ ١ ص ٣٧ .

صدقها ، لوجدنا أن ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئاً كثيراً بالنسبة لما ذكرته الأناجيل ، وأوجبت الإيمان به ، ولنقبض قبضة يسيرة ، مما جاء في هذه الأناجيل ، وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام :

أ - جاء في إنجيل متى ، في الإصحاح الثاني عشر ، أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .

ب - وجاء في إنجيل لوقا ، في الإصحاح الثاني : لما ولد يسوع المسيح ، رتّل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة .

ج - وجاء في أحد الأناجيل أيضا في ولادة المسيح : لما ولد يسوع المسيح ، أضيء الغار بنور عظيم ، أعيا بلمعانه عيني القابلة ، وعيني خطيب أمه ؛ يوسف النجار .

د - وجاء في إنجيل لوقا ، الإصحاح الثاني : « وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له » .

هـ - وجاء في إنجيل متى الإصحاح الثاني أيضا : « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية ، في أيام هيرودس الملك ، إذ المجوس من الشرق ، قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود من اليهود » [١] .

هذا قليل من كثير مما جاء في الأناجيل من الخوارق والغرائب التي تروى عند ولادة المسيح عليه السلام ، ونحن لا نستبعد ذلك ، فعيسى عليه السلام نبي ورسول ، وولادته نفسها معجزة ، فليس غريبا حدوث المعجزات عند ميلاده ، كما حدث عند ولادة محمد .

---

(١) خاتم النبيين جـ ١ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

لكن الغريب أن يصدقوا ما روي أنه حدث عند ولادة عيسى ويستغربوا ما حدث عند ولادة محمد ﷺ من الخوارق ، لأن هذا هو التعصب الذي نربأ بأنفسنا عنه نحن المسلمين ، فنحن نؤمن برسل الله جميعاً ، ولا نفرق بين أحد منهم .

ورحم الله أمير الشعراء ، أحمد شوقي ، فقد جمع كل ما روي أنه حدث من خوارق عند ميلاد الرسول ﷺ في قصيدته الهمزية المشهورة والتي مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء	وفم الزمان تبسُّم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله	للدِّين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي	والمنتهى والسدرة العصماء
بك بشَّر الله السماء فزيِّنت	وتضوَّعت مسكا بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه	ومساؤه بمحمد وضَّاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت	وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم	جمعت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى والخوارق جمَّة	جبريل روَّاح بها غدَّاء

مكان ولادته ﷺ واحتفاء أهله به :

ولد محمد ﷺ في دار أبيه في شعب أبي طالب ، بمكة المكرمة ، وهو البيت الذي باعه عقيل بن أبي طالب ، فيما بيع من دور من هاجر مع النبي ﷺ من بني هاشم ، إلى المدينة المنورة ، وقد روي أن الرسول ﷺ عندما دخل مكة عام الفتح ٨ هـ قال متألما : « وهل أبقى لنا عقيل دارا » .

وقد صارت هذه الدار إلى محمد بن يوسف الثقفي ، أخي الحجاج بن يوسف ، ولم تزل كذلك حتى عهد الخليفة العباس ، هارون الرشيد - ١٧٠ -

١٩٣ هـ ـ فقد حجّت أمه الخيزران ، إلى بيت الله الحرام ، ويقال إنها اشترت البيت وجعلته مسجداً ، وقد هدم هذا المسجد أخيراً ، ويعزمون على إقامة مدرسة لتحفيظ القرآن مكانه [١] ، وهذا أعظم تكريم للمكان الذي ولد فيه خير البرية ﷺ .

احتفى الهاشميون جميعاً بمولده ، حتى أن عمه عبد العزّى ـ المشهور بأبي لهب ـ أعتق الجارية التي بشرته به وهي ثويبة ، التي كان لها شرف أن تكون أول مرضعة له ، فقد أرضعته وأرضعت معه عمه حمزة بن عبد المطلب .

وفي اليوم السابع لمولده ، نحر جدّه عبد المطلب الذبائح ، وأقام الولائم شكراً لله ، وإبتهاجا واحتفاء بالوليد الكريم الحبيب ، وحضر الوليمة جلّة رجال قريش وعظماؤها ، فلما طعموا وهموا بالإنصراف ، سألوا عبد المطلب عن اسم الطفل ، فقال لهم : سميته محمدا ، فقالوا له : لم رغبت عن أسماء آبائك وأجدادك ، فقال : أردت أن يكون محمودا في السماء لله ، وفي الأرض لخلقه [٢] . وقد كان لرسول الله ﷺ أسماء كثيرة ، أشهرها خمسة ، ففي الصحيحين ، عن جبير بن مطعم ، قال : « قال رسول الله ﷺ : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي ، الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر ، الذي يحشر الناس على قدميَّ ، وأنا العاقب » [٣] ، وأشهر هذه الأسماء الخمسة ، أثنان ، وهما محمد وأحمد ، فهما اللذان وردا في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ سورة الفتح ، الآية ٢٩ . وقال تعالى على لسان عيسى

---

(١) انظر : السيرة النبوية ، للشيخ محمد أبو شهبة جـ ١ ص ١٧٨ . وكذلك اتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد جـ ١ ص ٤٨ .

(٢) انظر : حياة محمد ، للدكتور هيكل ص ١٠٩ .

(٣) السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة جـ ١ ص ١٨١ - ١٨٢ .

عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِى إِسْرَاءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ سورة الصف ، الآية ٦

ومما ذكر في القرآن الكريم من أسمائه ﷺ وصفاته يس وطه ، والشاهد والمبشر ، والنذير ، والمبين ، والداعي إلى الله ، والسراج المنير ، قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ وفيه أيضا : المذكر ، والرحمة ، والنعمة ، والهادي ، والشهيد ، والأمين ، والمزمل والمدثر ، والرءوف الرحيم ، ومنها المختار ، والمصطفى ، والشفيع المشفع ، والصادق المصدوق ، وكان بعض صحابة رسول الله ﷺ إذا حدث عنه قال : حدثني الصادق المصدوق ﷺ ، إلى غير ذلك من الأسماء الشريفة ، التي تدل على صفات جليلة ، وخصوصيات منيفة » [١] .

رضاعته

رضع النبي ﷺ في أيامه الأولى ، بعد ولادته من ثويبة ، جارية عمه أبي لهب ، وقيل أعانت أمه في إرضاعه لعدم كفاية لبنها لتغذيته [٢] ، وظلت أمه تنتظر مجيء المراضع ، كما هي عادة الأشراف من قريش ، لتدفع طفلها إلى أحداهن لترضعه ، فلم تكن نساء أشراف العرب يرضعن أولادهن بأنفسهن ، ولعل هذه العادة باقية إلى الآن ، فكثير من كبراء الناس وذوي اليسار ، لا يرضع نساؤهم الأولاد .

وقد قال السهيلي في تعليل تلك الظاهرة : « وأما دفع قريش وغيرهم من

---

(١) السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة جـ ١ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) إتحاف الورى ، المصدر السابق جـ ١ ص ٥٧ .

أشراف العرب أولادهم إلى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه ، أحدها تفريغ النساء إلى الأزواج ... وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل في الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه ... وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر : حين قال له : « ما رأيت أفصح منك يا رسول الله » فقال : « وما يمنعني ، وأنا من قريش ، وأرضعت في بني سعد » فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ويتنسموا نسيم البادية » (١) .

ويبدو أن قبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن ، هي الأشهر في مهنة إرضاع الأطفال بأجر ، وبيئتها وديارها أصح البيئات من حيث فصاحة اللغة ، وطيب الهواء . فقد قدم مكة عشر نسوة من بني سعد ، يلتمسن الرضعاء ، منهن أم كبشة حليمة بنت أبي ذؤيب ، وعرض عليهن محمد فأبينه ليتمه ، ثم أخذته حليمة لما لم تجد غيره .

إعراض المراضع عنه :

فها هي تروي القصة فتقول : « قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنّا نرجو المعروف من أبي المولود ، وأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ، فكلنا تركه لذلك ، ولم تبق امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا ، غيري ، فلما أجمعن على الانطلاق إلى بلادهن قلت لصاحبي - أي زوجها - : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم أجد رضيعا ، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم ، فلآخذنه ، فإنه أمتع من أن أرجع بغير رضيع . فقال : لا عليك أن تفعلي - أي لا بأس عليك إن فعلت - عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت إليه

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٧ .

فأتيت أمه فأخذته ـ وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ... »[١] .

ما صنع الله لحليمة من البركة على يديه :

لا شك أن حليمة السعدية كانت أسعد النساء ، إذ هداها الله لأخذ سيد الخلق ، وخصها بتلك الكرامة وحدها لتكون مرضعته ، ولقد صنع الله تعالى لها على يديه من الخير والبركة الشيء الكثير .

١ ـ أول شيء ظهر من بركته ، أن ثديي حليمة لم تكونا تدرّان لبنا لابنهما الذي كان معها ، وكان الطفل يبكي من الجوع ، ويحرمها وزوجها من النوم ، فلما أخذت رسول الله ﷺ ورجعت به إلى رحلها قالت « فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه ـ من الرضاعة ، وهو إبنها الذي كان يبكي من شدة الجوع من قلة اللبن ـ حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك »[٢] .

٢ ـ ثاني مظاهر البركة ، أن ناقتهم لم تكن تدر لبنا ، فلما حلّ رسول الله بينهم ، درت ضرعها لبنا غزيراً .

٣ ـ ومن مظاهر بركته ﷺ أن حمارها التي كانت تركبه كان أضعف الحمر وأهزلها ، ولا يقو على مسايرتها من الضعف والهزال ، فإذا بالقوة والنشاط يسريان في أوصاله ، وإذا هو أسرع الحمر جميعاً ، بل لا تقو الحمر على مسايرته[٣] .

٤ ـ ومن آثار بركة رسول الله عليهم ، أن غنم حليمة وزوجها كانت تدر

---

(١) إتحاف الورى ، المصدر السابق جـ ١ ص ٥٨ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٥ .

اللبن الغزير في العام المجدب دون أغنام قومها .

وهكذا أخذت نعم الله تتوالى على حليمة السعدية وأسرتها ببركته ﷺ :

عودة حليمة به إلى أمه :

مكث الطفل الكريم عند حليمة السعدية حولين فلما استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء كان على حليمة أن تعود به إلى مكة لتسلمه إلى أمه ، كما يقضي العرف ، حيث كان الأطفال الرضعاء يعودون إلى أسرهم بعد عامين ، والعجيب أن هذه هي مدة الرضاعة الطبيعية المناسبة للطفل والتي أقرها الإسلام ، حيث يقول تعالى في سورة البقرة ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ مما يدل على أن الإسلام هو دين الفطرة .

كانت حليمة أحرص ما يكون على بقائه معها أطول مدة ممكنة لما رأت على يديه من الخير والبركة ، ولكنها عادت به إلى أمه كما تقضي العادة ، وكلها رجاء أن تسمح لها بأن يعود معها ليقضي عندها فترة أطول . تقول حليمة نفسها معبرة عن مشاعرها الداخلية ورغبتها في بقائه عندها : « فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بنيّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وَبأ مكة [1] ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا ، فرجعنا به » [2] .

---

(١) المقصود بالوبأ كثرة الأمراض والأوبئة .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٥ .

حادثة شق الصدر [١] :

عادت حليمة برضيعها الكريم وكلها بشر وسرور ، وبعد عودتها به بعدة شهور حدث له أول حادث ملفت للنظر ، وهو حادث شق صدره الطاهر .

تقول حليمة : « فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفى بهم [٢] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه - من الرضاعة - يشتد ؛ أي يعدو مسرعا - فقال لي ولأبيه - من الرضاعة وهو زوجها أبو كبشة - ذاك أخي القرشي ، قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقَّا بطنه ، فهما يسوطانه [٣] ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه [٤] ، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بنيّ ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقَّا بطني ، فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو ، قالت : فرجعنا إلى خبائنا ... وقال لي أبوه : يا حليمة ، لقد خشيت أن هذا الغلام قد أصيب ، فالحقيه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك عليه ، قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت ما أقدمك به يا ظئر [٥] ، وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : نعم قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي ، وتخوّفت الأحداث عليه ، فأديته عليك كما تحبين ، قالت : ما هـذا شأنك فاصدقيني خبرك ، قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ، قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت : قلت : نعم ، قالت : كلاً ! ! والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنيّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ قالت : قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام » [٦] .

---

(١) أنظر عيون الأثر جـ ١ ص ٣٩ - ٤٨ .

(٢) البهم - بفتح الباء وسكون الهاء - هي صغار الغنم ، واحدتها بهمة .

(٣) يسوطانه أي يحركانه ويقلبانه .

(٤) أي متغيرا وجهه من أثر ما حدث له .

(٥) الظئر هي المرأة التي ترضع أولاد غيرها .

(٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

هذه هي حادثة شق صدره الطاهر الأولى ، وهو طفل رضيع في بني سعد ، وقد تكرر شق صدره مرتين بعد ذلك كما تروي كتب الحديث ومصادر السيرة النبوية ، فالمرة الثانية حدثت عند مبعثه ، والثالثة عند الإسراء والمعراج ؛ وهذه المرة ثابتة بالأحاديث الصحيحة من رواية الشيخين ، البخاري ومسلم وغيرهما .

ويعلل بعض العلماء تكرار شق صدره ﷺ ، أن المرة الأولى كانت لنزع العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان من كل بشر ، فخلقت فيه ﷺ ، تكملة للخلق الإنساني ، ثم كان إخراجها بعد خلقها كرامة ربانية ، فهو أدل على مزيد الرفعة والكرامة من خلقه بدونها ، وبنزعها منه نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ، والاتصاف بصفات الرجولية من الصغر ، فلا لهو ولا عبث ، وإنما هو الكمال والجد .

وأما الثانية ـ التي عند المبعث ـ فليتلقى ما يوحى إليه من أمور الرسالة بقلب قوي ، وهو على أكمل الأحوال وأتم الاستعداد .

وأما الثالثة ـ التي عند الإسراء والمعراج ـ فكانت استعدادا لما يلقى إليه في هذه الليلة من أنواع الفيوضات الإلهية ، وما سيريه ربه فيها من الآيات البينات ، وإدراك مرامي المثل الرائعة التي ضربت له في مسراه ، وفي معراجه ، وكلها تحتاج إلى شرح الصدر وثبات القلب » [1] .

المنكرون لشق الصدر :

حاول كثيرون ممن تناولوا حياة النبي ﷺ من المستشرقين التشكيك في حادثة شق الصدر ، بل وإنكارها ، لأنها تخالف المألوف ، ولا تخضع لمقاييس

---

(١) أنظر : الروض الأنف للسهيلي جـ ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ ، والسيرة النبوية جـ ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ للشيخ محمد أبو شهبة .

العقل والمنطق ، فيرجع السير وليم موير الحادثة إلى أنها عبارة عن نوبة عصبية أصابته ، ولم تؤذه لحسن صحته وكمال تكوينه الجسمي [١] . أما درمنغم فيرجعها إلى أمر معنوي ، نشأت من قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ، وطعن آخرون في القصة ، وقالوا إنها ضعيفة السند ، وأنها مرسلة ، وأن القصة رواها طفل صغير ـ حادثة شق الصدر الأولى ـ في سن الستين ، وهي سن لا يبلغ الطفل عندها حد التمييز .

تفنيد آراء منكري شق الصدر :

تصدّى لافتراءات المستشرقين ومزاعمهم حول قصة شق الصدر طائفة كبيرة من علماء المسلمين ، وفندوها ودحضوها بالأدلة العلمية والأسانيد الصحيحة ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد أبو شهبة الذي كان رده على المستشرقين ومن لف لفهم من الكتاب المسلمين كالآتي [٢] :

١ ـ أما أن المستشرق سيروليم موير لم يرض أن يشير إلى قصة الملكين ـ كما يذكر الدكتور هيكل ـ فثبوت القصة أو نفيها لا يتبع رضاه ولا عدم رضاه ، وإنما المعول عليه في هذا ثبوت الرواية أو عدم ثبوتها ، ولا أدري كيف استراح الدكتور هيكل إلى زعم موير ، وتجويزه أن يكون النبي في طفولته أصابته نوبة عصبية ، وقد تنبهت لها حليمة وزوجها ، وأن هذه النوبة لم تؤثر في النبي لحسن تكوينه !! وهو دس خبث وطعن مردود ، وليس في القصة ما يدل عليه ، ولماذا رجح ظن حليمة وزوجها ، وتخوفهما أن يكون أصاب النبي شيء ، ولم يرجح قطع أمه السيدة آمنة في أنه ليس للشيطان عليه سبيل ؟ والأم أعلم الناس بالأبن ، وآخر من يقنع بزوال أثر المرض عن الإبن . وموير لأجل أن ينكر الشق ، وقع فيما هو أشد نكرا ، وهو أن النبي أصابته نوبة عصبية حتى خيل

---

(١) د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ١١١ .

(٢) السيرة النبوية للشيخ أبو شهبة ، مرجع سابق جـ ١ ص ٢٠٨ وما بعدها .

إليه ما ليس بحاصل حاصلا ، وهي شنشنة تعرف من أخزم ! ـ كما يقول المثل العربي ـ .

٢ ـ أما أن درمنغم يرى أن القصة لا تستند إلى شيء غير ما يفهم من الآية ـ ألم نشرح لك صدرك ـ وأن ما يشير إليه القرآن إنما هو عمل روحي بحت ، فنحن لم نقل : إن الآية هي الدليل ، وإن كان البعض يقول : إنهـا تشير إلى ذلك ، ولكن الدليل هو ما ثبت من الروايات التي سقناها .

٣ ـ أما أن ما يدعو المستشرقين والمفكرين من المسلمين إلى إنكار هذا الحادث : أن حياة النبي ، كانت كلها إنسانية سامية ، فنحن نرى ألا تنافي قط بين سمو الحياة الإنسانية ، وثبوت الخوارق والمعجزات الحسية للأنبياء . وهل عيسى ـ عليه السلام ـ لما ولد بغير أب ، وأجرى الله علي يديه خوارق العادات لم تكن حياته إنسانية سامية ؟ وهل موسى عليه السلام ، لما أعطي الآيات التسع لم تكن حياته إنسانية سامية ؟ الحق إنها لوثة حمل لواءها المستشرقون ، وسرت عدواها إلى بعض الكتاب المسلمين المعاصرين .

٤ ـ ثم إن حادثة شق الصدر ليست مخالفة للعقل ، لقد ظلم الدكتور هيكل العقل حين قال ذلك ، وفرق كبير بين مخالفة العادة ومخالفة العقل . ولو جاز التشكيك في القصة في العصور الأولى ، فلن يجوز ذلك اليوم ، وقد تقدم العلم والطب ، وأصبحت تجري فيه العمليات الجراحية الخطيرة في القلب وفي الكلى وفي الرئتين ، بل وتجرى محاولات لزرع بعض أجزاء إنسان في جسم إنسان آخر ، فإذا جاز أن يقع هذا من البشر ، أفنستبعد على قدرة الله وملائكته المؤتمرين بأمره ، أن يشقوا صدر النبي ، بلا آلة ولا ألم ولا سيلان دم .

ثم ما للمعجزات ولسنن الكون العادية ؟ حتى نتعلَّلَ في إنكارها بأننا لن نجد لسنة الله تبديلا ، وما المعجزات إلا أمور خارقة للمألوف من سنن الله في الكون !!

٥ ـ أما قول البعض : إن هذه القصة ضعيفة السند ، فنقد مجمل ، وكنا نحب من الناقد أو المنكر ، وقد عرض لإنكار أمر يقره جمهرة المسلمين ، وفيهم أئمة كبار، أن ينقد سند القصة نقداً تفصيلياً ، أما وقد أتى به نقداً مجملا فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند هذه القصة ، وقد سمعت آنفاً أن القصة رواها الإمام مسلم في صحيحه ، وإن كانت مجملة ، وأن بعض أسانيد القصة إن لم تكن صحيحة فهي حسنة وجيدة وتصلح للإحتجاج بها ، بل قصة الشق ليلة الاسراء والمعراج مروية في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث ، بل قال بعض العلماء المحققين : إنها متواترة ، قال الحافظ ابن حجر ، بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكرره : « وجميع ما ورد من شق الصدر ، واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، مما يجب التسليم به ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك ، وقال القرطبي : « لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء والمعراج ، لأن رواته ثقات مشاهير » ، وطبيعي أن من صدق به ليلة الإسراء والمعراج ، يلزمه التصديق به في الصغر ، وعند البعثة ، ما دام الأمران ثابتين بالروايات التي يحتج بها .

أما ما قيل من أن ابن اسحاق رواها مرسلة عن رجل لم يُسَمَّ من الصحابة ، فلا ينهض دليلا للطعن ، إذ المعروف في قواعد أصول الحديث ، أن الصحابة عدول ، فلا تضر جهالة الصحابي .

هذا ملخص تفنيد الشيخ محمد أبو شهبة ـ في كتابه السيرة النبوية ـ [1] لآراء ومزاعم منكري حادثة شق الصدر من المستشرقين ومن والاهم من الكتاب المسلمين .

---

(١) جـ١ ص ٢٠٨ - ٢١١ .

خاتم النبوة

جاء في كتب الحديث ومصادر سيرة النبي ﷺ روايات كثيرة أنه كان في جسده الطاهر ﷺ قطعة لحم بارزة عليها شعر عند كتفه الأيسر، كذر الحجلة [١] - كما في صحيح البخاري ومسلم، أو كبيضة الحمامة كما في صحيح مسلم، وهي ما عرف بخاتم النبوة، والروايات تدل على أن هذا الخاتم كان من علامات نبوته ﷺ في الكتب السابقة، كما تدل على ذلك قصة لقائه ببحيري الراهب، فقد رأى الخاتم على كتفه - وسنذكر ذلك فيما بعد -

وقد روي الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما [٢] عن السائب بن يزيد قال ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، وقمت خلف ظهره، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل ذر الحجلة، وروي مسلم بسنده عن جابر بن سمرة قال: رأيت خاتما في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام. ويقول السهيلي: « والحكمة في خاتم النبوة على جهة الاعتبار، إنه لما مليء قلبه حكمة ويقينا، ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء، وأما وضعه عند نغص كتفه [٣] فلأنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يوسوس الشيطان لابن آدم » [٤].

في كفالة أمه

يبدو أن محمدا قد عاد مع حليمة السعدية مرة أخرى بعد حادثة شق

---

(١) الحجلة بفتح الحاء والجيم، الخيمة المزينة بالستور، وذرها هي البكرة التي تربط بها الحبال. وقيل الحجلة طائر، وذرها بيضها.

(٢) راجع صحيح البخاري - باب خاتم النبوة، وصحيح مسلم - باب صفة خاتم النبوة.

(٣) نغص كتفه أعلى منقطع الغضروف في الكتف.

(٤) الروض الأنف، مصدر سابق جـ ١ ص ١٩١.

الصدر ، فالحادثة حدثت بعد شهور من عودتها به من عند أمه وكان عمره عندئذ سنتين وبضعة شهور . وهناك روايات مشهورة بأنه أقام في بني سعد إلى سن الخامسة ، وهذا يدل على أنه عاد مع حليمة بعد حادثة شق الصدر ، وإن كان لم يقم معها إقامة دائمة ، ويرجح الشيخ محمد أبو زهرة [١] أنها كانت تتردد على مكة وتأخذه معها الفينة بعد الفينة يستروح نسيم الصحراء ، وتتيمن به ظئره المخلصة العطوف ، وظلت عملية تكرار أخذه من أمه ورده إليها إلى أن بلغ سن الخامسة ، فأخذته أمه بصفة نهائية ولم يذهب بعد ذلك إلى بني سعد ، ولم تره حليمة بعد ذلك إلا بعد أن اكتملت رجولته وتزوج ، وتركت السنوات الخمس التي قضاها من عمره الشريف في بني سعد أجمل الأثر في نفسه ، كما بقيت مرضعته حليمة وأهلها موضع محبته وإكرامه طوال حياته . فبعد زواجه من خديجة ﷺ جاءته حليمة - وقد أصابت الناس سنة جدباء - فعادت من عنده بأربعين رأسا من الغنم ، وبعير يحمل الماء ، وكانت كلما أقبلت عليه مد لها طرف ردائه لتجلس عليه ، دليلا على إحترامه وتوقيره لها ، وكيف لا وهو أوفى الأوفياء . بل شمل كرمه ووفاؤه أخته من الرضاعة الشيماء التي كانت قد أسرت فيمن أسر من هوازن في غزوة حنين ، فلما جيء بها إلى النبي ﷺ وعرفها أكرمها وردها إلى أهلها بناء على رغبتها [٢] .

على كل حال عاد ﷺ إلى أمه عندما وصل عمره إلى الخامسة ، فاستقبلته في لهفة وشوق ، فهو كل شيء في حياتها وليس هناك ما يشغلها عنه ، فقد كرست كل طاقتها لرعايته والعناية به ، وكان جده عبد المطلب يحنو عليه أكثر من حنوه على أولاده .

يقول ابن اسحاق : « وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ،

---

(١) خاتم النبيين جـ ١ ص ١١٤ .
(٢) الدكتور هيكل ، حياة محمد ص ١١٢ .

وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته » [١] .

رحلته الأولى إلى يثرب :

حين بلغ النبي ﷺ السادسة من عمره ، خطر لأمه أن تصحبه معها في رحلة إلى يثرب ، فهناك يثوى جسد أبيه ـ ولعل الغلام تاقت نفسه لزيارة قبر أبيه الذي لم يره قط ، ولعل أمه حدثته كثيرا عن ذلك الأب الحبيب ، مما جعله يزداد شوقا وتطلعا لتلك الزيارة ، ولا يخفي حب الأطفال في مثل سنه للسفر والترحال ، ورؤية أناس وبلاد وأماكن جديدة لم يروها من قبل . كما أن يثرب هي موطن أخوال جده الحبيب بني النجار الخزرجيين الذين سيكون لهم في نصرته ـ عندما يهاجر اليهم بعد بعثته ـ شأن كبير .

فالزيارة إذن فوق أنها ستلبي حاجة طبيعية في نفس الطفل الصغير ؛ وهي رؤية قبر أبيه ، ستحقق له فائدة أخرى عظيمة الأهمية هي معرفة يثرب وأهلها .

ولقد علقت تلك الرحلة بذهنه بكل تفاصيلها ، وذكرياتها ، فربما أحس بلسعة اليتم عندما رأى قبر أبيه ، كما أنها انتهت نهاية أليمة حيث فقد أمه الحبيبة وهم عائدون في الطريق . ومع ذلك كان يحدث أصحابه بعد هجرته إلى المدينة عن رحلته الأولى إليها مع أمه ، وحاضنته الطيبة الحنون ـ أم أيمن ـ حديث المحب للمدينة المحزون لمن تحوي القبور من أهله بها » [٢] .

وفاة أمه :

مكثت آمنة بطفلها شهراً في يثرب في غاية الحفاوة والتكريم ، ولما

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٩ .
(٢) الدكتور هيكل ، حياة محمد ص ١١٣ .

أزمعت العودة إلى مكة ودعها بنو النجار بما يليق بها وبطفلها ، وسار ركبها حتى بلغت قرية تسمى الأبواء [١] ، مرضت ، وإشتد عليها المرض ، وماتت ودفنت هناك .

« وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً ، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر ، فيزداد وحشة وألما ، لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو ما يزال جنينا ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب ، كما ذهب أبوه ، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً » [٢] ولكن الله القادر العظيم سيجعل ذلك اليتيم أعظم خلقه ، وشرّفه بحمل آخر وأخلد رسالاته ، وسيجعل اسمه أكثر الأسماء ترددا على ألسنة عباده بعد إسمه الكريم ، ولعل ذلك اليتم المبكر كان مطلوباً للرسالة ، فمن بين اليتم والآلام ستتولد العظمة والخلود . والله تعالى الذي قضى عليه بفقد أبيه قبل أن يراه ، وبفقد أمه وهو في هذه السن الصغيرة ، هو الذي سيكلؤه ويرعاه ، أليس هو القائل له في محكم آياته : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ سورة الضحى ، الآيات من ٦ - ٨ .

في كفالة جده عبد المطلب :

لما وصلت أم أيمن بالطفل إلى مكة وأبلغت أهله بالخبر الحزين ، حزن بنو هاشم من أجل هذا الطفل ، الذي ظنوا أن الأقدار قست عليه فحرمته من حنان الأب وعطف الأم وهو في هذه السن الصغيرة ، وكان طبيعيا أن يكون عبد المطلب أكثرهم حزنا ، لشدة تعلقه بحفيده الذي كان يتوسم فيه الخير كل

---

(١) الأبواء : قرية على طريق يثرب مكة وتقع جنوب يثرب بحوالي ثلاثة وعشرين ميلا .
(٢) الدكتور هيكل ، حياة محمد ص ١١٣ .

الخير ، ويتنبأ له بمستقبل عظيم، فزاد في إعزازه إياه وعطفه عليه . ورق له رقة بالغة ، وضمه إلى كفالته « وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، ولا يأكل طعاما إلا ويقول : على يا بني فيؤتى به إليه ، وبذلك عوضه بحنانه عن حنان الأبوين ، ووصى به حاضنته بعد وفاة أمه ؛ أم أيمن وقال لها : « يا بركة - وهذا هو إسمها - لا تغفلي عن ابني » وكان هو ﷺ لما كبر يعرف لها ذلك ، ويقول : « هي أمي بعد أمي » إن ارتباط حياته الطاهرة بأمة حبشية تزويد من الله تعالى له بزاد إنساني ، ليشعر بأن الناس سواسية ، وأن كل الفضل فيمن يحسن عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وإنها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التي لا يستغنى عنها محمد ﷺ أمة حبشية ، لأنها تربية ربانية على المساواة الإنسانية ، وإنه لا شرف إلا بالنفع والعاطفة . لذلك لم يكن غريبا من الذي حضنته جارية حبشية ، أذاقته حب الأمومة - بعد فقد أمه وإن كان دون حبها - وأوصلته إلى جده ، محوطا بعناية الله وعطفها ، أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الإنساني لذلك غضب أشد الغضب ، عندما سمع بعض صحابته يعيِّر آخر بقوله : « يا ابن السوداء » وقال في قوة : « لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » [١] .

وفاة عبد المطلب :

توفى عبد المطلب بن هاشم بعد وفاة أمنة بنت وهب بعامين ، وكان عمر النبي ثمانية أعوام - عندئذ - ، ومع أن وفاة عبد المطلب كانت طبيعية لمن في مثل سنه ، فقد شارف على الثمانين من السنين ، إلا أن النبي ﷺ حزن عليه حزنا شديداً ، لحسن رعايته له وعطفه الزائد عليه ، وقد بكى عليه كثيراً وهو يودعه مع أعمامه إلى مثواه الأخير ، وكان دائم الذكر له بعد ذلك ، والحق أن موت عبد المطلب كان خسارة لبني هاشم ، بل لأهل مكة جميعاً .

---

(١) خاتم النبيين ، مرجع سابق جـ ١ ص ١١٧ .

في كفالة عمه أبي طالب :-

ورث أبو طالب بن عبد المطلب شرف أبيه ومكانته بين قومه في مكة ، مع أنه لم يكن أكثر إخوته مالا ، ولكن المال وحده لا يجلب الشرف لصاحبه ، بل رجاحة العقل وكرم الطبع والمروءة وعلو الهمة ، والبعد عن الدنايا والترفع عن صغائر الأمور ، تلك هي مكونات الشرف والمكانة الرفيعة ، وكان نصيب أبي طالب من كل ذلك كثيرا ، وسوف تتضح مكانته وشرفه في قومه أكثر وأكثر عند بعثة النبي ﷺ ، ووقوفه إلى جانبه يذود عنه الأذى ، ويدفع عنه الضر إلى أن فارق الحياة .

وكان عبد المطلب يعرف سمو نفس ابنه أبي طالب وعلو همته وشرفه ، ولذلك عهد إليه هو وحده بكفالة محمد بعده ، فألقى الله في قلبه محبة ابن أخيه ، محبة زائدة عن الشيء الطبيعي ؛ الذي يكنه قلب رجل نحو ابن أخ له يتيم ،وقد أحب أبو طالب محمداً ربما أكثر من حبه لأولاده ، فكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصبٍّ به صبابة لم يصب مثلها بشيء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب ، جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ، شبعوا ، فكان إذا أراد أن يؤكلهم ، قال : كما أنتم حتى يأتي ولدي محمد ، فيأتي النبي ، فيأكل معهم ، فكانوا يفضلون من طعامهم ، فيعجب أبو طالب ، ويقول : « إنك لمبارك ، وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثا [1] ، ويصبح محمد دهينا كحيلا ، وقد زاده حبا في نفسه ما كان يتحلى به النبي في صباه من طيب الشمائل ، وكريم الآداب في هيئة الأكل ، والشرب ، والجلوس ، والكلام ، مما يعز وجوده في هذه السن بين الصبيان ، ويدل على أن الله سبحانه وتعالى ، فطره من صغره على خير الخلال ، وأدبه فأحسن تأديبه .

---

(١) رمصا جمع أرمص ، والرمص قذر يكون في موق العين ، خاصة عند الأطفال ساعة صحوهم من نومهم ، وشعثا جمع أشعث وهو غير مرتب الشعر .

رعيه الغنم :

عاش محمد في كنف عمه أبي طالب ، وكان يعرف ضيق ذات يده ، وكثرة عياله ، فأراد أن يسهم في نفقات الأسرة ، ولما كان المال الذي تركه له أبوه ليس كثيرا ، لذلك قرر ان يعمل بيده ، ليزيد في دخله ويساعد عمه في إعالة الأسرة ، فاشتغل برعي الغنم لبعض أهل مكة بأجر ، وبذلك ضرب مثلا عمليا عاليا - وهو في هـذه السن الصغيرة - في الاعتماد على النفس ، واكتساب الرزق ، بالكد والتعب ، وكان كلما يذكر ذلك بعد أن كبر وصار نبيا مرسلا ، يذكره باعتزاز ، وهو مغتبط مسرور ، فقد روى الإمام أحمد ، بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : « افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي ﷺ ، فقال النبي : « الفخر والخيلاء في أهل الإبل ، والسكينة والوقار في أهل الغنم » وقال : « بعث موسى وهو يرعى غنما لأهله ، وبعثت وأنا أرعى غنما لأهلي بأجياد » وقال : « ما بعث الله نبيا إلا وقد رعى الغنم » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة ... » رواه البخاري » (١) .

ولعل الحكمة في رعي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الغنم قبل النبوة ، أن يحصل لهم بالتمرن والتعود على رعايتها القدرة على رعاية أممهم ، والقيام بشؤونهم ، إذ في رعيها يحصل لهم الحلم ، والشفقة والرحمة ، ويعودهم من الصغر على الصبر ، وطول البال ، والأناة والتريث وزجر الباغي ، وجبر كسر الضعيف ، ويربي فيهم ملكة الحرص على المصلحة ودفع المضرة ، وحسن التعاهد ، والرفق بمن تحت أيديهم ، والسهر على مصلحتهم ، وفي الحديث السابق ، الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، ما يشير إلى هذه المعاني (٢) .

---

(١) محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية جـ ١ ص ٢١٦ .
(٢) محمد أبو شهبة ، المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٦ .

هذا إلى ما في رعي الغنم من قضاء نهاره ، وبعض ليله في البادية ، فيتمتع بالسماء الصافية ، والشمس المشرقة ، والهواء النقي ، ويطيل التأمل والنظر في السماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الفيحاج ، والجبال ذات الألوان ، وبذلك يصير التأمل والتدبر ملكة من ملكات النفس (١) .

لقد كانت طبيعة العمل الذي اختاره الرسول ﷺ أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة ، أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم والعبيد ، فأولئك هم الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل ، الذي لا يعد من معالي الأعمال ، بل يعد من صغارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان لم تنزل نفسه عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه إلى العلا شرف نسبه ، وطيب محتده ، وما يراه في أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وقد صانه الله عن كل رذائل الجاهلية ومجونها ، يروي البخاري أنه ﷺ قال : « ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين » ، ويذكر ابن إسحاق : أن إحدى هاتين المرتين كانت وهو غلام يرعى الغنم ، فقال لصاحبه : ـ زميله في رعي الغنم ـ أكفني أمر الغنم حتى آتي مكة ، وكان بها عرس ، فيه لهو وزمر ، فلما دنى من الدار التي فيها ذلك العرس ، ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس ، عصمة من الله تعالى ، والمرة الثانية شبيهة بالأولى ، وألقى عليه النوم فيها كما ألقى عليه في الأولى . « ونرى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال في الهوى ، فهو في الخطوة الأولى سد الطريق عليه إلى المجون ، لا بمجاهدة نفسه ، لأن سنه لم تكن تقوى على المجاهدة النفسية ؛ بل بأمر خارج عن إرادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت إرادته ، وكانت له عزيمة تمنع ، وقوة إرادة ، وبمقتضى النظام الفكري ، أنه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذي منعه ، ربما كان يسترسل في اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر عليه الشهوات ، فكانت العصمة المانعة في أول الخطوة ، وأول الدفعة » (٢) . ويقول ابن إسحاق في ذلك :

---

(١) محمد أبو شهبة ، المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٦ .

(٢) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين جـ ١ ص ١٢٥ .

« فشبَّ رسول الله ﷺ ، والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، والأخلاق التي تدنِّس الرجال ، تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ، وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي ، يحدِّث عما كان يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتني في غلمان قريش ، ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرَّى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمني لاكم ما أراه ، لكمة وجيعة ، ثم قال : شدَّ عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته عليَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي ، وإزاري على من بين أصحابي » [١] وحدث له هذا أيضاً وهو يساعد أهله في بناء الكعبة .

رحلته الأولى إلى الشام ولقاؤه ببحيري :

علم محمد أن قافلة تجارية ذاهبة إلى الشام ، وأن عمه أبا طالب سيكون فيها ، فأبدى رغبته في السفر ، فخشي عمه عليه مشقات الطريق لصغر سنه ـ كان عندئذ في نحو الثالثة عشرة من عمره ـ وحاول منعه ، لكنه لم يستطع لما رأى اصراره ، فقرر أن يصحبه معه ، وقال : « لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً » [٢] وهذه العبارة توحي بأن أبا طالب كان يخشى عليه لا من مشقة السفر فقط ، بل كان يخشى عليه الضيعة .

وعندما وصلوا إلى بصرى بالشام [٣] كان اللقاء المثير مع بحيري الراهب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٧ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٤ .
(٣) بصرى مدينة بالشام جنوب دمشق .

النصراني . الذي ما أن رأى القوم وأن غمامة تظلل واحدامنهم ، تسير إذا سار وتقف إذا وقف حتى أدرك - كما تقول مصادر السيرة - [١] ، أن هذه من علامات النبي الذي بشر به عيسى عليه السلام ، فأراد أن يتأكد من ذلك فخرج عن مألوف عادته واتجه إلى القوم ودعاهم إلى وليمة ، وطلب منهم أن يحضروا جميعا وألاً يتخلف منهم أحد ، فعجب القوم منه ، وقالوا له : « والله يا بحيري إن لك لشأناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم » قال بحيري : « صدقت ... ولكنكم ضيف وأحببت أن أكرمكم » فذهب إليه القوم ، ولم يتخلف إلا محمد بن عبد الله لحداثة سنه ، فلمَّا رآهم - بحيري - لم يرى الصفة التي عرف بها الرسول المنتظر في كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلف أحد منهم عن طعامه ، فقالوا : يا بحيري ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتي إلاً غلام ، وهو أحدثنا سنا ، فتخلف في رحالنا ، قال لا تفعلوا ادعوه ، فليحضر هذا الطعام ... حضر محمد الوليمة ، واختصه الرجل بفضل من العناية . فاحتضنه وأجلسه ، وأخذ يلحظه لحظاً شديدا ، وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له : ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه فقال : « لا تسألني باللات والعزَّى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما » عدل بحيري عن استقسامه بهما ، وقال والله : إلا أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال : « سلني عما بدا لك » فجعل بحيري يسأله ، عن رحلته وهيئته وهو يخبره ، يقول ابن اسحاق [٢] : « فوافق ذلك ما عند بحيري من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، في موضعه ، من صفته التي عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ، قال : ابني !! قال بحيري : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا . قال أبو طالب : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ،

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٦ .

قال : صدقت ، إرجع بابن أخيك إلى بلده ، وأحذر عليه من اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه مَا عرفت ليبغنَّه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم » فخرج به عمه أبو طالب سريعا ، حتى أقدمه مكة »[١] .

هذا هو ملخص قصة أول رحلة للنبي ﷺ ولقاؤه بالراهب بحيري .

إشتغاله بالتجارة :

كانت حياة أهل مكة تقوم على التجارة ، وكان كبار التجار يعملون في التجارة الخارجية ، في رحلتي الشتاء والصيف ؛ إلى اليمن والشام ، أما الذين يعوزهم رأس المال الكبير اللازم للتجارة الخارجية فكانوا يعملون في التجارة الداخلية ، أي في داخل مكة وما حولها ، ويبدو أن محمداً كان من هذا الفريق ، فقد ثبت في المصادر التاريخية [٢] أنه زاول التجارة مع شريك ، أوشركاء ؛ كان منهم ، السائب بن أبي السائب ؛ الذي استراح النبي الكريم إلى شركته ، ورأى فيه من الأمانة وحسن الخلق ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم إليها ، فقد كان رجلا سمحا في معاملته ، لا يماري ولا يجادل في بيع ولا شراء ، ولا يخفي الخبيث من البضائع ، وكان من الطبيعي أن يستريح النبي إلى هذا الرجل الكريم ، لأنه هو نفسه ﷺ كان المثل الأعلى في الأمانة والصدق ، وهذه الفترة من حياة النبي ﷺ التي اشتغل فيها بالتجارة ، كان يعتز بها ويفخر ، كما كان يعتز بالفترة التي عمل فيها برعي الغنم ، وهو صغير ، فلم يتنكر لماضيه بعد أن صار عظيما ، بل أعظم العظماء ، لأنه ماضي مشرف فيه كفاح وعمل ، لذلك لما التقى بشريكه في التجارة ؛ السائب بن أبي السائب ، عند فتح مكة ، لم يشح عنه بوجهه ويتجاهله ـ وهو الفاتح العظيم ـ وإنما رحّب به ، وهشّ له وبشّ ، وتلقاه مستبشراً مرحباً ، وقال له ، يذكره

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين جـ ١ ص ١٣١ .

بماضيه معه ليؤنسه في حاضره : « مرحباً بأخي وشريكي ، كان لايشاري ولا يماري » (١) .

رحلته الثانية إلى الشام في تجارة خديجة :

ذاعت شهرة محمد في مكة ، وإقترن اسمه في أوساط التجار بالصدق والأمانة ، فلفت نظر السيدة خديجة بنت خويلد ، فرغبت في أن يعمل في تجارتها ، وعرضت عليه أن تعطيه ضعف ما كانت تعطي غيره من الأجر ، فقبل » (٢) .

وتم الاتفاق بينهما ، وخرج مع غلامها ميسرة الذي كان يعمل عندها بصفة دائمة ، وفصلت العير من مكة قاصدة الشام ، في أواخر شهر ذي الحجة ـ وكان عمره يومئذ نحو خمسة وعشرين عاما ـ ويبدو أن هذا هو الموسم المعتاد لخروج القوافل من مكة ، لتخرج محملة ببضائع من الأسواق التي كانت تقام في موسم الحج ، عكاظ وذي المجاز ، ومجنة ، لتباع في الشام ، ثم تعود محملة ببضائع أخرى من الشام لتباع في مكة وما حولها .

ولقد حدث للنبي ﷺ في هذه الرحلة الثانية إلى الشام ، أشياء شبيهة بما حدث له في رحلته الأولى مع عمه أبي طالب ، من إرهاصات وبشائر النبوة (٣) فكلما اشتد الحر، كان ميسرة يرى ملكين يظلانه من الشمس (٤) ، أقام محمد ﷺ في الشام ، ريثما باع ما جاء به من مكة من تجارة ، ثم اشترى من تجارات الشام ما أراد ، ثم قفل عائداً إلى مكة ، وكانت الرحلة من الناحية التجارية

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٣ .
(٣) يروي ابن إسحاق أنه التقى براهب آخر اسمه نسطورا وعرف منه مثل ما عرف بحيري قبل ذلك بنحو اثنى عشر عاما . أنظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٣ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٣ .

ناجحة جداً ،وكان الربح ضعف رأس المال ، ولكن نجاح الرحلة الأكبر كان في حياة محمد القادمة ، فقد كانت مقدمة لارتباطه بالزواج بأشرف نساء مكة قاطبة ، خديجة نفسها صاحبة المال والتجارة .

ميسرة يخبر خديجة عما رأى من النبي :

كان من الطبيعي أن يقدم ميسرة تقريراً مفصلاً لسيدته عن الرحلة وكل ما حدث فيها ، ولعل ميسرة كانت لديه فكرة عن النبي وأمانته وأخلاقه وصدقه ، وكل ذلك كان مشهوراً عنه في مكة ، ولكن السماع شيء ، والصحبة والمشاهدة والمعايشة شيء آخر ، ولذلك كان حديث ميسرة لخديجة عن محمد ، حديث رجل منبهر بتلك الأخلاق العالية ، والسماحة وحسن المعاشرة ، فضلا عن الصدق والأمانة ، وقد أخبرها أيضاً بالخوارق التي رآها ـ تحف به ـ قصة الراهب نسطورا ، وتظليل الملكين له من حرارة الشمس ... الخ .

وأراد ميسرة ، الذي تعلَّق قلبه بحب محمد أن يكون هو الذي يبلغ خديجة بنفسه بما صنع الله لها على يديه ، وقال له : « فإنها تعرف لك ذلك » أي ستكافئك مكافئة تليق بك ، فانطلق محمد حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وكانت خديجة في علِّية لها فلما رأته نزلت ، وإستقبلته في دارها ، واستمعت إليه يقص بعبارته البليغة ، خبر رحلته ، وربح تجارته ، وما جاء به من صناعة الشام ، وهي تنصت مغتبطة مأخوذة . وأقبل ميسرة من بعد ، فروي لها عن محمد ، ورقة شمائله ، وجمال نفسه ، ما زادها علما به ، فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة ، ولعل ميسرة أدرك من خلال اهتمام خديجة بمحمد أنها أصبحت راغبة فيه زوجا لها ، ولذلك كان إقتراحه عليه بأن يسبقه إليها ، ليزف إليها بشرى نجاح الرحلة .

زواجه من خديجة

سبق لخديجة الزواج مرتين ، وهي الآن أرملة في الأربعين من عمرها ، وقد رفضت الزواج ممن تقدم لها من علية قريش ، وتفرغت لتجارتها .

ولكنها عندما إلتقت بمحمد غيرت رأيها ، فقد وجدت فيه الصفات العالية والأخلاق الكريمة ، التي لم تعرف عن أحد ممن كانوا تقدموا لها ، ولذلك كانت هي التي خطبته لنفسها ، يقول ابن اسحاق : « وكانت خديجة إمرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له ... يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطتك في قومك [١] ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه [٢] .

وهناك رواية أخرى لا تخرج في مضمونها عن تلك الرواية ، وهي أن خديجة لما رغبت في الزواج من النبي ﷺ دسّت إليه إحدى صديقاتها ـ وهي نفيسة بنت علية ـ لتذكرها له ، فقد قالت نفيسة [٣] « أرسلتني خديجة خفية إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام ، فقلت له : يا محمد ، ما يمنعك من الزواج ـ وكان سنه يومئذ خمسا وعشرين سنة ـ فقال : مابيدي ما أتزوج به ، قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ، ألا تجيب ؟ قال : فمن هي ؟ قلت خديجة ، قال : وكيف لي بذلك ؟ قلت علي وأنا أفعل ؛ فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه ـ عليه السلام ـ إن إئت ساعة كذا ،

---

(١) سطتَك : معناها شرفَك ومنزلتَك السامية في قومك .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ هامش ١ .

فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فحضر ، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته ... ولما تم الإيجاب والقبول ، أمرت السيدة خديجة بشاة فذبحت ، وأعدت طعاما ... فأكلوا . ثم خطب أبو طالب بن عبد المطلب ، خطبة قصيرة بهذه المناسبة .

فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل وضئضىء - أي أصل - معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وشوكة حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجاً وحرماً آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل إلا رجح ، وإن كان في المال قل ، فالمال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد » . ولما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الإتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا على معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله ، على أربعمائة درهم ، ثم سكت ورقة ، وتكلم أبو طالب وقال : « قد أحببت أن يشركك عمها » فقال عمها - عمرو : - اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش » .

تم هذا الزواج المبارك ، وإنتقل النبي ﷺ ، بعد الزواج إلى بيت خديجة - وكانت أول امرأة يتزوجها ولم يتزوج غيرها عليها حتى ماتت رضي الله عنها وهنا بدأت صفحة جديدة من حياة الرسول ، ﷺ ، صفحة الحياة الزوجية ، والأبوة ، وقد رزق ﷺ كل أولاده ، بنين وبنات منها ، عدا إبراهيم فهو من مارية القبطية ، فقد ولدت له من الذكور القاسم ، وبه كان يكنى ، والطيب والطاهر ، ومن الاناث زينب ، ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، والذكور توفوا جميعاً

قبل بعثته ، وأما البنات فكلهن أدركن الاسلام ، فأسلمن ، وهاجرن معه ﷺ (١) .

الطيبات للطيبين :

لقد اختار الله تعالى لأشرف خلقه ، وخاتم رسله وأنبيائه ، أشرف امرأة في قومها لتكون زوجا له ، فأكمل الله بها إنسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا في قطع فيافي الحياة ، وكمّل كل منهما الآخر ، هي امرأة شريفة ذات ثراء وهو رجل مكتمل ، عامل قوي أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجه مالها إلى الخير ، بحسن نيته ، وطيب طويته ، وقد كان يعمل لها في المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالها على يديه أضعاف ما ينتج غيره ، وكان عبدا شكوراً ، ولو استمر في هذا الطريق يعمل في مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغي المال وأعراض هذه الدنيا ، لنال الشباب والمال معا ، لكنه رأى أن يعمل في مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولده ، لطيب عرقها ، وشرف نفسها ، وقد تخير لنطفته ، فاختار أكمل امرأة في قريش ، وأعلاها في المكرمات كعباً ، وقد إختارها الله تعالى لتكون له ردءاً في شدائده ، تواسيه بالكلام والعطف والحنان ، في وقت اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ، فأعنته المخالفون ، وكان عزيزاً عليه أن يعنتهم ، فكان في حاجة إلى من يأوي إليه ، كما هو في حاجة إلى من يذود عنه . وإذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين ، فامرأة محمد ، عليه الصلاة والسلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطوف الولود ، يلقي قريشاً وصدودها وعداوتها وجفوتها ، فإذا آوى إلى بيته وجد برداً وسلاماً (٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) خاتم النبيين - مرجع سابق جـ ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

إعادة بناء الكعبة قبيل البعثة

تعرضت الكعبة المشرفة ـ قبيل البعثة المحمدية بنحو خمس سنين ـ لسيل جارف ، فتصدع بنيانها فقررت قريش هدمها وإعادة بنائها من جديد ، واقتسمت العمل فيما بينها ـ فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وما بين الركنين ، الأسود واليماني لبني مخزوم ، وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهرها لبني جمح وسهم ، وشق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، وبني أسد بن عبد العزى وبني عدى بن كعب . وتعاهدوا إلا ينفقوا على بنائها إلا من كسب طيب ، وألا يدخلوا فيه مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس [١] .

وقد اشترك النبي ﷺ في البناء بنفسه ، وكان زميلا لعمه العباس ، كانا ينقلان الحجارة [٢] ، ولما اكتمل بناؤها أرادوا أن يجعلوا لها سقفا ، ولم تكن من قبل مسقوفة ، وقد أعوزهم الخشب ، لكنهم علموا أن سفينة لرجل رومي قد تحطمت ، ورمي بها البحر إلى ساحل جدة ، فذهبوا وابتاعوها ، وأخذوا خشبها واستخدموه لسقفها ، وقد ساعدهم في ذلك نجار قبطي كان بمكة ، وجعلوا لها بابا واحداً من ناحية الشرق ، وأخرجوا منها حجر اسماعيل لقلة ما معهم من أموال .

الاختلاف على وضع الحجر الأسود في مكانه :

لقد تم بناء الكعبة دون خلاف يذكر بين بطون قريش أثناء البناء ، ولكنهم ما أن شرعوا في وضع الحجر الأسود في مكانه حتى نجم الخلاف ، لأن ذلك الأمر لا يقبل القسمة ، وكل قبيلة تريد أن تذهب بهذا الشرف وحدها وتكون

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٠ .

(٢) صحيح البخاري ـ باب بنيان الكعبة جـ ٢ ص ٣١٧ .

هي التي تضع الحجر في مكانه ، وتأزم الموقف ، وباتت قريش على أبواب حرب أهلية ، بعد أن كانوا يعملون متعاونين في انسجام وتراضي .

النبي يحسم الخلاف بحكمته :

مكثوا على تلك الحال عدة أيام ، ثم هداهم الله تعالى إلى حل حقن به دماءهم وأرضى نفوسهم ، فقد اقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي ، وكان أكبرهم سنا - أن يحكّموا في هذا الأمر أول من يدخل عليهم [١] ، فوافقوا جميعا ، وكأن هذا كان الهاما من الله تعالى ، حيث كان أول داخل ، والذي سيحسم هذا الخلاف الذي كاد يودي بهم ، هو سيد الخلق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فما أن رأوه يدخل حتى صاحوا قائلين : « هذا الأمين رضينا به حكماً » .

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر ، فقال ﷺ : « هلّم إلى ثوبا » فأتي به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده الشريفة ، وحسم النزاع الذي كادت تمتشق فيه السيوف وتنشب الحرب بين قبائل قريش . وظلت الكعبة على بناء قريش هذا حتى ظهر الاسلام .

بنايات الكعبة بعد البعثة

لعله من المناسب - ونحن بصدد الحديث عن الكعبة المشرفة - أن نلم بإيجاز شديد بما حدث لها من تجديد بنائها عبر التاريخ حتى الآن .

لم يحدث في الكعبة أي تغيير بعد ظهور الاسلام إلى أن حدث الخلاف بين الأمويين وعبد الله بن الزبير ، فقام بهدمها - لأنها كانت قد احترقت -

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٤ .

وأعاد بناءها سنة ٦٤هـ ، وزاد في ارتفاعها وجعله سبعة وعشرين ذراعاً ، وأدخل فيها حجر اسماعيل [١] .

وبعد مقتله سنة ٧٣هـ ، قام القائد الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي بهدمها وإعادة بنائها كما كانت قبل بناء ابن الزبير ، لكنه أبقى ارتفاعها كما هو ، وبعد ذلك لم يتعرض لها أحد من حكام المسلمين بزيادة أو نقصان ، حفاظاً على هيبتها وحرمتها ، إلى أن دهمها سيل جارف فهدمها سنة ١٠٣٩هـ ، فأمر السلطان العثماني ، مراد الرابع باعادة بنائها دون تغيير ، ولا تزال على حالتها تلك حتى الآن . زادها الله تشريفاً وتعظيماً .

المسجد الحرام

تعبير المسجد الحرام يطلق الآن على الكعبة المشرفة والفناء الذي حولها ، وهو تعبير ظهر بعد ظهور الاسلام . أما قبل ذلك فكانت الكعبة فقط ، وقد سماها الله تعالى في القرآن الكريم عدة تسميات ، منها البيت ، كما في قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ ومنها البيت الحرام ، كما في قوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ... ﴾ ومنها البيت العتيق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق... ﴾ .

أما تعبير المسجد الحرام والذي ورد في القرآن الكريم خمس عشرة مرة [٢] فلم يكن له سور يحيط به قبل الإسلام ، وإنما كان مجرد فناء حول

---

(١) احتج ابن الزبير في إدخاله حجر إسماعيل في الكعبة بحديث روته خالته السيدة عائشة عن الرسول ، وهو قوله : « لولا حدثان قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم ، وأزيد فيها الحجر » .

(٢) يقول بعض العلماء : يطلق تعبير المسجد الحرام ويقصد به الكعبة وحدها ، أو المسجد كله بما فيه الكعبة ، وأحياناً يطلق على مكة كلها ، أنظر أعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي ص ٥٩ - ٦١ .

الكعبة منفتح على دور مكة ، وظل كذلك ، طوال عهد النبي ، وخليفته الأول ، أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وأول من جعل له سورا يحيط به ، ووسع مساحته ، هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧هـ . ثم زاد عثمان بن عفان رضي الله عنه في مساحته سنة ٢٦هـ . وجعل له أروقة مسقوفة ، ثم زاد في مساحته عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٦٤هـ ، ثم توالت الزيادات والتوسعات ، ففي العصر الأموي أضاف الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ مساحات كبيرة إلى ساحة الحرم ، وجدد بناءه وأقام عقودا مزخرفة بالفسيفساء ، على أعمدة من رخام جلبت من مصر والشام [١] ، وفي العصر العباسي أضيفت مساحات واسعة إلى رقعة الحرم ، كان آخرها ما تم في عهد الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٦هـ ـ ٩١٨م ، حيث بلغت مساحة الحرم نحو ثلاثين ألف متر مسطح . وظلت مساحته كما هي طوال حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، ولكن هؤلاء جميعا لم يقصروا في صيانته وترميمه ، إلى أن جاءت أكبر توسعة للحرم في العهد السعودي .

فمع تنامي عدد المسلمين ، وكثرة الحجاج والمعتمرين إلى بيت الله الحرام ، الذين يعدون بعدة ملايين في الموسم الواحد ـ نظراً لسهولة المواصلات ـ ، فقد دعت الحاجة إلى توسعة الحرم المكي . ولقد أقبل السعوديون على ذلك الأمر بهمة عالية ، ومكنتهم إمكانياتهم المادية من القيام بهذا على أكمل وجه ، فكانت توسيعات الملك سعود فيما بين عامي ١٣٧٥ - ١٣٨١هـ ـ ١٩٥٥ - ١٩٦١م حتى أصبحت مساحة الحرم نحو مائة وثلاثة وتسعين ألف متر مسطح ، تتسع لنحو نصف مليون مصل في موسم الحج .

وأخيراً مشروع خادم الحرمين الشريفين ـ الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ـ الذي بدأ سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، والذي وصل بمساحة الحرم

---

(١) تاريخ عمارة المسجد الحرام لحسين عبد الله با سلامة ص ٢٣ .

- بأدواره الثلاثة ، وأسطحه وساحاته - إلى ثلثمائة وثمانية وعشرين ألف متر مسطح ، تتسع لنحو مليون مصل في موسم الحج [١] .

وقد شملت توسيعات الملك فهد ، مدخلاً رئيسياً جديداً ، وثمانية عشر مدخلاً عادياً ، إضافة إلى مداخل الحرم الحالية ، وعددها ثلاثة مداخل رئيسية ، وسبعة وعشرون مدخلاً عاديا ، كما يشمل مئذنتين جديدتين ، إضافة الى المآذن السبع القائمة . كما شملت العديد من المرافق التي تسهل لحجاج بيت الله الحرام أداء مناسكهم ، مثل السلالم الكهربائية وغيرها .

هذا ما يسمح به المكان للحديث عن البيت الحرام ، الذي هو أفضل رقعة على ظهر الأرض ، ويتضاعف فيه ثواب العبادات اضعافاً مضاعفة - فالركعة فيه يعدل ثوابها مائة ألف ركعة في غيره من المساجد - كما أخبر الرسول ﷺ وإليه تهفو أفئدة المسلمين جميعاً والذي جعله الله مثابة للناس وآمناً ، هيأ الله له من يجعل عمارته موصولة إلى يوم القيامة .

في غار حراء

عندما تزوج محمد عليه الصلاة والسلام من خديجة رضي الله عنها ، كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وقد أتته الرسالة على رأس الأربعين ، أي أنه قضى خمسة عشر عاما بين زواجه من خديجة وبين تكليفه بالرسالة الخالدة ، عاشها معها زوجا وفيا مخلصا رقيق الشعور ، لزوجة وفية مخلصة عفيفة شريفة . ورفرفت السعادة على هذه الأسرة الكريمة ، ووجد محمد عليه الصلاة والسلام متسعا من الوقت ليفكر ويتأمل في أمر هذا الكون الفسيح ، وفي القوة القادرة التي أبدعته وأحكمت صنعه ، وكان يرفض ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما غرقوا فيه من الفساد والمجون ، فلم يسجد لصنم قط ، ولم يحضر

---

(١) الحرمان الشريفان - مطبوعات وزارة الإعلام السعودية ص ١٨ - ١٩ .

مجالس لهوهم وعبثهم . فالله تعالى الذي يعلم حيث يجعل رسالته صان نبيه ومصطفاه من عبث الجاهلية وفسقها ومجونها ، فاتجه خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام إلى التفكير والتأمل .

ولكي يهيء لنفسه جواً مناسباً للتفكير بعيدا عن صخب مكة وضجيجها ، كان يذهب إلى غار حراء ؛ في شمال مكة على بعد بضعة أميال منها ، وكان يصعد إلى هذا الغار الذي يقع على قمة هضبة وعرة المسالك والطرق ، ويتجشم هذه المشقة ليبتعد عن الخلق وليفكر في الخالق سبحانه وتعالى ، وكان شهره المفضل للتحنث والتفكير والتأمل هو شهر رمضان المبارك . فكان يذهب إلى غار حراء ومعه طعامه وشرابه ، ويقضي فيه الأيام والليالي الطوال ، ثم يعود إلى بيته ليتزود مرة أخرى ويرجع إلى الغار ليستأنف تعبده وتفكيره . ويختلف العلماء في الأوقات التي كان يقضيها في غار حراء منقطعا للتفكير والتأمل ، وهل كان يتعبد على ملة بعينها ؟ فيرى بعضهم أنه كان يتعبد على ما بقي من شرع نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى ، أو على ما بقي من هذه الشرائع جميعها [١] .

على كل حال يبدو أن محمداً في تفكيره وتأمله كان ينشد مخرجاً للعالم مما هو فيه من الشرك والوثنية والجهالة العمياء التي يعيش فيها ، لأن طول التفكير والتأمل يدل على أن ما بقي من هذه الشرائع القديمة التي تنوسيت تعاليمها على طول الزمن لم يكن كافيا ليريح نفسه ويدخل عليها الطمأنينة ، تلك النفس المستشرفة التي كانت تبحث عن الحق المجرد والحقيقة المطلقة .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٦ .

بدء الوحـــي (١)

ظل عليه الصلاة والسلام يتردد على غار حراء حتى شارف الأربعين من عمره ، وكان أول ما فتح الله عليه من الهدى والخير والبركـة ؛ هو الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وضوحا وجلاء . وكانت رؤياه الصادقة انعكاسا لنفسه الصافية ، وقد زادته رؤياه الصادقة أملاً في قرب الوصول إلى الحقيقة ، وأنه أوشك أن يضع قدميه على الصراط المستقيم الموصل إلى الحقيقة المطلقة الخالدة .

وبينما هو في غاره يفكر ويتأمل ، وينعم بالطمأنينة النفسية التي أدخلتها على قلبه رؤياه الصادقة ، إذا بجبريل عليه السلام يأتيه بصورة مفاجئة في ليلة من ليالي رمضان ويقول : إقرأ . فيجيبه النبي مأخوذاً بالنداء : ما أنا بقاريء . فيضمه الملك ضماً قويا إلى صدره ويقول له إقرأ . فيقول النبي : ما أنا بقاريء . فيقول له الملك في الثالثة ﴿ اقـرأ بإسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان مـن علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ .

ألقى ملك الوحي جبريل عليه السلام ، على قلب النبي الكريم هذه القطرات الأولى من الفيض الإلهي من وحي الله سبحانه وتعالى . وتركه وإنصرف . ولما أفاق النبي عليه الصلاة والسلام من المفاجأة تملكه شعور غير عادي . فما هذا الذي حدث ؟ وأخذ يتلفت يمينه وشماله فلم ير شيئا ، وأخذ يستعيد ما حدث ليعرف مرماه وأهدافه . فهذا الذي حدث لمحمد شيء هائل وعظيم ؛ فهو وحي الله تعالى يأتي الأنبياء ليكلفهم بحمل رسالات السماء إلى أهل الأرض . والحق أن محمدا لم يشك في أن هذا وحي من الله ، لأن الوحي لابد أن يكون مصحوبا من الموحي إليه بيقين ثابت أن هذا وحي من الله لا شك

---

(١) انظر في بدء الوحي : صحيح البخاري جـ ١ ص ٥ وما بعدها طبعة الحلبي ، وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥١ وما بعدها ، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٣٣ .

فيه . ولكن لعل المفاجأة أخذته فلبث فترة يفكر في هذا الأمر ، وأخيراً عاد إلى بيته ليقص على زوجته خديجة ما حدث له . خصوصا وأن خديجة كانت دائماً درعه الواقي وحصنه الذي يلجأ إليه كلما حزبه أمر ليجد عندها الأمان والطمأنينة والسكينة والهدوء . فعاد إليها هذه المرة من غار حراء وهو بحالة لم يأت عليها من قبل ، حتى بادرها هو قائلاً :

« خديجة ، مالي ؟ » كأنه يقول لها هل ترين بي شيئا غير عادي لم يكن من قبل ؟ وحدثها بحديث جبريل ، وتلا الآيات التي تلاها عليه ، فأقبلت عليه السيدة الجليلة ، تسمع في اهتمام ظاهر مهدئة ومطمئنة . ولم يبد عليها أي خوف أو قلق أو اضطراب مما حدث لزوجها . بل على العكس : قالت له في لهجة واثقة [١] : « أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » ، « كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلأ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » [٢] . ما أعظم هذا الذي سمعه محمد من زوجه الفاضلة ، نعم نبي هذه الأمة وهاديها ومرشدها ، ورحمة الله لا لهذه الأمة وحدها ولكن للعالمين .

ولكي تزيد خديجة محمداً طمأنينة وثباتا ، ولكي يتأكد من صدق كلامها ، ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل - الذي سبق ذكره في الحنفاء العرب ؛ الذين رفضوا عبادة الأصنام واعتنقوا المسيحية والذي أصبح ملما بكتب هذه الديانة - وحدثته بحديث زوجها ، وأنصت الرجل إلى حديثها ، وأطرق مليا ، ثم قال : « قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وأنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت » [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .
(٢) صحيح البخاري جـ ١ ص ٧ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .

انقطاع الوحي فترة من الوقت (١)

بعد أن بدأ الوحي على رسول الله ﷺ ، وبعد الحالة النفسية التي انتابته نتيجة المفاجأة ، وبعد أن هدأ روعه واطمأنت نفسه بما لقيته به زوجه الكريمة من كلمات طيبة أدخلت على نفسه السرور والهدوء . وبعد أن قصت عليه حديثها مع ابن عمها ورقة بن نوفل ، من أن هذا الذي جاءه إنما هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي الأنبياء ، كان ينتظر أن يتتابع الوحي عليه بمضمون هذه الرسالة التي كلفه الله بها . ولكن الوحي انقطع فجأة كما جاء فجأة ؛ فترة طالت حتى قال بعضهم أنها بلغت سنتين ، وقال بعضهم أنها كانت ستة شهور وهو الأرجح . انتاب النبي في أثنائها شيء من القلق ، ولكنه لم يشك لحظة واحدة في صدق رسالته . ولكن القلق كان لأنه ذاق حلاوة الوحي ، وتمتع بهذا الفيض الألهي ، الذي ألقاه الله على قلبه ، فكان يود ألا ينقطع عنه الوحي هذه المدة الطويلة ، ولكن يبدو أن الله تعالى أراد أن يعلمه الصبر والجلد وأن يقول له : إن الرسالة التي ستضطلع بها لا ينفع معها التعجل والتسرع ، وإنما تحتاج إلى صبر على المكاره ، وتحمل للأعباء والمشقات وسوف تقابلك صعاب كثيرة تتطلب منك أن تصبر على ما تكره .

ولذلك نقول لا صحة لما ذهب إليه بعض الرواة والمؤرخين من أن القلق ؛ بل الخوف استبد بالنبي ﷺ إلى درجة أنه هم بأن يلقي بنفسه من أعلى قمة الجبل . لأن هذا إن صح فيكون معناه محاولة انتحار من جانب النبي ، الأمر الذي يتنافى مع أخلاقه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون دليلا على أنه بدأ يشك في صحة الوحي والرسالة ، وهذا لا يجوز أبدا . وكل ما يمكن أن يقال أنه قد خشي أن يكون ربه قد هجره وأن فترة هذا الهجر قد تطول ، ولكن سرعان ما تداركت عناية الله محمدا لتضع حدا لهذا القلق ولتطمئنه أن الله لم

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٠ ، وانظر : الدرر ، مصدر سابق ص ٣٥ .

يهجره ولم يتخل عنه ، فنزلت عليه سورة الضحى بتمامها مستأنفة نزول الوحي وتتابع الرسالة فقال تعالى :

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ .

إطمأن النبي ﷺ غاية الإطمئنان بعد نزول هذه السورة . وإرتسمت على محياه آي الرضا والسرور . فها هو الوحي يأتيه من جديد . وها هو الله معه لم يدعه ولم يهجره فلا مجال إذن للقلق .

يقول المفسرون [١] : « كان ﷺ يتعبد في غار حراء ، فجاءه جبريل ، بالآيات الكريمة : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ الآيات ، وهي أول ما نزل عليه من القرآن ، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة : « زملوني زملوني » فنزلت ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ﴾ الآيات . ثم فتر الوحي ، فحزن ﷺ ، فبينما هو يمشي سمع صوتا من السماء ، فرفع رأسه ، فإذا الملك الذي جاءه بحراء ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فعراه من رؤيته الرعب والفزع ، فجاء إلى أهله ، فقال : « دثروني دثروني » فأنزل الله : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ .

---

(١) انظر : صفوة التفاسير ، تاليف محمد علي الصابوني جـ ٢٩ ص ١٦٣٨ .

المسلمون الأولون

أول من آمن بالله ورسوله خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وكان هذا هو المتوقع من هذه السيدة العظيمة ، التي كانت مواقفها كلها جليلة وعظيمة مع النبي عليه الصلاة والسلام ، منذ أن اقترنت به إلى أن فارقت الدنيا إلى رحاب ربها ، وكان ثاني من أسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه [(١)] ذلك لأن النبي ﷺ كان قد ضم عليا إلى اسرته بعد أن تزوج من خديجة . ليخفف عن عمه أبي طالب بعض أعباء معيشته ، وليرد له الجميل الذي أسداه إليه في طفولته وصباه ، وكان النبي ذات يوم يصلي هو وزوجه خديجة طبقا لما علمه ربه فرآهما علي فتعجب من هذا الذي رآه وسأل النبي . لمن تسجدان ؟ فأجابه بما معناه : « إننا نسجد لله الواحد الأحد الذي بعثني نبيا وأمرني أن أدعو الناس إلى دينه » فأعلن إيمانه بالله ورسوله .

وبعده أسلم زيد بن حارثة مولي النبي ﷺ . وبذلك انحصر الاسلام في بيت محمد هو وزوجه خديجة وابن عمه على ومولاه زيد بن حارثة .

وبدأ يفكر في كيف يدعو قريشا إلى الاسلام ؟ وماذا سيكون موقفها من هذا الدين الجديد ؟ وإتجه تفكيره أول الأمر إلى صديقه أبي بكر بن أبي قحافة ، فقد كان يستريح إليه ، ويعرف فيه صدقه وأمانته ومروءته ، لذلك لم يتردد في دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله ، ولم يخيب أبو بكر ظن النبي فيه ، بل أسلم على الفور ولم يتردد لحظة واحدة ، وقد حفظ النبي هذا الموقف العظيم لأبي بكر ، وكان يذكره دائما ويقول : « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » [(٢)] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٨ .

لم يكن أبو بكر أسرع الرجال إلى الإيمان بالله ورسوله فقط ، وإنما أصبح منذ إسلامه جنديا من جنود الله المخلصين ، الذين كرسوا كل وقتهم ومالهم وجهدهم إلى الدعوة لدين الله ، وقد أسلم على يديه طائفة من كبار الرجال في مكة ؛ الذي أصبح لهم فيما بعد شأن عظيم في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وأصبحوا من كبار القادة وعظمائهم .

ولو لم يكن أبو بكر يتمتع بشخصية قوية وجذابة ، وبصفات حميدة تقربه إلى الرجال ، وتقرب الرجال إليه ، لما نجح في هذه المهمة الصعبة في هذا الوقت الذي أحجمت فيه قريش كلها عن الدخول في الإسلام ، بل أخذت تصد الناس عن الدخول فيه ، وكان ممن أسلم على يدي أبي بكر وبدعوته : عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام . ثم أسلم بعدهم أبو عبيدة بن الجراح . ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الرجال أصبحوا أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانوا من الذين بشرهم بالجنة وتوفى وهو عنهم راض .

ثم تتابع دخول الناس في الإسلام ، فأسلم الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وأبناء مظعون ، عثمان وقدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد بن زيد ، وإمرأته فاطمة بنت الخطاب ، وأسماء وعائشة ، بنتا أبي بكر الصديق ، وخبَّابْ بن الارت وعمير بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ... الخ [١] .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

الدعوة الاسلامية في طورها السري

كان النبي ﷺ يعلم تمام العلم عناد قريش وكبرياءها وإصرارها على التمسك بالقديم ، وبتراث آبائها وأجدادها ، من عبادة الأصنام . ولذلك فهي لن تذعن له بسهولة ، بل سوف تقاومه حتى آخر سهم في جعبتها ، خصوصا وان الإسلام سوف يهدد مصالح الطبقة المسيطرة المستعلية المستغلة ، التي نشأت على نظام الطبقات والامتيازات الاسرية ، واستمرأت حياة الارستقراطية والسيادة والاستعلاء على الضعفاء والفقراء . فلم يكن هينا على هؤلاء أن يقبلوا دينا يسوي بين أغنيائهم وفقرائهم ، وبين السادة وعبيدهم . لذلك قرر النبي أن تكون دعوته إلى الله سرية في البداية يدعو أصدقاءه وأقرب الناس إليه ومن يأنس فيهم الخير ، والاستعداد لقبول الحق والهدى حتى يشتد بهم ساعده ، وبعدئذ يرى ماذا يصنع . فأخذ يدعو الناس سرا ، فآمن به ـ إلى جانب من ذكرنا من السابقين الأولين ـ طائفة من فقراء الناس وضعافهم ؛ الذين رأوا في الدين الجديد خلاصهم مما هم فيه من شقاء وبؤس ، وأخذ النبي يجتمع بأصحابه الأولين في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، يتلو عليهم القرآن الكريم ، ويعلمهم تعاليم الاسلام ، واستمرت هذه المرحلة نحو ثلاث سنوات ، كان تقدم الدعوة فيها بطيئا ، وكان من الطبيعي أن يتسرب خبر الدعوة إلى قريش ، ولكنها لم تهتم في البداية ، بأمر محمد ودعوته ، ولعلها كانت واثقة من أن حملها على ترك عبادتها وعبادة آبائها وأجدادها أمر أصعب من أن ينال ، أو لعلها لم تكن تقدر خطورة الدعوة وأهدافها في هذه المرحلة . على كل حال استمر النبي ﷺ يدعو إلى دين ربه سرا ، حتى آن الآوان ليخرج بدعوته من هذا الطور السري إلى الاعلان الصريح ومواجهة قريش بهذه الحقيقة الناصعة .

الجهـــر بالدعـــوة (١)

كان من الطبيعي أن يتجه النبي أول ما يتجه إلى أسرته وعشيرته الأقربين ، ليدعوهم إلى الإسلام ، طبقا لأمر الله الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) .

فدعا عشيرته وأهله وصنع لهم طعاما في بيته ، وبعد أن تناولوا طعامهم عرض عليهم الاسلام وحدثهم قائلا : (ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ؟) فأعرضوا جميعا عنه وهموا بتركه ، لكن علي بن أبي طالب نهض ـ وكان لا يزال صبيا ـ وقال : « أنا يا رسول الله عونك . أنا حرب على من حاربت » ولكن بني هاشم ابتسموا ساخرين من إجابة علي لابن عمه ، وكأنهم استصغروا الصبي في نظرهم ، وانصرفوا دون أن يستجيبوا لدعوة النبي .

بعد ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) وكان معنى هذا أن ينتقل من دعوة عشيرته الاقربين إلى دعوة أهل مكة جميعا .

فصعد على ربوة الصفا وناداهم جميعا قائلاً : « يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد ... إلخ » فاجتمعوا عليه ، فقال لهم : « أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا قط .

---

(١) أنظر المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٤ وما بعدها .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .
(٣) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

قال : « فإني نذير لكم ، ورسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، بين يدي عذاب شديد ، وإن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين . وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً . إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » عندئذ نهض عمه أبو لهب وصاح ساخراً وقال تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ .

إنفض الجميع من حول النبي دون أن يؤمنوا به ، ولقد إستاء من موقف عمه أبي لهب ، ولكن الله تعالى تولى عنه اجابة هذا المشرك المتغطرس القاسي القلب ، فأنزل فيه سورة بتمامها : هي قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ .

لتغضب قريش ، وليغضب أبو لهب وأمثاله ما شاء لهم الغضب . فإن ذلك لن يوقف مد الدعوة الاسلامية . ستنتصر بإذن الله . وسيعم الخير والحق والعدل أرجاء العالم ولو كره الكافرون .

قريش تقاوم الدعوة

لم تهتم قريش بالدعوة الاسلامية في مرحلتها السرية . لأنها لم تقدر خطورتها ، وظنتها حركة محلية قليلة الشأن ، لا تلبث أن تموت وتختفي من تلقاء نفسها . لكن عندما بدأ النبي مرحلة الدعوة العلنية . وبدأ يتعرض علنا لعقائدها ويعيب أصنامها ويهزأ بها . ويبين لهم فساد عقائدهم . وانهم إنما يعبدون أحجارا صماء لا تسمع ولا تبصر . ولا تضر ولا تنفع ، وخير لهم أن يقلعوا عن هذه العبادة الفاسدة . التي فيها امتهان لأنفسهم . واحتقار لعقولهم . وأن يعبدوا الله وحده الذي خلق الكون كله بما فيه ومن فيه . الله الذي بيده وحده مصائر الأمور كلها والذي بيده النفع والضر وإليه يرجعون .

عندئذ بدأت قريش تتنبه لخطورة الدعوة التي أخذت تنتشر في مكة ، وفي كل يـوم تكسب أنصارا جددا ، الأمر الذي أزعجها وبدأت تفقد السيطرة على عبيدها وخدمها الذين أسرعوا وتابعوا محمدا غير مبالين بقريش ولا بتهديدها ووعيدها . والذي أزعجها أكثر أنها لم تنجح ـ رغم العذاب الذي صبته عليهم ـ أن تعيد واحدا منهم إلى عبادتها ولم تجعل أحدهم يرتد عن الإسلام .

والحق أن هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين آمنوا بالله ورسوله واجهوا الموقف بشجاعة الرجال وعزمهم ، واحتملوا ما لم يطقه بشر راضين محتسبين ذلك عند الله ، دون أن تضعف عزيمتهم ، وموقف بلال بن رباح يعتبر نموذجا رائعا للثبات على المبدأ ، والتضحية من أجل العقيدة ، فقد كان المشركون يأخذونه ويلقونه على رمال الصحراء المحرقة وتحت أشعة الشمس الملتهبة ، ويضعون الحجارة الثقيلة على صدره ، لا لشيء إلا لأنه يقول ربي الله ، ولكن كل هذا العذاب وهذه الوحشية لم تضعف مقاومة الرجل المؤمن بنصر الله لدينه ، فاحتمل ذلك كله صابرا محتسبا ، ولم يزد على أن يقول : أحد أحد ، هذا مثل واحد من الأمثلة العديدة التي تعرض فيها المسلمون الأولون لأذى قريش وتعذيبها ، وكلما كانت تمعن في تعذيبهم كان إصرارهم على عقيدتهم يزداد . ومن الأمثلة الباهرة على ذلك قصة آل ياسر ، وما تحملوه من الأذى والتعذيب .

ولكن لماذا تقف قريش هذا الموقف السيء من النبي ودعوته ، مع علمها أو على الأقل علم الكثيرين من أبنائها بأن الإسلام حق ، وأن محمدا رسول من عند الله ، وأن القرآن الذي ينزل عليه هو وحي الله الذي يأتيه من السماء ؟ الذي يدرس حياة العرب قبل الإسلام وخصائص هذه الحياة ، والأسس التي تقوم عليها يستطيع أن يفهم أن مقاومة قريش للدعوة الإسلامية لم يكن مبعثها الأساسي التمسك بعبادة الأصنام فقط ، لأن كثيرين من العرب كانوا يعرفون فساد هذه العبادة ، ولقد أشرنا إلى العديد من الرجال الذين كانوا يحتقرون

الأصنام ويرفضون عبادتها ، بل يعتبرون هذه العبادة ضربا من الجنون ، لذلك فإن مقاومة قريش للنبي ﷺ ودعوته يمكن إرجاعها إلى أسباب أخرى عديدة منها :

أولا : المنافسة بين القبائل على الزعامة : فالمنافسة على الزعامة كانت ولا تزال من خصائص المجتمع القبلي ، وكانت هذه المنافسة في مكة أشد وأوضح منها في غيرها ، ولقد تركزت المنافسة قبيل الدعوة الإسلامية في مكة بين فرعين من بني عبد مناف ، هما : بنو هاشم ، وبنو أمية ، ذلك لأن عبد المطلب بن هاشم كان زعيم مكة وسيدها ، وهو رأس بني هاشم ، فلما توفي تركت وفاته فراغا كبيرا في مكة ، لأن أحدا من أولاده لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به هو من خصائص وصفات الزعامة والسيادة . هذا الوضع أطمع أبناء عمومتهم بني أمية وزعيمهم أبا سفيان بن حرب في زعامة مكة ، وهذا يفسر عناد معظم بني أمية وإصرارهم على مقاومة الدعوة الإسلامية وحملهم راية العصيان والتمرد عليها حتى آخر لحظة ، ولم يذعنوا للدين الجديد إلا في سنة ٨ هجرية يوم فتح مكة . لذلك نظرت القبائل العربية في مكة إلى نبوة محمد الهاشمي في ضوء المنافسة القبلية ، وحسدت بني هاشم على النبوة وظنتها سيادة دنيوية ، لأنهم لم يفرقوا في البداية بين النبوة وبين الملك الدنيوي ، واعتقدوا أن إيمانهم بنبوة محمد الهاشمي هو تسليم لبني هاشم بالزعامة والسيادة ، بعد أن أوشكوا أن ينتزعوها منهم ، ولعل خير ما يفسر هذا موقف أبي سفيان عند فتح مكة ؛ عندما أخذه العباس بن عبد المطلب ليأخذ له الأمان من النبي ﷺ ، فلما رأى جيش النبي القادم من المدينة وضخامته ، نظر إلى العباس بن عبد المطلب وقال : « لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » ، ولكن العباس قال له : يا أبا سفيان إنها النبوة [١] .

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣ .

لم يكن بنو أمية وحدهم هم الذين حسدوا بني هاشم على نبوة محمد ، بل كان هذا موقف الكثيرين من بطون قريش ، كبني مخزوم ، الذين يصور موقفهم ما جاء على لسان زعيم من زعمائهم وهو أبو جهل الذي قال : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه » . هذا مثل على التنافس على الزعامة والحسد المتأصل في النفوس القبلية .

ثانيا : دعوة المساواة : من الأشياء التي أهاجت قريشا على مقاومة الإسلام ، دعوة المساواة المطلقة بين البشر ، والتي أعلنها الإسلام بكل وضوح وحسم منذ اللحظة الأولى ، فالناس جميعاً أمام الله سواسية كأسنان المشط ، وهم مخلوقون من أب واحد وأم واحدة ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، فالمساواة أساس هام من الأسس الإسلامية ، ولكن كيف ذلك ؟ وكيف تقبل قريش ذلك المبدأ ؟ كيف يمكن أن تقبل أن يسوي محمد بين سادتها وعبيدهم ؟ هذا أمر يصعب قبوله ، لأنها ألفت السيادة والاستعلاء ، لذلك كانت مقاومتها شرسة وضارية ، لأنها كانت ترى - من وجهة نظرها - أن الإسلام بدأ يهدد مبدأ سيادتها على عبيدها ، وبدأ يهدد مصالحها الاقتصادية التي كانت تقوم على استخدام هؤلاء العبيد والخدم المستضعفين وتسخيرهم .

ثالثا : الإيمان بالبعث : من الأساسيات التي قررها الإسلام وجعل الإيمان بها جزءا من الإيمان بالله ورسوله ، الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب ، وثواب وعذاب وجنة ونار ، ولكن العرب كانوا ينفرون أشد النفور من البعث بعد الموت ، وكانوا يعتقدون أن حياتهم تنتهي بالموت في الدنيا ، ولا بعث بعد ذلك ، ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ، وتردد على

ألسنتهم - كما حدثنا القرآن الكريم [١] - « قولهم نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » فإذا جاء القرآن الكريم وحدثهم عن هذه الفكرة المزعجة فلا بد أن يقاوموه ، فالفزع من البعث هو طابع الكافرين في كل زمان ومكان .

رابعاً : متابعة الآباء والأجداد : يضاف إلى ما سبق متابعة قريش لابائها وأجدادها ، متابعة عمياء ، دون نظر أو تبصر ، فقد ألفوا تقليد الآباء والأجداد دون مناقشة ، فإذا كان آباؤهم قد عبدوا الأصنام فليتابعوهم على ذلك ، واعتبروا الخروج عن ذلك المبدأ خيانة لآبائهم لا تليق بهم ، حتى ولو كان هؤلاء الآباء والأجداد لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ولقد سخر القرآن الكريم من هذه المتابعة العمياء ، ونعى عليهم إصرارهم على الشرك لمجرد أن آباءهم كانوا مشركين ، واعتبر ذلك دليلا على فساد تفكيرهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ الآية ١٧٠ من سورة البقرة .

لكل هذه الأسباب رفعت قريش راية العصيان في وجه النبي منذ اللحظة الأولى لإعلان الدعوة الإسلامية ، والحقيقة أن مقاومتها كانت مقاومة اليائس ، فالعالم كله كان مهيئا لقبول رسالة الإسلام ، لأنه كان غارقا في الضلال والجهل وفساد العقائد والنظم ، وكان في مسيس الحاجة إلى دين جديد ؛ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما سوى ذلك من العبادات والعقائد الفاسدة ، والدليل على أن العالم كان مهيئا لقبول رسالة الإسلام ؛ أنه برغم المقاومة التي بدت أولا فلم تكد تمضي بضع سنوات على وفاة النبي ﷺ ، حتى كان الإسلام هو الدين السائد في بقاع كثيرة من العالم المعمور ، وأظهر الله دينه على الدين كله كما وعد نبيه ومصطفاه .

---

(١) تردد كثيرا نعي القرآن الكريم عليهم إنكارهم للبعث بعد الموت يوم القيامة .

أساليب قريش في المقاومة

صبت قريش غضبها ونقمتها على المسلمين وأرتهم العذاب ألوانا ، ولم يسلم الرسول نفسه من قسوتها ووحشيتها [١] ، رغم أن عمه أبا طالب وبني هاشم من ورائه ، كانوا يقفون إلى جانبه يحمونه ويدافعون عنه ، إلا أنه كان يتعرض بين الحين والحين إلى الأذى ، خصوصا من عمه أبي لهب ، عليه لعنة الله ، ومن زوجته حمالة الحطب ، التي كانت تلقي القاذورات على داره ، ومن أبي جهل الذي كان خصما عنيدا للنبي وأعوانه ، فقد مر أبو جهل ذات يوم بالنبي ﷺ فشتمه وآذاه وسب دينه ، واحتمل النبي تلك الإساءة ، لكن ذلك كان سببا في إسلام عمه حمزة بن عبد المطلب ، الذي كان حتى تلك اللحظة على دين قومه ، فلما سمع أن أبا جهل تعرض لابن أخيه وآذاه ، ثارت فيه نخوته وعصبيته ، وذهب إلى الكعبة ولم يكلم أحدا ، ولم يسلم على أحد ، ولما وجد أبا جهل قصده ورفع القوس الذي كان في يده وضربه به انتقاما لما صنعه بابن أخيه ، وحاول رجال من بني مخزوم أن ينتصروا لأبي جهل ، إلا أنه منعهم من ذلك حسما للنزاع ومنعا من استفحال الأمر ، وخوفا من أن يتطور إلى حرب أهلية بين بني هاشم وبني مخزوم ، وبعد ذلك أعلن حمزة إسلامه ، وأصبح أكبر أنصار الدعوة الإسلامية ، وأبلى في نصرتها بلاء حسنا حتى استشهد في غزوة أحد بطلا من أعظم أبطال الإسلام ، ﷺ وأرضاه . جربت قريش مع النبي ﷺ وأصحابه كل أساليب الوحشية فلم تفلح في إثناء أحد من المسلمين عن دينه ، ولما يئست من أساليب القسوة والتعذيب حاولت أن تجرب أساليب الترغيب والملاينة ، وقررت أن تستخدم أبا طالب ليقوم بدور الوساطة بينها وبين النبي ؛ فأبو طالب رغم أنه لم يؤمن بالله ورسوله إلا أنه كان الساعد الأيمن للنبي ، واستطاع أن يكتل بني هاشم معه ، من أسلم منهم ومن لم يسلم لحماية النبي والدفاع عنه ، فعمدت قريش أن تحدث أبا طالب لعله يقنع

---

(١) أنظر ما لقي رسول الله من قومه ، في سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٠٩ وما بعدها .

ابن أخيه بالعدول عن دعوته التي سفهت أحلامهم وعابت آلهتهم ، على حد تعبيرهم ، فدعوه وقالوا له : « يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازلك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين »[1] ، فهذه دعوة للوساطة ولكنها مصحوبة بالتهديد بالحرب ، وقد فكر أبو طالب طويلاً في مطلب قريش ؛ فهو من ناحية حريص أشد الحرص على الوقوف بجانب ابن أخيه والدفاع عنه ، ومن ناحية أخرى لا يريد أن يدخل مع قومه في حرب لا يعلم مداها إلا الله ، لذلك قرر أن يفاتح النبي الموضوع ، فلعله يسمع منه ويوافق على مطلب قريش ويجنبه الصدام معهم ، فقال له : « يا ابن أخي ابق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » . أطرق محمد مفكرا بعد أن سمع كلام عمه ، ما هذا الذي سمعه ؟ أضعف أبو طالب عن نصرته ، وتخلى عنه ؟ ودارت في ذهن النبي في لحظة خاطفة معان كثيرة ، لكنه لم يفقد إيمانه بالله ونصره له ، فإذا كان عمه قد تخلى عنه ، فإن الله الذي أرسله رحمة للعالمين لم ولن يتخلى عنه أبدا ، وسوف ينصره رغم أنف الكافرين ، كان النبي قويا بإيمانه بالله فلم يهتز ولم يخفه تهديد قريش ، ولذلك أجاب عمه إجابة الواثق بربه ونفسه ، وبعدالة قضيته التي يدعو إليها ، قال في عزم وتصميم ما وعاه سمع التاريخ ، وصار علامة من علامات اليقين والعزم والتصميم : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »[2] .

سمع أبو طالب من النبي هذه الإجابة القاطعة الحاسمة التي لم تدع مجالا لمزيد من المناقشة في الموضوع ، وأتصور أبا طالب وقد شعر بشيء من الخجل من ابن أخيه ، ولعله قد أعجب بهذا الإصرار وهذه الشجاعة التي أبداها النبي

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٨ .

فرق له وراجع نفسه وأراد أن يصلح موقفه معه فقال له : « يا ابن أخي اذهب فقل ما أحببت فوالله لن أسلمك لشيء تكرهه أبدا » .

نسى أبو طالب تهديد قريش ، وشعر بالفخر والاعتزاز بابن أخيه وشجاعته وثباته على موقفه ، وقرر المضي في الدفاع عنه مهما كانت الظروف ، وانصرف من عنده ليجمع بني هاشم ويحدثهم بما دار بينه وبين قريش من ناحية ، وما دار بينه وبين النبي من ناحية ثانية ، وطلب منهم جميعاً الوقوف معه خلف النبي فوافقوه ، عدا أبا لهب الذي أصر على موقفه المعادي للنبي ودعوته .

نمى خبر ما دار بين أبي طالب وابن أخيه إلى قريش ، فلم تصنع شيئا ولم تلجأ إلى الحرب كما كانت تهدد ، وإنما عرضت على أبي طالب عرضا آخر يدل على فساد تدبيرها وضلال تفكيرها .

كان العرض الجديد الذي عرضته قريش على أبي طالب أن يعطوه شاباً من خيرة شبابهم - وقد وقع اختيارهم على عمارة بن الوليد بن المغيرة - ويسلمهم محمدا يفعلون به ما يشاؤون ، لكن أبا طالب سخر منهم ، وقال لهم :

« تدفعون إلي ابنكم أغذوه لكم ، وادفع إليكم إبني تقتلونه ، إن هذا والله لا يكون أبدا » .

ولم تفقد قريش الأمل ، وإنما قررت أن تجرب طريقة أخرى مع محمد مباشرة هذه المرة فأرسلت له عتبة بن ربيعة ، بعرض جديد .

سفارة عتبة بين النبي وقريش

أعمت العصبية قريشا وسيطر عليها الجهل والركون إلى القديم ، وأصبح كل همها أن تثني محمدا عن دعوته بأي ثمن ؛ تلك الدعوة التي رأت فيها تهديداً لأوضاعها الجاهلية التي توارثتها جيلا بعد جيل . ولم تفسح للعقل مجالا لتفهم الدعوة الإسلامية وأهدافها السامية ، لو فعلت لرأت أنه لا داعي لكل تلك الأساليب الوحشية التي ابتدعتها لمقاومة النبي الذي جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويدعوهم إلى البر والرحمة والخير والحق والعدل والحرية والمساواة .

ظلت قريش مشدودة إلى الأرض وماديتها ، وظنت أن محمدا طالب سيادة وملك دنيوي وطالب مال ، ولما كانت هذه الأشياء هي المسيطرة على تفكيرها ، حاولت أن تستخدم معه أسلوب الترغيب ، بعد أن فشلت في أساليب المقاومة والضغط ، وقررت أن ترسل له شيخا من شيوخها وزعيما من زعمائها يفاوضه في هذا الأمر ، وهو عتبة بن ربيعة صاحب المكانة الرفيعة في قريش (١) .

بدأ عتبة عرضه لمحمد بأسلوب لين وديع فقال له : « يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت ، من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها ؛ إن كنت تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد تشريفا سودناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » . سمع النبي هذا الذي قاله عتبة في استغراب ، ما هذا ؟ مال وشرف وملك ؟ إن هؤلاء الناس لا يريدون أن

---

(١) أنظر سفارة عتبة بين النبي وقريش ، وما دار بينهما في المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

يفهموا أنها رسالة سماوية خالدة ، لا يهم صاحبها المال ولا الشرف الزائف ، ولا الملك الدنيوي الذي يعرضونه ، إنها رسالة سماوية للعالم كله ، لإرساء دعائم الحق والعدل والمساواة . ولكن ماذا كان جواب النبي على هذا العرض السخي الذي قدمه عتبة ؟ قال له :

« يا عم اسمع مني » ، وأخذ يتلو عليهَ بضع آيات من سورة فصلت ، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فإنْ أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ ، عندئذ فزع عتبة بن ربيعة وناشد النبي أن يكف عن التلاوة ، وقال بعد ذلك : « لقد خشيت أن لو استمر محمد في التلاوة لنزلت علينا الصاعقة في الحال ، وأدرك أنه أمام رجل لا مطمع له في مال ولا ملك ولا شرف مما يدعونه إليه ، إنما هو رسول من عند الله ، يدعو إلى الحق . وانصرف عائدا إلي قريشَ التي كانت تنتظره بفارغ الصبر لتعرف نتيجة سفارته . فقالوا له ماذا سمعت من محمد ؟ قال : « لقد سمعت كلاما له حلاوة وعليه طلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدَق ، وأنه ليعلو ولا يعلو عليه ، وأنه ليس من كلام البشر » ، فصدمت بهذا الذي سمعته من عتبة ، فقد كانت تظن أنه سينجح في إقناع النبي بواحد من هذه العروض التي قدمتها له ولذلك قررت الاستمرار في المقاومة والضغط بمختلف الأساليب .

وتعرض النبي لكثير من الأذى ، وكان أشد الناس إيذاء لـه ؛ عمه أبا لهب ، وزوجه أم جميل بنت حرب ، وأمية وأبي ، ابني خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن هشام ـ أبو جهل ـ والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعديّ ابن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ، ومعظم هؤلاء كانـوا جيرانه فـي السكن ، فكانوا يضايقونه ويؤذونه أشد الأذى ، ويلقون عليه القاذورات ، فما كان يصنع أكثر من أن يبعد الأذى عن بيته ، ثم يقول : « يا بني عبد مناف أي جوار هذا » [١] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥ .

قريش تلجأ إلى الدعاية والحرب النفسية

إلى هنا وأمر النبي ﷺ في صعود ، ودعوته تنتشر في مكة رغم عناد قريش ومقاومتها ، وأخشى ما كانت تخشاه قريش أن تخرج الدعوة من نطاق مكة إلى خارجها ، لذلك قررت أن تبذل أقصى جهدها لتحول دون ذلك ، ولكن كيف السبيل ؟ فالوفود من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تأتي إلى مكة في موسم الحج لزيارة الكعبة ، وهناك بالقرب من الكعبة تعقد الندوات والاجتماعات في أسواقها الشهيرة ، في عكاظ ومجنة وذي المجاز . وأمر خطير كرسالة محمد لا يمكن حجبه عن الناس مهما صنعت قريش ، خصوصا وأن كثيرين ممن أسلموا أصبحوا دعاة يبثون الدعوة بين الناس ويحدثونهم عنها ، فماذا تصنع قريش ، لقد قررت أن تستخدم أسلوب الدعاية والحرب النفسية ، ضد النبي ﷺ ، وعمدت إلى التجريح ، ووصفه بالجنون والسحر والكهانة ، لتجعل الناس ينفرون منه ، وجندت لهذه الغاية شعراءها يهجونه ، ويشوهون سمعته . وأنت قد عرفت ما للشعر من أثر في الحياة العربية ، واستعداد العرب بفطرتهم لسماعه والتأثر به ، وكانت تضع الخطط لمواجهة النبي في موسم الحج حتى يأتي عملها منظماً [1] . فمثلا في أحد المواسم اجتمع نفر من زعماء قريش إلى الوليد بن المغيرة ، ليتشاوروا في ماذا يصنعون ؟ وما هي خطتهم لمواجهة العرب في موسم الحج وإقناعهم بعدم السماع لمحمد وأتباعه ؟ فقرروا الاتفاق على خطة واحدة ينفذونها حتى لا يختلفوا ويكذب بعضهم بعضا ، واقترح بعضهم أن يقولوا إنَّ محمدا كاهن ، ولكن الوليد لم يقبل هذا الرأي ، وقال لهم : إن ما يقوله محمد يختلف عن زمزمة الكهان . وقال آخرون نقول إنه مجنون ، ومرة أخرى قال الوليد : إنكم لا تستطيعون أن تقيموا دليلا على أنه مجنون . وجاء اقتراح ثالث بأن يتهموه بالسحر ، وقال الوليد : إن محمداً ليس بساحر ، فهو لا ينفث في العقد ، ولا يأتي من عمل السحرة شيئا . فسكتوا

---

(١) المصر السابق جـ ١ ص ٢٨٣ .

جميعاً وقالوا له : فماذا تقول أنت ؟ قال الرأي عندي أن تقولوا إنه ساحر البيان ؛ أي أنه أوتي من سحر البيان ما يستطيع أن يفرق به بين الرجل وزوجته ، وبين الرجل وعشيرته ، وقال لهم نستطيع أن نقيم الدليل على ذلك ، أليس قد تابع محمدا كثيرون وفارقوا أهلهم وعشائرهم . فوافق الجميع على هذا الرأي ، وانبعث رجالهم بين الحجاج يروجون هذه الفرية ، ولكن خطتهم هذه خدمت النبي من حيث لا يقدرون ولا يريدون ، وجعلت أمره ينتشر بين الناس ، فسمع بها من لم يكن قد سمع ، وأهاجت هذه الخطة في نفوس الحجاج حب الاستطلاع ، ورغبة الوقوف على هذا الأمر الخطير ؛ الذي أقلق قريشا ، وجعلها تهتم به هذا الاهتمام ، وأصبح موضوع الدعوة مثار نقاش وأخذ ورد بين وفود الحجيج . واستمرارا في أسلوب الدعاية والحرب النفسية جندت قريش رجلا معروفا ومشهورا بقدرته الفائقة على رواية القصص والأساطير القديمة ليعارض بها النبي ، ويصرف الناس عن سماعه ، ذلك الرجل هو النضر بن الحرث ، وكان بسبب أسفاره الكثيرة على دراية بأخبار الأمم القديمة وأساطيرها خصوصا الفرس ، وهو من شياطين قريش ، وكان يؤذي رسول الله ، وينصب له العداوة ، حسب تعبير ابن إسحاق .

فكان كلما جلس النبي ﷺ يحدث الناس عن دينه ويتلو عليهم القرآن الكريم ، كان النضر يجلس في مكان قريب ويقص قصص الأقدمين وأساطيرهم ويقول : بماذا يكون محمد أحسن مني أليس محمد يتلو أساطير الأولين وأنا أقص أساطير الأولين .

وكانت قريش تذيع أحاديث النضر وتروجها لتشوش على النبي ، والنضر بن الحرث هذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ

ويهديه إلى عذاب السعير ﴿٤﴾ ﴾ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الحج [١] .

ومن أساليب الدعاية التي حاربت قريش بها النبي ﷺ أنهم كانوا يقولون : إن هذا الذي يقوله محمد ليس وحيا وإنما هو من تعليم شاب نصراني له يسمى جبر كان النبي يجلس عنده أحيانا . وروجت كثيرا لهذه الفرية ، حتى فندها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ الآية ١٠٣ من سورة النحل .

وهكذا أخذت قريش تجرب كل ما في جعبتها من سهام توجهها إلى النبي ودعوته ، ولكن كل ذلك لم يجدها نفعا ، ولم يصل بها إلى نتيجة تحقق أغراضها .

وإذ لم تنجح أساليبها المتنوعة في إثناء النبي عن المضي قدما في تبليغ رسالته ، فإن وحشيتها وقسوة تعذيبها لم تنجح كذلك في النيل من إيمان المستضعفين الذين تحملوا ما فوق طاقة البشر .

الهجرة إلى الحبشة

لما اشتد أذى قريش ومضايقتها للمسلمين ، خصوصا الضعاف منهم [٢]، وقررت الاستمرار في المقاومة بشتى الأساليب ، فكر النبي في أن ينصح

---

(١) وانظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٩ .

(٢) كان الأقوياء من المسلمين في حمى أهلهم وأقربائهم ، فعندما أسلم الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وأراد رجال من مخزوم النيل منه ، منعه منهم أخوه ؛ هشام بن الوليد ، وهددهم بقتل من يؤذيه منهم .

مجموعة من أصحابه بالهجرة من مكة إلى مكان آخر ، لعل الله يجعل لهم فرجا ومخرجا ، ولعل قريشا تخجل من نفسها أن أجبرت أناسا أبرياء على ترك وطنهم وأهليهم ، لا لشيء إلا لأنهم يقولون ربنا الله ، فأشار بالهجرة على بعض أصحابه ، فقالوا : إلى أين يا رسول الله ؟ قال : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ، ما أروع العدل ؟! ملك نصراني يشتهر بالعدل ، ويعرف النبي أمره وينصح أصحابه بالهجرة إلى بلاده ، والعيش في رحابه وتحت حمايته ، حتى ينصر الله دينه .

حزم أحد عشر رجلا وأربع نسوة أمرهم على الذهاب إلى الحبشة ، فخرجوا من مكة سرا ، لئلا تراهم قريش فتحول بينهم وبين هدفهم . وتمكنوا من الوصول إلى هذه البلاد البعيدة ، فعرضوا على النجاشي أن يقبلهم لاجئين عنده ، ولعل النبي أراد أن تكون هذه تجربة يرى فيها كيف يقابل الناس خارج الجزيرة العربية الإسلام ، وكيف يعاملون المسلمين ؟! وليدرب أصحابه على معاناة الهجرة ، وترك الأهل والوطن في سبيل الله استعدادا للهجرة الكبرى والدائمة فيما بعد .

قبل النجاشي جوار المسلمين وبسط عليهم حمايته وأمنه ، لكن حب الوطن يجري في الإنسان مجرى الدم في عروقه ، فلم يزايل هؤلاء المهاجرين حبهم لوطنهم وأهلهم ، وظلوا يتلمسون الأخبار عن مكة ، وعن رسول الله ـ أحب الناس إليهم ـ الذي فارقوه فيها . ويقال إنَّ أخبارا ترامت إليهم من مكة أن قريشا قد خففت من عدائها للرسول وأصحابه ، وكفت أذاها عنهم ، فقرروا العودة إلى مكة ، فهم لم يغادروها إلا فرارا من أذى قريش ، وما دامت هذه قد منعت يدها عنهم فليس هناك مبرر لبقائهم خارج وطنهم ، فشدوا رحالهم إليه .

ولكن ما إن عادوا إلى مكة حتى وجدوا قريشا لا تزال على عنادها

وإصرارها في مقاومة النبي ودعوته ، فعادوا مرة أخرى إلى الحبشة [١] ، ولكنهم في هذه المرة بلغوا أكثر من ثمانين رجلا ، مع أغلبهم زوجاتهم وأولادهم . وما أن عرفت قريش خبرهم حتى استبد بها الغيظ ، فقد كانت تخشى أن يتسرب أمر الإسلام خارج مكة إلى شبه الجزيرة العربية ، فإذا بالإسلام ينتقل متجاوزا أرض العرب كلها ، ويذهب إلى الحبشة .. فهل يسكت زعماء الشرك على هذا ؟

لقد قررت قريش أن تفسد على المسلمين خطتهم ، وأن تعيدهم إلى مكة لتؤدبهم على صنيعهم هذا ، فأرسلت إلى النجاشي وفدا يطلب منه إعادة هؤلاء المهاجرين إلى بلدهم ، واختارت لهذه المهمة عمرو بن العاص ـ المشهور بالدهاء والبراعة في المفاوضات ـ وضمت إليه عبد الله بن أبي ربيعة ، وبعثت معهما بالهدايا والطرف إلى ملك الحبشة وحاشيته من رجال البلاط وللبطارقة . وصل الوفد المشرك إلى الحبشة ، وجهز عمرو نفسه تجهيزا لائقا لهذه المهمة الخطيرة ، فهو سوف يقابل ملكا كبيرا في مهمة شاقة ، فليمهد لذلك بلقاء رجال البلاط وشراء ضمائرهم ، فلقيهم ووزع عليهم الهدايا حتى يساعدوه عند الامبراطور ليحقق هدفه .

ورتب رجال البلاط مقابلة لعمرو مع النجاشي ، فلما مثل بين يديه أخذ يعرض عليه ما جاء لأجله ، فقال : « أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلم بهم عينا (يعني أبصر بهم) ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » .

---

(١) أنظر قصة الهجرتين إلى الحبشة بتمامها وتفاصيلها في سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها .

خطاب موجز ومركز فيه تحريض للنجاشي على المسلمين ، فقول عمرو : إنهم لم يدخلوا في دينك يعد استفزازاً للملك ضد المسلمين ، وكان عمرو بدهائه قد اتفق مع البطارقة الذين أتحفهم بالهدايا على أن يساعدوه على أخذ موافقة الملك على طرد المسلمين ، وردهم معه دون أن يسمع وجهة نظرهم ، ولعله كان واثقا أن الملك لو سمع من المسلمين وجهة نظرهم فسوف لا يردهم لأن حجتهم قوية .. ولكن ألم يقل النبي إن النجاشي : « ملك لا يظلم عنده أحد ؟ » ، ومقتضى العدل أن يسمع الملك من المسلمين ، بعد أن سمع من عمرو بن العاص مبعوث قريش وسفيرها إليه .

ولم تفلح محاولات عمرو ولا البطارقة في إقناع الملك بعدم الاستماع إلى المسلمين ، فقرر أن يقف على وجهة نظرهم قبل أن يبت في أمرهم ، فطلب منهم أن يختاروا أحدهم ليتحدث باسمهم ويشرح له حقيقتهم ، فاختاروا جعفر بن أبي طالب ؛ ابن عم النبي لهذه المهمة ، فتقدم فسأله النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فقال جعفر : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى

بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك » . فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به من الله من شيء ؟ قال : نعم ، قال الملك : فاقرأه علي . فقرأ جعفر من أول سورة « مريم » حتى قوله تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَـٰنِىَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝ ﴾[1] . فبكى النجاشي وبكى البطارقة وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح . وقال الملك : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم قال لعمرو ابن العاص ورفيقه : انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما .. فعادا إلى مكة خائبين !

إسلام عمر بن الخطاب

كان من أبرز الأحداث في مكة بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة ؛ إسلام عمر بن الخطاب ، الذي كان نصرا عظيما للإسلام [2] ، ويروى أن النبي كان يقول قبل إسلامه : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » - عمر بن الخطاب ، وعمرو بن هشام - أبو جهل - ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ : كان إسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت خلافته رحمة .

وقصة إسلام عمر من أروع الأدلة على عظمة الإسلام ، وما يحدثه في النفوس من تغيير ، فبعد أن كان من أشد أعداء الإسلام ، أصبح من أعظم

---

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٣ .

(٢) جاء ذكر إسلام عمر بن الخطاب ﷺ في سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٤ وما بعدها تحت عنوان كبير ليشعر أنه كان حدثا هائلا ، وهو بالفعل كذلك .

أنصاره ومن رجاله المبرزين . وعندما أسلم عمر كان قد تجاوز الثلاثين من عمره ، يفيض حيوية ونشاطا ، قوي الإرادة ، معتزا بنفسه إلى أقصى حد ، لا يهاب أحدا ولا يخشاه ، بل كان غيره يخشاه أشد الخشية ، وكان إلى جانب ذلك حاد الطبع والمزاج ، ميالا إلى اللهو والخمر ، كما كانت فيه رقة وعطف وبر بقومه !

ويروى عن سبب إسلامه أنه قد تألم لهجرة المسلمين إلى الحبشة ، وتأثر لفراقهم وتركهم أهلهم ووطنهم ، وحمّل النبي مسئولية ذلك ، فقرر أن يخلص مكة من هذا الذي فرق جماعتها ، وعاب آلهتها ، وحمل نفرا من أهلها على ترك وطنهم الحبيب ، وكان النبي عندما جالت هذه الفكرة الخطيرة في نفس عمر مجتمعا مع بعض أصحابه ، وفيهم عمه حمزة ، وعرف عمر مكان اجتماعهم ، فقصد نحوهم ، متوشحا سيفه يريد قتل النبي ، وفي الطريق لقيه نعيم بن عبد الله ، فسأله : أين تريد يا عمر ؟ فأفضى إليه بما ينوي عمله . فانزعج الرجل وهاله الأمر ، وقال له : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ وكأن الرجل أراد أن يصرف تفكير عمر عن هذا الأمر الخطير ، فوجه إليه كلاما جرح كبرياءه ومس كرامته ـ وهو الرجل الشديد الاعتداد بنفسه ـ قال له نعيم : « أفلا ترجع يا عمر إلى أهل بيتك لتقيم أمرهم ؟ » قال عمر مهتما دهشا : وأي أهل بيتي ؟ قال نعيم : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، واختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما !

بالله أهذا صحيح ؟ وهل بلغ الأمر بفاطمة بنت الخطاب أن ترتكب هذا الخطأ ، وتسلم دون علم أخيها ، وهي تعلم تماما موقفه من محمد ودعوته . على كل حال نجح نعيم في تحويل عمر عن وجهته ، وجعله يرتد على الفور إلى حيث أخته وزوجها ، وكان عندهما أحد الصحابة يعلمهما القرآن الكريم ، فلما دنا عمر من البيت ، وأحس الذين بداخله بقدومه ، أخفت فاطمة

الصحيفة التي كانوا يقرءون منها ، واختفى الصحابي المعلم - خباب بن الأرت - ودخل عمر البيت والغضب يملؤه ، وقال لهما في عصبية : ما هذا الذي سمعت عنكما ؟ قالا له : ماذا سمعت ؟ قال : سمعت أنكما أسلمتما وتابعتما محمدا ! فأنكر في البداية . ولكنه ألح عليهما ليعرف الحقيقة ، وبطش بسعيد ، فقامت أخته لتدافع عن زوجها فلطمها لطمة قاسية أحدثت بوجهها جرحا سال منه الدم !

عندئذ صاحت به هي وزوجها قائلين : نعم أسلمنا وتابعنا محمدا ، فاقض ما أنت قاض !؟

وكأنما كانت هذه الجملة التي نطقتها فاطمة وزوجها هي الحد الفاصل في حياة عمر بن الخطاب ، ذلك الرجل العملاق الذي أصبح أبرز رجالات الإسلام ، فإنه لما سمع هذه الجملة منهما ورأى الدم يسيل من وجه أخته ، جلس يفكر ، ورق لهما رقة ظاهرة ، وسألها في رفق وعطف أن تعطيه شيئا مما كانا يقرآن فيه ، فاطمأنت أخته إلى هذه اللهجة الجديدة ، وقالت له في شجاعة وحسم : إنك رجل مشرك ونجس ، والقرآن الكريم لا يمسه إلا المطهرون ، فاذهب واغتسل وغير ثيابك ، وتعال أسمعك ما تريد .. فأذعن عمر لأخته ، وصنع ما أشارت به عليه ، وعاد فأسمعته بضع آيات من سورة « طه » ، فلما سمع القرآن الكريم أخذ ببلاغته وإعجازه وسمو معانيه ، ولان قلبه ، وبدأ التحول الحاسم في حياته ، فقرر أن يذهب إلى النبي لا ليقتله كما كان ينوي أولا ، ولكن ليؤمن به ، ويعلن إسلامه على الملأ !

وانطلق إلى حيث النبي وأصحابه ، وأعلن إسلامه ، ففرح النبي فرحا عظيما بإسلام عمر ، الذي طالما تمناه ودعا ربه أن يحققه . أرأيت كيف بلغت عظمة الإسلام ، إذ حول رجلا كان من عتاة المشركين ، وجعله واحدا ممن يعتز بهم المسلمون على مدى العصور .

فها هو بعد إسلامه يدافع عن دينه بنفس القوة والحماس الذين كان يحاربه بهما ، كما أن عمر لم يخف إسلامه مثلما كان يفعل الكثيرون ، بل أعلنه على رءوس الأشهاد ، وكان بعض المسلمين ـ قبل إسلام عمر ـ يؤدون شعائرهم الدينية خفية بعيدا عن أعين قريش ، لكن عمر لم يرض بهذا الوضع ، وإنما أخذ يصلي عند الكعبة علانية تحت سمع قريش وبصرها ، ولم يرض أن يتمتع بهذا وحده ، بل كان يأخذ المسلمين معه ويقوم بحمايتهم . وغلبت قريش على أمرها ، فهي تعلم قوة شكيمته ومضاء عزيمته ، فلم تتعرض له ، وقررت أن تلجأ إلى أسلوب آخر في مضايقة النبي وأصحابه وهو أسلوب المقاطعة والحصار .

المقاطعة

جربت قريش مع النبي ﷺ وأصحابه العنف والتعذيب والإضطهاد ، ولم تنجح في اثنائهم عن دعوتهم ، وظلوا صابرين صامدين محتملين كل ألوان العذاب ، فحاولت أن تجرب إسلوب الترغيب فعرضت على النبي ﷺ ما عرضت على لسان عتبة بن ربيعة ، عرضت الملك ، والسيادة الشرف ، والمال ، لكن الرسول لم يطلب ملكا أو مالا ، وإنما هو رسول الله إلى الإنسانية كلها لإخراجها من الظلمات إلى النور ، فهو يدعو إلى غاية أسمى من كل ملك وشرف ، وأنبل من كل جاه ومال ، دعوة غايتها العدل والحق والخير لكل البشر، ولما يئست قريش من نتيجة محاولاتهم السابقة ، فكرت في إسلوب آخر من أساليب الضغط والمقاومة للدعوة الاسلامية .

كان هذا الإسلوب الجهنمي الذي فكرت قريش فيه : هو مقاطعة بني هاشم ، وبني المطلب مقاطعة كاملة [١] ، فلا يبيعون لهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يتزاورون معهم ، وفرضت هذا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧١ وما بعدها .

الحصار القاسي عليهم ، فاضطروا أن ينحازوا إلى شعب أبي طالب ، وكأنها أرادت أن تعاقبهم على موقفهم من النبي وعدم تفريطهم فيه . وهنا أظهر بنو هاشم وبنو المطلب ، من أسلم منهم ومن لم يسلم بطولة ونبلا ، حيث قبلوا راضين أن يشاركوا النبي هذا الحصار ، ولم تضعف عزيمتهم أمام ضغط قريش .

إستمر هذا الحصار القاسي ما يقرب من ثلاث سنوات ، فنال بني هاشم وبني المطلب منه الأذى الشديد . وعلى الرغم من أن بعض الخيرين من أقربائهم وأصهارهم كانوا يحملون لهم بعض الطعام خلسة ، ويمدونهم ببعض ما يحتاجون ، فإنهم قد عانوا من تلك المقاطعة أشد العناء . وأمام إصرار قريش على استمرار الحصار ، وأمام احتمال المحاصرين للمعاناه أخذت النخوة مجموعة من قريش وعز عليهم أن يستمتعوا هم بطيبات الحياة ، وبنو عمومتهم من الهاشميين والمطلبيين محرومون من كل شيء ، فقرروا أن يضعوا حدا لهذا العمل الذي لم يكن له مسابقة في مكة من قبل ، وجاءت هذه المبادرة على يد رجل يدعى هشام بن عمرو الذي عرف بأنه كان من أكثر الرجال عطفا على المحاصرين إذ كان يمدهم بالطعام سرا .

ذهب هشام هذا إلى زهير بن أبي أمية ؛ ابن عمة النبي ، عاتكة بنت عبد المطلب ـ وقال له : « أرضيت يا زهير أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟! أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبدا ... » واستطاع هشام أن يقنع زهيرا بضرورة نقض صحيفة المقاطعة ، لأن قريشا كانت عندما قررت مقاطعة بني هاشم وبني المطلب قد كتبت بذلك صحيفة أودعتها في جوف الكعبة دلالة على أهميتها .

رأى هشام وزهير أن يستعينا بغيرهما من رجالات قريش ، فوجدا في المطعم بن عدى ، وأبي البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، نصراء لهما ، واتفق هؤلاء الخمسة على نقض الصحيفة مهما كانت الظروف . وتحمس زهير أن رأى رجالا أبعد منه نسبا عن بني هاشم ، يهتمون بأمرهم هكذا ؟ وفي الصباح ذهب إلى الكعبة وطاف بها سبعا ثم نادى في الناس قائلا : « يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ، وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به : كذبت ، والله لا تشق . عندئذ صاح أصحاب زهير بأبي جهل ، وأقسموا ألا بد من تمزيق هذه الصحيفة ، وأدرك أبو جهل أن الأمر قد دبر بليل ولا جدوى من المعارضة ! فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها فلم يبق منها سوى كلمة « باسمك اللهم » [1] . وبهذا انتهت فترة من أشق الفترات وأصعبها على النبي وأهله ، وخرجوا من شعبهم الذي انحصروا فيه ، ليستأنف دعوته إلى دين الله تعالى دون كلل أو ملل ، حتى أظهر الله دينه على الدين كله .

عـــام الحـــزن

خرج النبي ﷺ وأهله من الحصار الذي ضربته عليهم قريش ، واستأنف دعوته في مكة بين أهلها ، وبين من يفدون إليها من القبائل العربية في موسم الحج . وبينما هو يمضي في طريق دعوته ، إذا به يفقد أهم نصيرين له ، فلم تكد تمضي بضعة أشهر على نقض الصحيفة ، وانفراج أزمة الحصار حتى فاجأت الأقدار النبي بموت عمه أبي طالب ، وزوجه خديجة ، فكان لموتهما وقع مؤلم على نفسه ، فتأثر لفقدهما أبلغ التأثر ، وحزن لوفاتهما أشد الحزن ، حتى

---

(١) وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ كان أخبر عمه أبا طالب بأن الله أعلمه أن الأرض أكلت الصحيفة ما عدى « باسمك اللهم » .

سمي ذلك العام « عام الحزن » ، وكان يدرك أنه لم يحرم فقط من عمه وزوجه ، ولكنه كان متأكدا أن قريشا سوف تستأنف مضايقتها له ووضعها العراقيل أمام دعوته ، ولكنه على الرغم من ذلك ، ومع الحزن العميق الذي أصابه بوفاة عمه وزوجه ، فإنه لم يضعف ولم تهن عزيمته . فقد كان واثقا من نصر الله له ، وأنه بجانبه يؤيده ، ويهيىء لدعوته أسباب النجاح ، فمضى في طريقه يجاهد حتى يبلغ رسالة الله إلى العالمين [١] .

رحلة النبي إلى الطائف

حدث ما توقعه النبي ﷺ من قريش بعد وفاة أبي طالب وخديجة ، فقد إستأنفت إيذاءها له ، وسدت في وجهه كل السبل في مكة ، ففكر في أن يعرض دعوته على بعض القبائل العربية الأخرى خارج مكة ، عله يجد عندها النصير والعون الذي يؤمن به ويؤازره ويمد له يد المساعدة ، فقرر أن يذهب إلى قبيلة ثقيف بالطائف ، ويعرض الإسلام عليهم ، ولكن خاب ظنه فيهم ، فلم يجد منهم اذنا صاغية ، وليتهم اكتفوا بأن لم يسمعوا منه ، ولم يؤمنوا به . بل ردوه ردا سيئا ، وأغروا به سفاءهم وصبيانهم يسبونه ويصيحون به ويقذفونه بالحجارة ! .

وعز عليه ، وهو الذي جاءهم بعز الدنيا والآخرة ، أن يقابل منهم بهذا الصدود وهذا الإيذاء ، غير أن النفوس الكبيرة لا تعرف اليأس ولا الفشل ، وإن كان هؤلاء القوم قد كذبوه ، فقد كذب الرسل من قبله ، وإحتملوا ، ونجحوا في النهاية ، وعلت كلمة الله في الأرض وبلغوا رسالاتهم ، لأن الله تعالى كتب ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ، وكان موقف النبي رائعا وهو عائد من الطائف ، حين جلس على الأرض ورفع يديه إلى السماء في ضراعة وخشوع

---

(١) انظر عن وفاة خديجة وأبي طالب ، وحزن النبي عليهما ، وما لقي من قومه بعدهما : ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥ وما بعدها .

وإيمان ويقين قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [١] .

هكذا واجه الموقف ، فلا غضب ولا يأس ، ولكن أمل في الله ، وثقة به وضراعة إليه ، ورجاء في رضاه ورحمته .. ويروى أن جبريل جاءه وهو في موقفه هذا ومعه ملك الجبال وقال له : « يا محمد ، إن كنت تريد أن أطبق لك عليهم الجبلين لفعلت » ، ولكن الرسول الكريم الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وجعله على خلق عظيم قال ما معناه : « لا يا أخي يا جبريل ، ولكن اقول : اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

هذا عن موقف ثقيف مع النبي في رحلته إلى الطائف ، وفي الواقع ، أنه لم يعرض نفسه ودعوته على قبيلة ثقيف وحدها ، ولكن على كثير غيرها من قبائل العرب ، مثل كندة وكلب وبني عامر ، فلم يجد عندهم أفضل مما وجد عند ثقيف .

الإسراء والمعراج

في هذا الجو الذي بدا قاتما بعد موت خديجة ﵂ ، وأبي طالب ، وبعد ما لقيه الرسول من القبائل التي عرض نفسه عليها ، ومع إصرار قريش على مواقفها وعنادها وكفرها بالله ورسوله ، أراد الله تعالى أن يسري عن نبيه ، وأن يعلمه بطريقة عملية ألا يهتم بهؤلاء جميعا . فما قريش وما مكة وما العرب

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠ .

جميعا أمام عظمة الله وقدرته ، وماذا يكون هؤلاء في ملكوت الله الواسع الرحيب ؟ أراد الله أن يأخذ نبيه إلى رحلة روحانية يطلعه فيها على عوالم وأكوان لا تخطر على بال بشر ، وليريه من آياته الكبرى ويشرح صدره : ويعلي في العالمين ذكره . فكانت رحلة الاسراء والمعراج ..

وقصة الاسراء والمعراج كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين العلماء وهل كانت الرحلة بالروح فقط ؟ أم بالروح والجسد معا ؟ ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا ، لأن هذا هو سر الإعجاز في القصة . أما إذا قيل إن الإسراء كان بالروح فقط فلا غرابة حينئذ في الأمر ولا إعجاز . لأن الإنسان العادي يرى كثيرا في منامه رؤى غريبة . ويرى أشياء يستحيل رؤيتها في اليقظة . ولا غرابة في ذلك ، ولكن العظمة في اسراء الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون بالروح والجسد جميعا ، وهذا هو الذي يفهم من ظاهر الآيات التي تحدثت عن الإسراء . يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَـٰتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [1] والآيات التي أشارت إلى حديث المعراج جاءت في سورة النجم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٤ وما بعدها .

السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ الآيات ٧ ـ ١٨[١] .

وملخص حادث الاسراء والمعراج كما روته كتب السيرة والحديث . أن رسول الله كان في تلك الليلة التي حدث فيها الإسراء في بيت أم هانيء بنت عمه أبي طالب [٢] . وفي أثناء الليل جاء جبريل ومعه البراق . وأخذه إلى بيت المقدس في فلسطين حيث كان في استقباله هناك جمع من الأنبياء فيهم . إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . فصلى النبي بهم إماما ركعتين ، وبعد أن احتفوا به صعد إلى السموات وإلتقى بإخوانه الأنبياء كل في مكانه ، فالتقى بآدم ، وإدريس ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، ويوسف ، ويحيى ، وعيسى . وتحدث إليهم وهنأوه وحيوه . ثم إرتقى فوق السموات العلى حيث رأى من آيات ربه الكبرى . ورأى الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، وحور عين أعدت للمتقين . ورأى النار وما فيها من جحيم وسعير أعدت للكافرين ، ثم فرضت عليه وعلى أمته الصلوات الخمس .

وعاد من رحلته في الليلة ذاتها ، وفي الصباح أخبر أم هانيء بما حدث ، فأشفقت عليه من تكذيب قومه له ، ورجته ألا يحدثهم بذلك لئلا يسخروا منه ويكذبوه . ولكنه لم يهتم بتكذيب قومه له . وصمم على أن يواجه الموقف في شجاعة ، وأن يخبرهم بما حدث . وكما كان متوقعا منهم ؛ كذبوه وسخروا منه . بل أكثر من ذلك اعتبروا القصة فرصة لهم لصرف الناس عن الإيمان به وتصديقه . فمن ذا يستطيع أن يصدق أن رجلا يمكنه أن يذهب من مكة إلى

---

(١) انظر المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٩٦ وما بعدها .

(٢) هناك رواية بأنه كان نائما في الحجر ، عندما جاء جبريل وأخذه إلى رحلة الإسراء والمعراج . انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢ وما بعدها .

فلسطين ويعود في ليلة واحدة ، وهم يعلمون أن العير كانت تطرد شهرا ذهابا وشهرا إيابا بين مكة وفلسطين . هذا فضلا عن أن النبي قص عليهم قصة المعراج وهي أغرب من أمر الإسراء !! .

أخذ المشركون يروجون ذلك ويحاولون حمل الناس على تكذيبه وهرولوا إلى أبي بكر وقالوا له : تعال وأسمع ما يقول صاحبك . فقال لهم : ماذا قال ؟ قالوا : إنه يقول : إنه أسرى به من مكة إلى بيت المقدس وعاد إلى مكة في ليلة واحدة .. ! فقال أبو بكر على الفور : إن كان قال ذلك فقد صدق . لأنه يخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ! وهذا أبعد مما تعجبون منه . وسمع النبي ﷺ بما حدث من أبي بكر . وأنه صدقه حتى قبل أن يسمع منه . فلقبه بالصديق ، وأصبح يعرف منذ ذلك الوقت بهذا اللقب .

والحق أن حادثة الاسراء والمعراج كانت فتنة وابتلاء من الله تعالى للمسلمين ، فالذين عصمهم الله تعالى وأيدهم ظلوا على يقينهم ولم يضعفوا ، بينما تزعزع إيمان البعض لعدم ادراكهم حكمة الله البالغة من قصة الاسراء والمعراج . لكن شيئا من ذلك لم يؤثر في مسير الدعوة ومستقبلها وإرتد كيد المشركين إلى نحورهم . وبدأت بشائر النصر ..

بشائر النصر تأتي من يثرب

تحجرت قلوب أهل مكة وقست . فاستمروا على عنادهم وأذاهم لرسول الله ، خصوصا بعد وفاة أبي طالب وخديجة ، فعرض نفسه على القبائل العربية ، فلم يجد منهم نصيرا ولا معينا . وفي هذه الأثناء حدث الإسراء والمعراج . وأرجف المرجفون به . ولم يفهموا أنها معجزة الهية لنبيه .والمعجزة لا تخضع لمقاييس العقل والمنطق . لأنها أمر خارق للعادة يظهر على أيدي الأنبياء منزل منزلة قول الله تعالى : « صدق عبدي في كل ما يبلغ عني » . ومع

ن حادثة الاسراء والمعراج هزت يقين من ضعف إيمانه من المسلمين . إلا أن لنبي ظن على يقينه في نصر الله له ولم تضعف عزيمته ، بل واجه الموقف بعد لاسراء في شجاعة وإصرار كما كان دائما . وفي موسم الحج ، في العام لحادي عشر من بعثته إلتقى بوفد من يثرب . وكان أهلها من الأوس والخزرج لذين هاجر أجدادهم إليها من اليمن . وكان يسكن يثرب ـ إلى جانب الأوس والخزرج ـ بعض قبائل اليهود . ولم تكن العلاقات ودية بينهم وبين عرب يثرب ، لما عرف عن اليهود من الجشع والإستغلال وسوء الطبع والتعامل بالربا . وكان اليهود يفخرون على عرب يثرب بأنهم أهل ديانة سماوية . والعرب وثنيون يعبدون الأصنام ، وكان هؤلاء يستاءون من ذلك ، ولكنهم لم يدخلوا في دين اليهود لأنهم يكرهونهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فاليهود يعتبرون ديانتهم خاصة بهم لأنهم شعب الله المختار ، وديانتهم امتياز لهم من الله على سائر خلقه . فلا ينبغي أن يشاركهم غيرهم فيها ، فهي ديانة مغلقة عليهم . ولم يحاولوا نشرها بين العرب . وكانوا يعلمون من خلال دراستهم لكتبهم المقدسة أن نبياً سوف يظهر عما قريب ، وكانوا يستفتحون على عرب يثرب بظهوره ، ويتوعدونهم قائلين : إن نبياً سوف يظهر وقد أظل زمانه ، وسوف نقاتلكم معه [1] ، وهذا يعني أن أهل يثرب كانت لديهم فكرة عن ظهور النبي وظلوا مترقبين ظهوره . لعله يفسح لهم في دينه مكانا ، ويصبح لهم دين سماوي . كما لليهود دين سماوي .

كانت هذه حال عرب يثرب عندما ذهب وفد منهم إلى مكة في موسم الحج وإجتمع بهم النبي ، وحدثهم عن نفسه وعن رسالته وما تحمله من خير وعدل ، فما ان سمع القوم هذا الكلام حتى نظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : لعل هذا هو النبي الذي حدثتكم عنه يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، ويقال إن هذا

---

(١) رغم قول اليهود هذا ، ورغم معرفتهم بصدق النبي ورسالته كما يعرفون أبناءهم ، إلا أنهم عندما هاجر إلى يثرب كذبوه وناصبوه العداء ، وسيأتي ذكر ذلك في موضعه من الكتاب .

الوفد الذي إلتقى به النبي . كانوا قدموا مكة لا للحج فقط . ولكن جاءوا يلتمسون من أهل مكة مساعدتهم في حربهم مع بني عمومتهم من الخزرج ، وكانوا في شغل بمهمتهم تلك عما عرضه عليهم النبي ، فلم يسلم منهم إلا رجل واحد هو إياس بن معاذ . وبعد أن عادوا إلى بلدهم حدثوا قومهم بما سمعوه ، واتصلت أخبار النبي ورسالته بأهل يثرب [1] ، وأخذ الناس يتحدثون عنه ويتشاورون في أمره . وفيما كانت تحدثهم عنه اليهود عن قرب ظهور نبي في العرب . حتى إذا جاء العام التالي ذهب وفد آخر وعقدوا مع النبي بيعة العقبة الأولى .

بيعة العقبة الأولى

بعد أن وصلت أخباره إلى يثرب استشرفت نفوسهم إلى سماع المزيد عنه ، فوفد منهم في موسم الحج التالي إثنا عشر رجلا إلى مكة . وإلتقوا به وعرفوه أن أخباره بلغتهم ، وأنهم يرغبون في سماع المزيد عن هذا الدين الذي يدعو إليه . فشرح لهم الرسول مضمون رسالته ودعوته إلى التوحيد الخالص لله وحده . وسره أن وجد لديهم استجابة لسماعه والإيمان به ، فبايعوه على أن يؤمنوا بالله وحده ولا يشركوا معه أحداً ، وألا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا الله في معروف . وبايعهم النبي على أن من وفي منهم بذلك فجزاؤه الجنة . ومن خالف عن شيء من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . ولما كان هذا اللقاء قد تم عند العقبة ، فقد سميت بيعة العقبة الأولى تمييزاً لها عن بيعة العقبة الثانية التي تمت في العام التالي .

أوفد النبي معهم أحد أصحابه وهو مصعب بن عمير ، ليعلمهم القرآن

---

(١) ليس معنى هذا أن أهل يثرب لم يسمعوا بدعوة النبي قبل هذا اللقاء ، فقد كان العرب جميعا في كل شبه الجزيرة العربية على علم بها ، ولكن كان هذا أول لقاء مباشر بينهم وبين النبي .

ويفقههم في الدين . كان هذا اللقاء مع وفد يثرب بداية الأمل في النصر بالنسبة للنبي . حيث فتحت هذه البيعة أمامه آفاقاً واسعة . فإذا كانت مكة قد رفضت الإيمان بالله ورسوله ، فها هي يثرب تبعث إليه بأهلها وتفتح له ذراعيها . ويثرب لم تكن مجهولة للنبي ففيها أخوال جده عبد المطلب . وقد زارها وهو طفل لزيارة قبر أبيه عبد الله ، في صحبة أمه ، كما سبق ذكره .

بيعة العقبة الثانية

نجح مصعب بن عمير مبعوث النبي في مهمته نجاحا باهرا ، فازداد عدد المسلمين في يثرب ، ولم يبق بها بيت إلا وفيه ذكر للاسلام وللنبي ، وعاد مصعب إلى مكة ليزف إلى النبي بشرى نجاحه وإقبال أهل يثرب على الإسلام . وأن وفداً كبيراً منهم سوف يقدم إلى مكة في الموسم القادم . وسوف يلقاهم ويرى من حالهم ما يسره . وفعلا ما وافى الموسم حتى قدم إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلا معهم امرأتان جميعهم من مسلمي يثرب ، فاتصلوا بالنبي وطمأنوه على وضع الاسلام بيثرب وواعدوه على لقائه سراً عند العقبة ، واستعد رسول الله لهذا اللقاء وأخبر به عمه العباس بن عبد المطلب ـ مع أنه كان لا يزال مشركا ـ ليحضر هذا الإجتماع الخطير ليطمئن على مستقبل ابن أخيه .

جالت بخاطر النبي فكرة أن يخطو مع أهل يثرب خطوة إلى الأمام ، فلا يكتفي بدعوتهم إلى الإسلام على نحو ما فعل مع إخوانهم في العام السابق ، بل أراد أن يعقد معهم حلفاً ولا مانع من أن يهاجر إلى بلدهم ، إذا توفرت لديهم الاستجابة الكافية لذلك . وتم اللقاء ، ووجد القوم على أتم إستعداد أن يذهبوا معه إلى حيث يريد ، ووجد قلوبهم وبلدهم مفتوحة لدعوته ومستعدة لإستقباله .. وفي بداية اللقاء أراد العباس أن يستوثق لابن أخيه ، فتحدث إلى الوفد قائلا : « يا معشر الخزرج . إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه

من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . وهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده . وقد أبى الا الإنحياز إليكم . واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه فمن الآن فدعوه » [١] .

سمع الوفد مقالة العباس ولم يخف ما فيها عليهم . فقدمست كرامتهم ومشاعرهم . فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فأجابهم النبي قائلا : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » ـ ومعنى هذا أن النبي طلب منهم تعهدا بحمايته والدفاع عنه ضد أي عدوان يقع عليه من أية قبيلة من قبائل العرب ـ فتقدم البراء بن معرور ـ وهو من كبار رجال الوفد ـ وقال « بايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » . فتقدم زعيم آخر من زعماء القوم فطرح أمام النبي تساؤلا ليستوثق هو أيضاً لقومه . فقال أبو الهيثم بن التيهان : « يا رسول الله . إن بيننا وبين القوم ـ يقصد يهود يثرب ـ حبالا ـ عهودا ومواثيق ـ نحن قاطعوها ، فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » فتبسم النبي ، وأجاب في عبارة واضحة قاطعة : « بل الدم الدم . والهدم الهدم » أي أنتم مني وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم [٢] .

وتهيأ القوم بعد هذا لإتمام البيعة ، فانبرى العباس بن عبادة ـ أحد رجال الوفد ـ يذكر اخوانه بخطورة ما هم مقدمون عليه . وما يفرضه عليهم من تبعات فقال لهم : « يا معشر الخزرج . أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الاحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم إذا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥١ .

نهكت أموالكم مصيبة . وأشرافكم قتلا اسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » فأجابه القوم جميعا : انا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . . فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك ؟ قال النبي : « لكم الجنة » فمدوا إليه أيديهم ، وبسط لهم يده ، فبايعوه .

وتمت بذلك بيعة العقبة الثانية التي تعد من أخطر معاهدات التاريخ الاسلامي كله . حيث مهدت أمام النبي الطريق لينشر دعوته . ويبلغ رسالته . ويضع الاساس للدولة والحضارة الاسلامية التي ملأت الدنيا طولا وعرضا .

وبعد أن تمت البيعة قال لهم النبي : « اخرجوا لي منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم كفلاء » [١] فاختاروا تسعة من الخزرج . وثلاثة من الأوس ، فقال لهم النبي : « أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » ، فأجابوا جميعا قائلين : « بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » .

إطمأن النبي إلى هؤلاء القوم الذين هيأهم الله لنصرة دينه ونبيه . وسماهم الأنصار ، وأثنى عليهم القرآن الكريم وزكاهم وزكى عملهم ، فها هو الإسلام أخيرا وبعد العناء الذي لقيه الرسول وأصحابه في مكة ، قد وجد الحصن الآمن ، والمنطلق الثابت لينشر لواءه في الأرض ، وليعلم النبي قريشا درسا قاسيا على عنادها وجبروتها .

ورغم أن النبي والأنصار قد أحاطوا أمر هذه البيعة بالسرية التامة ، إلا أن

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥١ .

خبرها تسرب إلى قريش ، فانزعجت لأنها قدرت خطورة تطور موقف النبي بعد تلك البيعة . فإن أهل يثرب إذا كانوا قد إرتبطوا معه بحلف دفاعي ، وتمكن من الهجرة إلى بلدهم ، وأصبح زعيمهم وقائدهم ، فسوف يقودهم ليثأر من قريش تنكيلها به وبأصحابه طوال هـذه السنين فـي مكة ، وقد يكون في ذلك القضاء على قريش ومركزها في الجزيرة العربية ، أو تذعن للنبي صاغرة ذليلة . وكلا الأمرين مر .

أرسلت قريش إلى أهل يثرب في خيامهم تستوضح الأمر ، فالتقوا ببعض المشركين ممن لا علم لهم بما حدث ، فأنكروا حدوث أي شيء من هذا القبيل ، وأما الذين كانوا قد بايعوا النبي ، فإنهم تركوا مكة عائدين إلى بلدهم ، ليستعدوا لاستقبال النبي وأصحابه حاملين معهم أخطر وأعظم معاهدة ، وتباشير أعظم رسالة نزلت من السماء إلى الأرض .

بدأ النبي بعد هذه البيعة ـ التي تمت في نهاية السنة الثالثة عشرة من بعثته ـ يعد أصحابه للهجرة إلى يثرب ليلحقوا هناك بإخوانهم الأنصار ، الذين أبدوا استعدادهم الكامل لايوائهم وإيثارهم على أنفسهم ، والحق أن الأنصار ضربوا أروع الأمثلة على صدق الاخوة في العقيدة ، والإيثار على النفس والمال والولد فأوسعوا لإخوانهم المهاجرين في ديارهم ، وأشركوهم في أموالهم ، وهونوا عليهم مرارة الاغتراب ، وترك الأهل والوطن ، واستحق الأنصار على ذلك الثناء العاطر من الله سبحانه . حيث تحدث القرآن عنهم فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية ٩ من سورة الحشر .

المؤامـــرة (١)

هاجر معظم المسلمين من مكة ـ بعد ان أذن لهم رسول الله ﷺ إلى يثرب ،وبقي ﷺ في مكة لم يبرحها بعد ، وحار أهل مكة في أمره ، هل سيظل في مكة كما حدث عندما هاجر أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وبقي هو ، أم سيلحق بالذين هاجروا إلى يثرب ويترك مكة ويقع المحظور الذي حسبوا له ألف حساب ؟ لم يستطيعوا الوصول إلى نتيجة في هذا الشأن ، ولم يعرفوا شيئا عن خطط النبي التي أعدها للمستقبل ، لأنه عليه الصلاة والسلام أحاط خططه بسرية تامة ، فلم يفصح عن هدفه حتى لأقرب الناس إليه ؛ وهو أبو بكر ، وكل ما قاله النبي لأبي بكر عندما طلب منه الإذن له بالهجرة إلى يثرب : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا » .

أخذت قريش ترقب هذه التطورات بأعصاب مشدودة ، وقررت أن تتصرف تصرفا حاسما على وجه السرعة ، حتى لا يسبقهم النبي ويفلت من بين أيديها ، فاجتمع زعماؤها للتشاور في أمره بعد هذه التطورات الخطيرة التي طرأت على الموقف ، ولم يحضر هذا الاجتماع من بني هاشم سوى عمه أبي لهب . وأخذوا يقلبون الأمر على كل وجه ، وأخيرا استقر رأيهم على ضرورة قتله والتخلص منه قبل فوات الأوان ، وإذا نجحوا في ذلك فان هجرة أصحابه الذين ذهبوا إلى يثرب ستكون بلا معنى ، بل سوف يضطرون للعودة إلى مكة صاغرين ، وسوف تعاقبهم قريش على صنيعهم هذا . واتخذ القرار بقتل النبي على عجل . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

فإذا ما انفردت قبيلة من قريش بقتله فإن بني هاشم سوف يأخذون بثأره ، وعندئذ قد تقع حرب أهلية في مكة ، وهم يحرصون أشد الحرص على

---

(١) انظر عيون الأثر جـ ١ ص ٢١٥ - ٢١٩ .

وحدتهم وتضامنهم أمام الظروف الجديدة ، وهنا جاء إقتراح خبيث يقال إنَّ صاحبه أبو جهل لعنه الله ، يقضي بأن تشترك جميع القبائل في قتل النبي ، وذلك بأن يختاروا من كل قبيلة شابا قويا جلدا يعطونه سيفا ، ويذهبون إلى داره ويرابطون عندها طوال الليل ، حتى إذا خرج عليهم في الصباح للصلاة ضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم عندئذ على محاربة أهل مكة جميعا ! فوافق الحاضرون على هذه الفكرة ، واستقر رأيهم على سرعة تنفيذها ، ولكن عين الله كانت ترعى نبيه ومن كانت عين الله ترعاه فلن ينال منه مخلوق .

علي في فراش النبي

علم رسول الله بما بيتت له قريش ، وبالموعد الذي حددوه لاغتياله ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، فبدأ ينفذ خطته التي أعدها لهذا الموقف ، والتي ألهمه الله بها ، فأسر إلى صاحبه أبي بكر أن يعد عدته ، ويتجهز للهجرة في صحبته إلى يثرب ، فاغتبط أبو بكر أعظم غبطة ؛ أن اصطفاه رسول الله دون سائر أصحابه ليكون رفيقه في هذه الرحلة التاريخية الخالدة .

أكمل أبو بكر الاستعداد لهذه الرحلة المباركة ، وانتظر أن يصدر النبي أمره بالخروج .

ودعا رسول الله عليا وطلب منه أن ينام في فراشه تلك الليلة كي يضلل قريشا من جهة ، ومن جهة أخرى ليتخلف في مكة حتى يؤدي للناس أماناتهم التي كانوا قد أودعوها عند النبي الصادق الأمين (١) . وقد أدى علي بن أبي طالب هذا الدور الذي وكل إليه يوم الهجرة في شجاعة وجرأة ، فنام في فراش النبي ، وكان ﷺ قد واعد أبا بكر لحظة محددة يأتيه فيها حيث يكون كل

---

(١) انظر إلى أي مدى يهتم النبي ﷺ برد الأمانات إلى أهلها ، حتى ولو كانوا من المشركين الذين آذوه وائتمروا على حياته .

شيء قد أعد للقيام بهذه الرحلة الخطيرة ، وفي الصباح الباكر خرج من داره وقد اصطف حول بابها شباب قريش الأقوياء متربصين به ليقتلوه ، فخرج عليهم وأمسك في يده حفنة من الحصى ، وقال : « شاهت الوجوه وعميت الأبصار » وتلا قول الله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ ، وألقى ما في يده من الحصى في وجوههم ، وخرج متوكلا على الله دون أن يره منهم أحد ، وقصد بيت أبي بكر ، الذي كان ينتظره على أهبة الاستعداد ، واستقل المهاجر العظيم وصاحبه راحلتيهما ، وتوكلا على الله في أعظم هجرة عرفها التاريخ .

المهاجر العظيم في غار ثور

استقل النبي وصاحبه راحلتيهما ، ومعهما دليلهما عبد الله بن اريقط ، وسلكوا طريقا غير مألوف حتى لا تفطن قريش إلى اتجاههم ، وقصدوا غارا مهجورا يسمى غار ثور في جنوب مكة ، ذلك الغار الذي هيأ له القدر أن يدخل التاريخ ، وأن يكون مأوى لأعظم مهاجر ، ولم يعلم بأمر النبي وأبي بكر سوى ثلاثة نفر ؛ عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه ، وابنه عبد الله ، وابنته أسماء ، وقد اضطلع كل واحد منهم بمهمة محدودة ، ولكنها غاية في الخطورة والمشقة ، فكانت مهمة أسماء بنت أبي بكر أن تزود المهاجرين بالطعام والماء في الغار ، وهي مهمة تحتاج إلى أعلى قدر من السرية والحذر ، لأنه لو كشف أمرها ففي ذلك ما فيه من الخطورة على النبي وأبيها ، وكانت مهمة عبد الله أن يتسمع أخبار قريش بمكة في النهار ، فإذا جن الليل ذهب إلى الغار ونقل إلى النبي وأبيه ما يدور في نوادي قريش ، وأخبرهما بما تنوي عمله ، وكانت مهمة عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه بالقرب من الغار ، فإذا حل الظلام ، عرج على الغار ليزود النبي وصاحبه بألبان الغنم ، ثم يسير بغنمه فوق أثر أقدام أسماء وعبد الله حتى يمحوه فلا تراه قريش فتفطن إلى مكان النبي وصاحبه ، وهي أدوار بطولية أداها هؤلاء الثلاثة يوم الهجرة في غاية الأمانة والشجاعة .

أما عن قريش ، فعندما اكتشف ابناؤها الموكلون بقتل النبي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفلت من أيديهم ونجا ، وأن النائم في فراشه هو علي بن أبي طالب ، عندئذ جن جنونها ، وبعثت رجالها المسلحين يبحثون عن النبي وصاحبه في كل مكان ، ورصدت جائزة كبيرة مقدارها مائة من الإبل ، لمن يدلها على محمد حيا أو ميتا ، ولكن النبي وصاحبه وصلا إلى الغار واختبأ فيه واطمأنا إلى رعاية الله وحفظه لهما ، غير أن طلائع الباحثين من قريش وصلوا إلى قرب الغار ، حتى أن أبا بكر خشى على حياة النبي فبكى ، فسأله رسول الله ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : « يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » فقال له في ثقة واطمئنان : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » ، وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الموقف الرائع من أبي بكر الذي أخذه القلق على حياة النبي ، وعن موقف رسول الله وثقته المطلقة في الله ، واطمئنانه إلى نصره حيث قال تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

حقا لقد نصره الله وأيده بجنود من عنده وبمعجزات باهرة ظهرت في الغار ، فعندما وصل المشركون إلى الغار ، ظهرت ثلاث من آيات الله التي حفظ بها نبيه وصاحبه ، فقد وجدوا على باب الغار شجرة قد سدت مدخله مما يدل على أن الغار مهجور ولم يدخله أحد ، وهذه معجزة ، ويقال : إن هذه الشجرة لم يكن لها وجود من قبل أمام الغار ، ثم وجدوا العنكبوت مخيما على باب الغار ، كما وجدوا حمامتين قد باضتا عند باب الغار ، وكلها دلائل تؤكد خلو الغار من أي إنسان ، حتى أن أحد المشركين صاح قائلا : أن العنكبوت يخيم

على هذا الغار من قبل أن يولد محمد !!

وهكذا رعى الله نبيه ، وأحاطه بهذه الآيات والمعجزات وأبقاه - في مأمن من بطش قريش - ليؤدي رسالته الخالدة وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليكون رحمة للعالمين .

استئناف الرحلة المباركة

ظل النبي وأبو بكر في غار ثور ثلاثة أيام [١] ، وأسماء تأتيهما بالطعام ، وعبد الله أخوها يأتيهما بأخبار مكة ، وعامر بن فهيرة يأتيهما بلبن الغنم حتى هدأت قريش ، أو قل : فشلت في العثور عليهما ، وآن الوقت ليستأنفا رحلتهما الخالدة إلى غايتهما النبيلة ، عندئذ أتاهما دليلهما عبد الله بن أريقط برواحلهما وسارا على بركة الله ، وجاءتهما أسماء ببعض الطعام والماء زادا لهما في طريقهما ، وأرادت أن تحزم هذا الزاد فلم تجد حبلا تربطه به ، فشقت نطاقها نصفين ، ربطت الطعام بنصفه ، وانتطقت بالنصف الآخر ، فلقبت من أجل ذلك بذات النطاقين رضي الله عنها .

سار المهاجر العظيم وصاحبه ، وأمامهما دليلهما في طريقهم إلى يثرب ، وهنا حدثت معجزة أخرى تأييدا للنبي ﷺ ، ذلك أن رجلا كان قد رآهما مصادفة ، فأخبر قريشا بذلك ، ولكن سراقة بن مالك كذب هذا الرجل ، وكان ينوي من وراء ذلك أن يلحق وحده بالنبي ورفيقه ليقبض عليهما ، ويعود بهما إلى أهل مكة ، ليفوز بالجائزة الكبيرة التي رصدتها قريش لذلك ، فأمر بفرسه فأعدت له ، وركب مسرعا ، حتى لحق بالنبي وصاحبه ، حتى إذا اقترب منهما غاصت أقدام فرسه في الأرض وعجزت عن المسير ، وحار سراقة في تفسير

---

(١) اختار النبي غار ثور ، الذي يقع في جنوب مكة ، ليختبئ فيه ، لأنه يعلم أن قريشا ستتجه في بحثها عنه إلى الشمال ، فأراد أن يضللهم ويبدد طاقاتهم فيما لا يفيدهم .

ذلك ، فها هو وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الجائزة ، فرسه تخونه وتعجز عن مواصلة السير ، وهنا نظر النبي إليه نظرة عطف وإشفاق ، وكان الرجل يظن أن النبي سوف ينتقم منه ، فتوسل إليه أن يعفو عنه ، على أن يتكفل هو بتضليل قريش ، ولا يدلها على مكانه ، فعفا عنه ، وكتب له كتاب أمان بناء على رغبته ، وقال له : « كيف بك إذا لبست سواري كسرى » فقال سراقة مندهشا : كسرى بن هرمز ؟ كأن الرجل لا يصدق ، فأين سراقة من كسرى ، ملك ملوك الفرس ؟! نعم كسرى بن هرمز ، فالرسول لا ينطق عن الهوى ، فقد تحقق ما أخبر به ، فأسلم سراقة بعد فتح مكة ، وعاش إلى أن فتحت بلاد فارس ، في عهد عمر بن الخطاب ، وأتوه بجواهر ملوك الفرس ، وفيها سواري كسرى ، فتذكر وعد النبي لسراقة ، فدعاه ، وقال له : « إرفع يديك ، قل : الله أكبر ، الحمد لله ، الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك الأعرابي » (١) .

استمر الرسول وصاحبه في طريقهما إلى يثرب ، حيث كان أهلها ينتظرونه على أحر من الجمر ، وكانوا كل يوم يخرجون إلى مشارف المدينة يلتمسون وصول النبي ، ولم تكد عيونهم تراه من بعيد حتى كادوا يطيرون من الفرح ، فصاحوا مرحبين وأنشدوا :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت نورت المدينة ... مرحبا يا خير داع

وصل النبي إلى قباء يوم الأثنين ، وبقي فيها إلى يوم الجمعة ، وأسس مسجد قباء ، ثم استأنف سيره .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني جـ ٣ ص ١٢٨ .

وكان وصوله ﷺ إلى المدينة يوم الجمعة ، فصلاها ، وبعد الصلاة اجتمع إليه الأنصار والمهاجرون الذين كانوا قد سبقوه إلى المدينة في مشهد عظيم من الفرح والسرور بوصول خير خلق الله وأحبهم إليهم ، واستشرفت نفوس كثيرين من أهل المدينة لينزل في دورهم ، ولكنه ألقى زمام ناقته وقال لهم : « دعوها فإنها مأمورة » ، فظلت تسير حتى بركت من تلقاء نفسها عند مربد لغلامين يتيمين من بني النجار ، أخوال جده عبد المطلب ، وسأل النبي : لمن هذا المربد ؟ فأجابه معاذ بن عفراء : لسهل وسهيل ابني عمرو ، فاسترضاهما عنه واشتراه منهما ، لكي يبني مسجده وداره فيه [1] .

ومن هذا المكان المتواضع خرج النور وانتشرت الرسالة الخالدة ، وتأسست الحكومة التي ملأت الدنيا عدالة وبراً ورحمة ، ونمت الحضارة التي نعمت البشرية - ولا تزال تنعم - بخيراتها وبركاتها .

وفي الصفحات التالية سنرى كيف أقام النبي دولته في المدينة .

الرسول في المدينة

وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة بسلامة الله . فشرع على الفور في وضع أسس الدولة الاسلامية . وقبل أن نتناول ذلك ، ينبغي أن نمهد له بكلمة عن طبيعة الرسالة الإسلامية :

فالرسالة الإسلامية من حيث طبيعتها رسالة عالمية ، أي لم تأت لفريق دون فريق ، ولا لأمة دون أمة من الناس ، ولا لمكان دون مكان ولا لزمان دون زمان ، بل هي عالمية الزمان والمكان وموجهة للجنس البشري كله . وتلك

---

(١) انظر قصة الهجرة بتمامها وتفاصيلها في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩٧ وما بعدها ، والدرر لابن عبد البر ص ٨٦ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٣٠ .

الطبيعة تحددها نصوص القرآن الكريم بشكل قاطع . منها قول الله تعالى - مخاطبا النبي ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ﴾ (٣) وقولـه تعالـى : ﴿ ان هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي توضح أن رسالة الإسلام موجهة إلى الجنس البشري كله .

كما أن رسول الله ﷺ عندما أمر بالجهر بالدعوة بقوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (٦) جمع وجوه قريش وزعماءها وأعلن لهم رسالته ، وكان مما قاله لهم « إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة » .

والرسالة الإسلامية من هذه الناحية تختلف عن الرسالات السماوية التي سبقتها ، فتلك الرسالات كانت محدودة الزمان والمكان والبيئة ، بمعنى أن كل رسول كان يرسل إلى قوم معينين في زمان معين أيضا ، لذلك نجد أكثر من رسول متزامنين ومتجاورين كذلك ، كما هو الحال بالنسبة لإبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام . فقد كان إبراهيم في فلسطين ولوط في الأردن .

والقرآن الكريم في إخباره لنا بتلك الرسالات وضح لنا طبيعتها فيقول

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٣٤ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ١ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .
(٤) سورة التكوير : الآيات ٢٧ - ٢٩ .
(٥) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
(٦) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

عن نوح عليه السلام ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ [١] وعن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ [٢] . وعن هود عليه السلام : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ [٣] وعن صالح عليه السلام : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ [٤] وعن موسى عليه السلام : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ [٥] وعن عيسى عليه السلام ـ وهو آخر الأنبياء قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل اني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد ﴾[٦] وهكذا لا نجد رسالة سماوية وجهت إلى الجنس البشري عامة سوى رسالة الإسلام .

وغني عن البيان أن هذا لا يقلل من شأن الرسل السابقين ـ حاشا لله ـ ولا من شأن رسالاتهم ، لأن طبيعة رسالاتهم وضع اقتضاه تطور الجنس البشري وتدرجه العقلي ، وكل منهم أدى دوره ، وكان لبنة صالحة في بناء صرح عقيدة التوحيد ، فلما نضجت البشرية ، وإكتمل رشدها وأصبحت مهيئة لتقبل وفهم رسالة عالمية في مبادئها وأهدافها ، جاءت هذه الرسالة على يد خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي صور موقع رسالته من رسالات السماء أدق تصوير فيما يرويه البخاري عنه حيث قال : «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل

---

(١) سورة نوح ، الآية ١ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٦٩ - ٧٠ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٦٥ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٧٣ .
(٥) سورة الصف ، الآية ٥ .
(٦) سورة الصف ، الآية ٦ .

الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة » [١] .

ولا يظنَّنَّ أحد أن معنى عالمية الاسلام أنه يجب على المسلمين أن يحملوا سلاحهم لفرض الاسلام على الناس بالقوة - كما يدعي أعداء الاسلام - فهذا أمر غير وارد بنصوص القرآن الكريم ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٦ - والمتأمل لنصوص القرآن الكريم يعلم أنها توضح أن حمل الناس على اعتناق دين واحد أمر يكاد يكون مستحيلا ، يقول الله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمَنَ مَن في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ يونس الآية ٩٩ .

ويقول تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ يوسف الآية ١٠٣ إذا فهمنا هذا أدركنا أن معنى عالمية الاسلام أنه دين يلائم كل الناس ، من كل جنس ولون ، وأنه دين مفتوح لكل البشر ، وطريق الدخول إليه كلمة يقولها الانسان فيصبح بعدها مسلما ، له كل الحقوق وعليه كل الواجبات ، مثل بقية المسلمين مهما كان جنسه أو لونه ، تلك الكلمة هي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فهو ليس دين الصفوة المختارة كما يدعي اليهود ، ولكنه دين كل الناس ، وسبيل دعوة الناس إليه في الظروف العادية حددها القرآن الكريم للنبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ سورة النحل الآية ١٢٥ .

هذا - بإيجاز شديد - عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، فماذا عن طبيعة الدولة الإسلامية .

---

(١) ابن حجر - فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٥٨ ، المطبعة السلفية - القاهرة بدون تاريخ .

قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول

كما إمتازت الرسالة الاسلامية عن غيرها من الرسالات بأنها عالمية - كما وضحنا - إمتازت كذلك بأنها دين ودولة ، أي أنها عقيدة دينية تنبثق منها شريعة ، يقوم على هذه الشريعة نظام اجتماعي كامل ، يحقق - لو طبق تطبيقا سليما - سعادة البشر في الدنيا والآخرة .

ونصوص القرآن واضحة في ذلك المجال أيضا . فكما حمَّل القرآن الكريم النبي ﷺ مسئولية تبليغ الرسالة للناس طبقا لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (١) ، فقد حمَّله كذلك مسئولية الحكم بين المسلمين طبقا لمباديء وأصول هذه الرسالة .

يقول الله تعالى : ﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ (٢) ويقول : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾ (٣) ، ويقول ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (٤) هذه النصوص الواضحة ، لا نظن أنها تحتاج إلى كثير من الشرح والنقاش ، لنفهم منها أن الرسول ﷺ كان مأمورا بأن يكون حاكما للمسلمين ، وأن المسلمين لا يكونون مسلمين حقا إلا إذا ارتضوه حاكما لهم وأن الاسلام كما هو ، هو عقيدة وعبادة ، فهو نظام حكم ، وما دام الاسلام نظام حكم فلا بد من أن توضح الوسائل اللازمة لتطبيقه في واقع الحياة . ودراسة عهد الرسول ﷺ

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٠٥ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

في المدينة ستوضح لنا أنه ﷺ قد أرسى قواعد الدولة المنظمة كأحسن ما يكون التنظيم ، والحكومة التي ألفها لإدارة هذه الدولة كانت ملائمة لعصره ، ووافية بحاجيات المجتمع الذي كان يحكمه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية [١] : « وكان رسول الله ﷺ في مدينته النبوية يتولى جميع ما يتعلق بولاة الأمور ، يولي في الأماكن البعيدة ... ويؤمِّر على السَّرايا ، ويبعث على الأموال الزكوية السعاة ، فيأخذونها ممن هي عليه ويدفعونها إلى مستحقيها .. وكان يستوفي الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف » ، بل أن الذي يتأمل المصادر القديمة الموثوق بها ، ويدقق في النصوص يتضح له أن التفكير في أمر الحكم والدولة والنظام السياسي كان موجودا عند الرسول إلى جانب الدعوة الدينية منذ البداية ، ووقت أن كان في مكة ، فقد ذكر الطبري جـ ٢ ص ٣٢٤ ـ أن مشيخة قريش وسرواتهم دخلوا على أبي طالب فقالوا له : « أنت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه والهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم ، وقد سألوك النصف أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك ، قال : « أي عم ، أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم من هذا » قال : وإلام تدعوهم ؟ قال : « أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم » قال : فقال أبو جهل من بين القوم : ما هي وأبيك ؟ لنعطينكها وعشرا أمثالها . قال : تقولوا : « لا إله إلا الله » . قال : فنفروا وقالوا : سلنا غير هذه ، فقال : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها » قال : « فغضبوا وقاموا من عنده غضابى » .

ومما يسترعى الانتباه أن بعض العرب قد فطن إلى ما نفرت منه قريش ،

---

(١) الحسبة في الإسلام ، ص ٢٠ وما بعدها .

وقدر أن هذه الرسالة سوف تتمخض عن دولة . فقد روي ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهري أن النبي ﷺ عندما كان يعرض نفسه على القبائل العربية عله يجد نصيرا يؤمن به .

أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له : بحيرة بن فراس : أرأيت أن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ « الأمر لله يضعه حيث يشاء » فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك » [1] .

على أية حال فهم النبي ﷺ رسالته ، وان انشاء دولة على أساسها أمر أصيل فيها ، فما أن هاجر من مكة إلى المدينة حتى شرع على الفور في تأسيس الدولة لتحمي الدعوة وتنظم المجتمع .

وقد يقول قائل : لماذا لم يبدأ منذ البداية في تأسيس الدولة في مكة ؟ والرد على هذا أن ذلك لم يكن ممكنا في مكة ، لأن الوضع لم يكن مهيئا ، فقريش قد ناصبت الرسالة وصاحبها العداء منذ البداية ، بل سدت في وجهه كل الطرق ، فلم يكن ممكنا ولا منطقيا الحديث عن قيام الدولة في مكة ، أما في المدينة فأصبح الوضع مختلفا تماما ، والمناخ غير المناخ والناس غير الناس .

فأهل المدينة أبدوا استعدادهم . بمحض ارادتهم ـ لقبول الرسالة والإيمان بها ، والدفاع عنها وعن صاحبها مهما كان الثمن ، لذلك لم يضيع الرسول ﷺ وقتا في المدينة ، بل بدأ على الفور في وضع لبنات الكيان الجديد ، وخطى في ذلك خطوات عملية منها :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٣ .

أولا : بناء المسجد النبوي في المدينة [١] . الذي لم يكن فقط مسجدا للصلاة ، بل كان مركزا للدعوة ومقرا للحكم ، وليس في هذه العبارة غرابة أو مبالغة ، فكما كان الرسول ﷺ يتلقى الوحي فيه ويبلغه للناس ويشرح ويفسر ويعلم أصول الرسالة ، كان كذلك يقضي ويحكم ، وفيه يعلم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالإضافة إلى أمور الدين ، أمور الدنيا ويدربهم على فنون الحكم والقيادة والإدارة ، ويعدهم للدور الخطير الذي سيقومون به في الدولة وفي تاريخ العالم . ومن المسجد كان النبي ﷺ يعقد ألوية الحروب للقادة ، ويبعث منه رسله وسفراءه للملوك وأمراء العالم . ويستقبل الوفود . وباختصار فقد كان المسجد مقرا لنشر الدعوة ومركزا لإدارة الدولة [٢] .

ثانيا : المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد لا يتصور البعض أن هذه كانت خطوة هامة في اقامة كيان الدولة الاسلامية ، فالمهاجرون والأنصار هم نواة المجتمع الجديد ، فتوثيق العلاقات بينهم أمر ضروري ، خصوصا وأن الأساس الذي قامت عليه المؤاخاة أساس جديد لم يألفه العرب ، أو يعرفوه من

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٤ ـ ابن كثير البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢١٩ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٩٨٠ م و د. محمد حسين هيكل / حياة محمد ص ٢٢٠ دار المعارف بالقاهرة الطبعة الثانية عشرة .

(٢) وهذا المسجد النبوي ، الذي بني في البداية من الطوب اللبن ، وكانت عمده من جذوع النخل ، وسقفه من جريدها . أدخلت عليه توسيعات وتحسينات كثيرة ، عبر التاريخ ـ كما حدث في المسجد الحرام بمكة ـ وأول توسعة تمت في عهد عمر بن الخطاب ، ثم زاد في مساحته عثمان بن عفان ، وفي العصر الأموي كانت أكبر توسعة التي قام بها الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ ، حيث أدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين كما أدخل فيه عناصر معمارية جديدة ، كالشرفات والمآذن ، والمحراب المجوف في جدار القبلة . كما حدثت له توسيعات كثيرة ، في العصور العباسية والمملوكية والعثمانية ، حيث كانت آخر وأهم توسعة قبل العهد السعودي في عهد السلطان العثماني عبد المجيد ١٢٧٧هـ - ١٨٦١م ، وفي العهد السعودي بدأ الاهتمام بالحرمين الشريفين منذ عهد الملك عبد العزيز آل سعود ت ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م ، حيث أمر بتوسعته سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م ، أما أعظم وأكبر توسعة فقد تمت في عهد الملك فهد ، الذي تضمن ==

قبل ، فهو من ثمرات الرسالة الاسلامية ، فقد قامت المؤاخاة على أساس العقيدة والعقيدة وحدها ، وهذا مؤشر في غاية الأهمية إلى أن الأمة التي يريد الاسلام انشاءها سوف لا يعترف فيها بأية رابطة تقوم على العصبية أو العنصرية القومية أو الجنسية ، فالرابطة الوحيدة التي يقيم لها الاسلام وزنا هي رابطة العقيدة ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (١) وقد ضرب النبي ﷺ مثلا عمليا على ذلك ، حين آخى بين عمه حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولاه (٢) وهذا كله جديد في بيئة تقدس الأحساب والأنساب وتؤمن بالعصبية .

ثالثا : معاهدة المدينة ، أو الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بينه وبين اليهود . فبعد أن آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، واطمأن إلى موقفهم وسلامة جبهتهم ، التفت إلى المدينة ككل ، فأراد أن يضع لها نظاما أو أساسا ثابتا يحدد العلاقات والحقوق والواجبات بين سكانها جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، فقد كان يقيم في المدينة اليهود ، فما هو وضعهم في الدولة الجديدة ، فاليهود قبل الهجرة كانوا يتقاسمون الزعامة في المدينة مع الأوس والخزرج ، بل أحيانا كانوا يتغلبون عليهم ، والآن فالوضع قد اختلف ، بل تغير تغييرا كاملا ، فالأوس والخزرج قد آمنوا بالله ورسوله ، وأسلموا زمامهم للنبي ﷺ أما اليهود فلم يؤمنوا ولم يقبلوا الرسالة ، بل فضلوا البقاء على دينهم ، فلا بد من تحديد موقفهم في الدولة الجديدة ، بشكل واضح وبنصوص

-- مشروعه إضافة مبنى جديد إلى مبنى المسجد يتصل به من الشمال والشرق والغرب ، بمساحة قدرها اثنان وثمانون ألف كيلو متر مسطح ، فأصبحت المساحة الإجمالية للمسجد النبوي ثمانية وتسعين ألف وخمسمائة متر مسطح ، ثم تمت الاستفادة من سطح التوسعة للصلاة حتى أصبح يستوعب أكثر من ربع مليون مصل ، فبارك الله في كل من يولي عنايته واهتمامه بالحرمين الشريفين .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

(٢) أنظر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٣ . وابن سعد في الطبقات الكبرى جـ ١ م ٢ ص ١ وما بعدها . دار صادر بيروت ود. هيكل حياة محمد ص ٢٢٣ .

صريحة يرجع إليها عند الضرورة ، فكانت معاهدة المدينة .

التي تعطينا دليلا آخر على عالمية الاسلام كرسالة ، وعالميته كدولة ، وطبيعته التنظيمية .

فقد نظمت تلك المعاهدة كافة الحقوق والواجبات والإلتزامات بين سكان المدينة جميعا ، المقيمين فيها من قبل والمهاجرين الوافدين إليها ، واعتبرتهم جميعا سواء في الإعتبار الإنساني والحقوق القانونية . فهم جميعا مواطنون وان اختلفت عقيدتهم .

وهاك أبرز النقاط التي وردت في هذه المعاهدة كما رواها ابن اسحاق « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس » وهذا إعلان صريح للأساس العقدي للدولة الجديدة ، وباب الولوج إليها هو الإيمان بالله ، ويستوي في الإنتماء إليها أهل مكة وأهل يثرب وغيرها ممن تابع وجاهد ... وعلى هذا الأساس تمارس الدولة سيادتها وسلطتها العليا في الداخل والخارج .

وجاء فيها ، وهو في غاية الأهمية .

« وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ... وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ... الخ» وعددت سائر المجموعات اليهودية في المدينة ، ثم أضافت « وانه لا يخرج أحد منهم إلا باذن محمد » وهذا ليس تقييدا لحريتهم ، وإنما هو إجراء وقائي إقتضته ظروف نشأة الدولة الإسلامية ، خوفا من عمليات التجسس ونقل المعلومات إلى الأعداء وخلافه .

وعلى كل حال فليس من هدفنا في هذا الموضوع الاطالة في شرح نصوص المعاهدة ، فهذا موضوع آخر ، وإنما يعنينا منها هنا أنها كانت خطوة هامة وأساسية في إعلان ميلاد دولة الإسلام بقيادة النبي ﷺ وبإعتراف جميع أطرافها ، ومنهم اليهود ، وذلك بنص صريح هو : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره [١] .

والخلاصة ، فإن هذه الوثيقة السياسية كانت فتحا جديدا في الحياة السياسية في تاريخ العالم فقد قررت حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة والمال . كما حددت أعداء الدولة بصراحة فمنعت إجارة قريش ومن نصرها .

بهذا الشكل - وبهذه الخطوات العملية ، بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ومعاهدة المدينة - قامت الدولة الاسلامية في المدينة .

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين عندما فكروا في بدء التاريخ الاسلامي في عهد عمر بن الخطاب ، اختاروا الهجرة من بين المقترحات الأخرى ، وهذا يدل على أنهم نظروا إلى بدء قيام الدولة الاسلامية « ولقد كان اختيار الهجرة للتقويم اختيارا موفقا ، فهي في الحق استهلال لتاريخ جديد واعلان لقيام دولة جديدة ، ولو اختير مولد الرسول - مثلا لهذا التقويم - كما حدث بالنسبة لميلاد المسيح - عليه السلام - في التقويم الميلادي ، لما كان في الاستهلال بالمولد غير دلالة عاطفية فحسب ، في حين أننا نجد في الهجرة وما ترتب عليها من نتائج تشخيصا إيجابيا أقوى دلالة لأنه يبرز الكيان الفكري والعملي للدعوة الاسلامية في صورة حية واقعية ملموسة ومحسوسة ، والهجرة من هذه الوجهة أقوى

---

(١) راجع نص المعاهدة في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٩ - ١٢٣ .

دلالة من بدء الدعوة ونزول الوحي أيضا ، فان الدعوة قد بدأت بين الأقربين ثم أخذ نطاقها يتسع على مراحل ، في حين أن الهجرة كانت حدثا هاما قامت على أثرها دولة شعرت بها بلاد العرب كلها ، وغير بلاد العرب من بعد » [١] كانت الهجرة اذن هي التي هيأت الظروف لقيام الدولة الاسلامية التي قامت عالمية منذ البداية [٢] ، في وثائق تأسيسها ، وفي أصولها ومبادئها . وكذلك في عناصر تركيبها السكاني ، فكما ضمت العرب من قريش ويثرب واليهود ، ضمت سلمان الفارسي وصهيبا الرومي وبلالا الحبشي ، ولعل هؤلاء كانوا رموزا لأممهم وشعوبهم ، التي سيدخل معظمها ضمن دولة الاسلام بعد سنوات قلائل .

أول رئيس للدولة الاسلامية

قامت الدولة الاسلامية بشكل عملي . وكان أول رئيس لها ـ هو رسول الله ﷺ كما نصت على ذلك معاهدة المدينة . وقد باشر ﷺ هذه المهمة طوال حياته « فأقام الحدود . ونفذ القضاء ، وقضى في الحقوق المدنية والجنائية ، وجبى المال من مواضعه الشرعية ، ووزعه على مستحقيه وفي مرافقه القانونية ، وعقد المعاهدات وأعلن الحرب ، وعقد الصلح ، وكان في جميع ذلك مؤيدا من الله تعالى ، فإذا نزلت الحادثة بالأمة ولم يرد فيها وحي من الله اجتهد فيه ﷺ وشاورأصحابه ، من شهد منهم من أهل العلم والرأي ، وكانوا تارة يجمعون على رأي فيعمل به ، وتارة يختلفون ، فيعمل برأي بعضهم ، ويترك رأي البعض الآخر ، مجتهدا في ترجيح رأي على رأي [٣] .

---

(١) د. محمد فتحي عثمان : دولة الفكرة التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة ص ٦ مكتبة وهبة ـ القاهرة .

(٢) د. محمد البهي : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم ، ص ٤٩٠ دار الفكر ـ بيروت سنة ١٩٧١م .

(٣) صادق عرجون ، نظام الحكم في الإسلام ص ٥٤ .

والوقائع التي اجتهد فيها الرسول ﷺ وشاور أصحابه كثيرة ، كما حدث في غزوة بدر وأحد والأحزاب ، وأكثر من ذلك كان يشاور أصحابه فيمن يصلح للإمارة ، كما حدث عندما شاور أبا بكر ﷺ في تولية أمير على الطائف بعد اسلام ثقيف ، فأشار عليه بتولية عثمان بن أبي العاصي ، وقال لـه : « يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن » فعمل رسول الله ﷺ بمشورة أبي بكر وولاه (١) .

ولما كان رسول الله ﷺ هو الرئيس الأعلى الذي يحكم الدولة الاسلامية التي تضم المسلمين واليهـود ، فقد كان يحكم بين المسلمين فيما بينهم ، وقضاء رسول الله ﷺ وأحكامه بين المسلمين في الحدود وغيرها أكثر من أن يأتي عليها الحصر ، ولمن شاء أن يرجع إلى كتب الحديث والفقه ، ففيها تفاصيل كثيرة عن القضايا التي قضى فيها رسول الله ﷺ وقد جمع ابن القيم في كتابه زاد المعاد أقضية رسول الله في الجزء الثالث والرابع ، فليرجع إليه كذلك من شاء (٢) .

وكان يقضي ﷺ بين المسلمين واليهود ، ومن صور قضائه بينهم ما يرويه مسلم في صحيحه ، عـن سهل بن أبي حثمة ورافـع بن خديج : « أن عبد الله بن سهل بن زيد ومحيصة بن مسعود بن زيد خرجا حتى إذا كانا بخيبر تفرقا في بعض ما هنالك ، ثم إذا محيصة يجد عبد الله مقتولا ، فدفنه ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ هو ومحيصة بن مسعود وعبد الرحمن بن سهل ... فذكروا له مقتل عبد الله بن سهل فقال لهم : « أتحلفون خمسين يمينا وتستحقون صاحبكم ، أو قاتلكم ، قالوا : كيف نحلف ولم نشهد ؟ ، قال : فتبرؤكم يهود

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٩٩ .

(٢) كذلك جمع عبد الله بن محمد بن فرج المالكي القرطبي كثيرا من أقضية الرسول في كتاب يحمل هذا العنوان طبع دار القلم ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، بيروت - لبنان .

بخمسين يمينا ، قالوا : كيف نقبل أيمان قوم كفار ؟ فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ عقله » (١) أي دفع لهم ديته .

كذلك كان يقضي ﷺ بين اليهود أنفسهم ، ومن صور قضائه بينهم ما ثبت في الصحيحين أن اليهود جاءوا إليه فذكروا له أن رجلا وإمرأة زنيا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم » ، قالوا : « نفضحهم ويجلدون » ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، ان فيها الرجم ، فأمروا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ان فيها الرجم ، فأمر بهما ﷺ فرجما » (٢) .

هيئة الحكومة النبوية

كان الرسول ﷺ يقوم بمهمة الحكم إلى جانب قيامه بتبليغ الرسالة ، لذلك كان لابد أن يكون هناك من يعاونه في أمر الحكم ، لأن مشاكل الدولة ـ خاصة في دور تأسيسها ـ كثيرة ، وقضايا الناس ومصالحهم لا تقف عند حد ، فاقتضت الظروف أن يستعين في ادارة الدولة بأصحابه ، الذين كانوا كلهم مجندين لخدمة الدعوة والدولة ، وقد تشكلت منهم هيئة حكومته ، وقد اختص بعضهم بملازمة الرسول حتى أطلق عليهم اسم الوزراء فقد صرح ابن العربي في سراج المريدين والأحكام بتحسين حديث فيه أن أبا بكر وعمر وزراء النبي ﷺ من أهل الأرض ، وفي القوانين لابن جزي في حق عمر ، وكان هو وأبو بكر وزيرين لرسول الله ﷺ في حياته ، ولا شك أن حالهما مع رسول الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١١ ص ١٤٦ - ١٤٧ المطبعة المصرية ومكتبها . القاهرة بدون تاريخ . وابن القيم زاد المعاد في هدى خير العباد جـ ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠١ لم يذكر مكان الطبع ولا التاريخ .

(٢) زاد المعاد جـ ٣ ص ٢٠٧ .

ﷺ لا يعطي إلا ذلك ، وبما وصلاه من هذه الرتبة ، استخلفهما المسلمون بعده ، وأخرج الحاكم في المستدرك قال : كان أبو بكر من النبي ﷺ مكان الوزير ، فكان يشاوره في أموره كلها ، ويروي عنه ﷺ قوله : « وزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر »[١] .

وكان بعض العرب الذين يعرفون شيئا عن نظام الحكم عند الفرس والروم يطلقون على أبي بكر وعمر وصف وزيري محمد .

صاحب السر :

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ فقد صرح الخطيب في تاريخ بغداد ، أن حذيفة بن اليمان كان صاحب سر رسول الله ﷺ ووقع تسميته بذلك في سنن النسائي في قصة ذهاب علقمة إلى الشام ، ولقائه في دمشق لأبي الدرداء ، فإن أبا الدرداء قال : أليس فيكم صاحب سر رسول الله ﷺ الذي لا يعلمه غيره ـ وقال ابن الأثير في أسد الغابة ـ حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين ، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة أعلمه بهم رسول الله ﷺ[٢] .

صاحب الشرطة :

وكان قيس بن سعد بن عبادة صاحب شرطته ، أي أمير الشرطة « فقد روي البخاري عن أنس بن مالك قال : إن قيس بن سعد كان يكون بين يدي

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ لظافر القاسمي جـ ١ ص ٤٧ .

(٢) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ، للشيخ عبد الحي الكتاني دار الكتاب العربي ـ بيروت بدون تاريخ جـ ١ ص ٢٠ ـ وسنشير إلى هذا الكتاب اختصارا باسم نظام الحكومة النبوية .

النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير »[١] .

حراس الرسول :

وكان للنبي ﷺ حراس ، منهم « سعد بن زيد الأنصاري ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن معاذ ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وبلال ، وزكوان بن عبد قيس ، وعباس بن بشير »[٢] .

حراس المدينة أو شرطة المدينة :

ومنهم من كان يقوم على حراسة المدينة ليلا ، مثل سعد بن أبي وقاص ، وبديل بن ورقاء ، وأوس بن ثابت ، وأوس بن عرابة ، ورافع بن خديج »[٣] .

المنفذون للحدود بين يدي الرسول :

ومنهم من كان يقوم بتنفيذ أحكام الحدود بين يديه ﷺ من قتل ورجم وجلد وقطع يد ، الخ مثل « علي بن أبي طالب ، ومحمد بن مسلمة ، والزبير بن العوام ، وعاصم بن ثابت ، وبلال »[٤] .

وهذه رتبة من أشرف الرتب ، لأنها تتعلق بأشرف الأشياء وهي الأبدان .

وكان يوجد في المدينة سجن للرجال وآخر للنساء ممن يرتكبون جرائم

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٩٦ .

(٣) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحروف والصنائع والعمالات الشريعة لأبي الحسن الخزاعي التلمساني ص ٣٠٣ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م . وسنشير إليه اختصارا بعد الآن باسم كتاب تخريج الدلالات .

(٤) عيون الأثر جـ ٢ ص ٢٩٦ - ونظام الحكومة النبوية جـ ١ ص ٣١٣ .

تستحق السجن وهذا في الأمور التي لا توجب الحد [١] ، وأحيانا كان يوضع فيها من ينتظر تنفيذ الحكم .

حجاب الرسول :

وكان للنبي ﷺ حجاب يقفون على بابه ليستأذنوا للناس في الدخول عليه ، منهم أنس بن مالك ، ورباح الأسود ـ مولاه ـ ، وأبو انسة ـ مولاه ـ ، وعبد الله بن زغب الإيادي » [٢] وقد جاء في صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : « جاء أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلسوا ببابه ولم يؤذن لهم ، قال فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له » [٣] وهذا الحديث صريح الدلالة في أنه كان للرسول ﷺ حجاب يستأذنون للناس في الدخول عليه ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الذين يريدون مقابلته كثيرون ، فكان لابد من تنظيم الدخول .

حاملوا خاتم الرسول :

كان للرسول ﷺ خاتما اتخذه لختم الرسائل للملوك والأمراء لأنه لما كتب لهرقل قالوا له يا رسول الله ، ان الأعاجم لا تقبل الرسائل إلا أن تكون مختومة ، فاتخذ خاتما من فضة نقشه ـ محمد رسول الله ، لختم الرسائل ـ وكان حنظلة بن الربيع بن صيفي ، والحارث بن عوف المري ، حاملي خاتم رسول الله ﷺ إذا غاب أحدهما ناب عنه الآخر ، وظل خلفاء الرسول ﷺ يستعملون هذا الخاتم في ختم الرسائل حتى سقط من يد الخليفة عثمان بن عفان في بئر أريس ، والقصة مشهورة .

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ٣١٢ - ٣١٣ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ الطبري جـ ٣ ص ١٧١ ـ نظام الحكومة النبوية جـ ١ ص ٢٩٣ .
(٣) نظام الحكومة النبوية جـ ١ ص ٢١ .

وكان هناك من يقوم باستقبال الوفود ، والاستئذان لها على الرسول ﷺ وتعليمهم كيف يُحيِّونه وكيف يتحدثون إليه - وهو ما يطلق عليه الآن بنظام البروتوكول - وقد عنون صاحب كتاب نظام الحكومة النبوية لهذا الموضوع بقوله : فصل « في الرجل يعلم الوفد كيف يحيون المصطفى ﷺ » وكان أشهر من يقوم بهذه المهمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ذكر ابن اسحاق قصة قدوم وفد ثقيف على النبي ﷺ في رمضان سنة ٩هـ . فعند وصولهم إلى المدينة التقوا بالمغيرة بن شعبة - وهو ثقفي مثلهم - فأخبر المغيرة أبا بكر رضي الله عنه بقدومهم ، فدخل أبو بكر على الرسول وأعلمه بأمرهم واستأذن لهم ، وخرج إليهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ (١) .

بيت الضيافة :

وكان في المدينة بيت للضيافة ، كانت تنزل فيه الوفود القادمة على الرسول ﷺ وكان هناك من يقوم على خدمتهم واطعامهم . وكان من هؤلاء بلال ، وثوبان ، موليا رسول الله ، وكانت الدار التي اتخذت للضيافة منزلا لامرأة من الأنصار اسمها رملة بنت الحارث ، ويبدو أنها كانت واسعة ، لأن ابن اسحاق ذكر أن رسول الله ﷺ حبس فيها بني قريظة قبل قتلهم وكانوا أكثر من ستمائة رجل بأسرهم .

مراقبة الأسواق :

ومن الأمور الهامة التي كان يعني بها رسول الله ﷺ مراقبة الأسواق . والاشراف على حركة البيع والشراء ، وكل ما يتعلق بالأمور التجارية ، لضمان سلامة المعاملات ، وليحصل كل انسان على ما يحتاج دون أن يتعرض لغش أو تدليس ، وقد ذكر صاحب السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ ولي عمر بن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٦ نظام الحكومة النبوية جـ ١ ص ٣٩ .

الخطاب على سوق المدينة - وتولية عمر على هذا العمل يدل على جسامته وأهميته . وبعد فتح مكة سنة ٨هـ . ولي رسول الله ﷺ سعيد بن العاص على سوقها [١] للإشراف على الحركة التجارية . ولما كان النبي ﷺ قد ولي عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها ، فتولية سعيد بن العاص أمر السوق ، يدل على أنه بجانب الولاية العامة كانت هناك ولايات نوعية متخصصة بناحية محددة يتولاها آخرون . فبجانب الوالي كان هناك القاضي وجامع الصدقات ، أي المختص بالشئون المالية ، ولأهمية الأسواق والحركة التجارية في حياة الناس ، فقد كان الرسول ﷺ يقوم أحيانا بمراقبة سوق المدينة بنفسه ، فقد روي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام - أي قمح - فأدخل يده فيها فنالت بللا ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام » فقال : أصابته السماء يا رسول الله - أي أصابه المطر - قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غش فليس منا » [٢] .

وهذا النوع من الإدارة الاسلامية في عهد الرسول ﷺ أصبح أساسا لما عرف بعد ذلك بنظام الحسبة ، أو بولاية الحسبة والذي يتولاها كان يعرف بالمحتسب .

جهاز جمع المعلومات - المخابرات :

وكان للنبي ﷺ جهاز دقيق لجمع المعلومات عن الأعداء - وهو ما يقابل جهاز المخابرات في الدول الحديثة - وممن كان يقوم بهذه المهمة بسيسه بن عمرو الجهني ، الذي كلفه رسول الله ﷺ بأن يذهب إلى بدر لجمع المعلومات عن قريش قبيل المعركة ، وكذلك طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٥٤ - نظام الحكومة النبوية جـ ١ ص ٢٨٧ ، وتخريج الدلالات السمعية ص ٢٩٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٠٩ .

زيد ، اللذان أرسلهما رسول الله ﷺ إلى طريق الشام يتحسسان الأخبار عن قافلة أبي سفيان .. ومنهم حذيف بن اليمان ، الذي قام بجمع المعلومات عن الأحزاب في غزوة الخندق . وبسر بن سفيان الخزاعي الذي كان مختصا بجمع المعلومات عن قريش .

وعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ، الذي أمد الرسول بالمعلومات عن عزم هوازن على مهاجمته في حنين ، ثم قام بنفس الدور العباس بن عبد المطلب ، فقد كان عين رسول الله ﷺ على أهل مكة ، وكان يمده بكل تحركاتهم هذه ، وهو الذي أخبره بمسيرهم في غزوة أحد ، وكذلك في غزوة الأحزاب ، مما مكن الرسول ﷺ من حفر الخندق قبل وصولهم إلى المدينة «وكان المسلمون يتقوون به في مكة ، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله - أن مقامك بمكة خير ، فلذلك قال رسول الله ﷺ في بدر : « من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج مكرها »[١] .

كان هذا الجهاز خطيرا وفعالا ويرصد تحركات أعداء الدعوة والدولة على جميع الجبهات ، وقد أمد النبي ﷺ بالمعلومات الكافية عن تحركات الروم في الشمال قبل وأثناء غزوة تبوك .

كتاب الرسول ﷺ :

كان للنبيِّ ﷺ جهاز كبير من الكتاب ، وصل عددهم إلى أكثر من أربعين كاتبا ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص ، وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأرقم ، وثابت بن قيس بن شماس ، وحنظلة بن أبي عامر الأسدي وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ،

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ٤٧٣ .

ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي ، والمغيرة بن شعبة ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وجهم بن أبي الصلت ، وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم (١) .

وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتبون الوحي لرسول الله ﷺ وبعضهم يكتب في الشئون العامة للدولة ، أما اضافة إلى كتابته الوحي ، أو اقتصارا على الكتابة في الأمور الأخرى .

فكان علي بن أبي طالب ﷺ من المختصين بكتابة العهود وعقود الصلح ، وهو الذي كتب وثيقة صلح الحديبية .

وكان معيقيب بن أبي فاطمة ، وكعب بن عمرو بن زيد الأنصاري يكتبان المغانم ، وكان يقال للأخير صاحب المغانم .

وحذيفة بن اليمان كان يكتب خرص تمر الحجاز . والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن رسول الله ، والزبير بن العوام وجهم بن أبي الصلت يكتبان أموال الصدقات والمغيرة بن شعبة يكتب المداينات والمعاملات .

وكان زيد بن ثابت الأنصاري - إضافة إلى كتابة الوحي مترجم رسول الله ، لأنه كان يعرف عددا من اللغات منها الفارسية والعبرية (٢) .

جهاز الأعلام :

وكذلك كان لرسول الله ﷺ عدد من الشعراء والخطباء الذين يدافعون

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) وانظر عن تنوع اختصاصات كتاب الرسول ﷺ - المصدر السابق .

عنه وعن دعوته ودولته ضد من كانوا يهاجمونه من شعراء مكة وغيرهـا ، كعبد الله بن الزبعري الذي كان يهاجم الرسول ودعوته بقصائد قاسية فكان شعراؤه يتصدون للرد عليه ، ومن شعراء الرسول البارزين حسان بن ثابت الأنصاري ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، ومن خطبائه ثابت بن قيس [١] . ومما هو معروف أن الشعر والخطابة كانا وسيلة الأعلام الرئيسية في ذلك الوقت .

خلفاء الرسول على المدينة أثناء غيابه عنها في غزو أو غيره :

عندما يكون الرسول ﷺ موجودا في المدينة فهو المشرف الأعلى على الأمور كلها ، وهو الذي يوزع الأعمال على الصحابة رضوان الله عليهم ، كل في مجاله .

وعندما يغيب عنها ولو ليوم واحد ، فإنه كان ينيب أحد أصحابه عنه ليتولى إدارة الأمور حتى يرجع .

وباستعراض الأسماء التي كان الرسول ﷺ يعهد إليها بأمر المدينة أثناء غيابه نجد أنه قلما يولي النيابة عنه لشخص واحد أكثر من مرة ، ونستنتج من ذلك أنه ربما كان يقصد أن يتيح الفرصة لأكثر من شخص للتدريب والممارسة العملية في مباشرة الحكم والإدارة ، ليكون هناك العدد الكافي للإضطلاع بحكم الولايات فيما بعد ، عند اتساع الدولة وهو أمر لم يطل إنتظاره .

---

(١) أنظر قصة وفد بني تميم - الطبري جـ ٣ ص ١١٦ - ١١٧ ، عندما جاءوا إلى الرسول ﷺ يفاخرونه بشاعرهم الزبرقان بن بدر ، وخطيبهم عطارد بن حاجب ، فلما فرغ شاعرهم وخطيبهم أمر النبي ﷺ شاعره حسان بن ثابت وخطيبه ثابت بن قيس أن يردا عليهما ، فلما فرغ حسان بن ثابت وكان آخر المتحدثين ، قال زعيمهم الأقرع بن حابس « إن هذا الرجل لمؤتى . لخطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا » ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

وعند خروج الرسول ﷺ في غزوة الابواء - ودان - في ربيع الأول سنة ٢هـ استخلف على المدينة سعد بن عبادة [١] .

وفي غزوة بواط في نفس الشهر استخلف سعد بن معاذ [٢] .

وفي خروجه لمطاردة كرز بن جابر الفهري في نفس الشهر استخلف زيد بن حارثة .

وفي غزوة ذات العشيرة استخلف أبا سلمة بن عبد الأسد .

وفي غزوة بدر الكبرى من رمضان سنة ٢ هـ استخلف أبا لبابة بشير بن عبد المنذر .

وفي غزوة أحد سنة ٣ هـ استخلف ابن ام مكتوم .

وفي غزوة خيبر استخلف سباع بن عرفطة الغفاري .

وفي فتح مكة استخلف أبا رهم بن حصين بن خلف الغفاري .

وفي غزوة تبوك استخلف محمد بن مسلمة الأنصاري .

اتساع الدولة في حياة الرسول

قبل أن يفارق رسول الله ﷺ الدنيا وتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها ، كان نفوذ الدولة الاسلامية قد اتسع ، وعم معظم أنحاء شبه جزيرة العرب ، وكانت كل منطقة تذعن للدعوة الاسلامية ، وتعلن اسلامها ، يعين الرسول واليا عليها من قبله ، وكان غالبا من أهل المنطقة ، ويرسل من عنده دعاة من أصحابه يعلمون الناس أمور الدين . وكانت أول منطقة أسلمت اليمن ، وقد

---

(١) الطبري جـ ١ ص ٤٠٧ .
(٢) الطبري جـ ٢ ص ٤٠٧ .

عين النبي عليها باذان الفارسي ؛ الذي كان يحكمها من قبل الفرس ، ثم أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، وعلي بن أبي طالب ، وعمرو بن حزم الأنصاري قضاة معلمين ، وعندما فتحت مكة ، عين عليها عتاب بن أسيد ، ولما أسلمت الطائف عين عليها عثمان بن أبي العاص الثقفي ، ولما أسلمت البحرين ، أبقى عليها أميرها السابق المنذر بن ساوي وأرسل إليها العلاء بن الحضرمي ، قاضيا ومعلما وجامعا للصدقات . وكذلك فعل مع أهل عمان ، حيث أبقى عليها ملكيها ؛ جيفر وعباد ابني الجلندي ، لما أسلما هما وقومهما ، وأبقى معهما عمرو بن العاص ، ليجمع الصدقات ويعلم الناس ، ويحكم بينهم .

هذا بإيجاز ، هو الجهاز الحكومي الذي كان يعاون الرسول ﷺ في إدارة الدولة الاسلامية ، ونحيل من يريد الإستزادة - إضافة إلى كتب الحديث والسير والمغازي والتفسير والتاريخ - إلى كتابين رئيسيين في الموضوع ؛ الأول «كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » لأبي الحسن الخزاعي ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٠م والكتاب الثاني هو « نظام الحكومة النبوية ، المسمى بالتراتيب الإدارية » للشيخ عبد الحي الكتاني ، طبع دار الكتاب العربي بيسير ، بدون تاريخ .

والخلاصة : أن شبه جزيرة العرب انتظمتها لأول مرة في تاريخها ، وحدة دينية وسياسية ، تحت قيادة النبي ﷺ .

وبعد هذا الحديث الموجز عن الدولة الاسلامية ، وتكوينها ، وأجهزتها ، ونظامها الداخلي ، فمن المناسب أن نعطي فكرة موجزة - أيضا - عن أسس وقواعد علاقاتها بغيرها من الدول .

العلاقات الدولية في الإسلام

وضع الإسلام قواعد وأسسا وآدابا واضحة ومحددة لعلاقات المسلمين بغيرهم من الأمم ، في حالتي الحرب والسلام ، تنحصر - تقريبا - فيما يأتي :

١ - الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم هو السلام ، وأن الحرب هي الاستثناء ، الذي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة [١] .

بل إن الإسلام ينظر إلى الحرب على أنها من إغواء الشيطان ، ولذلك يدعو المسلمين جميعاً إلى السلام ، ويحذرهم من إغواء الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ سورة البقرة ، الآية ٢٠٨ .

٢ - الوفاء بالعهود والمعاهدات والوثائق التي تنظم علاقات المسلمين بغيرهم ، وسنورد قريبا كثيرا من النصوص التي تدل على ذلك .

٣ - النظر إلى الناس جميعاً على أنهم أمة واحدة ، دون تفرقة على أساس الجنس أو اللون أو اللغة [٢] : وقد صرح القرآن الكريم بهذه الوحدة الإنسانية في آيات كثيرة ، وكذلك صرحت بذلك أحاديث الرسول ، وسنورد بعضا من ذلك قريباً .

هذه هي الأسس الرئيسية التي تقوم عليها علاقات المسلمين بغيرهم ، ويحرص الإسلام أن تتسم تلك العلاقات بروح التعاون الإنساني والتسامح والفضيلة والعدالة والمعاملة بالمثل والمودة بين الدول لخير الإنسانية .

ولقد عني المسلمون منذ بداية قيام الدولة الإسلامية بكل هذه المبادئ ،

---

(١) سنتحدث قريباً عن الحرب المشروعة في الإسلام وآدابها .

(٢) د. محمد إسماعيل علي ، مبادئ القانون الدولي العام ص ٧١ .

ورأينا وسنرى منها الكثير في مجال التطبيق العملي في واقع الحياة . كما أن علماء الإسلام أفردوا مؤلفات لا حصر لها لتنظيم علاقات المسلمين بغيرهم ، فيما يعرف الآن بمبادئ القانون الدولي العام ، ومن أوائل من كتبوا في ذلك الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ ت ١٨٩هـ ـ ، تلميذ الإمام أبي حنيفة ، في مؤلفه الضخم ـ خمسة أجزاء ـ السير الكبير [١] ، ولا يزال علماء الإسلام يولون هذا الفرع من العلوم الإسلامية كل عناية ، وآخر ما أعلمه من ذلك كتاب العلاقات الدولية في الإسلام ، للشيخ محمد أبو زهرة [٢] .

وعلى الرغم من اهتمام المسلمين الواضح بالعلاقات الدولية في الإسلام فإن بعض علماء التشريع وفقهاء القانون في الغرب يعتقدون أن مبادئ القانون الدولي العام ـ التي تنظم علاقات الدول ـ بهذه المثابة من الأفكار الحديثة ؛ التي ابتدعتها أوربا في العصور الحديثة [٣] .

ونحن نوافق هؤلاء العلماء على اعتقادهم هذا « ويلوح لنا أنه غير قابل للمناقشة والجدل ، ما دمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامي ، فالنظام الدولي في الحقيقة لم يكن معروفا خارج هذا المحيط » [٤] ، لأن الإسلام سبق العالم كله في وضع تشريع قانون دولي عام ، تقوم على أساسه علاقات الأمم

---

(١) طبع هذا الكتاب القيم بشرح محمد بن أحمد السرخسي ضمن مطبوعات معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٧١م .

(٢) طبع دار الفكر العربي بالقاهرة ، بدون تاريخ .

(٣) الحق أن أول مؤلف في القانون الدولي العام ، في العالم هو كتاب الشيباني الذي سبق ذكره ، فهو قد سبق به العالم الهولندي ، غروسيوس ١٥٨٣ - ١٦٤٥م الذي يسمى أبا القانون الدولي ، بنحو ثمانية قرون ، وللمكانة الكبيرة التي يتبوؤها الشيباني فإن علماء القانون الدولي من مختلف بلاد العالم ، أسسوا جمعية في جوتنجن بألمانيا ، سموها جمعية الشيباني للحقوق الدولية ، وكان أول رئيس لها الفقيه المصري الكبير الدكتور عبد الحميد بدوي .

(٤) د. محمد عبد الله دراز ـ دراسات إسلامية ، مرجع سابق ص ١٤٠ .

والشعوب ، ولم يكن الإسلام معنياً بوضع مبادئ لقانون دولي عام من الناحية النظرية فحسب ، وإنما طبق هذه المبادئ تطبيقاً عملياً ، وراعاها مراعاة كاملة في علاقاته الدولية مع الأمم الأخرى .

أما القانون الدولي العام الذي يفخر به فقهاء الغرب ، فإنه كان في معظم الأحيان حبراً على ورق ، ولم يحقق المساواة بين الشعوب في الحقوق والواجبات ، لأن منطلقه لم يكن أخلاقيا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فهو تشريع وضعي ناقص لا يفي بحاجات الإنسان ، ومن ناحية ثالثة فكثيرون من واضعيه من فقهاء الغرب كانت تغلب عليهم النظرة العنصرية والاستعلاء على الآخرين .

« ألم يقل استيوارت ميل - باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية ؟ أو لم يحدِّد لوريمير - على وجه الأرض مناطق ثلاثاً تخضع كل منها لقانون مختلف ، فالعالم المتمدن يجب أن يتمتع في نظره بحقوق سياسية كاملة ، والعالم نصف المتمدن يكفي أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية ، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزاماً قانونياً ، وجاء ميثاق عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى فأقر هذا التقسيم وأكسبه سلطة القانون » [١] ، وجلس الحلفاء المنتصرون في هذه الحرب حول موائد المفاوضات في مؤتمرات الصلح ، ليقرروا مصير العالم بعد الحرب - حسب زعمهم - ولكنهم في الواقع جلسوا ليقسموا العالم فيما بينهم إلى مناطق نفوذ ، ولما كان أسلوب الاستعمار العسكري القديم لم يعد مقبولاً بعد الحرب ، راح الحلفاء يبتدعون فكرة جديدة لبسط نفوذهم على الشعوب الضعيفة ؛ وهي فكرة الانتداب والحماية ، وكان هذا خداعاً دولياً ليس له نظير ، فلقد ناقض الحلفاء أنفسهم ، وضربوا بشعاراتهم التي رفعوها أثناء الحرب - عن إعطاء الشعوب

---

(١) د، دراز ، دراسات إسلامية ص ١٤١ .

حق تقرير مصيرها ، كما جاء في مبادئ ويلسون الأربعة عشر الشهيرة ـ عرض الحائط ، وكانت بدعة الانتداب والحماية أسوأ من الاستعمار القديم ، فالشعوب التي وضعت تحت الانتداب والحماية لم تشعر أنها تخلصت من الاستعمار ، بل إن بعض الشعوب ضاع استقلالها وكل حقوقها . والمثل الصارخ على ذلك هو شعب فلسطين العربي ، فقد وضعت فلسطين العربية تحت الانتداب البريطاني ، وكانت مهمة بريطانيا التي حددها صك الانتداب ـ الذي أقرته عصبة الأمم ـ أن تدرب شعب فلسطين العربي على شؤون الحكم والسياسة والإدارة ، ثم ترد إليه بلده ليحكمها بنفسه ، فماذا حدث ؟ لقد مارست بريطانيا أثناء انتدابها على فلسطين أبشع أنواع الاستعمار ، ولما آن لها أن ترحل سلمت فلسطين لعصابات الصهاينة الذين جمعتهم من شتات الأرض . هذا هو فهم أوربا لمبادئ القانون الدولي العام . ثم دارت الأيام وأشعلت أوربا نار الحرب العالمية الثانية ، وبعدها تشكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة . فماذا صنعت ؟ وماذا أضافت من حلول لمشاكل العالم ؟ « أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطراً على عقول السادة الذين يتحكمون في مصير الإنسانية » [١] .

إذا كانت هذه هي نظرة علماء أوربا وساستها إلى القانون الدولي العام وحقوق الشعوب ، فماذا ننتظر من شعوب أوربا نفسها ؟ التي لا زالت روح الاستعلاء والغرور تسيطر على عقول أبنائها وتجعلهم ينظرون إلى الشعوب الأخرى خارج القارة الأوربية على أنها أقل منهم في كل شيء .

ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إن كل من يريد أن يظفر بتشريع دولي ذي صبغة عالمية حقيقية وإنسانية ، يصون حقوق جميع الشعوب على قدم المساواة ، فلن يجد هذا التشريع خارج دائرة التشريع الإسلامي في مجال العلاقات الدولية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

فالإسلام لا يعرف التفرقة بين الشعوب [١] ، فليس هناك ـ من وجهة نظر الإسلام ـ شعوب متحضرة وأخرى غير متحضرة أو ناقصة التحضر ، بل جميع الناس سواسية كأسنان المشط كلهم لآدم وآدم من تراب : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [٢] . هذه هي نظرة الإسلام للأمم والشعوب ، ولم يحدثنا التاريخ أن الإسلام كان يعتبر أن شعباً من الشعوب التي دخلت في حكمه محمية من المحميات ، أو مستعمرة من المستعمرات ، أو أن القانون الإسلامي كان يفرق بين إنسان وإنسان . بل إن التاريخ يحدثنا أن الشعوب التي انضوت تحت الحكم الإسلامي نعمت بنوع من الحرية والعدل والتسامح لم تعرفه طوال تاريخها ، وهذه شهادة مؤرخ أوربي لا يمكن أن يتهم بأنه متحيز للإسلام ، يقول توماس آرنولد : « أما ولايات الدولة البيزنطية التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة ... فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد » [٣] .

نظرة الإسلام إذن إلى العلاقات الدولية نظرة إنسانية عالمية ، لحمتها المساواة وسداها السلام والعدل . ذكرنا آنفاً أن من الأسس التي تقوم عليها مبادئ القانون الدولي العام ، المعاهدات والاتفاقيات ، التي تحدد العلاقات بين الدول في حالتي السلم والحرب . وأهم من المعاهدات والمواثيق نفسها ، الوفاء بها ورعايتها ، والإلتزام بحدودها ، لأن معظم الكوارث التي حلّت بالعالم لم تأت في الواقع من غياب العهود والمواثيق التي تنظم علاقات الدول ، ولكن أتت من نكث ساسة الدول وزعمائها بالمعاهدات ونقضها والتنكر لها إذا تعارضت مع مصالحهم الذاتية [٤] . وهنا يبرز لنا الإسلام سامقاً وشامخاً في

---

(١) مبادئ القانون الدولي العام ، مرجع سابق ص ٧١ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٣) توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٧٤ .

(٤) قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م كانت هناك معاهدة عدم اعتداء بين ==

رعايته لعهوده ومواثيقه ، وحرصه على الوفاء بها حرصاً لم يسبق له مثيل في أي تشريع آخر ، مهما كان في الوفاء بالعهد من أضرار مادية أو معنوية تعود على المسلمين . ذلك لأن الوفاء بالعهد والميثاق ، في مجال العلاقات الدولية من وجهة نظر الإسلام ليس مبدأ أخلاقياً فحسب ، بل هو واجب ديني ، أي عبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى . ويثاب المسلم على فعله ، ويعاقب على تركه ، فالعهد الذي يرتبط به المسلم مع غيره لا يرتبط به مع الناس فحسب ، بل هو مسئول عنه أمام الله ، والله كفيل المسلم ، وشهيد على عهوده ومواثيقه والتزاماته تجاه الآخرين . ولقد شدد القرآن الكريم تشديداً بالغاً على مبدأ الوفاء بالعهد ، وآيات القرآن الكريم التي تشير إلى ذلك أكثر من أن تحصى هنا . وعندما يقول الله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (١) فهو ينبه المسلمين إلى ضرورة الوفاء بالعهد على إطلاقه ، أياً كان ومع أيٍّ كان ، وفي جميع الأحوال والظروف . فإذا ارتبط المسلم بعهد وألزم نفسه به فليس له أن ينقضه بأي حال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (٢) . وقد عظم الله تعالى الوفاء بالعهد ، وجعل المؤمنين به هم وحدهم أصحاب العقول : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ (٣) ، أما الذين ينقضون عهودهم ولا يحترمونها ، فهم - في نظر الإسلام منبوذون من ساحة الإنسانية : ﴿ إن شرَّ الدوَّاب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾ (٤) .

وليست هناك حالة تبيح للمسلم نقض العهد من طرف واحد ، حتى ولو

= روسيا الشيوعية وألمانيا النازية ، فماذا كان مصير هذه المعاهدة ؟

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٩١ .

(٣) سورة الرعد ، الآيتان ١٩ - ٢٠ .

(٤) سورة الأنفال ، الآيتان ٥٥ - ٥٦ .

كان في الاستمرار في الوفاء به ضرر محقق يلحق المسلمين .

وهل هناك ضرر أعظم من أن تتعرض فئة مسلمة لعدوان دولة أجنبية فتطلب من الدولة الإسلامية أن تعينها وتنصرها ، ولكن الدولة الإسلامية لا تستطيع أن تفعل ذلك ، إذا كانت قد ارتبطت مع هذه الدولة الأجنبية بعهد سابق ، فنقض العهد في هذه الحالة محظور بتاتاً على المسلمين ، بنص القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق ... ﴾ [١] .

ثم يمضي الإسلام في طريقه العلوي ، مع الشرف والكرامة والأخلاق ، فلا يبيح الغدر حتى وهو يخشى خيانة الآخرين ، فلا بد أن يجاهرهم بالحرب ، وينبذ إليهم عهدهم في وضح النهار ، ولا يبيتهم بالغدر وهم منه على أمان : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾[٢] أما إذا التزم الأعداء بالعهد مع المسلمين فيجب على المسلمين الالتزام بالعهد وإتمامه إلى مداه : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [٣]. وهكذا وهكذا صور وأمثلة كثيرة لوفاء الإسلام والمسلمين بالعهد ، وفي مقدمتهم معلم الإنسانية ، ورسول الرحمة والسلام ، عليه الصلاة والسلام .

الإسلام يحترم مبعوثي الأعداء وحاملي رسائلهم :

هناك ناحية أخرى هامة ، في مجال العلاقات الدولية ، أولاها الإسلام عنايته ، وكان للمسلمين فيها تقليد إنساني ، تلك هي ناحية احترام المبعوثين السياسيين وحاملي رسائل الأعداء . إذ من المسلم به أن تبادل الرسل والرسائل

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٤ .

أمر لا بد منه في أية علاقات دولية [١] . وغني عن القول أن وجود بعثات سياسية دائمة تقيم بصفة مستمرة لكل دولة لدى الدول الأخرى أمر لم يكن معروفاً في العلاقات الدولية في الزمان الذي نتحدث عنه ، فذلك أمر لم تعرفه العلاقات الدولية إلا في القرون الأخيرة ، وعلى أكثر تقدير منذ القرن السابع عشر الميلادي . أما تبادل الرسل وحاملي الرسائل فكان يتم في الزمن الذي نتحدث عنه ، بل بعده بكثير ، في المناسبات ، وعندما تكون هناك ضرورة. وقد مارس النبي ﷺ هذا اللون من العلاقاتَ الدولية بنوعيه ، أي أنه ﷺ أرسل من عنده رسلاً كثيرين ، وفي مناسبات عديدة ، إلى عدد من ملوك وأمـراء العالم ، كما استقبل في مسجده في المدينة ، العديد من الرسل والمبعوثين وحاملي الرسائل . فكيف كان يعاملهم ؟ وقائع التاريخ تدلنا على أن النبي ﷺ ، كان يعامل رسل الأعداء والأصدقاء على حد سواء معاملة واحدة ، وهي الاحترام والتكريم ، والذي يهمنا هنا هو معاملته لرسل الأعداء بصفة خاصة ، لأن هذا أوقع في تصوير موقف الإسلام من هذه الناحية الهامة من نواحي العلاقات الدولية ، فقد كان ﷺ يستقبل رسل الأعداء برحابة صدر ، ويستمع إليهم في اهتمام ، ثم يمنحهم الأمن على أرواحهم ، ويعطيهم الحصانة التي تخولهم حق العودة إلى أوطانهم سالمين ومتى شاءوا ، مهما كانت خطورة الرسائل التي يحملونها .

وإليك بعض الأمثلة العملية على ذلك ومنها ، معاملة الرسول ﷺ لرسولي كسرى أبرويز الثاني ملك الفرس . فقد كان ﷺ أرسل ـ بعد صلح الحديبية ـ عددا من الرسائل إلى ملوك ورؤساء وأمراء العالم المعاصرين ، يدعوهم إلى الإسلام ـ كما سيرد ذكره ـ وكان من بين هذه الرسائل رسالة إلى كسرى ، ومع أنها كانت عبارة عن دعوة سلمية للدخول في الإسلام ، وفي أسلوب مهذب رفيع ، خالية من العنف أو التهديد بالحرب ، إلا أن كسرى

---

(١) انظر : شرح كتاب السير الكبير ، مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ٢٩٦ .

عندما قرئت عليه استشاط غضباً ، وأخذته العزة بالإثم ، ومزقها ولم يكتف بهذا ، بل أرسل إلى باذان ـ عامله على اليمن ـ التي كانت تحت سلطان الفرس آنذاك ـ يأمره أن يرسل إلى هذا العربي ؛ يقصد النبي ﷺ ، من يقبض عليه ، ويحضره مقيداً في السلاسل ، ليمثل أمام كسرى ، ليعاقبه على جرأته في مخاطبته بهذا الشكل ، إذ كيف يجرؤ ويتطاول إلى هذا المقام ، ويخاطب ملك الملوك . وأذعن باذان لأوامر سيده وأرسل إلى النبي ﷺ رسولين من عنده ليبلغه بقرار كسرى الغريب الذي يدل على الغرور والغطرسة وعماء البصيرة . وحضر الرسولان إلى المدينة وأفضيا إلى النبي ﷺ بمضمون مهمتهما . فماذا حدث ؟ وماذا كان موقفه من مبعوثين جاءآه مأمورين بالقبض عليه ، وأخذه بالقوة ليحاكم أمام سيدهم ؟ هل اعتقلهما أو أمر بقتلهما ؟ أبداً ، لم يحدث شيء من هذا ، وإنما ردَّ عليهما رداً جميلاً ، وفي هدوء أخبرهما أن ملكهم هذا المتجبر قد هلك ، وعلى يد ابنه بالذات حيث ثار عليه وقتله ، وكلفهما بأن يحملا منه رسالة إلى باذان يدعوه فيها إلى الإسلام ، فإن هو قبل وأسلم ، فإن النبي ﷺ سيقره على عمله كحاكم لليمن باسم الإسلام ، وقد شرح الله صدر باذان للإسلام فأسلم وأصبح يحكم اليمن باسم النبي ﷺ . أرأيت كيف عامل النبي مبعوثي عدوه وعدو الله كسرى . فأعطاهما الأمان ولم يمسهما بسوء .

وإليك مثلاً آخر ، يعتبر من أروع الأمثلة على ذلك . وهو صنيع النبي ﷺ مع مبعوثي مسيلمة الكذاب ، اللذين جاءآه يحملان إليه مزاعم مسيلمة بأنه أشرك معه في الرسالة . فمع خطورة القضية التي جاءآ من أجلها ، ومع شذوذ مطلبهما إلا أن النبي ﷺ لم يمسهما بسوء لأنهما رسولان . وكان رسولا مسيلمة ؛ هما ابن النواجة ، وابن آثال ، معهما رسالة ، نصها كالآتي : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ؛ أما بعد . فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ،

ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » [1] فلما سمع الرسول ﷺ نص الرسالة قال : « فما تقولان أنتما ؟ » قالا : نقول كما قال . فقال النبي ﷺ : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » [2] . ثم كتب إلى مسيلمة رسالة هذا نصها : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من إتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

هذه هي معاملة النبي ﷺ ، لمبعوثي أعدائه ، وحاملي رسائلهم ، وإحترامه لهم وصيانة أرواحهم ، مهما كانت خطورة مهامهم ، والموضوعات التي يتباحثون من أجلها ، ومهما بدا منهم من شذوذ وبذاءة ومجاوزة الحدود .

هذا عن رسل ومبعوثي الأعداء ، أما رسل ومبعوثي الأصدقاء فإن الرسول ﷺ ، كان يستقبلهم بود وبشاشة وترحيب ، ويقوم على خدمتهم بنفسه ، كما فعل مع الوفد الحبشي الذي جاءه من عند النجاشي ـ تقديراً لحسن معاملته للمسلمين في بلاده ـ وكان يحرص على إهداء الوفود الهدايا ، ويمنحهم الخلع والعطايا . وهذا من فرط سماحته ، وكرمه ، ﷺ . ولا يتصور أحد أن هذا الذي سقناه في الصفحات السابقة بعيد عن موضوع سيرة الرسول ، بل هو من صميمها ، ومن الموضوعات التي يجب ابرازها والتركيز عليها في دراسة السيرة ، فالنبي ﷺ ، هو الذي أرسى وشرع كل تلك المباديء وطبقها بنفسه ، وسار خلفاؤه من بعده على نهجه في سياسة الدولة الإسلامية وصياغة علاقاتها بغيرها من دول العالم .

ومن الضروري أن نعرف شيئا عن أسس العلاقات الدولية في الإسلام

---

(١) ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ القسم الثاني ، ص ٦٠٠ .

(٢) ابن هشام ـ المصدر السابق ، ص ٦٠٠ .

في حالتي الحرب والسلام . ولنواصل حديثنا عن علاقة المسلمين بقريش العدو الرئيسي للدعوة والدولة الإسلامية في تلك المرحلة .

العلاقات بين المسلمين وقريش
من الهجرة إلى بدر

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، لم يكن من خطته أن يبدأ قريشاً بالحرب إزاء ما قامت به ضد الدعوة خلال ثلاثة عشر عاماً .

فهو عليه السلام ـ في أصل رسالته ـ لم يأت لتدمير قريش ولا غيرها ، وإنما جاء رحمة للعالمين ، ونحن نعرف من سيرته ﷺ أنه وهو في أقسى الظروف وعندما بلغ أذى قومه له غاية السوء ، لم يطلب ولم يتمنَّ هلاكهم . وإنما رجا من الله تعالى هدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وأن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا [١] .

ولكن كان عليه أن يستعد لكل الإحتمالات ، فالحرب مع قريش ليست مستبعدة ، لذلك قام بعدة تحركات عسكرية قبل بدر ، سرايا وغزوات لم يصطدم فيها المسلمون بقريش ، وهذا فيما يبدو كان تلويحاً بالقوة ، وإفهامها أن استخدام القوة ضدها لم يكن أمراً مستبعداً من جانب المسلمين ، إذا هي لجَّت في عنادها ، فعليها أن تفكر جيداً في الأمر ، وعليها أن تضع في حسابها أنها إن لم تبتعد عن طريق الدعوة وتكف عن ملاحقة المسلمين بالأذى ، وإن لم ترفع أذاها عن المستضعفين من المسلمين ، الذين حَبَسَتْهُمْ في مكة ، وحالت بينهم وبين الهجرة إلى المدينة ، فسوف يهدد الرسول تجارتها مع الشام ، التي هي عماد حياتها ، بل مصدر عزها ومجدها وثرائها ، وتفوقها على غيرها من قبائل

---

(١) ابن كثير ـ السيرة النبوية جـ ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ ، وسبق الحديث عن هذا عند عودته من الطائف .

العرب . فإن هي أفاقت لنفسها ، وإلا فلتأت الضربة القاضية .

قريش تستمر في إلحاق الأذى بالمهاجرين :

لم تكتف قريش بما صنعته بالنبي ﷺ والمسلمين في مكة طوال ثلاثة عشر عاماً ، وما أذاقتهم من الأذى والإضطهاد ، فمن تعذيب جسدي لأصحاب النبي ، إلى تجويع وحصار إقتصادي وإجتماعي ، إلى غير ذلك من الجرائم الوحشية التي إرتكبتها في حق الجماعة المؤمنة ، بل إنها صعدت جرائمها إلى حد التآمر على قتل النبي ﷺ مما إضطره أن يهاجر من مكة - أحب بلاد الله إليه - ولم تترك المسلمين في موطنهم الجديد في المدينة المنورة - وقد أجبرتهم على ترك ديارهم وأموالهم - يمارسون شعائر دينهم ، ويدعون إلى الله في حرية وأمان ، بل أخذت تلاحق المهاجرين منهم لتردهم إلى مكة وتفتنهم عن دينهم ، وتضعهم في السجون ، وتحرمهم من حريتهم ، متجاوزة بذلك كل الأعراف والتقاليد ، ولم ترع لأحد حرمة . فقد روي نافع مولي عبد الله بن عمر عن عبد الله عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : أي عمر اتَّعدتُ لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التَّناضُب [1] من أضاة بني غفَار فوق سَرَف ، وقلنا أينا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِسَ فَلْيَمْض صاحباه ، قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنها هشام ، وفُتِنَ فافْتُتِنَ . فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله ﷺ بمكة ، فكلَّمَاه - أي عياش - وقالا : إن أُمَّكَ قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له : يا عياش ، إنه والله إنْ يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد

---

(١) التَّناضب اسم موضع بالقرب من مكة ، الأضاة الغدير يجمع من ماء المطر ، سرف موضع بين مكة والمدينة .

آذى أُمَّكَ القملُ لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت ، قال : فقال : أَبَرُّ قَسَمَ أمي ، ولي هنالك مال فآخذه ، قال : فقلت : والله إنك لتعلم أني لَمِنْ أكثر قريش مالاً ، فلَك نصف مالي ولا تذهب معهما ، قال : فأبى عَلَيَّ إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم رَيْبُ فانجُ عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخي لقد استَغْلَظْتُ بعيري هذا ، أفلا تُعْقِبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى ، قال : فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة وفَتَناهُ فافْتُتِنَ . قال ابن اسحاق : فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً ، ثم قالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا »[1] ووضعوه في السجن هو وهشام ابن العاص وكان هناك كثيرون غيرهما من المسلمين في سجون مكة .

هذا مثل من أمثلة التنكيل والأذى الذي ألحقه القرشيون بالمسلمين ليفتنوهم عن دينهم ، وإليك قصة أخرى من قصص قريش المخزية مع المسلمين ، والتي تجردت فيها من كل إنسانية ، وبطل هذه القصة أبو سلمة ﷺ أول مهاجر من مكة إلى المدينة ، بعد أن أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إليها ، بعد بيعة العقبة الثانية ، روي ابن اسحاق :عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : « لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة ورحلَ لي بَعيرهُ، ثم حملني عليه ، وحَمَلَ معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حِجْري ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غَلَبْتَنَا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه ، قالت : وغضب

---

(١) ابن هشام ـ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٨٤ - ٨٦ ، وابن كثير ـ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٢٢٠ .

عند ذلك بنو عبد الأسد ؛ رَهطُ أبي سلمة ، وقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت : فتجاذبوا ابْني سَلَمةَ بينهم ، حتى خَلَعُوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنوا المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، قالت : فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني » [١] .

قريش تستولى على ديار المسلمين وأموالهم :

ترك المسلمون ديارهم وأموالهم في مكة مهاجرين في سبيل الله ، وهناك أسر بكاملها غلّقت دورها في مكة وآثرت أن تعبد الله في حرية وأمان في كنف إخوانهم الأنصار في المدينة . يقول ابن اسحاق : « وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ ، فلم يَبْقَ منهم بمكة أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يُوعبْ أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ إلا أهـل دُور مُسَمَّوْنَ ؛ بنو مظعون من بني جمح ، وبنـو جحش بن رِئَاب ؛ حلفاء بني أميّة ، وبنو البكير من بني سعد بن ليث ؛ حلفاء بني عديٍّ بن كعب ، فإن دُورَهم غُلِّقَتْ بمكة هجرة ليس فيها ساكن ، ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عَدَا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لـؤى ، فلما بلـغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكـر ذلك عبدُ الله بـن جحش لرسول الله ﷺ ، فقـال لـه رسول الله ﷺ : « ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة » قال : بلى ، قال : « فذلك لك » [٢] . وهكذا لم يكتف المشركون من قريش بطرد المسلمين من ديارهم ، وإنما أوغلوا في آذاهم فأضافوا ذلك الألم النفسي الذي يعانيه الإنسان الحر عندما يعلم أن داره اغتصبت منه ، وأن غيره يتصرف فيها ويبيعها ، حارماً له من أبسط حقوق التصرف في الملك .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٧٧ .
(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ١١٦ - ١١٧ .

وهذا هو الصحابي الجليل صُهَيْبُ ﵁ لا يطيق صبراً على فراق رسول الله ﷺ ، ولا يحتمل البقاء بعده في مكة ، ولكن المشركين لم يسمحوا له بالخروج إلا بعد أن أخذوا كل ما يملك ، وقالوا له : « أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صُهَيْبُ ﵁ : أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أتخلـون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلتُ لكم مالي » ... وخرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ بقُباء قبل أن يتحول منها ، فلما رآني قال : « يا أبا يحي رَبِح البيعُ » فقلت يا رسول الله ما سبقني إليكَ أحد وما أخبرك بذلك إلا جبريل عليه السلام» [1] .

هذا قليل من كثير ، مما فعلته قريش بالمسلمين ، حتى بعد هجرتهم ، فهل تعجب ـ بعد كل ذلك ـ من أن الرسول ﷺ قد أعطى كل هذه الأهمية لقريش ، وكرس معظم جهوده لمعالجة العلاقات معها ؟ حتى علاقاته بالقبائل الأخرى التي كانت تقطن المناطق الساحلية على الطريق بين مكة والمدينة ـ بنوضَمْرة وبنو مُدْلِجْ وغيرهم ـ والتي حالفها ووادعها وعاهدها ، كانت جزءاً رئيسياً من سياسته ﷺ ضد قريش ومن خطته في محاصرتها ، وتضييق الخناق عليها ، وأخذ طريق تجارتها لإجبارها على التخلي عن معاداتها للدعوة الإسلامية . ودراسة خطة النبي ﷺ في تلك الفترة تجاه قريش بالذات ، تعتبر ذات أهمية كبيرة لدارس سيرة الرسول ، وخط سير الدعوة الإسلامية ، ومراحلها الرئيسية ، وما تتميز به من حركية تلائم كل مرحلة ، ففي مكة كانت الدعوة إلى الله بالحجة والاقناع والصبر على الأذى في سبيل الله ، وفي المدينة ـ بعد الهجرة وقبل بدر ـ كانت مرحلة الإستعداد والإستكشاف والدراسة ، والتلويح بالقوة أحياناً ـ ، لإعلام خصوم الدعوة الإسلامية ـ وقريش بالذات ـ أن القوة لم تكن أمراً مستبعداً عند الضرورة . فخير لها من الآن أن تذعن لله

(١) ابن كثير ـ السيرة النبوية جـ ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

ورسوله . ولما لم تفهم قريش ، أو لم تحاول أن تفهم ، أو قل لم ترد أن تفهم ، كانت الحرب الصريحة - منذ بدر - لتحطيم قوى البغي والعدوان والطغيان وتطهير الطريق أمام الدعوة منها ، وفي كل المراحل لم تتوقف الدعوة بالحجة والاقناع ، لأن هذا هو الأساس والقاعدة ، أما الحرب فكانت الإستثناء يلجأ إليه عند الضرورة . وهي لرد العدوان ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

النشاط العسكري الإسلامي قبل بدر :

ظل النبي ﷺ أكثر من ستة شهور في المدينة بعد الهجرة قبل أن يقوم بأي نشاط عسكري ، فقد كان مشغولاً في تلك الفترة بتأسيس الدولة الإسلامية وترتيب أوضاع المسلمين في موطنهم الجديد ، ومع ذلك لم يُغفل أمر تدريب المسلمين على فنون القتال ، وحثهم على تعلم الرمي ، وأثر عنه ﷺ أنه قال : « ألا إنَّ القوة الرمي » قالها ثلاثاً .

وأول عمل عسكري قام به ﷺ كانت السرية التي عقد لواءها لعمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان ذلك في شهر رمضان من العام الأول الهجري على رأس سبعة أشهر من مهاجره . وكان اللواء أبيض وحمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي ؛ حليف حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه رسول الله في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، وخرج حمزة يعترض عير قريش قد جاءت من الشام تريد مكة ، وفيها أبو جهل بن هشام ، في ثلثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر - يعني ساحله - من ناحية العيص ، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ، فمشي مجدي بن عمرو الجهني ، وكان حليفاً للفريقين جميعاً ، إلى هؤلاء مرة وهؤلاء مرة حتى حجز بينهم ، ولم يقتتلوا ، فتوجه أبو جهل وأصحابه إلى مكة ، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة »[1] هذه رواية ابن

---

(١) ابن سعد - الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٦ وانظر بقية السرايا بعدها .

سعد في الطبقات ، عن أول حملة عسكرية أرسلها لتناوش قريشاً وتعترض طريق تجارتها . أما ابن اسحاق فيقدم سرية عبيدة بن الحارث في السياق على سرية حمزة ، ولكنه يتبع ذلك بقوله : « وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك على الناس » [١] . وكيفما كان الأمر ، فقد تتابعت السرايا - قبل بدر - لتصل إلى أربع ، فبالإضافة إلى سريتي حمزة وعبيدة ، كانت هناك سرية سعد بن أبي وقاص ، في ذي القعدة من العام الأول الهجري ، ثم سرية عبد الله بن جحش ، في رجب من العام الثاني الهجري ، وسنرجيء الحديث عن سرية عبد الله بن جحش ، لأنها تستحق كلمة خاصة ، لما تدل عليه من تطور في العلاقات بين قريش والمسلمين ، ولما ترتب عليها من نتائج جعلت الصدام العسكري بين المسلمين وقريش أصبح وشيكاً ومحتماً .

إلى جانب هذه السرايا التي كان النبي ﷺ يرسل على رأسها أحد أصحابه ، فقد قاد بنفسه أربع غزوات ، وأول هذه الغزوات هي غزوة الأبواء ، في صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مهاجره . « وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواءً أبيض ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، وخرج في المهاجرين ليس فيهم أنصاري ، حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش فلم يلق كيداً ، وهي غزوة ودّان ، وكلاهما قد ورد ، وبينهما ستة أميال ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه . وفي هذه الغزوة وادع مخشي بن عمر الضمري ، وكان سيدهم في زمانه ، على ألا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه ، ولا يُكثّروا عليه جمعاً ، ولا يعينوا عدواً ، وكتب بينه وبينهم كتاباً . وضمرة من بني كنانة . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة » [٢] .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٠ - وانظر أخبار بقية السرايا والغزوات بعدها .

(٢) أنظر أخبار جميع هذه الغزوات والسرايا - ابن سعد - الطبقات جـ ٢ ص ٦ وما بعدها ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٠ وما بعدها ، وابن كثير - السيرة النبوية جـ ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

ثم غزا رسول الله ﷺ بواط في ربيع الأول ، من السنة الثانية للهجرة ، وخـرج في مائتين من أصحابه ، يعترض لعير قريش فيها أمية بن خلف الجُمحي ، ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بُواط ، وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رضوى ، وهي قريب من ذي خُشُب ، مما يلي طريق الشام ، وبين بُواط والمدينة نحواً من أربعة بُرد فلم يلق رسول الله كيداً فرجع إلى المدينة .

غـزوة الـعشـيـرة :

في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة . خرج رسول الله في مائتين من أصحابه يعترض عير قريش حين أبْدَأت إلى الشام ، وقد جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال قريش ، فبلغ ذا العشيرة ، وهي لبني مدلج بناحية ينبع ، وبين ينبع والمدينة تسعة برد ، فوجد العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام ...وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً » [١] .

غـزوة بـدر الأولـى :

قال ابن إسحاق : « ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالي قلائل تبلغ العشرة حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فخرج رسول الله ﷺ في طلبه ، حتى بلغ واديا يقال سفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر ، فلم يدركه وهي غزوة بدر الأولى » [٢] .

---

(١) وهذه القافلة ذاتها هي التي اعترضها رسول الله وهي عائدة من الشام فأفلتت منه أيضا ، ومن أجلها كانت غزوة بدر الكبرى .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٨ .

أهداف السرايا والغزوات الأولى :

يبدو لدارس سيرة الرسول ﷺ وأسلوبه في التعامل مع قريش في هذه المرحلة ، أنه كان يَتوخَّى من هذه الغزوات والسرايا تحقيق أهداف كثيرة منها :

أولا : تدريب المسلمين عملياً على الطرق والمسالك والأماكن التي ستصبح مستقبلاً ميادين فعلية للقتال ، وساحات للمعارك الحاسمة مع أعداء الله من قريش وغيرها . فالرسول ﷺ من خبرته الطويلة في التعامل مع قريش أدرك أنها لن تذعن إلا لقوة قاهرة تعيدها إلى صوابها وتزيحها من طريق الدعوة .

ثانيا : هذه الجهات والأماكن التي اتجهت إليها هذه الغزوات والسرايا الأولى تقع كلها على طريق القوافل الذي تسلكه قريش في طريقها إلى الشام ، ولقريش صداقات وعلاقات ودية مع أغلب القبائل المقيمة في هذه الجهات ، وهذه القبائل تعرف الكثير من أخبار قريش وتحركاتها ، وقوة الحراسة التي تحرس عيرها ، فإذا نجح النبي ﷺ في كسب وُدّ هذه القبائل ، وأقام معها علاقات صداقة فسوف يفوز بمعلومات دقيقة عن خطط قريش ، وبالفعل حققت تلك الغزوات والسرايا نتائج طيبة في هذا السبيل ، وتمكن النبي ﷺ من إقامة علاقات ودية بل وعقد محالفات دفاعية مع بعض القبائل ، كانت لها دلالات عميقة على بعد نظره ﷺ في تخطيطه لمستقبل الدعوة الإسلامية . وإليك أنموذجاً من هذه المحالفات ، الكتاب الذي كتبه ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأنَّ لهم النِّصْرة على من رامهم ، إلا أن يحاربوا في دين الله ... وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنُصْرَته أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » (1) . فأنت ترى من نص هذه المعاهدة أن النبي ﷺ لم ينجح فقط في تحييد هذه القبائل ، والتي كانت في الأصل صديقة لقريش ، بل ذهب

(1) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٢٥ .

إلى أكثر من ذلك ، فنجح في عقد معاهدات دفاعية معها ، وسوف يكون لهذا أثر كبير في مستقبل العلاقات مع قريش . وهذه المعاهدة تدلنا على شيء عظيم آخر ، وهو أن كلمة المسلمين أصبحت نافذة في هذه الجهات وأن قوتهم ظاهرة ، وأصبحت القبائل في هذه النواحي تخشاهم وتخطب وُدَّهم ، فبنو ضمرة وهم من القبائل المهيمنة على طريق القوافل ، يبسط عليهم النبي ﷺ حمايته ويضمن لهم الأمان على أموالهم وأنفسهم . والذي يمنح الأمان هو الأقوى ، الذي يستطيع أن يخيف ويرهب ويؤمن أيضاً . فهذا كله يدلنا على المدى الكبير الذي وصلت إليه قوة المسلمين في تلك الفترة .

ثالثا : من الأهداف الرئيسية كذلك لتلك الغزوات والسرايا - في هذه المرحلة - تضييق الخناق على قريش ، وضرب حصار إقتصادي صارم عليها ، يقطع طريق تجارتها إلى الشام ، فالتجارة هي مصدر حياتها ، وأساس قوتها وإزدهارها وسيادتها ، وبدون التجارة لن تقوم لها قائمة ، فحرمانها من نشاطها التجاري هو الموت بعينه ، وهو أمر لن تحتمله طويلاً . ولا جدال في أن النبي ﷺ لم يكن يهدف أن يهلك قريشاً ويدمر حياتها . وإنما كان يقصد أن يلقنها درساً قاسياً ، وأن يذيقها طعم الكأس التي جرعتها المسلمين في مكة .

وقد حققت هذه التحركات العسكرية هدفاً آخر نفسياً ، فقد زرعت الخوف والفزع في قلوب قريش ، ولا أدل على ذلك من الأعداد الهائلة من الرجال الذين كانوا يقومون على حراسة القوافل في ذهابها وإيابها إلى الشام ومنه ، فقد رأيت أن القافلة التي كان على رأسها أبو جهل بن هشام - والتي اعترض لها حمزة بن عبد المطلب - كان يرافقها ثلثمائة من الحراس ، وهو أمر لم يكن مألوفاً قبل الآن في حراسة القوافل التجارية . إذاً فقد « استطاع المسلمون أن يُبْقُوا قريشاً على حذر ، فحراس القوافل وقادتها يتوقعون لقاء المسلمين في كل لحظة ، يخافونهم إذا انبلج الصبح أو اقترب الليل ، كل غبار يتطاير من وراء الأفق يظنون فيه الظنون ، وكل همس في الليل يقدرون أن

وراءه الموت ، وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير الأعصاب ، وهو أشد إجهاداً من القتال ، وكان في هذا كسب معنوي للمسلمين » [١] . وقد نجحت سياسة الحصار الإقتصادي ضد قريش ، وإضطرتها إلى تغيير طريقها المعتاد ، وأن تتنكّب طرقاً أخرى وعرة عبر الصحراء حيناً وعلى ساحل البحر حيناً آخر ، وفوق ما في هذا من خسارة جسيمة لقريش فهو شيء لم تألفه ولم تتعود عليه ، وهو يحط من هيبتها بين العرب ويزري بمكانتها .

والأخطر من ذلك أن النبي ﷺ لم يدعها تنعم بهذه الطرق البديلة التي ظنّتها بعيدة عن متناول المسلمين ، فقد لاحقها المسلمون في كل طريق سلكته ، مما يدل على أن ضرب حصار إقتصادي صارم عليها كان هدفاً رئيسياً من أهداف السياسة النبوية ، فبعد بدر تجنبت قريش المرور في الطريق الذي يمر بالمدينة لئلا تصطدم بالمسلمين ، فسلكت طريقاً آخر يمر عبر نجد إلى العراق - متجشمة بذلك متاعب كبيرة ، وكانت تظن أنها أصبحت في أمان من تصدي المسلمين لها ، ولكن كانت مفاجأتها كبيرة ، عندما وجدت المسلمين لها بالمرصاد . فقد علم رسول الله ﷺ أن صفوان بن أمية بن خلف خرج على رأس قافلة فيها أموال كثيرة ، سالكاً طريق نجد إلى العراق . فأرسل زيد بن حارثة رضي الله عنه على رأس مائة من الصحابة فاعترضوا طريق القافلة وأصابوها جميعها ، وأفلت منهم صفوان ومن معه من أعيان القوم ، وقدم زيد بالعير على رسول الله ﷺ فخمّسها فبلغ الخُمُس عشرين ألف درهم ، وقسّم الرسول ما بقي على أهل السّرية [٢] .

سرية عبد الله بن جحش :

سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه هي آخر الحملات الصغيرة التي جردها

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم - محمد القائد ص ١٨ - ١٩ .
(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٣٦ .

النبي قبل معركة بدر الكبرى ، وقد رأينا أن نخص هذه السرية بكلمة خاصة مفصلة لما ترتب عليها من نتائج ، ولطبيعتها أيضاً ، فالغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه ، والسرايا التي أرسل على رأسها أحد أصحابه كانت وجهتها الطريق الساحلي بين مكة والمدينة ، بهدف تهديد الطريق التجاري الرئيسي الذي تمر منه تجارة قريش . أما سرية عبد الله بن جحش ، فقد شذت عن هذه القاعدة ، فقد أمرت هذه السرية باستطلاع أخبار قريش من مكان قريب جداً من مكة - وادي نخلة بين مكة والطائف - وهو اتجاه جديد في سياسة الحصار ضد قريش ، فها هو الخطر أصبح قريبا منها ، وفي عقر دارها .

وقد أمَّر رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على اثنى عشر في رواية ابن سعد وعلى ثمانية في رواية ابن اسحاق ، وهي التي نثبتها هنا يقول ابن اسحاق (١) : « وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مَقْفَلَه من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً ... فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصَّد بها قريشاً وتعلَّم لنا من أخبارهم » فلما نظر عبد الله في الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه ، قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بِمَعْدَن فوق الفُرُع يقال له بَحْرَان ، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبه بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقيانه . فتخلفا في طلبه .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل ذبيبا وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي ... وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان ، مولي هشام بن المغيرة . فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن . وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمَّار لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فَرَمى واقدُ بن عبد الله التميمي عَمْرَو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله ، فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم اخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ... فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ٢ : ٢١٧ .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرَّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق - الخوف - قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ :

« لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان « فإنَّا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نَقتل صاحِبَيكُمْ » فقدم سعد وعتبة ، ففداهما رسول الله ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً »[1] .

هذا ملخص رواية ابن اسحاق عن سرية عبد الله بن جحش ﷺ ، التي كانت في نهاية رجب من السنة الثانية من الهجرة . وهذه السرية كانت على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لعلاقات المسلمين وقريش في هذه الفترة . وقد ترتب عليها نتائج كبيرة ، وكشفت للمسلمين عن أشياء ـ ربما كانت خافية عنهم ـ وعلى رأس ذلك موقف اليهود ، الذين كشفوا عن نواياهم الخبيثة في التحريض والتحريش على الحرب بين المسلمين وقريش ، فقد أخذوا يرددون « عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحربُ ، والحضرمي حَضَرَت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقَدَت الحرب » يعني أرادوا أن يشعلوها حرباً على المسلمين ، وسرية عبد الله بنَ جحش كانت حملة استطلاع ، وجمع معلومات ، ورَصْد أخبار عن قريش ، ولم تكن حملة قتال أو تصدي لعيرها ، إذ لا يعقل أن يرسلَ النبي ﷺ ثمانية من أصحابه ليقاتلوا قريشاً في عقر دارها ، ولو كان النبي ﷺ يريدهم أن يقاتلوا لكان حجم الحملة أكبر من هذا بكثير ، فالهدف إذا هو جمع المعلومات ، وعندئذ كلما كان العدد أقل كانت الفرصة أكبر في تحقيق الهدف .

والدليل على أنها ليست حملة قتال قول النبي ﷺ عند عودتهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، والقتال إذن جاء إجتهاداً من قائد الحملة ورفاقه .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

ولكن بعض المستشرقين مولعون بتشويه التاريخ الإسلامي ، وتلفيق الروايات وتفسيرها تفسيراً خاصاً ليصلوا إلى ما يريدون من معلومات ، ليرتبوا عليها النتائج التي تعجبهم وتتفق مع مخططاتهم العدائية للإسلام ، فها هو منتجومري وات ـ صاحب كتاب محمد في المدينة ـ يحاول أن يوحي لقارئه ـ وهو قارئ غربي أوربي معلوماته عن الإسلام وتاريخه ضئيلة ، إن لم تكن معدومة ـ ، ولذلك فإن هذا القارئ معذور إذا وقع فريسة للمعلومات الخاطئة التي يقدمها من يسمون أنفسهم مستشرقين عن الإسلام ـ ، يحاول منتجومري أن يوحي لقارئه الغربي بأن المسلمين كانوا قطاع طرق ، ويفسِّر بعض الكلمات تفسيرا غريباً ، وكأنه يعرف أسرار اللغة العربية وما تدل عليه مفرداتها أكثر من أهلها ، فيقول : « كان الشيء الأساسي في أوامر محمد المختومة إلى عبد الله ابن جحش ، أن يذهب إلى نخلة ، وينْصب كميناً لقافلة قرشية ، والشيء الثاني أن يرفع تقريراً لمحمد ، وهذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة ـ ترَصَّدُوا ـ بمعنى « راقبوا » بدلاً من أن « ينصب كميناً » وهكذا ترفع المسئولية عن محمد بسبب أي معركة دموية ، ومما لا شك فيه أن محمداً أمر بالقيام بهذه المهمة ، مع علمه بأنها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه » [1] هذا كلام منتجومري وات .

ونحن بادئ ذي بدء لا نعتبر التعرض لقوافل قريش التجارية من قبل المسلمين تهمة ندفعها ، بل إن هذا حقهم ، وهو العدل بعينه قصاصاً من قريش التي صادرت أموالهم وديارهم وحرياتهم ، وقد خرج النبي ﷺ بنفسه يعترض لعير قريش أكثر من مرة كما رأيت ، وكذلك أمر أصحابه بالتعرض لها ، فليس في ذلك عيب ، بل هو واجب عليهم ، فالمسلم مطالب برفع الظلم أينما كان وكيفما كان ، ومن باب أولى فعلى المسلم الحقِّ أن يحارب الظلم الواقع عليه هو نفسه .

---

(١) منتجومري وات ـ محمد في المدينة ص ١٢ .

ولكن الذي نلاحظه أن هذا المستشرق يحاول أن يفهم اللغة العربية بطريقة تغاير ما تدل عليه مفرداتها، وبغير الطريقة التي يفهمها بها أهلها. فكلمة - ترصَّدُوا - يفهمها بمعنى « ينصب كميناً - لا أدري كيف ؟ ويجد من نفسه الجرأة على القول أن هذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة ترصَّدوا - بمعنى - راقبوا - بدلاً من أن ينصب كمينا » وهكذا ترفع المسئولية عن محمد ... إلخ. ولم يقل لنا الأستاذ - وات - متى أضيفت هذه الإضافة ؟ وممَّن كان النبي ﷺ يخشى المساءلة ؟ أمِنَ المشركين ؟ أم من هذا المستشرق الذي جاء في آخر الزمان يفسر تاريخ الإسلام على هواه ؟ ويمضي هذا المستشرق في ترهاته فيقول : « ومما لا شك فيه أن محمداً أمر بالقيام بهذه المهمة، مع علمه بأنها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه » الرسول ﷺ وهو الصادق المعصوم - يقول لأصحابه : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » والأستاذ - وات - يحاول أن يوحي كما لو أن في الأمر خديعة أو تغرير بالمسلمين، وتهرب من جانب النبي - حاشا لله - من المسئولية. وهذا بهتان عظيم، وافتراء على الحقيقة، ولوي للنصوص وتحريف لمعناها. هذا هو فهم المستشرقين للتاريخ الإسلامي، وتدخلاتهم لتفسير النصوص وتقديمها لقارئهم الغربي مشوهة محرفة، وقد نجحوا في إقامة حائط كبير بين القارئ الغربي وبين حقيقة الإسلام، ولو كان لدى هؤلاء المؤرخين الأوربيين قدر من النزاهة وحرية التفكير - كما يزعمون ويدعون - لاختلف موقف القارئ العادي في أوربا من الإسلام اليوم، فليس سراً أن القارئ الأوربي الآن يميل إلى تصديق أية أخبار مشوهة عن الإسلام لأن المفكرين الغربيين - الذين أجرموا في حق الإسلام وفي حق القارئ الغربي نفسه - يقدمون له الإسلام كدين للخرافات والأساطير، طبعاً نحن نقول هذا الكلام لأنه ينطبق على الغالبية المطلقة من المستشرقين، الذين يعجزون عن فهم اللغة العربية التي يقرؤن بها تاريخ الإسلام، فيفسرون النصوص بالطريقة التي تعجبهم، وهذا لا يمنع أن هناك قلة من المستشرقين تحاول الإنصاف ولكل قاعدة شواذ.

لعلي أطلت الوقوف عند كلام منتجومري وات ، ولكن العذر أن الإنسان يشعر بالأسف الشديد عندما يقرأ لهؤلاء الناس ، وأقول إلى متى ندع - نحن المسلمين - أمر ديننا لهؤلاء يمرحون فيه ويصولون ويجولون ؟ ولماذا لا يتصدى علماء الإسلام للكتابة في تاريخ الإسلام بلغات أجنبية ليقدموا الإسلام للقارئ الأجنبي - كما هو لا كما يريده المستشرقون ، وإذا عجزنا عن هذا ، فهل نعجز عن تناول هذه المؤلفات - ومعظمها مترجم في لغتنا العربية - بالنقد والتفنيد وتبيان ما فيها من أباطيل ؟

حاولت قريش أن تستغل الحادثة في الإساءة إلى سمعة النبي ﷺ بين العرب - الذين يعظمون الأشهر الحرم - وأخذوا يذيعون في القبائل أن محمداً يأمر أصحابه بالقتل وأخذ الأموال في الأشهر الحرم . ولكن الله تعالى يرد عليهم بما معناه ؛ أن القتال في الشهر الحرام كبير [1] ، ولكن من الذي يتساءل عن الحرمات وعن الأشهر الحرم وعما يحل فيها ويحرم ؟ قريش التي انتهكت كل الحرمات ، وأخرجت المسلمين من الحرم وهم أهله ، وصدوهم عن المسجد الحرام ، وعن سبيل الله وكل ذلك أكبر عند الله ، من القتال في الشهر الحرام ، وكذلك فتنة المسلم عن دينه ، ومحاولة إعادته إلى الكفر أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿ والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ أي لن يكفوا عن محاولاتهم لفتنة المسلمين عن دينهم فهم كما يقول ابن إسحاق : « مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين » .

فلما حسم القرآن الكريم الموقف على هذا النحو ، ورفع الحرج عن المسلمين الذين قاموا بهذا العمل ، واعتبر عملهم أمراً مشروعاً لا جناح عليهم

---

(١) نزل بشأن هذه السرية الآية ٢١٧ من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ... ﴾ الآية .

فيه ، تصرف الرسول ﷺ في الغنائم فخمسها - خمس للرسول [1] - والأربعة أخماس لأصحاب السرية .

وخلاصة القول إن سرية عبد الله بن جحش كانت نهاية مرحلة ، بدأت بعد الهجرة ، وهي مرحلة الدراسة والاستعداد والتدريب على القتال ، وجمع المعلومات والأخبار عن قريش ، واستطلاع الطرق والمسالك التي تسلكها ، وإقامة محالفات وصداقات مع القبائل ذات الشأن في منطقة الساحل التي تطرقها قريش ، لإحكام حلقة الحصار عليها ، لإجبارها على الإذعان والتسليم .

فلما جاءت سرية عبد الله بن جحش آذنت بنهاية المرحلة السابقة وبداية مرحلة جديدة ، وهي مرحلة الحرب الصريحة المكشوفة مع قريش التي بدأت ببدر الكبرى ولم تنته إلا بعد أن أذعنت قريش ودخل رسول الله مكة ظافراً منتصراً في رمضان من العام الثامن للهجرة .

التكاليف الشرعية قبل بدر

رأينا في الصفحات السابقة الجهد الكبير الذي بذله النبي ﷺ في تنظيم الدولة ، وتقوية الروابط بين جماعة المسلمين منذ وصوله إلى المدينة وما قام به من عمل شاق في إنشاء الجيش الإسلامي ، وتدريبه على فنون القتال ، عبر السرايا والغزوات ، ، ولم يكن ذلك فقط هو عمله في الفترة ما بين الهجرة ومعركة بدر الكبرى ، وإنما مع ذلك بل فوق ذلك ، كان يتلقى التكليفات الشرعية ، من عبادات ومعاملات ويبلغها للمسلمين ، للعمل بها ، لتقوية أرواحهم ، ولتجعل منهم قوة متحدة في نظام اجتماعي قوي متماسك ، تربطه

---

(١) خمس للرسول بصفته يتصرف فيه في الأوجه التي بينها له الله تعالى في قوله : ﴿ واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... ﴾ الأنفال ، الآية ٤١ .

أشد عناصر الروابط الاجتماعية ، ففي هذه الفترة ، شرع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، وفيها فرض صوم رمضان المعظم ، وزكاة الفطر ؛ التي هي سنة نبوية ، والزكاة المفروضة ؛ التي هي ركن من أركان الإسلام .

تحويل القبلة

فرضت الصلاة كما هو معروف ليلة الإسراء [١] والمعراج في مكة قبل الهجرة ، وكان النبي والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس في الشام ، وكانوايجعلون الكعبة بينهم وبين الشام ، فكانوا يستقبلون الإثنين في وقت واحد ، وبعد الهجرة أصبح الجمع بين القبلتين غير ممكن ، فاستمروا يصلون إلى بيت المقدس والكعبة خلفهم ، وكان النبي ﷺ غير مستريح لهذا ويود أن تكون الكعبة قبلته ، لأن اليهود اعتبروا اتجاهه إلى بيت المقدس متابعة لهم ، وكان هذا وهم منهم ، بل هم حاولوا إقناعه بتركه المدينة والهجرة إلى بيت المقدس ، بحجة ان معظم الأنبياء أقاموا هناك ، وذلك ليخلو لهم الجو في المدينة ، ولم يغب مكرهم هذا على الرسول الذي كان دائم التطلع إلى السماء يطلب من الله أن يصرفه إلى الكعبة ، ولم يطل إنتظاره ، فقد جاء الإذن من السماء بالتوجه إلى الكعبة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... ﴾ [٢] ، « وذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ، وقد صلّى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلمة فأكمل صلاته إلى الكعبة ، فسميٍّ مسجد القبلتين » [٣] عند ذلك أرجف المرجفون من المشركين

---

(١) كان النبي يصلي صلاة مخصوصة منذ بدأ الوحي ينزل عليه ، والصلاة التي فرضت ليلة الإسراء هي الصلاة التي أصبحت ركنا من أركان الإسلام وواجبة على كل مسلم .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٤٤ .

(٣) أنظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥ .

واليهود والمنافقين ، وأخذوا يبثون الشائعات عن تخبط المسلمين ، وأنهم لم يستقروا على قبلة محددة ، فتارة يستقبلون بيت المقدس وتارة يستقبلون الكعبة ، دلالة على الحيرة ، من أجل هذا نزل القرآن يرد على هؤلاء السفهاء ، ويبرهن على أن محمدا لا يفعل شيئا من عند نفسه ، وإنما هو يذعن لأمر ربه ، ولو كان يفعل ما يريد لكان اتجه إلى الكعبة من بداية الهجرة ، ولكن رغم رغبته الشديدة في ذلك فقد انتظر ولم يفعل إلا بعد أن جاءه الإذن من السماء .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) فكان هذا هو الرد الحاسم على السفهاء في أمر تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة الذي كان في شعبان من السنة الثانية ، على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة النبوية (٢) .

فرض صوم رمضان

في نفس الشهر الذي حولت فيه القبلة ؛ فرض صوم شهر رمضان .

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) خاتم النبيين ، مرجع سابق جـ ٢ ص ٥٤٠ .

ويطلق الصيام في اللغة على الأمساك عامة ، قال تعالى على لسان مريم : ﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أُكلِّمَ اليوم إنسيا ﴾ [١] وفي المصطلح الفقهي هو الإمساك عن المفطرات - شهوتي البطن والفرج - من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيَّة [٢] .

وصوم رمضان ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وقد ثبت وجوبه بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [٤] .

وأما السنة ، فقول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ؛ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت » [٥] وأجمعت الأمة إجماعا مطلقا على وجوب صيام رمضان ، وأنه أحد أركان الإسلام ، التي علمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الإسلام [٦] .

---

(١) سورة مريم ، الآية ٢٦ .
(٢) فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٣ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .
(٥) فقه السنة جـ ١ ص ٣٦٥ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٦٦ .

وليس هنا مجال الحديث عن حكمة الصيام وأحكامه وفضائله ودوره في تربية النفس المسلمة وتزكيتها وفي تقوية الروابط الإجتماعية بين المسلمين فذلك مجاله كتب الفقه .

زكاة الفطر

كان المسلمون في مكة قبل الهجرة يتصدقون كل حسب طاقته ودون تحديد نصاب معين ، وبعد الهجرة كان أول ما فرض من الزكاة زكاة الفطر ، أوجبها رسول الله ﷺ ، وكان ذلك عقب فرض صوم رمضان ، وقد ثبتت شرعيتها - على أنها سنة عند جمهور الفقهاء - بالسنة . لحديث ابن عمر رضي الله عنهما فيما رواه البخاري ومسلم : قال : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان ، صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين » [١] وإذا كان الحديث نص على التمر والشعير ، إلا أن الفقهاء جوزوا إخراجها من غير هذين ، كالقمح والذبيب والذرة والأرز ، مما يعتبر قوتا كما جوز الأمام أبو حنيفة إخراج القيمة [٢] ، وحكمتها وأحكامها وأثرها في إدخال السرور على فقراء المسلمين في يوم عيد الفطر كل ذلك مبسوط في كتب الفقه .

الزكاة الواجبة

وهي أحد أركان الإسلام الخمسة .

والزكاة في اللغة هي النماء والطهر ، لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بها ﴾ [٣] ، وفي اصطلاح الفقهاء ؛ هي اسم لما

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٨ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٩ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

يخرجه المسلم من ماله إلى الفقراء ، حقا لله تعالى . وفريضة الزكاة أمر معلوم من الدين بالضرورة ، ومنكرها كافرمرتد عن الإسلام ، لأنها ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، وقد قرنت بالصلاة في القرآن الكريم ، في إثنتين وثمانين آية ، والأحاديث الواردة بشأنها أكثر من أن تحصر ، ومنها الحديث السابق ذكره ؛ بني الإسلام على خمس ... الخ .

والمشهور أنها فرضت في السنة الثانية بعد الهجرة ، بعد فرض الصيام [1] . وبيان حكمتها وأحكامها وأثرها في تنمية واصلاح المجتمع الإسلامي ، وسد ثغرات الفقر والعوز ، وبيان مقاديرها من كل نوع من أنواع المال ، كل ذلك مذكور ومبسوط في كتب الفقه ، وقد ذكرت ما ذكرته هنا عن تحويل القبلة وفريضة الصيام والزكاة لوضعها في سياقها التاريخي في مسيرة الدعوة الإسلامية ، ولنبين أنه في الوقت الذي كان الرسول ﷺ يعمل على تنظيم الدولة وبناء المجتمع الإسلامي ، وتهيئة المسلمين للدفاع عن عقيدتهم ضد قوى الشرك والبغي ، كان يتلقى من الله تعالى التكليفات الشرعية والإجتماعية ويبلغها إلى المسلمين ، الذين كانوا يتقبلونها بإيمان وحب وإذعان ، وينفذونها بدقة وانضباط ، وكل ذلك جعل منهم قوة هائلة نجحت في التغلب على كل قوة وقفت في طريق دعوتهم ، سواء في داخل الجزيرة العربية أو خارجها .

ولنواصل الحديث الآن عن علاقات المسلمين بقريش وغيرها في حالتي الحرب والسلام .

---

(١) فقه السنة ، مرجع سابق جـ ١ ص ٢٧٧ .

الحرب المشروعة في الإسلام

قبل الحديث عن غزوات الرسول ﷺ ، يجب أن نعرف ما هي الحرب المشروعة في الإسلام .

لقد ذكرنا فيما سبق أن السلام هو الأصل والقاعدة في علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم ، وأن الحرب هي الإستثناء ، أو هي الضرورة التي لا يلجأ إليها إلا عند مقتضياتها المشروعة ، كما يجب حصرها في نطاق هذه المقتضيات دون التوسع فيها ، فالحرب في حد ذاتها ليست غاية ، وإنما هي وسيلة لتحقيق أسمى الغايات وهو السلام ، ونريد الآن أن نبين مقتضيات الحرب المشروعة في الإسلام . فالإسلام بما أنه عقيدة عالميَة ، ورسالة إلهية تحمل الخير والسعادة لكل البشر على وجه الأرض ، فقد كان من المتوقع أن يقاومه ويصد الناس عنه أشرار الأرض وطغاتها ، فالتاريخ علمنا أنه لم تسلم دعوة دينية من مقاومة الأشرار والطغاة لها ، ووقوفهم بكل قوة في طريقها . وقد واجه الإسلام هذا الموقف ، فقد وقفت قريش بكل جبروتها وطغيانها موقف العداء السافر للإسلام ، وظل الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يحاول جهده وبكل وسيلة أن يثني قريشا عن طريق الإسلام فلم تستجب ، وأخيراً تآمرت على حياته وأجبرته وأصحابه على أن يهاجروا من مكة إلى يثرب ـ المدينة المنورة ـ وكان هذا غاية الظلم والإضطهاد ، ولم تكتف بهذا بل إستمرت في أساليبها الاستفزازية للمسلمين في مهاجرهم الجديد ، لذلك لم يكن أمام المسلمين إلا أن يواجهوا القوة بالقوة ، لأن الدعوة بالحسنى هنا لا تجدي وليس هذا مكانها ، فما دام الطغاة قد صموا آذانهم عن سماع صوت الحق ، فلا بد من معاملتهم بأسلوب آخر يضع حداً لغطرستهم وجبروتهم ، والواقع أن الرسول كان يتوقع هذا الموقف من قريش وغيرها وأنه قد يضطر لاستخدام القوة لإزالة العقبات من طريقه ، إلا أنه مع كل هذا ظل دائماً ينظر إلى الحرب على أنها ضرورة ، ولم يبحها إلا عند مقتضياتها المشروعة .

ومقتضيات الحرب أو مسوغاتها المشروعة في نظر الإسلام لا تخرج عن واحدة من ثلاث حالات [١] :

الحالة الأولى : الدفاع عن النفس ، كما تصورها الآية الكريمة : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [٢] . والدفاع عن النفس عمل مشروع ، أقرته كافة الشرائع السماوية ، كما كفلته القوانين الوضعية .

الحالة الثانية : الدفاع عن المظلومين ، وهذا واجب على المسلمين ، كما يفهم من هذه الآية الكريمة : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ [٣] وهذا عمل إنساني في الدرجة الأولى . فنصرة المظلومين هدف أساسي من أهداف الإسلام .

الحالة الثالثة : الدفاع عن حرية نشر العقيدة ، وهذا هو واجب أصحاب العقيدة ، كما تحثهم عليه الآية الكريمة : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ... ﴾ [٤] ونقول الدفاع عن حرية نشر العقيدة ، لا لنشر العقيدة ، لأن العقيدة في حد ذاتها لا تحتاج إلى القوة لنشرها إذا خلت الطريق أمامها من العوائق ، وإذا ابتعد الطغاة عنها وتركوها تشق طريقها إلى قلوب خلق الله في حرية وأمان .

---

(١) انظر : عناصر القوة في الإسلام ص ٢١٠ - ٢١١ ، ود. دراز .. دراسات إسلامية ص ١٤٢ ، ود. محمد البهي .. الدين والدولة ص ٤٧٨ ، ود. وهبه الزحيلي .. آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٧٥ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٣٩ .

هذه هي الحالات التي يسوغ فيها الإسلام الحرب ، ويعتبرها عملا مشروعاً . والله سبحانه وتعالى لم يأذن للمسلمين بالقتال إلا بعد أن تعرضوا للظلم ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ... ﴾ (١) . والتعبير في الآية الكريمة بالفعل المضارع - يقاتلون - مبنياً للمجهول ، ذو دلالة كبيرة مقصودة ، فهويدل على أن المسلمين تعرضوا فعلاً للظلم ، وعندئذ كان لا بد من رفع الظلم عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك أمام طغيان أعدائهم إلا حمل السلاح لرد العدوان . وحتى وهم في حالة الدفاع عن النفس فإن القرآن الكريم يذكرهم بألا ينسوا أن القاعدة الأساسية في علاقاتهم بالآخرين هي السلام ، وإذا إضطروا للحرب فيجب حصرها في نطاق دواعيها فقط ، أي لرد العدوان دون زيادة من جانبهم ، أو محاولة لتوسيع نطاقها . وفي كل الحالات يجب عليهم مراعاة تقوى الله سبحانه وتعالى : ﴿ فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٢) .

وفوق هذا فإن الله سبحانه وتعالى ، الذي يعلم دخائل النفوس البشرية ، ينبه المسلمين إلى ناحية هامة ، وهي ناحية شعورية نفسية ، فقد يضايقهم تصرف شاذ وظالم من أعدائهم ، وقد يحملهم هذا الشعور على التفكير في العدوان على هؤلاء الأعداء ، وعندئذ يطالبهم الله تعالى بضبط النفس وكفها عن العدوان : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله... ﴾ (٣) هل هناك ما هو أروع من هذا السلوك في تنفير المسلمين من الحرب ، ودعوتهم إلى كظم غيظهم وحصر الحرب في أضيق نطاق .

---

(١) سورة الحج ، الآيتان ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٢ .

وحتى في حالة الحرب فإن القائد المسلم مدعو من الله سبحانه وتعالى إلى تفاديها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإذا لاحت أمامه فرصة ولو ضئيلة لتحاشي الحرب ، وتحقيق السلام - ولو بشيئ من التضحية - فيجب عليه ألا يدع هذه الفرصة تفلت من يده . وهذا هو موقف الرسول ﷺ عام الحديبية - كما سنبين فيما بعد - يعتبر أوضح برهان على نظرة الإسلام إلى الحرب . فإذا أبدا العدو أي ميل إلى السلام ، فعلى القائد المسلم أن يستجيب : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ... ﴾ (١) . ومجيء هذه الآية الكريمة مباشرة بعد الآية التي تدعو المسلمين إلى الاستعداد العسكري القوي المؤثر الذي يرهب الأعداء ، وهي قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ... ﴾ (٢) . يدل على أن الاستعداد العسكري لا يعني بالضرورة الحرب ، بل قد تؤتي القوة ثمرتها دون أن تستخدم ، أو قد يرهبها العدو ويلقي سلاحه ويجنح إلى السلام ، ويكفي الله المؤمنين شر القتال . هذا هو موقف الإسلام من الحرب ، فهي ضرورة ويجب أن تقف عند مقتضياتها المشروعة ، ويجب أن تبتعد عن أساليب التدمير ، وهذا يدعونا إلى معرفة آداب الحرب في الإسلام .

آداب الحرب في الإسلام :

ما نقصده بآداب الحرب في الإسلام ؛ هو مجموعة القواعد والمبادىء والتقاليد العسكرية التي أرساها الإسلام ، وطبقها النبي ﷺ ، وكانت نصائحه ووصاياه دائماً لقواد حملاته الحربية تدور في نطاقها ، وهي تقاليد ومبادىء إنسانية في أهدافها ، الغرض منها تخفيف ويلات الحرب على المقاتلين أنفسهم ، فيحتم الإسلام على المسلمين الإعتناء بجرحى أعدائهم ومداواتهم

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦١ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

وإطعامهم ، ويحرم - بطبيعة الحال - الإجهاز عليهم ، أو إيذائهم بأي شكل من الأشكال . كما يطلب الإسلام من المسلمين تجنيب المدنيين شرور الحرب وأخطارها . فالإسلام مع اعترافه بالحرب الدفاعية ، وإعتبارها حرباً مشروعة . إلا أنه ميز تمييزاً واضحاً بين المقاتلين وغير المقاتلين . فواجب الجيش المسلم الاتجاه بقوته لتحطيم مقاومة المقاتلين فعلاً في ميدان القتال . أما من لم يباشر القتال بنفسه من الأعداء فليس لنا أن نقتله أو نتعرض له . وتعاليم النبي ﷺ واضحة في هذا الشأن . « فالأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمعتوهون ، بل حتى الفلاحون في حرثهم ، والرهبان في معابدهم ، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحرب » (١) . وبلغ السمو الإسلامي إلى درجة أن الإسلام لا يحرص على تجنيب المدنيين من الأعداء ويلات الحرب فحسب ، بل حرص على تجنيبهم مجرد الألم النفسي . فلقد مر بلال مؤذن الرسول ﷺ بامرأتين من نساء اليهود يوم خيبر على عدد من قتلى قومهما ، فتألمتا لذلك ، فلما علم النبي ﷺ بما صنع بلال وبّخه على ذلك وقال له : « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بإمرأتين على قتلى رجالهما » .

والإسلام لا يحرص على سلامة أرواح غير المقاتلين من الأعداء فحسب ، بل يوصي المقاتلين المسلمين بعدم التعرض للأهداف المدنية ، وينهاهم عن التدمير والهدم والتحريق . لأن الإسلام جاء ليبني الحياة ويعمرها ، ولم يجيء ليهدم ويدمر . وحتى وهو في ميدان القتال لا ينسى أبداً تلك الأهداف النبيلة ، وها هي ذي وصية أبي بكر الصديق ﷺ ، ليزيد بن أبي سفيان ، وهو متوجه إلى ميدان القتال . « ... إنك ستلقي أقواماً زعموا أنهم قد فرغوا أنفسهم لله في الصوامع فذرهم وما فرغوا أنفسهم له ... ولا تقتلن مولوداً ولا إمرأة ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقرن شجراً بدا ثمره ولا تحرقن

---

(١) انظر : د. دراز .. دراسات إسلامية ص ١٤٣ ، وانظر : صحيح الإمام مسلم جـ ١٢ ص ٤٨ - ٤٩ فهناك تجد عدة أحاديث نبوية تنهي عن قتل النساء والأطفال والشيوخ إلخ .

نخلاً ، ولا تقطعن كرماً ، ولا تذبحن بقرة ولا ما سوى ذلك من المواشي إلا لأكل » (١) .

ومن تعليمات النبي ﷺ المتكررة ، والتي أخذت صفة التواتر لقواده العسكريين ، الإلتزام بالنظام وحسن السلوك ، وعدم اللجوء إلى أساليب السلب والنهب ـ التي كانت عادة الجيوش الغازية في تلك الأزمان ـ وعدم التمثيل بجثث القتلى ، ولقد كان النبي نفسه عليه الصلاة والسلام مضرب المثل في الإلتزام بهذه المباديء والآداب العسكرية ، وفي المسلك الإنساني في ميادين القتال . روي أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : « إن ناساً من اليهود يوم خيبر جاءوا إلى رسول الله ﷺ بعد تمام العهود . فقالوا : إن حظائر لنا وقع فيها أصحابك فأخذوا منها بقلاً وثوماً ، فأمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فنادى في الناس : إن رسول الله يقول : « لا أحل لكم شيئاً من أموال المعاهدين إلا بحق » (٢) .

ولم تقف مثالية الإسلام ورسول الإسلام عند هـذا الحـد في آداب الحرب ، بل وصلت إلى أن المسلمين كانوا إذا غنموا غنائم من الأعداء وكان فيها شيء له أهمية خاصة لهم ، وطلبوا رده إليهم ، رده المسلمون عليهم . وقد صنع ذلك رسول الله ﷺ مع يهود خيبر ، فقد كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوا خيبر عدة صحائف من التوراة ، وقد طلب اليهود من النبي أن يسلمهم إياها . فأمر بتسليمها لهم . « ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة » (٣) .

---

(١) محمد بن الحسن الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير جـ ١ ص ٤١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٣ .
(٣) د. هيكل ، حياة محمد ص ٣٥٠ .

معاملة الأسرى :

ليس هذا فحسب ، بل إن الإسلام حرص على حماية أرواح الأسرى من الأعداء ولم يبح إيذاءهم ، ولم يبح حتى استرقاقهم ـ خلافاً لما يظن بعض الناس ـ [١] وإنما أباح التشريع الإسلامي للقائد المسلم أن يتصرف في أسرى الأعداء بأحد طريقين ، أما أن يمن عليهم بالحرية دون مقابل ، وأما أن يقبل منهم الفدية ممثلة في مال يدفعونه أو عمل يؤدونه للمسلمين ـ وذلك كما صنع الرسول ﷺ مع أسرى المشركين في بدر ـ وذلك يفهم من آية سورة محمد وهي قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [٢] فبينت أن الإمام مخير في الأسرى بين المن عليهم بالحرية دون مقابل وبين الفداء بعمل أو مال ، أو مبادلة أسير مسلم بأسير من الأعداء ، ولم تشر الآية إلى إباحة قتل الأسرى أو استرقاقهم . وبلغت رحمة المسلمين بأسرى الأعداء أنهم كانوا إذا وقعت في أيديهم أسرة بكاملها لا يفرقون بين أفرادها . بل يجمعونهم ليعيشوا معاً . أين هذا السلوك الإنساني في معاملة أسرى الحرب ، من المصير المؤلم الذي يلاقيه أسرى الحروب في هذا العصر الحديث الذي يدعي أهله أنهم متحضرون ، وأين آداب الحرب في الإسلام من هذه الأعمال الهمجية التي صاحبت الحروب الاستعمارية الأوربية ، تلك الأعمال التي كانت تأتي على الأخضر واليابس ، ولا تفرق بين هدف عسكري وآخر مدني ، ولم ينج من ويلاتها شيخ كبير ولا طفل صغير ، ولا إمرأة ولا زالت بشائع الحرب العالمية الثانية ماثلة أمام أعيننا بآثارها التدميرية ، خصوصاً في

---

(١) لا ننكر أن المسلمين كانوا يسترقون بعض الأسرى في بعض الأحيان ، من قبيل معاملة الأعداء بالمثل ، لأنهم كانوا يسترقون أسرى المسلمين . ولا ننكر أنهم كانوا في بعض الأحيان يقتلون بعض الأسرى ، ولكن ليس لأنهم أسرى ، وإنما من أجل جرائم خاصة خطيرة ارتكبوها في حق المسلمين ، وذلك كأمر الرسول بقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث من أسرى بدر . وتاريخهما في إيذاء الرسول والمسلمين معروف .

(٢) سورة محمد ، الآية ٤ .

هيروشيما ونجازاكي . ولكن تلك حروب استعمارية دفع إليها الحقد والتنافس والصراع بين الدول الأوروبية على تقسيم المستعمرات ومناطق النفوذ ، والإستيلاء على المواد الخام والأسواق ، وامتصاص دماء الشعوب . أما الحرب المشروعة من وجهة نظر الإسلام فهي بريئة من كل تلك الشرور ، لأنها حرب لها هدف إنساني ، فلا يمكن أن تعمل على إبادة الإنسانية . لأن الإسلام ضد الحرب التي تشن بهدف التوسع والاستغلال والحصول على مناطق النفوذ الخ .

غزوة بدر الكبرى

أسبابها :

تحدثنا فيما سبق عن العلاقات بين المسلمين وقريش ، وعن عدائها الشديد للدعوة الاسلامية ، ذلك العداء الذي وصل إلى حد عزمها على قتل النبي ﷺ ، الأمر الذي اضطره للهجرة من مكة إلى المدينة ، هو وأصحابه ، فصادرت أموالهم وديارهم ، بل ظلت تطاردهم في دار هجرتهم ، ومن استطاعت رده منهم إلى مكة ردته ، وعذبته ووضعته في السجن ، فالحالة إذن بينها وبين المسلمين حالة حرب معلنة من جانبها ، ولم يكن في وسع المسلمين السكوت إلى ما لا نهاية عن غطرسة قريش وتجبرها ، بل كان لابد من إيقافها عند حدها ، وتعليمها درسا قاسيا في إحترام المسلمين ، فكانت وقعة بدر الكبرى .

وسببها المباشر اعتراض المسلمين لقافلة تجارية لقريش قادمة من الشام ، يقودها أبو سفيان بن حرب ، بقصد الاستيلاء عليها عوضا عن أموالهم التي إستولى عليها القرشيون في مكة .

يقول ابن اسحاق « لما سمع النبي ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ، ندب المسلمين إليهم ، وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها

لعل الله ينفّلكموها » فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً » (١) .

وبينما رسول الله يستعد للخروج ، كان أبو سفيان قد علم بذلك ، عن طريق أعوانه الذين كان يستعين بهم لمعرفة أخبار النبي، فاتخذ اجراءين خطيرين على الفور ، الأول : استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة على وجه السرعة ، ليخبر قريشا أن محمدا وأصحابه قد عرضوا لتجارتهم ، وعليهم أن يخفوا لاستنقاذ أموالهم . وقد وصل ضمضم إلى مكة في هيئة مفزعة تثير الذعر ، فدخلها واقفاً على بعيره ، وقد قطع أنفه وحوّل رحله وشق قميصه ، وأخذ يصرخ : « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة - الإبل التي تحمل الطيب - أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث » (٢) ولنا أن نتصور ما أحدثه هذا الخبر في مكة من فزع على أموالهم .

فلنترك قريشاً تدبر أمرها لمواجهة الموقف ، ولنعد إلى أبي سفيان الذي كان اجراؤه الثاني الذي اتخذه لينجو بقافلته ، أن سلك بها طريق الساحل ، بقرب البحر الأحمر ، بعيداً عن طريق القوافل المألوف ، وقد برهن على ذكاء وفطنة حيث استطاع النجاة بالقافلة بهذا الإجراء الثاني ، وأخذ طريقه إلى مكة ، ولما اطمأن إلى أنه قد أصبح آمنا وبعيداً عن الخطر ، بعث إلى قريش يطمئنهم على أموالهم ، ويطلب منهم عدم الخروج (٣) ، فما دامت القافلة قد نجت فلم يعد هناك مبررللخروج من وجهة نظره ،والحقيقة أن ذلك كان رأي الكثيرين من زعماء قريش ، مثل عتبة بن ربيعة ، لأنهم كانوا يعلمون عواقب حرب تنشب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٨ .

بينهم وبين إخوتهم وأبناء عمومتهم ، وما تخلفه من خسائر في الأرواح ومن أحزان وثارات . لكن أبا جهل قبَّح الله وجهه ولعنه ، شذ عن هذا وأخذ يدق طبول الحرب ، وظنها نزهة يعود منها منتصرا ، بل أرادها مظاهرة عسكرية ، يرهب بها المسلمين ، ويهابه بها بقية العرب ولذلك قال : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً [١] ، فنقيم فيها ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا فامضوا » [٢] .

نترك أبا جهل يدق طبول الحرب ، ليلقي مصيره المحتوم ، ونعود إلى المسلمين لنرى ماذا هم صانعون ، وقد أفلتت منهم القافلة .

الموقف في معسكر الإسلام :

علم رسول الله ﷺ أن القافلة قد نجت ، ولم يعد ممكنا اللحاق بها ، وفي الوقت نفسه علم بخروج قريش من مكة ، تحت تأثير أبي جهل وإصراره على الذهاب إلى بدر ، وهنا أصبح المسلمون في موقف حرج وخطر ، ويحتاج إلى تصرف حكيم ، لأن بعض المسلمين كان من رأيهم أنه ما دامت القافلة قد أفلتت منهم وهي سبب خروجهم ، فليرجعوا إلى المدينة ، خصوصا وأنهم لم يخرجوا للقتال ، أما الرسول ، القائد ﷺ فقد كان يرى غير ذلك ، فالرجوع قد يكون أمرا مقبولا لو أن قريشا لم تخرج من مكة ، أما وقد خرجت فإن رجوع المسلمين قد تفسره على أنه عجز وجبن عن المواجهة ، وهذا يقلل من هيبتهم ، ويتحقق لأبي جهل ما كان يتمناه ، لذلك أصر الرسول ﷺ على مواصلة السير إلى بدر ، وأخذ يفكر كيف يواجه هذا الموقف العصيب ، فما معه من قوات أقل بكثير من جيش قريش عددا وعدة ، وكثير من أصحابه لم

---

(١) كان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٣ .

يكونوا مهيئين للقتال ، بمعنى أن فكرة القتال لم تكن واردة من الأصل عندهم ساعة خروجهم من المدينة ، كما أن الأنصار كانت التزاماتهم التي حددتها معاهدة بيعة العقبة الثانية ؛ هي الدفاع عن النبي ضد أي هجوم يقع عليه في المدينة ، وليسوا ملزمين بغير ذلك [١] ، صحيح الرسول يعلم أنهم لن يعصوا له أمرا ، ولكن لا بد أن يعرف موقفهم بجلاء قبل الإقدام على أي تصرف ، وهذه هي القيادة الحكيمة . لذلك أخذ يستشير أصحابه ، فتكلم أبو بكر فأحسن الكلام ، وتكلم عمر بن الخطاب وأحسن الكلام ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : « يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن نقول لك : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » فقال له رسول الله ﷺ خيرا ، ودعا له به [٢] غير أن رسول الله لم يكتف بما سمع من المهاجرين ، وأخذ يردد« أشيروا علي أيها الناس ، أشيروا عليّ أيها الناس » [٣] ففطن الأنصار إلى أن رسول الله يريد أن يعرف رأيهم هم بالتحديد ، فقام سعد بن معاذ ، وقال : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله » ، قال : « أجل » قال : « فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أنا ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صُدُق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » [٤] .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٤ .

سُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » [1] صدقت يا رسول الله .

لقد أطلنا في الإقتباس من كلام الرسول ﷺ وكلام الصحب الكرام ، لأهمية هذا الكلام من وجوه كثيرة ، وفي ذلك الوقت بالذات ، عشية أول صدام مسلح بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وعلى نتيجة هذا الصدام سيتقرر مصير الإسلام ، بل مصير العالم بدون أدنى مبالغة ، فلا شك أن انتصار المسلمين في بدر كان يوم الفرقان ، بين عهدين في تاريخ البشرية ، عهد قبله ، سادته الوثنيات والجاهليات والظلم والإستبداد ، وفساد كل شيء في حياة الناس ، من الدين إلى السياسة ونظم الحكم .. الخ وعهد بعده ، أشرق فيه نور الله على العالمين ، وانتشر الإسلام على أوسع رقعة من العالم المعمور وقتذاك ، وعم العدل والخير والأمن والسلام والحرية والمساواة ، من أسلم ومن لم يسلم على تلك الرقعة التي ساد فيها الإسلام ولم يكن ذلك ممكنا بدون انتصار المسلمين في بدر ، لذلك حرصت القيادة الحكيمة على إستشارة الرجال وإشراكهم في المسئولية ، وهذا درس عظيم يجب أن يتعلمه المسلمون من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وكان الرجال عند حسن ظن النبي بهم ، فلم يترددوا لحظة واحدة ، وردوا عليه بما تقدم ذكره ، وأثلجوا صدره ، لأنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكما اختار الله محمدا ﷺ لرسالة الإسلام الخاتمة لرسالات السماء ، فقد اختارله الرجال الذين تحملوا معه أعباء الرسالة في حياته ، وأمانة الحفاظ عليها ونشرها بعد وفاته ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٤ .

المعركة

اطمأن النبي ﷺ إلى صدق ايمان أصحابه ، ومتانة موقفهم وبدأ يعد للمعركة ، وكان مهتما بمعرفة عدد الجيش الذي خرج من مكة ، ومن فيه من الفرسان ، لذلك أخذ يبث سرايا الاستطلاع لجمع الأخبار ، فأرسل علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، يلتمسون له أخبار القوم ، فعثروا على غلامين من خدم قريش فأتوا بهما إلى النبي فأخذ يسألهم عن قريش ، فأجاباه بأنهم وراء الكثيب بالعدوة القصوى ، فسألهما عن عدد الجيش فقالا إنهما لا يعرفان العدد بالدقة ، فسألهما كم ينحرون في اليوم والليلة ؟ - لإطعام الجيش - فأجابا يوما تسعا ويوما عشرا - من الإبل - فاستنبط أن عدد الجيش ما بين تسعمائة إلى ألف ، وكانوا كذلك ، حوالي تسعمائة وخمسين رجلا ، وعرف النبي من الغلامين أن معظم أشراف قريش خرجوا ، طائعين أو مكرهين ، فعدد جيش المشركين كان ثلاثة أضعاف جيش المسلمين ؛ الذين كان عددهم يزيد قليلا على ثلثمائة رجل ، ولكن هذا الفرق الهائل في العدد لم يوهن من عزيمة النبي ﷺ ، بل شرع على الفور في الإعداد للمعركة التي أصبحت حتمية ، ونزل بالمسلمين عند ماء بدر ، وكان الحباب بن المنذر خبيرا بالمكان ، ورأى أن الموقع الذي نزل به النبي غير صالح للقتال ، فقال : « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل . أمنزل أنزلكه الله ؟ ، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ » فقال رسول الله : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » ، فقال : « يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل ، ثم نغوِّر ما وراءه من القلب [1] ، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » هنا تتجلى عظمة القيادة ؛ فما أن سمع النبي كلام الحباب حتى فطن أنه الصواب وعلى الفور أمر بتنفيذ ما أشار به ، ليعلم اصحابه والمسلمين من بعدهم إلى يوم القيامة ، أنه في

---

(١) القلب جمع قليب وهو البئر ، وتغويرها كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها .

شؤون الحياة ـ التي لم ينزل بشأنها وحي من السماء ـ هو بشر مثلهم ، وأن الرأي شورى ، وأنه لا يقطع أمرا دونهم ، وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم ، وفي هذا ما فيه من تربية الرجال وغرس الثقة في نفوسهم وتعويدهم على إبداء آرائهم في المواقف الصعبة ، لأنهم هم الذين على عواتقهم ستنتصر الدعوة وتقوى الدولة .

بناء عريش القيادة للنبي :

ما أن أتموا انتقالهم إلى المكان الجديد المناسب للمعركة الذي أشار به الحباب ، وبنوا الحوض لتخزين حاجتهم من الماء ، حتى قال سعد بن معاذ : « يا رسول الله نبني لك عريشا تكون فيه ، وتعد عندك ركائبك ، ثم نلقي عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقي حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك »[1] .

سُرَّ النبي بما قال سعد سروراً عظيماً ، والحق ان سماحته واستعداده لسماع كل الآراء والإقتراحات برحابة صدر ، هي التي شجعت الرجال على الادلاء بآرائهم ، والمشاركة في إدارة هذه المعركة الخطيرة ، بل الأخطر في تاريخ الإسلام .

قريش تستعد للقتال :

وبينما النبي وصحبه يعدون أنفسهم للقاء الحاسم ، كانت قريش على الجانب الآخر منهمكة في ترتيب جيشها ، وكما كان النبي مهتما بمعرفة عدد

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٠ .

جيشهم ، كانوا هم أيضا مهتمين بمعرفة عدد جيشه ، لذلك أرسلوا سراياهم الإستطلاعية للحصول على معلومات عن المسلمين وعددهم ، فجاءتهم الأخبار بأنهم ثلاثمائة ، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولعل هذه الأخبار صادفت هوى في نفوسهم ، فإستهانوا بالمسلمين لقلة عددهم ، وداخلهم الغرور ، ولكن مع ذلك كان من بينهم من خشي العاقبة ، وأدرك أن عدد المسلمين وإن كان قليلاً فلا ينبغي الإستهانة بهم ، بل قد تكون الخطورة في قلة العدد ، فلن يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله على الأقل من قريش ، فإذا قتل من قريش ثلثمائة رجل في معركة واحدة ، فهذه هي الطامة الكبرى ، ولا تبقى لمكة مكانة بعدها في بلاد العرب .

لذلك فزع عتبة بن ربيعة من مجرد تصور هذه النتيجة المرعبة ، ووقف في القوم خطيبا فقال : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فأرجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون »(١) .

هذه الصيحة العاقلة الحكيمة والدعوة إلى السلام ونبذ الحرب بين الأهل ، تحطمت على صخرة عناد أبي جهل ، الذي اتهم عتبة بالجبن . واندفع الناس إلى الحرب .

بدء القتال :

كانت الشرارة التي أشعلت المعركة أن الأسود بن عبد الأسد المخزومي قد اندفع من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين في تحد سافر ، يريد هدم

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٣ .

حوض الماء الذي بنوه ، لكن أسد الله ؛ حمزة بن عبد المطلب عاجله بضربة أطاحت بساقه ، فسقط على الأرض تشخب رجله دما ، فأتبعه حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض . أثار هذا المشهد الدامي عواطف الرجال إلى الحرب ، فخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وابنه الوليد بن عتبة ، ودعا إلى القتال ، ولعل مسارعة عتبة إلى القتال ليدرأ عن نفسه تهمة الجبن التي عيَّره بها أبو جهل ، فخرج إليهم ثلاثة رجال من الأنصار ، فلما عرفهم عتبة قال لهم ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد عدلنا من قومنا ، ونادى يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ، فقال النبي ﷺ : « قم يا حمزة بن عبد المطلب ، وقم يا علي بن أبي طالب ، وقم يا عبيدة بن الحارث» وهكذا أراد النبي أن يكون أقرب الناس إليه ، أول من يشارك في المعركة ، ولا يخفى مغزى هذا على بقية المسلمين ، أما حمزة فقد أجهز على شيبة بن ربيعة ، وأجهز علي على الوليد بن عتبة ، أما عبيدة فلم يستطع الإجهاز على عتبة فأعانه حمزة وعلي عليه ، وهكذا هلك الثلاثة الذين خرجوا من صفوف المشركين ، وحمل عبيدة جريحا ، واستشهد متأثرا بجراحه . وتزاحف الناس والتقى الجمعان ، واشتد وطيس المعركة ، وأخذ النبي يحرِّض المسلمين على القتال ، ثم عاد إلى عريشه ومعه أبو بكر واستقبل القبلة وإتجه إلى ربه مبتهلاً ينشده نصره الذي وعده ، حيث قال تعالى : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ أما وقد نجت القافلة فلم يبق إلا النصر في المعركة ، ومع إيمان الرسول بالله وثقته في نصره إلا أنه أخذ في الدعاء والإبتهال ، وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وما زال يهتف بالدعاء مستغرقا فيه حتى سقط رداؤه من على منكبيه ، فرده أبو بكر عليه ، وأخذ يهيب به ، قائلا : « يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك » ، لكنه ظل فيما هوفيه أشد مايكون توجها إلى الله تضرعا وخشية واستعانة على هـذا الموقف الصعب ، حتى خفق خفقة من نعاس ، رأى فيها نصر الله ، فانتبه بعدها مستبشرا ، ثم خرج إلى الناس

يحرضهم ، ورحى الحرب دائرة ويقول لهم : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » (١) فلما سمع المسلمون هذه الكلمات ينطق بها نبيهم ، وهو مستبشر ضاعفوا من عزمهم ، حتى أصبح الواحد منهم يعدل عشرة من أعدائهم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (٢) .

فنصرهم الله تعالى ، وأعزهم بعد ذلة ، أليس هو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ (٣) .

وهو القائل : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (٤) . لعل التنويه بل النص صراحة في القرآن على أن هذا النصر المؤزر كان من عند الله وحده ، وكأنه كان مكافأة منه سبحانه وتعالى لعباده المسلمين على صبرهم الطويل ، وتحملهم الأذى ، ومن ناحية أخرى لئلا يغتروا بنسبة النصر إلى أنفسهم ، ولذلك ذكرهم في آية أخرى في سورة الأنفال بهذه الحقيقة حتى لا تغيب عن عقولهم لحظة واحدة في مستقبل حياتهم ؛ وهي ان النصر من عند الله فقال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (٥) وليس معنى هذا هضم حقهم واستبسالهم في سبيل الله ، ولكن بدون عون الله لم يكن النصر ممكنا أبدا ، ولذلك أنزل ملائكته لشد

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٦٥ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٢٣ .

(٤) سورة الأنفال ، آية ٢٦ .

(٥) سورة الأنفال ، آية ١٧ .

أزرهم وتثبيت أقدامهم . حيث قال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ (١) وهذه الآية هي التي جعلت بعض المفسرين يرى أن الملائكة قاتلت بالفعل في يوم بدر ، يقول ابن كثير : « وقال الربيع بن يونس كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة بضرب فوق الأعناق وعلى البنان ، مثل سمة النار، قد أحرق به » (٢) .

وعلى كل حال سواء أقاتلت الملائكة قتالا حقيقيا ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، أم كان نزولهم لتثبيت قلوب المؤمنين وبث الطمأنينة في نفوسهم ، وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا . كما يذهب البعض الآخر ، فقد كان لهم دور كبير وخطير في أول لقاء عسكري كبير بين الفئتين ، الفئة التي تقاتل في سبيل الله ، والأخرى الكافرة . وكان النصر عظيما وذا أثر كبير في تاريخ الإسلام ، بل في تاريخ العالم .

استمرت المعركة سحابة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة ، ثم انجلت عن نصر ساحق لجند الله بقيادة رسول الله ﷺ ، هؤلاء الجند الذين أظهروا من صور البطولة وحسن البلاء ما جعلهم في المكان الأسمى من المسلمين ، حتى أصبح لقب البدري وساما على رؤوسهم لا يعلوه وسام ، وقال عنهم قائدهم ﷺ « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

أما المشركون فقد أزلهم الله وهزمهم هزيمة قاسية ، وتهاوت رؤوس منهم كانت قبل ساعات قليلة شامخة ، مغرورة وكان من أوائل من أذلهم الله أبو جهل نفسه ؛ الذي يعتبر مجرم هذه الحرب ومشعل فتيلها ، وتهاوت رؤوس

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ١٢ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٩١ .

سبعين من صناديد قريش ، ووقع مثلهم في أسر المسلمين ، أما بقية الجيش فقد كنستهم رياح الهزيمة إلى مكة مولين الادبار مجللين بالخزي والعار .

وهكذا انتهت معركة الفرقان ، التي نصر الله فيها الحق وأهله ، وأذل الباطل وأهله .

عوامل إنتصار المسلمين في بدر :

تحقق الإنتصار العظيم في بدر ، وغلبت الفئة القليلة المؤمنة ، الفئة الكثيرة الكافرة بإذن الله. ولكل نصر في أي معركة عوامل وأسباب يهيء الله تعالى المنتصرين للأخذ بها ، ويمكن تلخيص عوامل النصر في بدر كالآتي :

١ - قيادة حكيمة واعية : تعرف هدفها ، وكيف تقود جنودها لتحقيقه ، وقائد معركة بدر هو الرسول ﷺ ، وفيه تجمعت كل العناصر والمزايا للقيادة الناجحة ؛ صبر في الشدائد ، وشجاعة نادرة في المواقف الحرجة ، ومساواة لنفسه بأصحابه ، واستشارتهم في كل عمل حاسم ، والأخذ بمشورتهم . رأى الخطر محدقا بأصحابه قبل المعركة ، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عَددا وعُددا فقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله [١] ، وشجع أصحابه على الصبر في القتال .

وأما عن شجاعته فحسبنا شهادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث يقول : « إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو » [٢] .

---

(١) محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص ١٠٢ .
(٢) الرسول القائد ، مرجع سابق ص ١٠٣ .

وكان المثل الأعلى في تحقيق الأسوة ، فلم يميز نفسه بشيء على أصغر جندي من جنوده ، فلقلة ما معهم من رواحل ، كان الثلاثة والأربعة يعتقبون بعيرا واحدا ، فكان رسول الله وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرا واحدا [1] ، وقد أراد علي ومرثد أن يتركا البعير للرسول ويمشيان هما ، فرفض ، وقال لهما : « ما أنتما بأقوى على المشي مني ولا أحوج مني إلى الأجر » ، هذا السلوك المثالي جعل المسلمين يقاتلون خلف قيادته كرجل واحد ، وهذا عامل من أهم عوامل النصر في المعارك كلها .

٢ ــ **قوة الإيمان** : لا شك في أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على أعلى درجة من الإيمان بالله ورسوله ، وبعدالة قضيتهم التي كانوا يقاتلون من أجلها ، وأنهم على استعداد للتضحية في سبيلها بكل ما يملكون من نفس ومال ، وكان الواحد منهم على استعداد أن يقتل أباه أو أخاه أو ابنه إذا كان في صفوف المشركين ، وقد حدث ذلك كثيرا في معركة بدر ، وقد رأينا كيف أجاب المهاجرون والأنصار الرسول عندما أخذ يشاورهم قبل بدء المعركة ، وكيف كان حماسهم للقاء عدو الله وعدوهم ، والله لو خضت بنا البحر لخضناه معك .

٣ ــ **الروح المعنوية العالية** : لقد أثبتت كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ ، أن التسليح والتنظيم الجيدين ، والقوة العددية ــ مهما كثرت ــ غير كافية لتحقيق النصر ، ما لم يتحلَّ المقاتلون بالمعنويات العالية ، بالإضافة إلى كل ذلك [2] .

ولقد كان لتشجيع الرسول للصحابة وشد عزائمهم ، وتحريضهم على القتال ، ووعده لهم بالجنة أعظم الأثر في ارتفاع معنوياتهم ، واستهانتهم بالموت

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥١ .

(٢) الرسول القائد ، مرجع سابق ص ١٠٨ .

في سبيل الله وتحقيق النصر على عدو يفوقهم عددا وعدة ، ولم تكن معنويات الرجال الكبار هي العالية فحسب ، بل كان هذا أيضا شأن الأحداث الصغار ، الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالا من قبل ، وليس أدل على ذلك مما يرويه عبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فقد قال : « إني في الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرا من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ... وقال لي الآخر سرا من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه فشداً عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه ، وقد استشهد هذان البطلان الصغيران سنا ، الكبيران عملا وجهادا في بدر ، وهما عوف ومعوذ ابنا عفراء ، وعفراء أمهما ، اشتهرا بالنسبة إليها ، أما أبوهما ؛ فهو الحارث بن رفاعة من بني النجار .

وصور البطولة ـ التي هي من ثمرات الروح المعنوية العالية ـ في بدر أكثر من الحصر .

نتائج معركة بدر

النتائج المعنوية لهذه المعركة الخالدة لا حدود لها ، فقد ملأت قلوب المسلمين عزة وقوة وأكسبتهم هيبة كبيرة في قلوب أعدائهم ، بل في قلوب العرب جميعا ، فقد طارت أخبارها إلى كل مكان في شبه جزيرة العرب ، وفطن الناس إلى مغزى هذا الحدث الهائل ، وأن قوة جديدة ظهرت في بلاد العرب ، وفرضت نفسها ، وأن هذه المعركة ليست إلا البداية وسيكون لها ما بعدها ، وفطنوا كذلك إلى أن عهدا جديدا بدأ في بلادهم ، وسيكون كل شيء مختلفا عما كان قبله .

والحق أن كل هذا كان في محله ، فالنصر الذي حققه الله للمسلمين في بدر كان فرقانا بين عهدين ، فقد نقل المسلمين من الذلة إلى العزة ومن الضعف

إلى القوة ، كما أن عهدا بأكمله ، بكل وثنياته وجاهلياته قد دفن مع قتلى المشركين في قليب بدر . وبدأ للدنيا نظام جديد وتاريخ جديد .

أما نتائج المعركة المادية فقد أسفرت عن غنائم ضخمة غنمها المسلمون من معسكر المشركين .. كما أسفرت عن قتل سبعين وأسر سبعين آخرين منهم وقد أمر الرسول ﷺ بالقتلى فدفنوا ولم يتركهم للسباع والطيور تنهش أجسادهم رحمة بهم . أما الأسرى فقد أمر بهم فشد وثاقهم ، وساقهم معه أذلة ، ولكنه لم ينس أن يوصي أصحابه بحسن معاملتهم ، فقال لهم : « استوصوا بالأسارى خيرا »[١] وإمتثل الصحابة لأمر نبيهم وكانوا يفضلونهم على أنفسهم في الطعام ، حتى كأنهم كانوا في ضيافة وليسوا أسرى حرب .

وقد استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا ، دفنوا في ميدان المعركة[٢].

مصير الغنائم والأسرى :

جمع النبي ﷺ الغنائم والأسرى ، وقفل عائدا إلى المدينة تحفه أكاليل النصر ، ولم ينسى أن يرسل بشيراً إلى المدينة ليزف إلى أهلها بشائر النصر ، فأرسل عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية . وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

وقد أمر بقتل اثنين من الأسرى في الطريق وهما النضر بن الحرث ، وعقبة بن أبي معيط ، لا لأنهما أسيران ، ولكنه اعتبرهما مجرمي حرب ، لكثر جرائمهما وإيذائهما للرسول وأصحابه ، وأول شيء اختلف بشأنه المسلمون الغنائم[٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ص ١١٧ .

(٣) حيث قال الذين جمعوها هي لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو هي لنا ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله هي لنا ، فأنزل الله سورة الأنفال من أجل ذلك .

فنزلت سورة الأنفال تعلمهم الدرس الأول والأكبر بشأن هذا الأمر ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ وقد سئل عبادة بن الصامت ﵁ عن سورة الأنفال ، فقال : « فينا أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه بين المسلمين »[1] .

الإختلاف حول مصير الأسرى :

وكما اختلفوا حول الغنائم ، فقد اختلفوا حول التصرف بشأن الأسرى ، ولا بأس بهذا الاختلاف ، فهذه أمور كلها جديدة عليهم ، وما دام لم ينزل بشأنها وحي من الله تعالى فاجتهادهم فيها وارد ، خاصة وأن الرسول نفسه هو الذي طلب منهم المشورة وابداء الرأي بشأن الأسرى ، فذهب بعضهم ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب إلى قتلهم . وقال للرسول : « يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك ، وأخرجوك ، اضرب أعناقهم ، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطيء الله بهم الإسلام ، ويذل بهم أهل الشرك » سمع النبي مقالة عمر ولم يعلق عليها باديء الأمر ، ثم سمع وجهة النظر الأخرى ، والتي كان يمثلها أبو بكر الصديق ﵁ الذي قال للرسول : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! قومك ، فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان ، وأبعدهم منك قريب ، فامتن عليهم منَّ الله عليك ، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين ، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم » وسمع النبي مقالة أبي بكر ولم يعلق أيضا ، ولكنه قام ودخل خيمته ومكث فيها بعض الوقت ـ لعله كان يفكر كيف يتصرف في الأسرى ـ ثم خرج فوجد الناس ولا حديث لهم إلا عن الأسرى ومصيرهم ، بعضهم يقف في صف أبي بكر وبعضهم في صف عمر ، ولا يدرون برأي من سيأخذ ، فلما خرج عليهم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٦ .

تشوفوا متلهفين ماذا يقول ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليلِّين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدِّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام ، قال : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ﴾ (١) وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢) وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام ، قال : ﴿ ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٣) .

وهناك رأي كان أشد قسوة من رأي عمر بن الخطاب ، وهو رأي عبد الله ابن رواحة ، فقد كان من رأيه أن يحرقهم الرسول بالنار ، ولذلك قال له : « إن مثلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (٤) .

وقبل هذه الآراء جميعا كان هناك رأي سعد بن أبي وقاص ـ الذي كان يحمي عريش رسول الله ﷺ ـ فقد أشار بقتلهم في ميدان المعركة ، أي أنه كان ضد فكرة الأسر من أساسها .

وفي النهاية حسم الرسول ﷺ الموقف ، وأخذ برأي أبي بكر ﵁ لأن فيه رفق بالأسرى ـ وهم من الأهل والأقارب ، وفيه نفع لجماعة المسلمين .

وبعد أن تمت عملية الفداء نزل القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر من كان يريد قتل الأسرى من الصحابة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٦ .
(٢) سورة المائدة ، آية ١١٨ .
(٣) سورة يونس ، آية ٨٨ .
(٤) سورة نوح ، آية ٢٦ .

عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [١] .

معنى هذه الآيات أن قبول الفداء من الأسرى كان خطأ ، فلماذا ترك الله سبحانه وتعالى نبيه ومصطفاه وصحابته يخطئون ، ولم يبين له الصواب قبل أن يتم الفداء ؟ الجواب عن ذلك كما يرى الشيخ محمد أبو زهرة : أن ذلك كان لتعليم الأمة « أن النبي ﷺ الذي يوحى إليه ، والذي علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه ، إذا ترك يتصرف بإجتهاده فقد يخطيء ، ولا ينزه عن الخطأ أحد ولو كان نبيا ، إلا أن يعلمه الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده العليم الحكيم ، الذي يعلم المستقبل كالحاضر والماضي ، وفي ذلك توجيه للذين يستبدون ، وبيان أنهم يخطئون ، وليس لهم أن يدفعهم الغرور ، فيحسبوا أن آراءهم منزهة عن الخطأ فيتردون بأمهم في أفسد النتائج » [٢] .

على كل حال أخذ النبي الفداء من الأسرى ، وكان رحيما بهم فقد أخذ من كل أسير حسب طاقته ، وشدد أكثر على أهله من بني هاشم ، مع أنه كان قد نهى عن قتلهم أثناء المعركة ، لأنه يعرف أنهم خرجوا إليها مكرهين ، ولكن في أخذ الفداء لم يستثنهم ، بل لم يقبل دعوى عمه العباس بأنه أسلم ، وقال له : « أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك وسيجزيك خيراً » وأخذ منه الفداء ، بل حمله أن يدفع فداء ابني أخيه عقيل ونوفل [٣] . ومن لم يكن له مال وكان يعرف القراءة والكتابة ، قبل منه للنبي أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة ويكون هذا فداء له ، وهذه اشارة في غاية الأهمية تدل على عناية النبي ﷺ بتعليم أمته ولفت نظرها إلى أهمية العلم في حياتها .

---

(١) سورة الأنفال ، آيات ٦٧ - ٦٩ .
(٢) خاتم النبيين ، مرجع سابق جـ ٢ ص ٥٧٣ .
(٣) خاتم النبيين ، مرجع سابق جـ ٢ ص ٥٦٩ .

ولا نترك قصة الأسرى قبل ذكر قصة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي ﷺ ، والذي كان أحد الأسرى ، لأن في هذه القصة أبلغ دلالة على نبل تصرف الرسول ﷺ وعدالته ووفائه ، فقد كانت زينب لا تزال في عصمته وهو مشرك لم يفرق بينهما وكانت بمكة ، وكان هو مكرما لها لأنه ابن خالتها ، ورفض أن يطلقها استجابة لرأي زعماء قريش الذين كانوا يريدون طلاقها منه إمعانا في مضايقتهم للنبي ﷺ فلما وقع في الأسر ، أرسلت زينب مالا لأبيها تفتديه به ، وكان ضمن هذا المال قلادة ذهبية كانت لأمها السيدة خديجة بنت خويلد ، رضي الله عنها ، أدخلتها بها على زوجها عند زفافها إليه ، فلما رأى النبي قلادة خديجة أثارت في نفسه ذكرياتها العطرة معه ، ورق لها رقة بالغة ، وأراد أن يرد القلادة لابنته ، لكنه لم يستخدم نفوذه كقائد أعلى للجيش ويصدر أمره بذلك مع أنه عفى عن كثيرين بغير فداء ، لكن الأمر هنا يختلف لأنه زوج ابنته ولذلك قال لأصحابه في شفقة عظيمة : « إن أردتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا » ما أعظمك وأعدلك يا رسول الله » . قالوا نعم يا رسول الله ، فأطلقوا العاص وردوا لزينب قلادتها . ووفاء من العاص للرسول فبمجرد وصوله مكة أرسل زينب لأبيها ، ثم أسلم بعد ذلك ولحق بها .

والخلاصة أن الكلام عن غزوة بدر وحدها يستحق مؤلفا خاصا وقد لا يوفيها حقها ، وحق البطولات التي حدثت فيها والدروس المستفادة منها ، فقد كسرت شوكة الكفر وأذلت المشركين ، وكان أثرها في جزيرة العرب عامة بعيد المدى ، فلا حديث للعرب إلا عن هزيمة قريش الساحقة على يد الذي طاردته وأخرجته هو وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، كما أن هذا النصر المبين لفت أنظار العرب بقوة إلى حقيقة الدعوة الإسلامية ورفعت هامات المسلمين ، وفتحت الطريق أمام الإسلام .

وعمت الفرحة دور المسلمين في المدينة ، أما اليهود والمشركون

والمنافقون ، فقد نزلت عليهم أخبار النصر كالصاعقة [١] .

وبينما كان المسلمون يعيشون فرحة النصر كانت قريش تعيش أتعس أيامها ، فلم يسبق لها في تاريخها كله أن منيت بهزيمة كهذه ، وخسرت مثل هذا العدد من صناديدها وأبطالها ، ولك أن تتصور فداحة الكارثة ووقع الهزيمة في مكة بما حدث لأبي لهب بن عبد المطلب ، الذي لم يحتمل وقع الهزيمة فمات كمدا وحزنا بعد بدر بأسبوع واحد .

الموقف في المدينة بعد بدر

عاد الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة مكللين بهذا النصر المبين ، وأصبحوا أصحاب الكلمة العليا وسلطانهم مهيبا فيها وفيما حولها ، ولكن هذا الوضع الجديد الذي أوجده انتصار بدر كان غصة في حلوق أعداء الله من كل لون ، من اليهود والمشركين والمنافقين ، وكان أسرع هذه الطوائف في التعبير عن استيائهم من انتصار المسلمين على مشركي مكة ، هم اليهود ، وكان المعبر عن شعورهم هذا ، كعب بن الأشرف ، الذي أخذ يرثي قتلى بدر من مشركي قريش ، ويتفجع عليهم ، ويقول « إن كان محمد قد قتل هؤلاء ، وهم ملوك العرب وأشراف الناس ، لبطن الأرض خير من ظهرها » ثم ذهب إلى مكة يواسي أهلها ويعزيهم ، ويحرضهم على حرب رسول الله ﷺ ، ثم رجع إلى المدينة فأطلق لسانه في الرسول ، كما أخذ يشبب بنساء المسلمين ، حتى آذاهم ، حسب تعبير ابن اسحاق . فكان لابد أن تتطهر المدينة من هذا الوغد الذي لم يرع حرمة المواطنة في مدينة الرسول التي وفرت له ولأمثاله الأمن والأمان ، وقد تكفل محمد بن مسلمة الأنصاري بقتله [٢] ، جزاء إجرامه في حق

---

(١) سنعرف الكثير فيما بعد عن رد فعل اليهود وأتباعهم من انتصار المسلمين ، وتحرشهم بهم ، وعقاب الرسول لهم .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣٦ .

الاسلام والمسلمين .

كما قام سالم بن عمير بقتل وغد آخر من أوغاد اليهود ، الذين بالغوافي إظهار العداء للمسلمين والتأليب عليهم وهو المسمى بأبي عفك .

حصار بني قينقاع وإخراجهم من المدينة [١]

كان بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة ولذلك كانوا يعرفون كل شيء عن المسلمين ، وبدلا من أن يفرحوا لنصر تحقق للمسلمين الذين يساكنونهم ويبسطون عليهم حمايتهم ، فإنهم أظهروا استياءهم ، ولم يراعوا عهودهم ومعاهداتهم مع المسلمين التي سبق الحديث عنها ، عند مقدم الرسول إلى المدينة ، فكشفوا عن حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين ، وأظهروا حزنهم على قتلى قريش في بدر ، ولم يخفوا تعاطفهم معهم ، بل أخذوا يتجسسون لحسابهم ، وينقلون لهم كافة المعلومات عن تحركات المسلمين العسكرية ، ويحرضونهم على محاربتهم .

ولقد حاول الرسول ﷺ أن يبصرهم عواقب صنيعهم ، لأنه لم يكن يريد معاداتهم ، لا هم ولا غيرهم ، ولم يكن يطلب منهم أكثر من أن يكفوا أذاهم عنه ويقفوا على الحياد ، بينه وبين قريش ، ولقد جمعهم في سوقهم ، وقال لهم : « يا معشر يهود احذروا من الله ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » فردوا على هذه الدعوة الطيبة السمحة ، في صفاقة وغطرسة واستكبار ، وقالوا له : « يا محمد ، إنك ترى أنَّا قومك ـ يقصدون أنهم ليسوا كقريش ، فهم يعتبرون أنفسهم أعلى وأشجع ـ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم

---

(١) انظر قصة بني قينقاع وما آل إليه أمرهم في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦ وما بعدها ، والمنهاج التربوي للسيرة النبوية جـ ١ ص ١٧٤ وما بعدها .

بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » [١] فأنزل الله بشأنهم قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين إلتقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [٢] .

جاءت هاتان الآيتان لتصدقا تحذير النبي ﷺ لهؤلاء الذين كانوا أول من نقض العهد معه ، فكان لابد من تأديبهم وتطهير المدينة من شرهم ورجسهم .

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير ـ كما يقول العرب ـ ما صنعوه بالمرأة المسلمة ، التي ذهبت إلى سوقهم ، وجلست إلى صائغ تشتري ما تحتاج ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [٣] ، هذه رواية ابن اسحاق عن هذا الفعل المشين الذي قام به اليهود نحو إمرأة عربية مسلمة في بيئة تقدس العرض والشرف ، ولم يكن ممكنا أن يسكت الرسول ﷺ ويتغاضى عن هذا العبث اليهودي بأمن المدينة واستقرارها ، وهو الذي طالما نصحهم ، وصبر عليهم ، ولكنهم تمادوا في فسادهم ، لذلك قرر تلقينهم درسا قاسيا ، تكون لهم فيه العبرة هم وغيرهم ، وكل من تسول له نفسه تعكير صفو الأمن في المدينة وتكدير عيش الناس .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ١٢ - ١٣ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٧ .

وكان من الممكن التغاضي عن هذه الحادثة لو كانت حادثة فردية ، لكنها كانت جزءا من مخطط يهودي لمضايقة المسلمين واستفزازهم ، وهز هيبتهم في المدينة وما حولها ، خصوصا في أعقاب انتصار بدر ، الذي ملأ قلوب أعداء الإسلام فزعا ورعبا ، لكل ذلك كان لابد من العقاب السريع الرادع ، فأمر رسول الله بضرب الحصار عليهم ، وظلوا محاصرين حوالي خمسة عشر يوما ، فلما أحسوا بالضيق نزلوا راغمين على حكم النبي ﷺ ، فقرر بعد مشورة كبار الصحابة قتلهم جميعا ، وتخليص المدينة من أذاهم ، إلا أن عبد الله بن أبي ابن سلول - رأس المنافقين - وكان حليفهم تدخل وألح على الرسول أن يعفو عنهم ، ويخلي سبيلهم ، وقال للرسول : هؤلاء حلفائي قد منعوني من الأحمر والأسود . تحصدهم في غداة واحدة ، إني امرؤ أخشى الدوائر ، فقال له رسول الله : « هم لك » [(١)] ، والحقيقة أن رسول الله راعى اعتبارات سياسية مهمة في العفو عنهم . لأنهم كانوا حلفاء أيضا لعبادة بن الصامت رضي الله عنه ومع أنه تبرأ منهم ، ومن حلفهم وقال للرسول : « يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » .

مع ذلك كله فقد رأى رسول الله العدول عن قتلهم لحكمة سياسية والإكتفاء بطردهم من المدينة ، فطردوا شر طردة ، تاركين أسلحتهم وديارهم ، وأدوات الذهب التي كانوا يصوغون بها ، وسار بهم عبادة بن الصامت ، حتى بلغوا وادي القرى ، فأقاموا بها زمناً ، ثم تحولوا عنها إلى أذرعات على حدود الشام .

وبهذا تطهرت مدينة الرسول من رجسهم ، وكان من المتوقع أن يستفيد بقية اليهود - بنو النضير وبنو قريظة - من هذا الدرس ، ويعيشوا في أمان وسلام في كنف الرسول ، الذي وفر لهم الحماية وحرية العقيدة ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس جيدا ، وسيحل بكل منهم العقاب الذي يستحقه في وقته المناسب .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٨ .

المسلمون والمشركون

قريش هي العدو الرئيسي للدعوة الإسلامية في ذلك الوقت ، لكنها ليست العدو الوحيد ، فهناك الكثيرون الذين يتربصون بالمسلمين ، خاصة القبائل القريبة نسبيا من المدينة ، مثل غطفان وبني سليم وبني أسد ... وهؤلاء جميعا وأمثالهم ، أدخل انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر الرعب في قلوبهم ، وتصوروا أن ازدياد قوة المسلمين ، وعلو شأنهم ، وتصاعد سلطانهم ، خطر عليهم ، ولم يدركوا - كما لم تدرك قريش أيضا - أن قوة المسلمين وعزتهم ، ستكون قوة وعزة ومجدا لهم هم أيضا ، فمعظم هؤلاء سيكون منهم القادة والفاتحون ، وأصحاب الشأن في دولة الإسلام . لكنهم في هذه المرحلة ناصبوا الإسلام والمسلمين العداء ، وحاولوا الإعتداء أكثر من مرة ، لكن الرسول ﷺ وقف لهم بالمرصاد وكانت عيونه مفتوحة في كل إتجاه ، يرصد تحركات كل القبائل ، فما أن بلغته أخبار عن عزم قبائل غطفان وبني سليم مهاجمة المدينة ، حتى أمر بالنفير وخرج مسرعا على رأس مائتين من أصحابه ، وغزاهم في عقر دارهم ، فقد كانت استراجية الرسول العسكرية مع هذه القبائل أن يفاجئها في ديارها ، والمفاجأة عنصر أساسي في تحقيق النصر ، فما أن وصل إلى ديارهم ، حتى أخذهم الرعب والفزع ، وفروا هاربين تاركين إبلهم ومواشيهم ، فجمعها رسول الله ، وقسمها غنيمة سهلة بين المسلمين وأقام في منازلهم ثلاثة أيام ، إظهارا لقوة المسلمين ، وعدم اكتراثهم بعدوهم ، ثم عادوا إلى المدينة ، دون أن يلقوا كيدا ، وقد سميت هذه الغزوة ، غزوة بني سليم [١] ، وكانت في شهر محرم سنة ٣هـ ، وتلاها غزوات ، ضد بني ثعلبة وبني محارب في ذي أمرٍ ، وضد بني سليم في بحران ، لمنع هذه القبائل من الهجوم على المدينة .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢١ ، وانظر : الرسول القائد ص ١٤٤ .

غزوة السويق

ظلت قريش غارقة في أحزانها ، بعد هزيمتها الساحقة والمهينة في بدر ، تلعق جراحها ، وأخبار انتصارات الرسول ، على اليهود وغيرهم ، تتوالى عليهم فتزيدهم غما وحزنا ، عندئذ قرر أبو سفيان بن حرب ؛ الذي أصبح الآن قائد مكة كلها ، أن يبدد الأحزان ، وأن يخرج الناس من هذا الوضع الكئيب ، وأن يعيد إلى أذهان العرب أن الهزيمة لم تنل من قريش ، ولم توهن عزيمتها ، فلا زالت قوية وقادرة على الغزو والقتال . لذلك جمع مائتين ... من رجال مكة ، وخرج فيهم مستخفين ، حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة ، خرجوا سحرا ، فأتوا ناحية يقال لها العريض ، فوجدوا رجلا من الأنصار ، وحليفا له في حرث لهما فقتلوهما ، وحرقوا بيتين ثم فروا هاربين ، وهذا شيء أشبه بعمل العصابات ، لا الجيوش ، علم النبي بهذه الهجمة الخاطفة فخرج في طلبهم ، حتى بلغ قرقرة الكدر ، ولكنه لم يدركهم ، لأنهم جدوا في الهرب حتى أنهم تخففوا من أزوادهم ، طلبا للنجاة ، ولذلك سميت الغزوة غزوة السويق ، وهو لون من الطعام . وقد حاز المسلمون هذا السويق ، ولما لم يدركوا القوم ، قالوا للرسول : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة قال : « نعم » (١) .

دور يهود بني النضير في التعاون مع قريش ضد المسلمين :

من أهم ما كشفت عنه غزوة السويق هو إستمرار اليهودفي حقدهم على المسلمين ، وكيدهم لهم ، وتعاونهم مع أعدائهم ، مع أن نصوص معاهدة المدينة ، التي سبق ذكرها ، تحتم عليهم الدفاع عن المدينة ضد أي غزو أجنبي ، وتلزمهم بعدم الاتصال بقريش بصفة خاصة ، ولا اجارة أحد منهم ، لكن يهود

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٢ ، وحياة محمد ص ٢٨٢ .

بني النضير ضربوا عرض الحائط بكل هذه الالتزامات ، فقد ذكر ابن اسحاق : أن أبا سفيان أتى بني النضير في جنح الليل ، والتقى بزعيمهم سلام بن مشكم ، فاستقبله أحسن استقبال ، وصنع له طعاما ، وأعلمه كل ما يعرفه من أسرار ومعلومات عن المسلمين ، وهذا يدل على أن الإتصالات كانت مستمرة بين بني النضير وقريش للقضاء على المسلمين ، وهذا ما سيتضح بشكل جلي في غزوة الأحزاب .

غزوة احـد [1]

مضى عام تقريبا بين بدر وأحد ، بذل خلاله الرسول جهدا كبيرا في تثبيت النصر ، وفي ردع أعداء الإسلام ، داخل المدينة وخارجها ، ورأينا في الصفحات السابقة ، كيف عاقب يهود بني قينقاع على خيانتهم وغدرهم ، وإن كان عقابا رحيما ، وكيف تصدى لقبائل غطفان وبني سليم ، ومنع عدوانهم على المدينة ، وكيف لاحق أبا سفيان في غزوة السويق ، ثم كيف نجح في السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى الشام وإلى العراق ، ومنع قوافل قريش من المرور فيها ، مما سبب لها نكبة اقتصادية ، لم تقو على احتمالها . ورغم هذا كله فإن النبي كان يعلم أن قريشا لن تسكت على هزيمتها في بدر ، فهو يعرف كبرياءها وإعتزازها بنفسها واعتدادها بسمعتها وهيبتها أمام العرب ، لذلك كان يتوقع أن تشن عليه حربا ، خصوصا وأن ما أقدمت عليه في غزوة السويق لم يغنها شيئا ، بل ارتد عليها . فأخذت تجهز نفسها لغزو المدينة ، وظلت تعد لذلك عاما كاملا ، ورصدت أموال قافلة أبي سفيان لحرب الرسول . وفيهم نزل قولـه تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة وكل أخبارها في : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣ وما بعدها ، وحياة محمد للدكتور هيكل ص ٢٨٧ وما بعدها ، والرسول القائد للواء محمود شيت خطاب ص ١٥٩ وما بعدها .

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ (١).

أخذت قريش تعد عدتها ، وجندت ما استطاعت تجنيده من حلفائها من قبائل كنانة وأهل تهامة وأحابيشها ، وبلغ عدد جيشها نحو ثلاثة آلاف رجل ، وكان القائد العام هو أبا سفيان بن حرب ، وكان قائدا الفرسان ـ مائتا فارس ـ خالد بن الوليد على الميمنة ، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة ، وقد استصحب كثير من زعماء مكة نساءهم معهم للتشجيع والتحريض ، ورفع معنوياتهم ، وكان عددهن خمس عشرة امرأة ، أشهرهن هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبي سفيان .

كيف علم الرسول بالأمر ؟ وكيف تصرف ؟ :

كان الرسول ﷺ يتوقع هجوما من قريش بين لحظة وأخرى ، وبينما هو في قباء ، إذ جاءه رجل من غفار ، يحمل رسالة من عمه العباس بن عبد المطلب يعلمه فيها بأمر مسير قريش لمهاجمة المدينة ، وعدد قواتها ، دفع الرسول الرسالة إلى أبي بن كعب ، فقرأها عليه ، فاستكتمه أمرها ، وعاد إلى المدينة على وجه السرعة ، ليدبر أمره ، وليستعد للمواجهة ، وبث العيون والطلائع ليعرف المكان الذي وصلت إليه قريش ، فجاءته الأخبار أنهم أصبحوا قريبين من المدينة ، وأنهم أطلقوا إبلهم وخيولهم ترعى زروعها المحيطة بها .

فأخذ في التشاور مع أصحابه ، حول كيفية مواجهة هذا الموقف ، وكان من رأيه هو أن يتحصن المسلمون داخل المدينة ، وأن يمنعوا جيش قريش من دخولها ، وقال لأصحابه : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها » (٢) ، وكان

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٧ .

هذا رأي بعض الناس ، ومنهم عبد الله بن أبي سلول ، ولكن الأغلبية ، خاصة من الشباب الذين لم يحظوا بشرف المشاركة في بدر ، رفضوا هذا الرأي وقالوا للرسول : « يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أناجبنا عنهم وضعفنا » [١] رأى رسول الله إلحاح الأغلبية على الخروج ، فدخل بيته ، ولبس لأمته ـ لباس الحرب ـ وكان ذلك في يوم الجمعة منتصف شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، حين فرغ من الصلاة ، فلما خرج من بيته ، كان الذين حبذوا الخروج وألحوا عليه ، قد أدركوا أنهم أكرهوه وأرادوا العدول عن رأيهم وقالوا له : « يا رسول الله استكرهناك ـ على الخروج ـ ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فأقعد ، صلى الله عليك ، فقال : « ما ينبغي لنبي لبس لأمته ، أن يضعها حتى يقاتل » فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه » [٢] .

غير أن عبد الله بن أبي سلول ـ رأس النفاق ـ انخذل راجعا بحوالي ثلث الناس ، متعللا بأن الرسول أطاع الشبان صغار السن وعصاه .

النبي يرتب قواته لخوض المعركة :

اتخذ قرار الخروج ، ولا عدول عنه ، لأن الحرب لا يجوز فيها التردد ، نعم تجوز المناقشات والمشاورات وأخذ الآراء قبل اتخاذ القرار ، أما بعده فمن الخطورة بمكان التردد . ولذلك حسم النبي الموقف ، وخرج بمن بقي معه من الجيش ، وكانوا حوالي سبعمائة ، بعد أن انخذل ابن أبي بثلث العدد .

وضع النبي معسكره في عدوة الوادي ، جاعلا ظهر جيشه إلى جبل أحد ، وكان معسكر المشركين أمامه .

وكان من أولى إجراءاته العسكرية ، أن اختار خمسين رجلا من المهرة في

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨ .

الرمي ، وأمرَّ عليهم عبد الله بن جبير الأنصاري ، وأمرهم أن يصعدوا على تبة عالية ـ سميت جبل الرماة ـ تشرف على طريق يؤدي من الجبل إلى خلف قواته ، وكان هدفه من ذلك منع العدو من الالتفاف حول قواته ، ومراقبة المدينة تحسبا لغدر اليهود والمنافقين ، أن يطعنوهم من الخلف « ولتكون هذه القوة قاعدة أمينة لقواته ، تحمي ظهرها ، وتستند إليها ، وتستر انسحابها عند الحاجة » [(١)] ولإدراك الرسول ﷺ لأهمية تلك القوة ، وأن مصير المعركة سيتوقف على طاعتها لأوامره ، قال لهم في حسم :« احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » [(٢)] .

أصدر النبي هذا الأمر العسكري الجازم ، الذي يدل على خبرة عسكرية فذة ، ثم أتبعه بأمر آخر ، وهو ألا يبدأ أحد القتال إلا بإذنه ، ثم أخذ يشجعهم ويحرضهم على القتال والصبر فيه ، وطمأنهم أن الله سينصرهم على أعدائهم ، إن صبروا ، وهذا شرط مهم للغاية ، ثم أخذ في لفتة رائعة ، لبعث التنافس الشريف بينهم لإظهار البطولة وللتحفيز على القتال ، ورفع الروح المعنوية ، أخذ سيفه بيده ، وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دجانة ، فقال : وما حقه يا رسول الله. قال : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » وكان أبو دجانة رجلا شجاعا ، له عصابة حمراء ، إذا وضعها على عينيه ، علم الناس أنه سيقاتل ، فأخذ السيف من رسول الله ، وأخذ يتبختر في خيلاء ، فنظر إليه الرسول وقال : « هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن » .

---

(١) الرسول القائد ، مرجع سابق ص ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥ .

ودارت رحى معركة أحد [1] :

على الرغم من أن النبي ﷺ ، كان يفضل التحصن داخل المدينة ، وأنه نزل على رأي الأغلبية ، التي رأت الخروج ، ومقابلة العدو خارجها ، ليعلِّم المسلمين كيف يشاركون في القرار ، حتى وان كان على هذه الدرجة من الخطورة ، لإرساء مبدأ الشورى ، ليكون نبراس المسلمين في كل شؤونهم ، وتكريس هذا المبدأ قد يكون أهم حتى من كسب معركة عسكرية أو خسارتها ، لأن خسارة معركة يمكن أن تعوض ، أما خسارة المبدأ فستكون عواقبها وخيمة ، أخذ النبي يهيء المسلمين للمعركة ، وينظم صفوفهم ، ولقد كانت معنوياتهم عالية جدا ، وأملهم في النصر كبير ، لأنهم مقدمون على المعركة ووراءهم رصيد هائل من الإنتصارات ؛ انتصارهم الرائع الذي تحقق في بدر ، وإنتصارهم على يهود بني قينقاع وطردهم من المدينة ، ونجاحهم الهائل في منع أي عدو من الاقتراب من حمى المدينة ، عبر سلسلة الغزوات والسرايا ، التي حدثت بين بدر وأحد ، والتي سبق الحديث عنها . وباختصار كان كل شيء يبشر بالنصر .

وكان أول من بدأ القتال أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ، وكان من أهل المدينة من الأوس ، وقد خرج إلى مكة ، ومعه خمسون غلاما من الأوس ، يظاهر قريشا على الرسول ﷺ ، ووعدها أنه عندما ينشب القتال فإن قومه سيتركون النبي ، وينضمون إليهم ، لذلك كان هو أول من بدأ القتال ، إذ خرج على رأس مفرزة من قريش ، وأخذ ينادي قومه : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، فأجابوه ، فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق » وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية الراهب ، فسماه النبي ﷺ ؛ الفاسق ، ثم هاجموه ، وبدأ القتال ، بعد أن أذن الرسول للمسلمين فيه .

---

(١) انظر : المنهج التربوي للسيرة النبوية ، مرجع سابق جـ ١ ص ١٩٥ وما بعدها .

وخرج من صفوف المسلمين أسد الله ؛ حمزة بن عبد المطلب ﷺ هاتفا بشعار المسلمين يوم أحد « أمت أمت » ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين يقتل منهم يمينا وشمالا ، ومن صفوف االمشركين نادى حامل لوائهم ، طلحة بن أبي طلحة ، من يبارز ؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب ، فقتله ، وهكذا كما كان أول من لقي العدو في بدرهم أقرب الناس إلى الرسول ، فقد كان أول من لقيهم هذه المرة أيضا الرجال أنفسهم حمزة وعلي .

ثم اندفع أبو دجانة وفي يده سيف الرسول ، وعلى رأسه عصابته الحمراء ـ عصابة الموت ـ فشق صفوف المشركين ، فجعل لا يلقي أحدا منهم إلا قتله ، وهكذا أخذ وطيس المعركة يشتد ، وألقت قريش بنفسها في المعركة يثور في عروقها طلب الثأر لقتلاها في بدر . ورغم استبسال المشركين في القتال ، يدفعهم الحماس الذي بثته فيهم نساؤهم اللائي أخذن ينشدن الأناشيد الحماسية ، تقودهن هند بنت عتبة ، ومما قلنه يومئذ :

ويهابني عبد الدار . ويهاويها يا حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

ومنه قولهن :

إن تقبلـــــوا نقانـــــــق	ونفـــرش النمـــــارق
أو تدبـــــــروا نفـــارق	فـــراق غــــير وامـــق

رغم كل ذلك إلا أن المسلمين كسروهم في بداية المعركة ، وقتلوا منهم عدد لا بأس به ، كان منهم تسعة من بيت واحد ، وهو بيت عبد الدار ، حملة اللواء ، وسيطر المسلمون على ميدان المعركة ، وأخذ المشركون يفرون أمامهم والمسلمون يطاردونهم ، حتى أبعدوهم عن معسكرهم ، وظنوا أنهم حققوا

النصر الكامل ، وعادوا متعجلين ، يجمعون الغنائم ، وهنا حدثت الكارثة .

تغير مسار المعركة ومصيرها :

نظر الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهر الجيش إلى إخوانهم يجمعون الغنائم ، فظنوا أن المعركة قد انتهت ، ونسوا تعليمات الرسول المشددة لهم بألا يتركوا مواقعهم ، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا ، حتى لورأوه هو وأصحابه يقتلون ، لكن معظمهم نسي كل هذا ، وبدأوا يتركون مواقعهم لأخذ الغنائم ، ولم يستجيبوا لأوامر قائدهم ، عبد الله بن جبير ، الذي أخذ يصيح فيهم مذكرا بأوامر الرسول ، ولكنهم اندفعوا لا يلوون على شيء جريا وراء متاع الدنيا ، ولم يبق منهم مع القائد سوى عشرة رجال أو أقل ، لم يستطيعوا الصمود أمام هجمة خالد بن الوليد الذي كان على ميمنة فرسان المشركين ، والذي كان ينتظر تلك الفرصة ليثب وثبته التي غيرت مصير المعركة ، وحولت نصر المسلمين إلى هزيمة ، وهزيمة المشركين إلى نصر ، فما أن رأى المشركون خالدا يطوق جيش المسلمين من الخلف حتى عادوا إلى ميدان المعركة ، وزايلهم الخوف والفزع الذي سيطر عليهم في بدايتها ، وهنا أصبح المسلمون مطوقين بخالد وفرسانه من الخلف وبقية جيش المشركين من الأمام ، فأحدثت هذه الحركة المباغتة ، التي لم يتوقعها المسلمون أثرها المدمر في صفوفهم ، وعمهم الارتباك ، وأخذ بعضهم يقتل بعضا ، وفر معظمهم من الميدان ، وبقيت قلة تقاتل لتشق لها طريقا بين قوات قريش التي أطبقت عليهم من كل جانب والتي استطاعت الاقتراب من الرسول ، ورماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته ، ورغم ذلك تمالك نفسه ، وسار مع من التف حوله من بقية أصحابه ، فاذا به يقع في حفرة ، كان أبو عامر الفاسق قد حفرها ليقع فيها المسلمون ، ولكن علي بن أبي طالب أسرع إليه ، وأخذ بيده ، والتف جمع من الصحابة حول الرسول يذودون عنه ، منهم طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ،

وأبو دجانة ، وأم عمارة الخزرجية ، التي أبلت بلاء حسنا في الذود عن رسول الله ، الذي كان الهدف الحقيقي للمشركين فقد كانوا يريدون قتله ، وأشاعوا بالفعل أنهم قتلوه ، وكانت هذه الشائعة مما زاد الأمر سوءا وارتباكا في صفوف المسلمين ، حتى أن كبار الصحابة ، ومنهم أبو بكر وعمر ، قد داخلهم اليأس والإحباط ، وولوا ناحية الجبل ، فرآهم أنس بن النضر ، وهم جلوس ، قد أسقط في أيديهم ، فقال لهم : ما يجلسكم هنا ؟ قالوا قتل رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ، قوموا ! فموتوا على ما مات عليه » وأخذ هو يقاتل قتال الأبطال ، حتى استشهد بعد أن تلقى سبعين ضربة من المشركين ، حتى أن أحدا لم يتعرف عليه سوى أخته ، عرفته من بنانه .

من حسن الحظ أن هذه كانت مجرد شائعة ، وأن الرسول ﷺ حي لم يمت ، بل انه قتل أبي بن خلف ، عندما سمعه يصيح ، ويقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ، فتناول النبي حربة وطعنه بها طعنة جعلته يتقلب من على فرسه ليموت في الطريق ، وهم عائدون .

رغم هذا التحول المفاجيء في سير المعركة ، والذي أربك المسلمين إرباكا شديدا ، إلا أن قريشا فشلت في القضاء على المسلمين ، الذين بدأوا يتمالكون أنفسهم ، ويستعيدون توازنهم ، خصوصا بعد أن رأوا الرسول بينهم مرة أخرى ، فتجمعوا حوله .

أما قريش فقد اكتفت بهذا الذي ظنته نصرا ، وكان الإعياء والتعب قد نالا منها ، وفقدت واحدا وعشرين من رجالها ، فقررت إنهاء القتال ، والعودة إلى مكة ، وأشرف أبو سفيان على الجبل ونادى في المسلمين ، أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب فلم يجيبوه . ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة ، لعلمه ، أن قيام الإسلام بهم . فقال : « أما هؤلاء فقد كفيتموهم » لظنه أنهم قتلوا في المعركة ، وهنا لم

يطق عمر صبرا ، فأجابه : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، وأن محمدا يسمع كلامك الآن . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، ثم جعل يرتجز ، أعل هبل أعل هبل ، فقال رسول الله : ألا تجيبوه ؟فقالوا : يا رسول الله بماذا نجيبه ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله : « قولوا : الله مولانا ولا مولي لكم » ثم قال أبو سفيان : » إن موعدكم بدر العام القابل » ، فقال الرسول لرجل من أصحابه : « قل : نعم هو بيننا وبينك موعد » .

خسائر المسلمين في أحد :

لا شك أن خسائر المسلمين كانت فادحة ، فقد استشهد منهم واحد وسبعون رجلا ، على رأسهم حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله ، ومصعب بن عمير حامل اللواء ، وقد حزن الرسول على شهداء الإسلام ، وكان حزنه على حمزة أشد ، لما صنع به المشركون حيث مثلوا بجثته ، ذلك أن هند بنت عتبة ، التي كانت حرضت وحشي الحبشي على قتل حمزة ، وكان وحشي عبدا لجبير ابن مطعم ، وكان عمه قتل يوم بدر ، قتله حمزة ، فقال له ان قتلت حمزة فأنت حر ، أما هند فقد وعدته بجائزة كبيرة ، فلما قتله لم تكتف هند بذلك ، بل بقرت بطنه ، وجذبت كبده ، وجعلت تلوكها بأسنانها فلم تستطع أن تسيغها . فلما رأى الرسول عمه ، وقد بقرت بطنه ، ومثل به ، غاظه هذا ، وقال من شدة الحزن عليه : « لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا » ، ثم قال : « والله لئن أظهرنا الله عليهم يوما من الدهر ، لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب » ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمه درسا عاليا في التسامي والتسامح ، وأن يذكره أنه ليس مثلهم ، فهو المثل الأعلى في العفو والرحمة ، فإذا أراد أن يعاقب ، فلتكن العقوبة بالمثل ولا يزيد ، وان عفا فهو أحسن وأفضل ، وهو الذي يتناسب مع مكانته ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴿١٢٦﴾ واصبر

وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون ﴿١٢٧﴾ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (١) .

أطفأت هذه الآيات غضب الرسول ﷺ ، فصبر وعفا ونهى عن المثلة ، ولو بالكلب العقور .

الدرس والعبرة من أحد :

لا شك أن النتيجة التي انتهت إليها تلك المعركة ، تمثل درسا بليغا للمسلمين ، فهم قد خسروا جولة من جولات الحرب مع العدو ، والسبب الرئيسي في تلك الخسارة هو عدم الانضباط ، وعصيان أوامر وتعليمات القائد الأعلى ﷺ ، فلو لم يتعجل المسلمون الأمر ، وينشغلوا بجمع الغنائم ، ولو ثبت الرماة في مواقعهم ، لما حدثت الهزيمة . ولكن هكذا شاءت إرادة الله ، أن يتعلم المسلمون أن للحرب قواعدا وأصولا ، ومن أهم قواعدها وأصولها الإنضباط ، وطاعة أوامر وتعليمات القيادة العسكرية ، فإذا أخل الجنود بهذه القواعد ، وخالفوا الأوامر ، فلا مفر من الهزيمة مهما كان الإعداد والتخطيط ، ومهما كانت قوة الإيمان ، فهم لم يكن ينقصهم الإيمان ـ حاشا لله ـ والرسول قائدهم ، لكن لابد من استكمال عناصر النجاح .

ولقد أنزل الله تعالى على رسوله قرآنا يتلى بشأن ما حدث في أحد ، ليخفف من وطأة الهزيمة عن المسلمين وليطمئنهم انه عفا عنهم من ناحية ، وليعلمهم أن لله سننا وقوانين لا تتبدل ولا تتغير ، وأن الأخذ بالأسباب كاملة ، بعد الاعتماد على الله ، من أهم هذه السنن . وأن هزيمة في معركة واحدة ، لا ينبغي أن تنال منهم وتجعلهم يرتبكون ، ويفقدون توازنهم ، ويغادرون ميدان المعركة مولين الأدبار ، حتى لو قتل الرسول . جاءت الآيات من سورة

---

(١) سورة النحل ، الايات ١٢٦ - ١٢٨ .

آل عمران موضحة كل تلك العبر والدروس ، فقال تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفاين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (١) .

هذه الآيات الكريمة فيها المواساة ، وفيها الطمأنة على أنهم سيظلون هم الأعلون ما داموا مؤمنين بالله حق الإيمان ، وأن أعظم عوامل النصر في كل معارك الحياة الإيمان مع الصبر، ثم الأخذ بالأسباب ، وبعد هذه المواساة ، وتخفيف الآلام جاءت الآيات التالية لتضع النقاط فوق الحروف ، وتشرح سبب الهزيمة ، في وضوح ، ومن الذي كان السبب في كل ذلك لتكتمل العبرة من القصة كلها . فقال تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ بالنصر في أول المعركة « إذ تَحُسُّونَهُم بإذنه » ولكن أنتم بتسرعكم وتهافتكم على الغنائم وعصيان أوامر قائدكم ، كنتم السبب في التحول الذي حدث في الموقف ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (٢) .

هذا العفو كان عن الذين ارتكبوا الأخطاء الفادحة ، التي أدت إلى الهزيمة

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٣٧ - ١٤٤ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٢ .

أما الشهداء الأبرار الذين لقوا ربهم في ساحة المعركة ، وهم يدافعون عن عقيدتهم ، فهذا هو مكانهم ، وتلك هي مكانتهم عند الله تعالى ، كما تعبر هذه الآيات الكريمة التي جاءت عقب سرد قصة أحد كلها في سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (١) .

أما شهادة الرسول ﷺ لهم ، فقد جاءت فيما رواه محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه ﷺ ، أشرف على القتلى يوم أحد ، ثم قال : « أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح في سبيل الله ، إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح مسك ؛ انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر » وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد (٢) .

الموقف في المدينة بعد أحد :

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، بعد المعركة ، وكان من الطبيعي أن تكون أخبار ما حدث قد سبقته إليها ، وهي أخبار غير سارة على كل حال ، بل غير متوقعة على النحو الذي حدث ، وكان الحزن عاما ، والبكاء في كل بيت ، حتى النبي نفسه لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء ، بل تألم ان لم يكن لحمزة بواكي فعندما سمع نساء الأنصار يبكين على قتلاهن ، ذرفت عيناه وبكى ، وقال : « لكن حمزة لا بواكي له » (٣) فلما رأى ذلك سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ - ١٧١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٤٩ .
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٠ .

من رسول الله ، أمرا نساء الأنصار أن يذهبن ويبكين على عم رسول الله ﷺ .

والذي زاد من آلام الرسول ، والمسلمين ، ما أظهره اليهود والمنافقون والمشركون من سرور وشماتة ، لما حل بالمسلمين ، والرسول ، كان يستعيذ بالله من شماتة الأعداء .

لذلك كان عليه ﷺ ، أن يبذل جهدا كبيرا لتبديد آثار هذه الهزيمة العابرة ، وأن يثبت لأعداء الاسلام ، أنه وإن خسر معركة ، فإنه لم يخسر الحرب ، فالذي يخسر الحرب هو الذي يستسلم لعدوه في ميدان المعركة ، ويلقي سلاحه ، ويسلم نفسه أسيرا ، وهذا لم يحدث ، فرغم النصر الجزئي الذي حصلت عليه قريش ، إلا أنها لم تستطع أن تأسر رجلا واحد من المسلمين ، وكأنها لم تصدق أنها انتصرت ، وغادرت ميدان المعركة ، وستكون معها جولات أخرى ، وهي التي سوف تستسلم في نهاية المطاف ، وستفتح مكة أبوابها للرسول .

غزوة حمراء الأسد

كان لا بد من عمل سريع وجريء ، يبرهن لقريش ، ولكل أعداء الإسلام أن الهزيمة العابرة لم ولن تنال من قوة المسلمين ، وإصرارهم في الإستمرار في اداء رسالتهم ، لذلك أمر النبي المسلمين بمطاردة قريش ، في اليوم التالي للمعركة مباشرة ، وأمر ألا يذهب معه إلا من حضر المعركة [1] ، حتى تعلم قريش وغيرها ، أن الرجال الذين قابلوها بالأمس ، لم يؤثر فيهم ما حدث ، وها هم يطاردونها ، وكانت قريش نفسها ، لعدم ثقتها في أن ما حدث كان نصرا قد

---

(١) لم يأذن رسول الله لأحد بالخروج إلى حمراء الأسد من غير أهل أحد إلا لجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، الأنصاري ، الذي رجا رسول الله أن يأذن له ، لأنه لم يحضر أحدا ، بناء على رغبة أبيه الذي حضرها هو وخلف جابرا يرعى أخواته وأهل بيته .

فكرت في العودة مرة أخرى إلى المدينة ، لإستئصال المسلمين ، فخذّلهم عن ذلك معبد بن أبي معبد الخزاعي [١] حين سأله أبو سفيان ، ما وراءك يا معبد ؟ قال له : « محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون إليكم ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويحك ما تقول !! فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ... فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه » [٢] وموقف أبي سفيان هذا يعكس الحيرة التي كان يعانيها جيش المشركين ، ومع ذلك أراد أبو سفيان أن يستخدم الترهيب والحرب النفسية ضد المسلمين ، فقد رأى وفدا من عبد القيس يقصدون المدينة ، فحمّلهم رسالة يبلغونها للنبي ، فقد قال لهم : « أخبروا محمد أنا قد أجمعنا السير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم » فمر هذا الوفد برسول الله ، وهو بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فأخبروه بقول أبي سفيان ، فقال ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل » [٣] وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [٤] .

أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد ـ ثلاثة أيام ـ ليؤكد لقريش عزمه على المواجهة إذا أرادت ، ثم رجع إلى المدينة ، بعد أن علم أنها عدلت عن العودة ، وواصلت طريقها إلى مكة وقد حقق هذا العمل العسكري البارع هدفه في تقوية الروح المعنوية عند المسلمين ، واستعادة ثقتهم بأنفسهم ، وإسترداد هيبتهم ومكانتهم في المدينة ، ثم إن هذا العمل كان له أثر سياسي وإجتماعي على المسلمين ، لا يقل خطرا عن الأثر العسكري ، فإن مسارعة الرسول بالحركة في

---

(١) كان معبد قادما من المدينة ، من عند رسول الله .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٣ - ٥٤ .
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٦ .
(٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٨ .

غد المعركة ، واشغال الصحابة بالإستعداد لمطاردة قريش أنسى الناس ما حدث في أحد ، ولو بقوا في المدينة بدون حركة ، لربما حدث بينهم ما يحدث عادة بين الناس في مثل هذه الظروف ، من تبادل التهم ، والتراشق بالألفاظ ، وربما يتطور الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك ، مما قد يؤثر على وحدتهم وتماسكهم ، وهم في وقت أحوج ما يكونون إلى الوحدة والتماسك والتناصح . لكل هذا كان تصرف القائد الأعلى ﷺ ، في غاية الحكمة والسداد وبعد النظر .

آثار أحد خارج المدينة :

إذا كانت غزوة حمراء الأسد قد ثبتت مركز ومكانة المسلمين في المدينة ، فإن الموقف خارجها أثرت فيه الدعاية الواسعة التي أذاعتها قريش عن نصرها الظاهري في أحد ، ولقد بالغت قريش مبالغة كبيرة في قيمة هذا النصر ، وملأت به أقطار جزيرة العرب ، لتسترد هيبتها التي زعزعها انتصار المسلمين في بدر ، فظن كثير من القبائل العربية القريبة من المدينة ، أن المسلمين قد ضعفت شوكتهم ، من جراء ما حدث لهم في أحد . فبدؤا يتجرءون عليهم ، وكان ظنهم هذا في غير محله ، فالمسلمون أقوياء بما فيه الكفاية ، ويستطيعون رد كيد أي عدو ، كما أن عيونهم مفتوحة وترصد تحركات جميع الأعداء وفي كل الإتجاهات .

سرية أبي سلمة :

وكان أول من حاول أن يتجرأ على المسلمين ، ورام مهاجمة المدينة ، هم بنو أسد فبعد شهرين فقط من غزوة أحد بلغت النبي أخبار عن عزم طليحة بن خويلد وأخيه مسلمة ، على غزو المدينة ، ونهب ما يستطيعون من أموال أهلها ، وفور أن سمع بذلك أرسل سرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد ، وفيها جمع من كبار الصحابة ، أبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وأسيد بن حضير ، وغيرهم وأمرهم بغزو بني أسد في عقر دارهم ، قبل أن يتحركوا ،

ونصح الرسول المسلمين بأن يسيروا ليلا ، ويكمنوا نهار ، وأن يسلكوا طريقا غير مطروق ، حتى لا يشعر بهم عدوهم ، ويأخذوه على غرة . وقد نفذ أبو سلمة تعليمات القائد الأعلى وفاجأ بني أسد في ديارهم فجرا ، فولوا الأدبار ، فأرسل فرقتين من قواته لمطاردة الفارين ، فعادتا محملتين بالغنائم .

سرية عبد الله بن أنيس :

ثم ترامت الأخبار إلى رسول الله ﷺ ، أن خالد بن سنان الهذلي ، يجمع الناس لغزو المدينة ، فانتدب عبد الله بن أنيس ليستطلع الأمر ، ويقف على جلية الخبر، ولكن عبد الله لم يستطلع الأمر فقط ، وإنما تمكن من قتل خالد بن سنان نفسه ، وبقتله تفرقت جموع من كان قد حشدهم لغزو مدينة الرسول ، وهكذا حقق رجل واحد من صحابة الرسول ﷺ مهمة تحتاج إلى جيش للقيام بها .

قصة أصحاب الرجيع [1] :

بينما كانت بعض القبائل تفكر في غزو المدينة، وكان النبي لهم بالمرصاد ، يرصد كل تحركاتهم ، ويفاجئهم في ديارهم قبل أن يتحركوا ، لجأت بعض القبائل إلى الغدر والخيانة ، فقد جاء وفد من عضل والقارة ؛ وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة ، إلى رسول الله ، فذكروا له أنهم قد أسلموا ، ورغبوا أن يبعث معهم نفرا من المسلمين يعلمونهم القرآن ، ويفقهونهم في الدين ، فبعث معهم ستة رجال ، مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم ابن ثابت بن أبي الأفلح ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنَّة ، وعبد الله بن طارق ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد ، فنهضوا مع القوم ، حتى إذا صاروا

---

(١) انظر تفاصيل قصة أصحاب الرجيع في الدرر لابن عبد البر ص ١٦٨ ، وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٦٠ ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٢٧ .

بالرجيع ؛ وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز ، استصرخوا عليهم هذيلا ، وغدروا بهم ، فلم يرع القـوم وهم في رحالهم إلا الرجال قـد غشوهم وبأيديهم السيوف . فأخذ المسلمون سيوفهم ليقاتلوهم ، فأمنوهم ، وأخبروهم أنهم لا إرب لهم في قتلهم ، وإنما يريدون أن يصيبوا بهم فداء من أهل مكة ، فأما مرثد وعاصم بن ثابت وخالد بن البكير فأبوا أن يقبلوا منهم قولهم ذلك ؛ وقالوا : والله لا قبلنا لمشرك عهدا أبدا ، وقاتلوا حتى قتلوا ، رحمة الله عليهم ، وأما زيد بن الدثنَّة وخبيب بن عدي وعبد الله بن طارق ، فأعطـوا بأيديهم فأسروهم ، وخرجـوا بهم إلى مكة ، فلما صاروا بمر الظهران ، انتزع عبد الله بن طارق يده من القرن - القيد - ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، ورموه بالحجارة حتى قتلوه ، وحملوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فباعوهما بمكة ، فأما زيد فاشتراه صفوان بن أمية بن خلف ، ليقتله بأبيه ، فدفع بـه إلى مولى له اسمه نسطاس ليقتله ، فلما قدم ليقتل ، قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال زيد : والله يا عدو الله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي ! فتعجب أبو سفيان ، وقال : ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمدا ، وقتل زيد شهيدا . وأما خبيب فعندما أخذوه ليقتلوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركـع ركعتين فافعلوا ، فتركوه يصلي ، فصلى ركعتين ، أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال لهم : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فرفعوه إلى خشبة ، فلما أوثقوه نظر إليهم شزرا ، وصاح قائلا « اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً » فأخذت القوم رجفة ، واستلقوا على جنوبهم ، حذر أن تصيبهم لعنته ، ثم قتلوه ، وهكذا استشهد خبيب ، كما استشهد زيد في سبيل الله .

لما وصلت أخبار هـؤلاء الشهداء الأبرار إلى رسول الله ﷺ ، حزن عليهم ، وشاركه المسلمون أحزانه ، على هؤلاء الرجال الذين راحوا ضحية

الغدر والخيانة من هذيل .

قصة أصحاب بئر معونة [1] :

وهذه قصة أخرى من قصص الغدر والخيانة ، التي تعرض لها المسلمون بعد أحد وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، قدم على رسول الله ﷺ ، فعرض عليه الإسلام ، فلم يقبل ، ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة . بل قال للرسول : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فخاف النبي على أصحابه ، وقال : « أخشى أن يغدروا بهم ، كما غدرت هذيل بخبيب وأصحابه » ولكن أبا براء طمأنه ، وقال له : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فليدعوا إلى أمرك ، وكان أبو براء رجلا مسموع الكلمة في قومه ، لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه .

استجاب الرسول لدعوة أبي براء ، وبعث المنذر بن عمرو الأنصاري في أربعين - وقيل سبعين - من خيرة شباب الأنصار القراء . فساروا حتى نزلوا بئر معونة - بين أرض بني عامر وحرة بني سليم في نجد - ثم بعثوا واحدا منهم ؛ هو حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل ، بكتاب من رسول الله ، فلم ينظر فيه بل قتل حامله ، واستصرخ بني عامر ليقتلوا المسلمين ، إلا أنهم أبوا أن يخفروا ذمة أبي براء وجواره ، فاستصرخ عليهم قبائل أخرى من بني سليم عصية ورعلان وذكوان ، فأحاطوا بهم وقتلوهم عدا ثلاثة رجال ، حزن الرسول حزنا شديدا على شهداء بئر معونة ، كما حزن من قبل على شهداء الرجيع ، وقال : « هذا عمل أبي براء ، لقد كنت لهذا كارها متخوفا » لكن أبا براء شق عليه ذلك لما بلغه ، حتى إن ابنه ذهب وطعن عامر بن الطفيل بالرمح انتقاما لشرف أبيه وجواره .

---

(١) انظر : الدرر لابن عبد البر ص ١٧٠ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٣ ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٢٩ .

وبلغ من حزن الرسول عليهم ، أنه ظل شهراً كاملاً يدعو الله بعد أداء صلاة الفجر أن يَنتقم من قتلتهم . وكانت هذه الحادثة في شهر صفر من العام الرابع الهجري .

غزو بني النضير وإجلاؤهم عن المدينة (١)

السبب المباشر لغزو بني النضير وإجلائهم عن المدينة هو تآمرهم على حياة النبي ﷺ وتفصيل ذلك ؛ أن عمرو بن أمية الضمري - أحد الثلاثة الذين نجوا من مذبحة بئر معونة - قابل أثناء عودته إلى المدينة رجلين من بني عامر ، فقتلهما انتقاما لما صنع عامر بن الطفيل بالمسلمين ، ولم يعرف أن هذين الرجلين اللذين قتلهما كانا قادمين من عند رسول الله ، وقد حصلا منه على أمان وجوار .

فلما قدم المدينة وأخبر الرسول بما صنع ، قال له : « بئس ما صنعت ! قد كان لهما منى أمان وجوار ، لأدينَّهما إلى قومهما » .

ولما كان بنو عامر حلفاء ليهود بني النضير ، وكان بين الرسول وبينهم عهود ، فقد ذهب الرسول إليهم يطلب معاونتهم ، فلما كلمهم تظاهروا بالموافقة وقالوا : « نعم يا أبا القاسم ، اجلس حتى تطعم ، وترجع بحاجتك ، فنقوم ونتشاور ، ونصلح أمرنا فيما جئتنا له ، فقعد رسول الله ﷺ ، مع أبي بكر وعمر وعلي ، ونفر من الأنصار ، إلى جدار من جدرهم .

فاجتمع بنو النضير ، وقالوا : من رجل يصعد على ظهر البيت فيلقي على محمد صخرة فيقتله ، فيريحنا منه ؟ فإنا لن نجده أقرب منه الآن ، فانتدب

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩١ وما بعدها ، والدرر لابن عبد البر ص ١٧٤ وما بعدها ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ١٥ ، والمنهج التربوي للسيرة النبوية جـ ٢ ص ٨١ وما بعدها .

لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فأعلم الله عز وجل رسوله ﷺ ، بما ائتمروا عليه ، فقام ولم يشعر أحدا ممن معه ، ونهض إلى المدينة ، فلما استبطأه أصحابه أقبل رجل من المدينة فسألوه ، فقال : لقيته وقد دخل أزقة المدينة . فقالت اليهود لأصحابه ، لقد عجل أبو القاسم ، قبل أن نقيم له حاجته ، فقام أصحابه ، ولحقوه بالمدينة ، فأخبرهم بما أوحى الله عز وجل إليه ، مما أرادت اليهود فعله به . هذا ملخص المؤامرة ، كما روته أوثق مصادر الحديث الشريف والسيرة النبوية .

ولعل يهود بني النضير ظنوا أن شأن المسلمين قد ضعف في المدينة ، وقد نال من مكانتهم ما حل بالمسلمين في الرجيع وبئر معونة ، وإجتراء الأعراب على قتل المسلمين بالجملة ، فأقدموا على ارتكاب هذه الجريمة البشعة ، فكان لابد من أن يلقنهم الرسول درسا قاسيا ، ما داموا لم يعتبروا بما حلّ ببني قينقاع ، من جراء غدرهم وغطرستهم ، فقرر فرض الحصار عليهم وطردهم من المدينة وأرسل محمد بن مسلمة الأنصاري ، يبلغهم قراره . وقال له : « إذهب إلى يهود بني النضير ، وقل لهم : إنَ رسول الله أرسلني إليكم ، أن اخرجوا من بلادي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم ، بما هممتم به من الغدر بي ، لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » أسقط في أيدي بني النضير فهم يعرفون الجدّ والحسم في قرارات الرسول ، وهمّوا بالإستجابة ، إلا أن منافقي المدينة ، بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول ، أرسلوا إليهم أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه ، اغتر اليهود بمساعدة المنافقين الموهومة ، وركبوا رؤوسهم ، وهددوا بالقتال ، وأرسلوا إلى الرسول من يقول له : إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا فاصنع ما بدا لك . أمام هذه الغطرسة ضرب الرسول ﷺ عليهم الحصار وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم فلم تغن عنهم شيئا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وإمعانا في التضييق عليهم وإفهامهم ألا أمل لهم في المقاومة ، أمر النبي بقطع نخيلهم ، وهذا لم يكن من عادته ، فقد كان ينهي عن

قلع الأشجار والزروع وحرقها في الحروب ، ولكن هذه حالة استثنائية أذن له الله فيها لردع هؤلاء الخونة الغادرين ، الذين لا يرعون عهدا ولا ذمة ؛ ولذلك لما قالوا في جزع : يا محمد كنت تنهي عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ، تولى الله تعالى الرد عليهم ، فقال تعالى مخاطبا رسوله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ (١) .

اشتد الكرب عليهم ، وانتظروا عبثا مساعدة المنافقين التي وعدوهم بها ، ولكنها لم تأت أبدا ، لأنها وعود كاذبة ، ونصر زائف ، وذلك باخبارالحق سبحانه وتعالى ، حيث قال في شأن المنافقين ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوايقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون (١١) لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (٢) .

يئس بنو النضير من نصرة المنافقين ، وإشتدت عليهم وطأة الحصار ، فلم يجدوا بداً من التسليم ، فسألوا الرسول ﷺ ، أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم ، ويخرجوا من المدينة .

فوافق بشرط أن يخرجوا ، بدون سلاح ، كل ثلاثة على بعير ، يحملون عليه ما شاءوا من طعام وشراب ، ليس لهم غيره ، فخرج بعضهم إلى خيبر ، وبعضهم إلى ضواحي الشام .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٥ .

(٢) سورة الحشر الآيتان ١١ ، ١٢ ، والسورة بتمامها نزلت بشأن بني النضير ، وفيها تفصيل ما حلَّ بهم ، وانظر : مختصر تفسير ابن كثير عن كيفية تصرف الرسول ﷺ في أموال بني النضير .

وتركوا وراءهم أسلحة وغنائم كثيرة للمسلمين ، منها خمسون درعا وثلاثمائة وأربعون سيفا ، وأموالا وغلالا عظيمة . وقد قسم النبي هذه الأشياء بين المسلمين ، لأنها أموال غير ثابتة ، أما الأرض فلم تقسم بين المسلمين ، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء .

وبهذا تطهرت المدينة من شر يهود بني النضير ، كما تطهرت من قبل من شر بني قينقاع ، ولم يبق إلا أمر بني قريظة ، وسيأتي دورهم .

وقد أسلم من بني النضير رجلان ، وهما يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذي همَّ بقتل النبي ، والآخر أبو سعيد بن وهب فترك لهما الرسول أموالهما .

غزوة ذات الرقاع

يبدو أن القبائل العربية ـ خاصة غطفان ـ لم تكف بعد عن التفكير في الإغارة على المدينة ، وهذه قبائل بدوية ، والإغارة للسلب والنهب من طبيعتها ، فبعد إجلاء بني النضير بحوالي شهرين ، نما إلى علم الرسول ، أن بني محارب وبني ثعلبة ؛ من غطفان يريدون حربه وغزو المدينة ، فخرج ﷺ في أربعمائة من أصحابه ، حتى نزل ذات الرقاع [1] من أرض نجد ، فلما رأوه طلع عليهم في عدة حربه مهاجما مساكنهم ، خافوه وهابوه ، ولم يحدث قتال .

ومع أن هذه الغزوة لم يحدث فيها قتال ، إلا أنها حققت الهدف منها بالنسبة للمسلمين ، فقد أكدت لهؤلاء الأعراب أن المدينة أمنع من أن ينالوا

---

(١) يقول ابن اسحاق : وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، ويقال ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع ، انظر : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٤ .

منها ، وأن الرسول ﷺ قادر على نقل المعركة إلى ديارهم في أي وقت ، وهذه هي سياسة الردع التي سار عليها في تلك الفترة كما سترى في الغزوة التالية .

غزوة بدر الآخرة ، أو الثالثة

نذكر أن أبا سفيان بن حرب قد توعد المسلمين بحرب أخرى بعد أحد ولم ينس رسول الله هذا الوعد ، واستعد له وخرج لملاقاته في شعبان سنة ٤ هـ أما أبو سفيان نفسه ، فقد تردد في الخروج ، لأن السنة كانت جدباء عليهم ، ولكن كيف لا يخرج ، وهو الذي ضرب الموعد ؟ قطع التردد وخرج ، لكنه ما أن بلغ مر الظهران حتى بدا له الرجوع - جبنا وهلعا من لقاء الرسول - فقال لرجاله : « يا معشر قريش إن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا » ، فرجع الناس فسمّاهم أهلة مكة ، جيش السويق - استهزاء واستخفافا بهم - يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

هذا ما كان من أمر أبي سفيان ، أما الرسول ﷺ فقد وصل إلى بدر ، ينتظر جيش قريش ، الذي لم يصل قط ، فأقام ثمانية أيام متتابعة ، قضاها المسلمون في أمن وأمان ، واتجروا وربحوا وعادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل الله ونعمته .

وقد سجل المسلمون في هذه الغزوة نصرا معنويا رائعا بينما باء أبوسفيان وجمعه بالخزي والعار ، وكانت هذه العودة أقسى من هزيمة عسكرية في ميدان القتال . ومحت تماما ما يمكن أن يكون باقيا في مكة من زهو بنصرهم المحدود في أحد . ومن هذه اللحظة سيتحول تيار القوة إلى صالح النبي بشكل كامل . وصدق حدسه ، عندما قال بعد « لن ينال منا المشركون بعدها حتى يفتح الله علينا » .

غزوة دومة الجندل [1]

مواصلة لسياسة ردع القبائل العربية التي استخفت بشأن المسلمين بعد ما حدث في أحد ، قام النبي ﷺ بغزو منطقة دومة الجندل ؛ وهي واحة تقع على التخوم بين شبه جزيرة العرب وبلاد الشام ، في منتصف المسافة تقريبا بين البحر الأحمر والخليج العربي ، وهي أبعد مسافة ؛ شمال المدينة وصلت إليها الغزوات حتى ذلك الوقت ، وهو شهر ربيع الأول من العام الخامس الهجري ، وسبب تلك الغزوة أن القبائل في تلك المنطقة النائية دأبت على الإغارة على القوافل التجارية للمسلمين ، التي كانت تمر من هناك فأراد النبي أن يؤدبهم ، ويقلم أظافرهم ، ولكن تلك القبائل ما أن سمعت بمسيره إليها حتى أخذها الفزع ، واستولى عليها الرعب ، وولت الأدبار ، فاكتفى منهم بذلك ، ولم يلاحقهم ، لأنه لم يجعل الحرب هدفا له ، وإنما هي وسيلة لتأديب من يستحق الأدب ، فإذا هرب الناس من وجهه ، فهذا يكفي . وعاد إلى المدينة ، دون أن يلقي كيدا أو حربا .

ترى من هذا التحديدالجغرافي لدومة الجندل ، مبلغ ما اتسع نفوذه ﷺ وأصحابه ، وما بلغ إليه سلطانهم ، وخوف شبه الجزيرة إياهم ، وكيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم ، مستهينين بالقيظ والجدب وقلة الماء ، مستهيتين بالموت نفسه ، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد ؛ هو سبب قوتهم المعنوية : الإيمان بالله وحده لا شريك له .

عاد الرسول إلى المدينة ليواصل جهاده في مواصلة التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية الناشئة ، تنظيما كان يتناول عدة ألوف يومئذ ، ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك ، ويقوم بهذا التنظيم الاجتماعي في دقة

---

(١) انظر أخبار تلك الغزوة في سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٢٨ ، والدرر لابن عبد البر ص ١٧٨ .

وحسن سياسة ، يوحي إليه ربه منه ما يوحي ، ويقر هو ما يتفق مع أمر الوحي وتعاليمه ، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ ، وما ظل من بعد ذلك قائما على الأجيال والدهور (١) .

ولا يخفي مغزى ما في غزوة دومة الجندل وهي على تخوم شبه جزيرة العرب والشام ـ حيث تسيطر الدولة البيزنطية ـ من بعد نظر سياسي للنبي ﷺ ، حيث أراد أن يلفت نظر المسلمين إلى خطورة تلك الدولة على الإسلام ودولته ، وسوف تثبت الأحداث التاريخية بعد ذلك ، صدق نظرته ، فبعد دومة الجندل ، ستأتي غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، ثم بعث اسامة ثم الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين .

غزوة الخندق (٢)

هذه الغزوة من أخطر الغزوات في التاريخ العسكري للرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن قريشا حشدت فيها بتأليب اليهود وتحريضهم أكبر جيش لمحاربة الرسول ـ عشرة آلاف ـ بقصد استئصال شأفة الاسلام والمسلمين مرة واحدة . ويلخص ابن عبد البر دور اليهود الخطير في هذه الغزوة ، فيقول : « ثم كانت غزوة الخندق في شوال من السنة الخامسة ـ للهجرة ـ وكان سببها أن نفرا من اليهود ، منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وسلام بن يشكم ، وحيي ابن أخطب النضريون ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار من بني وائل ؛ وهم كلهم يهود ، وهم الذين حزّبوا الأحزاب ، وألّبوا وجمعوا ، وخرجوا في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، فأتوا مكة ، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله

---

(١) حياة محمد ، مرجع سابق ص ٣١٤ .

(٢) راجع أخبار غزوة الخندق ، في الدرر لابن عبد البر ص ١٨١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٣٠ وما بعدها ، والمنهج التربوي للسيرة النبوية جـ ٢ ص ١٧٧ وما بعدها .

ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان ، فدعـوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم » .

هذا دور اليهود في تأليب قريش وغطفان ، على النبي وأصحابه ، ولكي تكتمل لديك خطورة ذلك الدور في سياق واحد ، إليك دورهم في حمل يهود بني قريظة على نقض عهودهم مع النبي ، وارتكاب أبشع جريمة خيانة ، في أصعب الأوقات وأحرجها .

يقول ابن عبد البر : « وخرج عدو الله ؛ حيي بن أخطب النضري ، حتى أتى كعب بن أسد القُرظي ؛ وكان صاحب عقد بني قريظة ورئيسهم ، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاقده وعاهده ، فلما سمع كعب بن أسد بحيي بن أخطب ، أغلق دونه باب حصنه ، وأبى أن يفتح له ، فقال له : افتح يا كعب بن أسد ، فقال : لا أفتح لك فإنك رجل مشئوم ، تدعوني إلى خلاف محمد ، وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر فيه إلا وفاء وصدقا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، فقال حيي : افتح لي حتى أكلمك فانصرف عنك ، قال لا أفعل ، قال : إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك ـ أي طعامك ـ فغضب كعب وفتح له ، فقال له إنما جئتك بعز الدهر : جئتك بقريش وسادتها ، وغطفان وقادتها ، قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه ، فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام[1] لا غيث فيه ، ويحك يا حيي ! دعني ، فلست بفاعل ما تدعوني إليه ، فلم يزل حيي بكعب يعده ويغره ، حتى رجع إليه ، وعاهده على خذلان النبي ﷺ وأصحابه » [2] هذا الكلام لا يحتاج إلى شرح ، بل إن حقد اليهود على الإسلام لم يقف عند هذا الحد ، بل أعمى بصائرهم فتورطوا في الكذب لدفع قريش والأحزاب لحرب النبي ، ذلك أن قريشا كانت مترددة في الأمر ، فسألت

---

(١) الجهام : السحاب غير الممطر .
(٢) الدرر لابن عبد البر ص ١٨١ - ١٨٢ .

اليهود باعتبارهم أهل كتاب ، أدينهم خير أم دين محمد ؟ فقال اليهود : بل دينكم خير من دينه وأولى بالحق [١] ، فنزل قوله تعالى يسجل عليهم الكذب ويلعنهم في ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ [٢] هذا الموقف المخزي من اليهود أدانه باحث يهودي مثلهم ومن جنسهم ، وهو الدكتور اسرائيل ولفنسون ، في كتابه : « تاريخ اليهود في بلاد العرب » فقد قال : « كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش ، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الاسلامي ، ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم ... كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم ، وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة ؛ التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام ، وبالوقوف منهم موقف الخصومة » [٣] هذا كلام باحث يهودي ؛ وشهد شاهد من أهلها . تشجعت قريش وتركت ترددها بفضل تحريض اليهود ، وأخذت تحشد رجالها وحلفاءها وأحابيشها ، وكانوا جميعا حوالي أربعة آلاف رجل ، وكان صاحب لوائهم عثمان بن طلحة وكذلك فعلت غطفان ، وفزارة وأشجع وبنو سليم وبنو أسد ، وكانوا حوالي ستة آلاف ، وكان القائد العام أبو سفيان .

كيف واجه النبي الموقف ؟ :

الحق أن النبي لم يستبعد أن تهاجمه قريش في أية لحظة ، فالهجوم نفسه لم يكن مفاجئا ، وإنما المفاجئة في هذا العدد الكبير ، وهذا التكتل القبلي الذي

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٣٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥١ - ٥٢ .

(٣) نقلا عن حياة محمد للدكتور هيكل ص ٣٢٩ .

لم يسبق له مثيل ، والذي نجح اليهود في تاليبه على المسلمين ، وإذا كان إيمان النبي ﷺ ، بربه لم يدع اليأس يعرف طريقه إلى قلبه ، لثقته في نصره وتأييده ، فليس مستغربا أن يفزع بعض المسلمين عند سماع تلك الأخبار ، ولعل بعضهم فكر بينه وبين نفسه ، إذا كانت قريش قد نالت منهم وحدها في أحد ، وهي أقل من هذا العدد بكثير ، فماذا يصنع المسلمون لمقابلة هذه الألوف المؤلفة ، الحق أنه كان موقفا عصيبا .

حفر الخندق :

عندما انتهت إلى النبي أخبار الأحزاب ، جمع أصحابه للتشاور . كدأبه دائما في مثل هذه الأمور- التي لم ينزل بشأنها وحي - ويبدو أن الخروج خارج المدينة لم يكن واردا ، فتجربة أحد لازالت حية أمامهم ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، إذن لابد من التحصن ، والاستعداد لحصار طويل ، وهنا جاءت الفكرة الرائعة التي أشار بها سلمان الفارسي ، وهي حفر خندق في الجهة المكشوفة من المدينة ، وهي الجهة الشمالية الغربية ، أما بقية الجهات فكانت محصنة تحصينا طبيعيا بحرار وغابات من النخيل واقتنع النبي بالفكرة ووافق عليها ، وبدأ العمل على الفور ، واشترك بنفسه في الحفر ، الذي استغرق ستة أيام ، ظهرت خلالها آيات ومعجزات كثيرة على يدي النبي ﷺ منها ، أنه عندما واجهت المسلمين صخرة صلدة ، واستعصت عليهم ، استغاثوا به ، فضربها بالفأس ضربة طار منها الشرر ، وقطع منها الثلث ، وقال : « الله أكبر ، فتح قيصر - أي بلاد قيصر - والله إني لأرى القصور الحمر ، ثم ضرب الثانية ، فقطع منها الثلث الثاني . وقال : الله أكبر ، فتح كسرى - أي بلاد كسرى - والله إني لأرى القصور البيض ، ثم ضرب الثالثة ، فقطع الثلث الباقي ، وقال : الله أكبر فتح اليمن ، والله إني لأرى باب صنعاء ، وقد نصر الله عبده ، وصدق وعده ، والحمد لله رب العالمين » [1] صدقت يا رسول الله ، فوالله لكأنك في

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص ١٨٠ - ١٨١ .

هذا اليوم سلمت مفاتيح تلك البلاد لأصحابك ، فقد فتحوها كلها بعد لقائك ربك في أقل من عشر سنوات ، في خلافة صاحبيك ، أبي بكر وعمر ﷺ ، في أثناء حفر الخندق ، كان هناك من يقوم بتحصين المنازل التي تواجه العدو ، ونقل النساء والأطفال إلى منازل أخرى بعيدة عن متناوله وجمعت الأحجار إلى جانب الخندق ، لتكون سلاحا يرمي به عند الضرورة .

لما أكمل النبي حفر الخندق ، وأخذ كل استعداداته ، خرج في ثلاثة آلاف ، وضرب معسكره ونصبت له خيمة القيادة ، وكانت حمراء ، وجعل ظهره إلى جبل سلع ، والخندق بينه وبين جيوش الأحزاب .

قريش تفاجأ بالخندق :

أقبلت قريش وبقية الأحزاب ، وما يشكون لحظة في أن مهمتهم في القضاء على النبي وأصحابه قضاءا مبرما ، ستكون سهلة ، وظنت أنها ستلقي النبي عند أحد كالمرة السابقة ، فإذا بالمفاجأة الكبرى في انتظارها !! الخندق ، ذلك الذي لم يحسبوا له حسابا قط ، لأن هذا النوع من التحصينات لم يعرفه العرب في حروبهم الصحراوية ، واغتاظت قريش وحلفاؤها غيظا شديد ، ومن قلة الحيلة أمام هذا المانع الذي لا سبيل لهم إلى عبوره ، وعسكر الأحزاب جميعا خارج الخندق نحو شهر ، لم يكن هناك حرب إلا الرمي بالنبل والحصا ، وإلا محاولة بعض رجال منهم اقتحام الخندق من أضيق مكان لكسر الجمود ، ولرفع الروح المعنوية للأحزاب ، وكان هؤلاء الرجال هم ، عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فتصدى لهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين ، وأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحمت منها خيولهم ، وتقدم فارسهم عمرو بن عبدود ، ينادي في زهو من يبارز فقال علي أنا ، لكنه رد علي في صلف وغرور قائلا : لم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك . قال علي : لكني والله أحب أن أقتلك ، فتنازلا فقتله علي ، وفرت خيل الأحزاب مهزومة ،

لم تجد هذه المحاولة من جانب الأحزاب نفعا ، بل زادتهم يأسا لفقد فارس معلم كعمرو بن عبدود .

اشتداد الكرب على المسلمين :

على الرغم من حفر الخندق ، وكل ما أخذه الرسول من استعدادات إلا أن البلاء عظم على المسلمين ، فهذه أول مرة يواجهون هذا الموقف العصيب والحصار الطويل ، وليس هناك وصف أصدق ولا أدق من وصف القرآن الكريم ، للحال التي أصبح فيها المسلمون من البلاء ، حيث قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنود لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ [١] .

أهل الإيمان الصادق ، لم يهتزوا أبدا ، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، أما المنافقون فقد أراد الله أن يفضحهم ، فأظهروا ما كانوا يسرون ، فمنهم من قال يبرر هروبه ، ان بيوتنا عورة ، نخاف عليها ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون إلا فرارا ﴾ [٢] ومنهم من قال : « إن محمدا كان يعدنا أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » . وفيهم يقول الله تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ [٣].

وهكذا أخذ المنافقون يبثون الأكاذيب والأراجيف ، ويشككون في صدق وعود الله ورسوله .

---

(١) سورة الأحزاب ، الايات ٩ - ١١ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية ١٣ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ١٢ .

محاولات الرسول لإزاحة الغمة :

رأى الرسول اشتداد البلاء على المسلمين فاجتهد لإزاحة هذه الغمة ، فرأى أن كثيرا من القبائل التي شاركت في هذا الحلف الشيطاني ، كان هدفها السلب والنهب ـ خاصة قبائل غطفان ـ فانها ما اشتركت في هذا الحلف من أجل مبدأ تدافع عنه ، بل لتعود محملة بالغنائم ، فلماذا لا يلوح لها بشيء من المال ، لترجع وتفارق قريشا ، ويكسر هذا الحلف ؟ وفعلا اتصل بزعمائهم ، عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، وعرض عليهما ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بمن معهما من قومهما ، فوافقا ، وكان هذا اجتهادا من الرسول ، ومجرد عرض وليس عقداً ، فكان لابد من استشارة كبار الصحابة ، خاصة أهل المدينة ، فاستدعى السعدين ، سعد بن عبادة ، سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس . وذكر لهما ما دار بينه وبين زعماء غطفان ، وطلب رأيهما ، فقالا : يا رسول الله : أهذا أمر تحبه فنصنعه لك ؟ أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ؟ أو أمر تصنعه لنا ؟ قال : « بل أمر أصنعه لكم ، والله ما أصنعه إلا لأنني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشراء أو قرى [١] أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك ، وأوقف المفاوضات مع زعماء غطفان ، نزولا على رأي زعماء الصحابة .

رسول الله يعلم نقض بني قريظة لعهودهم معه :

بينما يكابد المسلمون موقفا من أحرج المواقف التي واجهوها ، بل هو أحرجها على الإطلاق ، والرسول يجتهد ويفكر في طريقة للخروج من هذا

---

(١) القرى : الضيافة .

الكرب والبلاء العظيم ، إذا بالأخبار تصله بأن يهود بني قريظة نقضوا عهودهم معه ، ووعدوا قريشا وحلفاءها بنصرتهم والانضمام إليهم عند نشوب القتال ، بل إن بعض رجال بني قريظة بدءوا ينزلون من حصونهم إلى منازل المدينة لإرهاب المسلمين ، ومعرفة أخبارهم لابلاغها إلى الأحزاب ، وكانت هذه أخبار مزعجة حقا ، وقد مر بك مسعى يهود بني النضير في حمل بني قريظة على نقض عهودهم مع النبي ، وكيف استجابوا هم لذلك . أراد النبي أن يتأكد من تلك الأخبار ، فأرسل سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، في نفر من المسلمين ، إلى بني قريظة ليقفوا على حقيقة أمرهم ، وقال لهم : « انطلقوا إلى بني قريظة ، فإن كان ما قيل لنا حقا ، فالحنوا لنا لحنا نعرفه [١] ، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين ، وإن كان كذبا فاجهروا به للناس » فانطلقوا ، حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا لا عهد له عندنا ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكانت فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : « دع عنك مشاتمتهم ، فالذي بيننا وبينهم أكبر من المشاتمة » عاد الصحابة وأخبروا الرسول بما علموا ، فقال ﷺ : « أبشروا يا معشر المسلمين » [٢] .

أول بشائر النصر :

يقول الله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا ﴾ [٣] .

ومن أمثال العرب الحكيمة قولهم : اشتدي أزمة تنفرجي . وسط هذا

---

(١) يقصد الرسول أنه إذا كان خبر نقض بني قريظة عهدهم صحيحا ، فيكلموه بكلام فيه تورية يفهمه هو ولا يفهمه غيره لئلا يؤثر على الناس ومعنوياتهم ، ولذلك لما وجدوا الخبر صحيحا عادوا وقالوا له : عضل والقارة ، يعنون أنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع .

(٢) الدرر لابن عبد البر ص ١٨٣ .

(٣) سورة الانشراح ، الآيتان ٥ ، ٦ .

الكرب العظيم ، والبلاء المبين ، لمعت بارقة أمل ، وللعجب جاءت من معسكر الأعداء أنفسهم ، ذلك أن نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي ، قد هداه الله تعالى إلى الإسلام ، وألهمه أن يخفي إسلامه عن قومه ، وأن يذهب إلى الرسول يعرض نفسه عليه ليأمره بما يشاء ، فذهب وقال : « يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، ولم يعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت ، فخذّلت عنا ، كان أحب إلينا من بقائك ، فاخرج فإن الحرب خدعة » معنى هذا أن الرسول كلفه بأن يحتال لتفريق هذه الجموع المحتشدة حول المدينة .

فخرج نعيم حتىٰ أتى بني قريظة ، وكان ينادمهم في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودِّي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : قل ؟ فلست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا نُهْزةَ ـ فرصة ـ أصابوا ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا . ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لهم : قد عرفتم ودِّي لكم ، وفراقي محمدا ، وقد بلغني أمر ، أرى من الحق أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا عليَّ ، قالوا : نفعل ، قال : أتعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من خلافهم محمدا ؟ وأرسلوا إليه . إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم إليكم لتضربوا أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم ، حتى نستأصلهم ، ثم أتى غطفان فقال : لهم مثل ذلك [1] .

---

(١) الدرر المصدر السابق ص ١٨٧ .

نجاح خطة نعيم في تفريق الأحزاب :

نجحت تلك الخطة نجاحا باهرا ، ذلك أن أبا سفيان أراد أن يتأكد من صحة ما قاله له نعيم ، فأرسل عكرمة بن أبي جهل على رأس وفد من قريش وغطفان إلى يهود بني قريظة فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، فأغدوا صبيحة غد للقتال ، حتى نفاجيء محمدا فقالوا لهم : إن غدا يوم السبت ـ وكان هذا من صنع الله لرسوله وللمؤمنين ـ ونحن لا نعمل فيه شيئا ، وقد علمتم ما نال من تعدى في السبت منَّا ، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رُهُناً ، فقالت قريش لقد صدقنا والله نعيم بن مسعود ، وردَّوا على اليهود فقالوا لهم : والله لا نعطيكم رهنا أبدا ، فاخرجوا معنا إن شئتم ، وإلا فلا عهد بيننا وبينكم ، فقال بنو قريظة : صدق والله نعيم بن مسعود . وهكذا خذَّل الله بين الأحزاب واليهود واختلفت كلمتهم .

ما سبق كان تدبيـرا بشريا من نعيم بن مسعـود ، بإلهـام الله وتوفيقه ، وكان بداية البشارة التي بشر الله بها المسلمين ، ثم جاء المدد الالهي ، جنـد الله ، « فأرسلنا عليهم ريحا وجنود لم تروها » .

في هذا الجو من الارتباك والاحباط في معسكر المشركين ، أرسل الله عليهم ريحا عاصفة ، لم تعهدها المدينة من قبل ، في ليال شديدة البرد ، فقلبت خيامهم وكفأت قدورهم ، ولم يعودوا يطيقون البقاء ، وقد أراد الرسول أن يعرف أثر مسعى نعيم بن مسعود في معسكرهم ، فأرسل حذيفة بن اليماني ، فاندس بينهم . فسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما يستمسك لنا بناء ، ولا تثبت لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ووثب على جمله ، وتبعه الجميع .

عاد حذيفة وأبلغ رسول الله تلك الأخبار العظيمة ، فقال : « الحمد لله »

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً ﴾ [١] .

زالت الغمة ، وانكشف الكرب ، وعادت قريش تجر أذيال الخيبة ، منكسة الرؤوس . وكانت هذه آخر محاولة تستطيع القيام بها ضد الرسول والمسلمين ، وأدرك هو ﷺ ، حقائق الموقف ، وكان تعليقه بعد رحيل الأحزاب ، « من الآن لا تغزونا قريش ، بل نحن نغزوهم » .

فمن أعظم نتائج غزوة الخندق ، أن النصر ولد من البلاء ، ومن حيث كان تظن الهزيمة ، وأن تيار القوة أصبح في صالح الرسول ﷺ .

وسينتهي الأمر باستسلام قريش في نهاية المطاف . أما الآن فلا بد من تصفية الحساب ، مع الخونة ، بني قريظة ، الذين أرادوا القضاء على الإسلام مرة واحدة .

القضاء على آخر وكر للخيانة في المدينة :

ما أن وضع الرسول والمسلمون أسلحتهم ، بعد رحيل الأحزاب ، يُمَنُّون أنفسهم بقسط من الراحة ، بعد هذا العناء الشديد ، إذا بجبريل عليه السلام يأتي ويقول : للرسول « يا محمد إن كنتم قد وضعتم سلاحكم ،فما وضعت الملائكة سلاحها ، إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة ، وإني متقدم إليهم ، فمزلزل بهم » [٢] سمعا وطاعة لأمر الله . نادى رسول الله على الفور في الناس بأمر عسكري جازم : « لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » [٢] .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢٥ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ص ١٨٨ .

سارت كتائب الإسلام ، ملبية نداء رسولها ، فحاصرت الخونة ، ولما اشتد وطال عليهم الحصار - نحو خمسة وعشرين يوما - عرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد ، ثلاث خصال يختارون أيها شاءوا ؛ لأنه أدرك حجم الخيانة التي إرتكبوها ، والعقاب الذي ينتظرهم ، هذه الخصال هي :

١ - أن يُسْلموا ويتبعوا محمدا على ما جاء به ، فَيسْلَموا ، ويحرزوا أبناءهم ونساءهم ، وأموالهم ، وقال لهم : « إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه في كتابكم » [١] وهنا نطق بالحق ، فهم يعرفون صدق نبوة النبي ، كما يعرفون أبناءهم .

٢ - الخصلة الثانية : أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ، ثم يتقدموا فيقاتلوا حتى يموتوا عن آخرهم .

٣ - أن يفاجئوا المسلمين في ليلة السبت ، وهم في طمأنينتهم بأن اليهود لا يقاتلون ليلة السبت - فيقتلوهم قتلا .

هذه هي مقترحات ، أو نصائح كعب بن أسد لقومه ، ولكنهم رفضوها جميعا وقالوا عن الأولى : « أما الاسلام فلا نسلم ولا نخالف التوراة » وكانوا كاذبين ، لأن التوراة تأمرهم باتباع النبي .

وقالوا عن الثانية : « وأما قتل أبنائنا ونسائنا ، فما ذنب هؤلاء المساكين أن نقتلهم » .

وقالوا عن الثالثة « نحن لا نتعدى في السبت » بعد هذا لم يكن أمامهم مفر من أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، عندئذ ذهب نفر من

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

الأوس - وكانوا حلفاءهم - إلى رسول الله ، يشفعون فيهم ، كما شفع عبد الله ابن أبي في بني قينقاع ، فقال لهم رسول الله ﷺ « يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى . قال : « فذاك سعد بن معاذ » فحكم سعد فيهم أن يقتل رجالهم وتسبي الذراري والنساء ، وتقسم الأموال . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » (1) ثم أمر رسول الله ، بجمعهم في سوق المدينة ، فضربت أعناقهم ، وحفر لهم خندق دفنوا فيه وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة .

وقسم أموالهم ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، وقيل سهمين وللراجل سهم واحد (2) ، وهكذا نال هؤلاء الخونة جزاءهم العادل على جريمتهم النكراء ، وطهرت المدينة من شرهم ، ومكرهم ، وكيدهم . إذ لو نجحت مؤامرتهم مع الأحزاب ، لكان فيها القضاء المبرم على الإسلام والمسلمين ، فما جزاء من يرتكب الخيانة ضد دولته مع أعدائها في وقت الحرب سوى القتل في كل الشرائع والقوانين ، وكما عقب القرآن الكريم على عودة الأحزاب خائبين ، بقوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً ﴾ (3) عقب على خيانة بني قريظة ، ومصيرهم نتيجة لذلك ، بقوله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ (4) .

---

(1) المصدر السابق ص ١٩٢ . والأرقعة : جمع رقيع ، وهي السموات ، سميت كذلك لترقيعها بالنجوم .

(2) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(3) سورة الأحزاب ، آية ٢٥ .

(4) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٦ - ٢٧ .

سورة الأحزاب وما جاء فيها من أحكام وآداب

إزدادت قوة المسلمين وهيبتهم في المدينة ، عقب هزيمة الأحزاب ، والقضاء على بني قريظة ، فخفت صوت المنافقين ، وأصبح لا حديث للعرب في كل أنديتهم إلا عن انتصار النبي على الأحزاب وعلى اليهود ، والحق أن قوة المسلمين عندئذ كانت هي القوة الأولى في شبه جزيرة العرب ، القوة المتماسكة ، خلف قيادة حكيمة .

لكن الرسالة الإسلامية لم تكن للمدينة وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، وإنما للعالم بأسره ، لذلك كان لا يزال أمام النبي وأصحابه صعاب ومشقات ، وعقبات لابد أن يزيلوها ، من أمام الدعوة ، حتى يبلغوها للعالمين ، وهذا هو ما فعلوه . وقبل أن نستأنف الحديث عن جهادهم ، نود أن ننوه بسورة الأحزاب ، التي نزلت على الرسول ، وسميت باسمهم ، لأنها فضلا عن بيانها عما حدث من دور اليهود ، وتأليبهم العرب في المسلمين ، واشتداد البلاء عليهم . جاءت بالعديد من الأحكام الشرعية ، والتوجيهات التربوية التي أسهمت في بناء المجتمع الإسلامي على العفة والطهر والتقوى . فبدأت السورة بالنهي عن عادة جاهلية ؛ هي عادة التبني ، التي كان معمولا بها ، وكان الابن بالتبني يكتسب الحقوق الشرعية كاملة كالابن من الصلب ، وعلى هذا الأساس كانت صلة زيد ابن حارثة بالنبي ﷺ ، فجاء الوقت الذي لابد أن ينتهي فيه هذا الوضع الشاذ الذي كان يحرم ذا الحقوق من حقوقه ، وينافي القاعدة المقررة في القرآن ، بقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ (١) . ولأن هذه القاعدة كانت متمكنة من الحياة العربية الجاهلية ، تمكن قاعدة أخرى ، هي العصبية ، فقد أراد الله تعالى أن يقضي على العادتين معا في وقت واحد ، وأن يكون شخص النبي ﷺ هو أول من يبدأ ، ولا أحد غيره يستطيع أن يغير ما

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦ .

استقر عليه العرف الجاهلي أجيالا وأجيالا ، ذلك أن زيد بن حارثة كان يدعي زيد بن محمد ، وقد خطب له النبي زينب بنت جحش ابنة عمته ، أميمة بنت عبد المطلب ، فلما تأبت وترفعت عليه لشرفها وحسبها ونسبها ، نزل القرآن يلزمها بقبوله زوجا ، حيث قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (١) فقبلت ، وتم الزواج ، ولكنها ظلت على تعاليها على زيد ، فلم تقبل عزة نفسه ذلك التعالي ، فطلقها ، ليتزوجها النبي بأمر من الله تعالى . وبهذا علم الناس بطريقة عملية فساد نظام التبني وبطلانه شرعا ، لأن النبي تزوج امرأة من كان يدعى ابنه ، وكان ذلك محرما قبل ذلك . وقال الله تعالى في هذا الشأن : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك وإتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ (٢) .

ومن الآداب العامة الجليلة التي جاءت بها سورة الأحزاب ، تلك التوجيهات الربانية لنساء النبي ، وأنهن لسن كبقية النساء ، فهن المثل الأعلى لكل النساء في كل زمان ومكان ، فإذا كن يفتقدن الحياة المترفة الناعمة ، التي قد ينعم بها من هن أقل منهن شأنا من النساء ، فليعلمن أن علو الشأن ليس بترف العيش وليتذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة ، فهن في أطهر بيت ، وفي عصمة أطهر إنسان ، ألا يكفي ذلك تعويضا عن نعومة الحياة وترف العيش ، فليرتفعن إلى هذا المستوى العالي ، الذي أراده الله لهن ، وليقرن في بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض (٣) ، وليكن المثل الأعلى في العفة والطهر .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٧ .

(٣) راجع الآيات ٢٨ - ٣٤ من سورة الأحزاب .

ثم يأتي بعد ذلك درس تربوي عظيم لصحابة رسول الله ، حيث علمهم الله تعالى ، كيف يدخلون بيوت النبي ، ومتى ؟ فلا يدخلون إلا بدعوة ، وإذا دعوا إلى طعام ، فليخرجوا بعد تناول الطعام ، ولا يطيلوا المكث لأن ذلك كان يؤذي النبي ، وكان يستحي أن يظهر لهم استياءه ، ولكن الله لا يستحي من الحق .

كما علم الله المسلمين أنه إذا كانت لأحدهم حاجة عند إحدى نساء النبي فليسألها من وراء حجاب ، فذلك أطهر للقلوب جميعا . وحسما للقيل والقال .

كما حظر عليهم أن ينكحوا أزواج النبي من بعده أبدا ، لأن ذلك أمر عند الله عظيم [١] .

ومن الأحكام الشرعية أيضا التي حفلت بها سورة الأحزاب ضرب الحجاب على نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين . ولا يمكن حصر كل ما جاءت به السورة من أحكام وآداب اجتماعية ، وما تقدم بعض نماذج منها ، ومن أراد المزيد فليراجع السورة وتفسيرها في كتب التفسير .

من الأحزاب إلى الحديبية

غزوة بني لحيان [٢] :

لم يركن النبي ﷺ إلى أن قوة المسلمين أصبحت المسيطرة بعد هزيمة الأحزاب ، والقضاء على بني قريظة ، وإنما كان دائم الحذر ، راصدا لأعدائه في

---

(١) راجع الآيات ٥٣ - ٥٩ من نفس السورة .
(٢) انظر الدرر لابن عبد البر ص ١٩٧ .

كل اتجاه . فبعد حوالي ستة أشهر من القضاء على بني قريظة ، وفي شهر جمادى الأولى سنة ٦هـ أحس بتحرك مضاد من ناحية مكة من بني لحيان ، فلم ينتظر ، وإنما تحرك ، وأظهر أنه يقصد الشام ، ليأخذ القوم على غرة ، ثم كر راجعا إلى الجنوب ، حتى وصل إلى منازلهم قريبا مكة ، فاتضح أنهم أحسوا بحركته ، فهربوا واعتصموا برؤوس الجبال ، خوفا من العقاب الذي كان لابد أن ينزل بهم لغدرهم بأصحاب الرجيع ، وإمعانا في إرهابهم أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق في مائة رجل لمطاردتهم حتى وصل إلى عُسفان ، فلم يدركهم ، ثم كر رسول الله عائدا إلى المدينة . ولم يلق كيداً .

غزوة ذي قرد :

بعد عودة الرسول ﷺ من غزو بني لحيان ، أغار عيينة بن حصن الفزاري على المدينة ، ونهب إبلا كانت لرسول الله كان يحرسها رجل من بني غفار ؛ هو وإمرأته ، فقتل الفزاريون الرجل ، وحملوا المرأة مع الإبل ، وفروا راجعين إلى بلادهم ، فلما علم رسول الله ، بهذه الغارة ، أرسل خلفهم جمعا من أصحابه على عجل ، بقيادة سعد بن زيد ، وانطلق هو خلفهم على رأس قوة أخرى ، حتى بلغ ذي قرد ـ ماء على نحو بريد مما يلي المدينة ـ وكان بنو فزارة قد اغزوا السير مسرعين ـ فعل اللصوص دائما ـ ليحتموا بغطفان ، ولكن فرسان المسلمين أدركوا مؤخرتهم ، واستطاعوا استخلاص المرأة الغفارية وشطر الإبل ، أما بقيتهم فقد نجت ، ورفض النبي أن يأذن لأصحابه بملاحقتهم ، وعاد إلى المدينة ، بعد أن أثبت لكل أعداء الإسلام أنه لهم جميعا بالمرصاد .

غزوة بني المصطلق [١] :

علم النبي أن بني المصطلق يجمعون له ، بل يريدون قتله . فقاد قواته

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣٣ ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٣٧ .

بنفسه ، ونزل على ماء يقال له : المريسيع ، ثم أحاط بهم ، ودار قتال خفيف ، قتل فيه عشرة من بني المصطلق ، وشهيد واحد من المسلمين ، قتله مسلم آخر خطأ . ولما أدركوا أنهم مهزومون ، سلموا أنفسهم أسرى ، فأخذهم المسلمون هم ونساؤهم وأموالهم وانتهى أمرهم بأن من المسلمون عليهم بعد أسرهم وتقسيمهم ، لأن الرسول ﷺ ، تزوج من جويرية بنت زعيمهم الحارث بن أبي ضرار ، فاستحى المسلمون أن يسترقوا أصهار رسول الله ، فأطلقوا سراحهم وكانوا أهل مائة بيت .

ولذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها ، عن جويرية رضي الله عنها « فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » (١) .

فتنة عبد الله بن أبي :

غزوة بني المصطلق تعتبر غزوة عادية ، من حيث نتائجها العسكرية ، وأنها في سياق تربص النبي بأعدائه في كل اتجاه ، ولكن تربت عليها أو حدثت فيها أمور خطيرة ، من أهمها الفتنة التي كاد يشعلها رأس النفاق عبد الله بن أبي بين المسلمين ، ومنها حادثة الافك ، والتي كان هو أيضا محركها .

أما الفتنة : فقد كادت تحدث مواجهة عسكرية بين المهاجرين والأنصار ، بسبب خلاف بسيط ، حدث بين أجير لعمر بن الخطاب ، اسمه جهجاه بن مسعود الغفاري ، وبين حليف لبني عوف الخزرجيين - من الأنصار - اسمه سنان بن وبر الجهني - فصاح الغفاري : يا للمهاجرين ، وصاح الجهني : يا للأنصار ، سمع عبد الله بن أبي هذه الصيحات الجاهلية ، وظنها فرصة للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، ولولا حكمة الرسول لحدث ذلك ، أخذ ابن أبي ينفخ في النار ، ويقول لجلسائه : « لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا ، والله ما أعدنا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٤٠ .

وإياهم ، إلا كما قال الأول لجلسائه : « لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا ، والله ما أعدنا وإياهم ، إلا كما قال الأول سمن : كليك يا كلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، هذا ما فعلتم بأنفسكم ؛ حللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » ، سمع مقالة ابن أبي أحد الصحابة ؛ وهو زيد بن أرقم ، وأدرك خطورتها على وحدة المسلمين وتماسكهم ، فأسرع وأبلغ الأمر إلى رسول الله ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، فهاج لما سمع ذلك الكلام ، وقال للرسول : « مر بلالا فليقتله ! » ، هنا ظهر النبي كدأبه ، مظهر القائد المحنك ، والحكيم بعيد النظر ، إذ التفت إلى عمر ، وقال : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس ، وقالوا أن محمدا يقتل أصحابه » [١] .

تسامع الناس الخبر ، وجاء الأنصار يتبرؤون من هذا الكلام الفاحش ، وكان أول من فعل ذلك منهم ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي ، فقال للرسول : « يا رسول الله ، أنت والله الأعز ، وهو الأذل ، وإن شئت والله لنخرجنه من المدينة ، وإن كنت تريد قتله ، فمرني بقتله ، فوالله إن أمرتني بقتله لأقتلنه » ولكن رسول الله قال له : « لا تقتله بل نترفق به » ودعا لعبد الله ؛ الابن ، بخير ، وقال له : « برَّ أباكَ ولا يرى منك إلا خيرا » [٢] .

ثم جاء سعد بن عبادة ، يعتذر عن فعل ابن أبي ، وقال للرسول : « يا رسول الله إن هذا رجل يحمله حسده على النفاق ، فدعه إلى عمله ، وقد كان قومه على - وشك - أن يتوجوه - ملكا - بالخرز ، قبل قدومك المدينة ، ويقدموه على أنفسهم ، فهو يرى أنك نزعت ذلك منه ، وقد خاب وخسر ، إن كان يضمر خلاف ما يظهر ، وقد أظهر الإيمان ، فكله إلى ربه » [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣٥ .
(٢) الدرر ص ٢٠٢ .
(٣) نفسه .

ولكي يقضي على الفتنة في مهدها ، أمر رسول الله ﷺ ، الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، ليشغلوا أنفسهم بأمر السفر ، بدل أن يشغلوها بالحديث في أمر ما حدث ، فانطلق بهم ، وساروا طيلة يومهم حتى أمسوا ، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يومهم الثاني ، حتى آذتهم الشمس ، ثم نزلوا فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما ، وأنساهم التعب حديث ابن أبي ، وهكذا تجاوز الرسول بحكمته السياسية ، هذا الحادث الذي كاد يؤدي إلى فتنة بين المهاجرين والأنصار . أما ابن أبي نفسه ، فقدحاول أن يتنصل مما حدث ، وحلف بالله ما قاله ، ولا تكلم به ، ولكنه كان كاذبا بشهادة الحق ، سبحانه وتعالى ، الذي أنزل بشأنه سورة المنافقون كاملة على رسول الله ، قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ... ﴾ الآيات .

حادثة الإفك [١]

أما الحادثة الثانية التي ارتبطت بغزوة بني المصطلق ، فهي حادثة الإفك ؛ وهي اتهام عائشة رضي الله عنها ، أم المؤمنين ، والصدِّيقة بنت الصديق ، بأبشع تهمة تتهم بها أمرأة شريفة .

وملخص القصة أن السيدة عائشة كانت مع الرسول في غزوة بني المصطلق ، وأثناء عودتهم إلى المدينة خرجت لقضاء حاجتها ، وافتقدت عقدا لها أخذت تبحث عنه ، فتأخرت ، فارتحل الجيش دون أن يشعروا بها ، لأن الرجال الذين كانوا موكلين بحمل هودجها على بعيرها ، حملوه وهم يظنون أنها فيه [٢] ، فلما عادت لم تجدهم ، فجلست في مكانها ، وهي على يقين من

---

(١) عن حادثة الإفك بتمامها راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤١ وما بعدها ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٣٧ .

(٢) كانت السيدة عائشة نحيفة ، خفيفة الوزن .

أنهم إذا اكتشفوا تخلفها سيرجعون إليها ، وبينما هي كذلك رآها صفوان بن المعطل السلمي ، وكان من عادته أن يتأخر عن المعسكر - يفتش خلفهم عما يمكن أن يكونوا قد تركوه من متاعهم - فعرفها ، لأنه كان يراها قبل ضرب الحجاب على نساء النبي فقال لها : « ظعينة رسول الله ﷺ ، ما خلفك يرحمك الله » فلم ترد عليه ، فأناخ لها بعيره وركبت ، ودخل بها المدينة فلما رآهما الناس ، خاضوا في عرضها ، وكان أول من تولّى كبر الأمر كله ، عبد الله ابن أبي ، الذي يروى أنه قال عن عائشة وصفوان : « والله ما نجت منه ولا نجى منها » ، وممن خاض في حديث الإفك ، حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، قالت ما قالت غيرة لأختها زينب التي كانت تنافس عائشة عند رسول الله ، أما زينب نفسها رضي الله عنها ، فقد صانها الله ، فلم تقل عن عائشة إلا خيرا .

وكانت محنة قاسية تعرض لها بيت النبوة ، الذي قال الله تعالى عن أهله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (١) .

سرى خبر هذه الفرية الكاذبة في المدينة كلها ، وعلمه الناس جميعا ، إلا عائشة . علم النبي بالخبر فتألم ألما شديدا ، وأي شيء أقسى على الإنسان الحر من أن يتهم في عرضه وشرفه ، وهذا ليس إنسانا عاديا ، هذا هو أشرف البشر وخيرهم وأطهرهم . وانتظر الوحي يحسم الأمر ، وطال الانتظار لحكمة يعلمها الله تعالى ، نحو شهر ، كان من أقسى الشهور على المسلمين عامة ، وعلى رسول خاصة ، وفي هذه الفترة تصادف أن مرضت عائشة ، وكانت عادة الرسول ، أن يزداد عطفه عليها أثناء المرض ، إلا هذه المرة ، فلم تر منه عطفا ، فأنكرت ذلك ، ولم تعرف له سببا ، فاستأذنته أن تذهب إلى بيت أبيها لتمرّض هناك ، وهي تتمنى ألا يأذن لها ولكنها فوجئت به يوافق على الفور ، فازدادت حيرتها في

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

تفسير موقفه ذلك ، ولم يجرؤ أحد على إبلاغها بما حدث ، حتى علمت به بطريق الصدفة ، وهي في بيت أبيها ، حيث خرجت ذات ليلة خارج البيوت لقضاء حاجتها ، في صحبة أم مسطح ـ وهي بنت خالة أبيها ـ وأثناء سيرهما عثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ـ ومسطح لقبه ، وإسمه عوف ـ فقالت عائشة : « بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا » قالت أم مسطح : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قالت عائشة : « وما الخبر؟» فأخبرتني بالذي كان من أهل الإفك ، قلت : أو قد كان هذا ، قالت : نعم ، والله لقد كان ، قالت : فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي ، حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي » وقلت لأمي : «يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا » قالت : «أي بنيَّة خفضي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن وكثَّر الناس عليها » ، وهكذا علمت عائشة بهذا الخبر الفظيع ، وعاشت في كرب عظيم . أما الرسول ﷺ ، فقد ازدادت حيرته ، أمام كثرة اللغط ، في هذه القضية الخطيرة ، التي أصبحت الشغل الشاغل للمدينة وما حولها ، حتى اضطر أن يخطب الناس ، لعلهم يهدؤن ، ما دام الوحي لم ينزل بعد ليحسم المسألة . فقال ﷺ : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، ـ لم يسمِّ الرسول أحدا بعينه ، مع أنه يعلم أسماء الذين خاضوا في عرضه ، ولكن كانت هذه هي عادته ، فلم يشأ أن يجرح شعور حتى الذين آذوه هذا الإيذاء الشديد ، ولكنه أدب النبوة العالي ـ والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا معي » صدقت يا رسول الله في كل ما قلت ، القضية إذن أصبحت علنية ، وفوق المنبر ، ولا يحسمها إلا وحي من السماء . فقد كادت أن تحدث فتنة عارمة بين المهاجرين والأنصار ، ذلك أن أسيد بن حضير ، وهو من سادات الأوس ، عندما سمع مقالة رسول الله ، قال : « يا رسول الله : إن يكونوا ـ الذين آذوك ـ من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من

إخواننا الخزرج ، فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ... فقال سعد بن عبادة :ـ وهو سيد الخزرج ـ كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ، فقال أسيد كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .. وتثاور الناس ـ ثار بعضهم على بعض ، وقام بعضهم نحو بعض ـ حتى كاد يكون بين هذين الحيين ، من الأوس والخزرج شر .

بلغت الأزمة بل المحنة ذروتها ، والرسول لا يزال في حيرته ، حتى إنه استشار بعض أقرب الناس إليه من الصحابة ، خاصة أسامة بن زيد ، وعلى بن أبي طالب ، أما أسامة ، فقال خيرا وأثنى على عائشة ، وأما علي فقال : إن النساء لكثير ، وهذه في الحقيقة كلمة صعبة من علي ، ﷺ في هذا الموقف العصيب لأن معناها أنه ينصح الرسول بتطليق عائشة ، ولو حدث هذا لكانت هي الطامة الكبرى ، لأن معنى ذلك أن الرسول إن لم يكن قد صدَّق الفرية ، فهو غير واثق من البراءة ، وفي هذا ما فيه على عائشة وأبويها ، وأهلها ، بل وعلى المسلمين جميعا ، أليست أم المؤمنين ؟ بنص القرآن الكريم .

القصة كلها فيها حكمة بالغة من الله تعالى ، ففي هذا المجتمع الإسلامي ـ الذي كوَّنه ، ويقوده الرسول ـ رجال لا يزالون يحتاجون إلى تربية ، وعادات ، تحتاج إلى محو ، وكل هذا سيكون من دروس هذه المحنة القاسية .

نعود إلى عائشة ﷺ ، بطلة المحنة ، والله وحده يعلم حجم ما كانت تعانيه من الحزن والألم والحرج ، فقد ذهب رسول الله إليها يعودها ، فوجدها تبكي ، فجلس ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتق الله ، فإن كنت قارفت سوأ ، مما يقول الناس ، فتوبي إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » قالت : « فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك ، فقلص دمعي ـ أي يبس وجمد ـ حتى ما أحس منه شيئا ، وانتظرت أبوي

أن يجيبا عني رسول الله ﷺ ، فلم يتكلما ، قالت : « وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنا من أن ينزل الله فيَّ قرآنا يقرأ في المساجد ، ويُصلّى به ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ، في نومه شيئاً يُكَذِّبُ الله به عني ، لما يعلم من براءتي ، أو يخبر خبرا ... فلما لم أر أبوي يتكلمان ، قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله ... فقالا : والله ما ندري بماذا نجيبه ، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر ، في تلك الأيام ... ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أني منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني ، ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره - من شدة الذهول - فقلت : ولكن سأقول : كما قال أبو يوسف : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » فوالله ما برح رسول الله مجلسه ، حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، ولا باليت ، وقد عرفت أني بريئة ، وأن الله عز وجل غير ظالمي ، وأما أبواي ، فوالذي نفس عائشة بيده ، ما سرى عن رسول الله ... حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ... ثم سرى عن رسول الله ... فجلس ، وإنه لينحدر منه مثل الجمان في يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ، ويقول أبشري يا عائشة : فقد أنزل الله براءتك » قلت بحمد الله ، ثم خرج إلى الناس ، فخطبهم ، وتلى عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك . ثم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضربوا حدَّهم » أي أقيم عليهم حد القذف .

حسم القرآن الكريم الأمر [1] ، وبرأ عائشة رضي الله عنها ، وأنزل بمناسبة الحادثة سورة النور بتمامها ، وهي سورة حافلة بالأحكام الشرعية والآداب العامة ، التي

---

(١) راجع سورة النور ، خاصة الآيات ١١ - ٢٦ .

بدونها لن يمكن إقامة مجتمع فاضل ، وقد بدأت السورة بالحديث عن الزنا ، وعقوبته ، وأنه أبشع جريمة ، وتحدثت عن القذف وعقوبته ، وعرضت بالذين خاضوا في عرض رسولهم ، حيث قررت الآيات ، إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فهل رسولكم ـ حاشا لله ـ يمكن أن يكون كذلك ؟ ـ ثم بعد أن ذكرت قصة الإفك ، عرضت تعريضا آخر ، حيث قالت الآيات ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ ونبيكم ﷺ ، أطيب الطيبين ، فلا يختار الله له إلا أطيب الطيبات من النساء ، وهذه شهادة قرآنية لنساء النبي جميعا بالطهر ، وليس لعائشة وحدها . ثم بعد ذلك أخذت السورة ترسي دعائم الحياة الفاضلة ، والآداب الإجتماعية ، فأمرت ألا يدخل أحد بيت أحد إلا بإذن ، كما أمرت المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج ، وأمرت النساء بصفة خاصة بصيانة أجسادهن بملابس سابغة لا تظهر ملامح تلك الأجساد ، ولا يظهرن مفاتنهن أمام الرجال الأجانب ، سدا لذرائع الفتنة ، وأن يبعدن عن مواضع الريب والشكوك ، لئلا يفتحن على أنفسهن أبواب القيل والقال ، فكم من بيوت هدمت ، وأطفال شردوا ، بسبب وشاية كاذبة ، دفع إليها التسرع في القول.

أما الآيات التي تحدثت عن قصة الافك من ١١ - ٢٦ فدروسها وعبرها لا تنتهي ، ومنها :

أنها لفتت نظر المسلمين إلى أن هذه الحادثة ـ رغم ما سببته من ألم نفسي لكثيرين ، وأولهم الرسول وأهل بيته ، وأهل بيت أبي بكر ـ إلا إنها ليست شرا كلها ، بل هي خير ، إذا تعلمتم دروسها ، وعبرها . فكم من أمور يحسبها الناس هيِّنة ، ولكن آثارها قد تكون مدمرة للمجتمع ، فلو أن بعض المسلمين ، عندما سمع هذه الفرية كذبها وقال ما يمكن أن يكون هذا ولا يحق لنا أن نتكلم به ، لما شاع الأمر إلى هذا الحد ، لأن هذا الذي حدث يخص نبيكم وزوجه ، وهي أمكم ، فكان يجب أن يكون ظنكم بها خيرا ، وكان يجب أن تقيسوا ذلك على

أنفسكم ، فإذا كان لا يليق بكم ، فكيف يليق بأم المؤمنين . قال تعالى: ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ (١) ويقول : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ (٢) ثم يقول لهم ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣) أي لا تعودوا إلى اللغو ، وتسارعوا إلى الطعن في أعراض الأبرياء الشرفاء ، لأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر . كما أن من أهم دروس الحادثة ألا تضع المسلمة وألا يضع المسلم ؛ نفسيهما في مواضع الريبة قط ، وقد سبق أن ذكرنا كيف حذرت سورة الأحزاب نساء النبي من خفض القول ، لئلا يطمع من في قلبه مرض ، وباب سد الذرائع في الشريعة من أهم الأمور .

هذا ومن الأحكام الشرعية التي جاءت بها سورة النور ، حد الزنا ، وحد القذف ، وحد اللعان .

معاهدة الحديبية

تقف معاهدة الحديبية التي وقعت بين النبي ﷺ وبين قريش ، دليلاً شامخاً على ميل المسلمين إلى السلام ، وعلى أن السلام هو الأصل في علاقات المسلمين بالآخرين . فما هي قصة هذه المعاهدة ؟

منذ بدء الدعوة الإسلامية وقريش تعادي النبي ﷺ عداء سافراً ووحشياً ، استمر ما يقرب من عشرين عاما ، وبعد ست سنوات من الهجرة قضاها النبي وأصحابه في جهاد مستمر ، ضد المشركين من العرب تارة ، وضد

---

(١) سورة النور ، آية ١٢ .
(٢) سورة النور ، آية ١٦ .
(٣) سورة النور ، آية ١٧ .

اليهود ومؤامراتهم وخياناتهم تارة أخرى ، وفي أثناء ذلك كان الإسلام يزداد منعة وانتشاراً وقوة ، مما جعل النبي ﷺ يفكر أنه ربما تكون قريش قد اقتنعت بخطئها وعجزها عن مقاومة الإسلام ، فقرر أن يعطيها فرصة إما لتدخل فيما دخل الناس فيه وتعتنق الإسلام ، وإما أن تكف عن حربه ومقاومته وعن صد الناس عنه . فأعلن ﷺ في ذي القعدة من العام السادس الهجري عن عزمه على زيارة مكة هو وأصحابه ، زيارة سلمية ، لتأدية شعائر العمرة ، وهي تجربة لقريش ، فإن هي خلت بينه وبين زيارة البيت الحرام ، فقد يكون ذلك مؤشراً طيباً لتراجعها . ولبداية علاقات سلمية معها ، وعندئذ يمكن أن يتفرغ النبي ﷺ لتبليغ دعوته خارج شبه الجزيرة العربية . ودعا القبائل العربية المجاورة للمدينة ، والتي لا تزال على شركها لتشاركه وأصحابه زيارة البيت الحرام . ليدلل أكثر وأكثر على رغبته في السلام .

ومن ناحية أخرى حرص النبي على أن يأخذ معه أكبر عدد من المسلمين ، لأن احتمال أن تضطره قريش إلى الدخول معها في معركة ، كان احتمالاً واردا ، فهو يعرف غدرها وغرورها . فخرج من المدينة ومعه حوالي ألف وأربعمائة من أصحابه مقدمين الهدي أمامهم ، كدليل على أنهم جاءوا معتمرين ، ولم يجيئوا مقاتلين [١] .

وما أن علمت قريش بعزم النبي ﷺ ، حتى أعلنت عن موقفها العدائي ، وهو منعه من دخول مكة ، مهما كلفها ذلك ، واستنفرت جيشاً كبيراً جعلت على قيادته خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل . وكان هذا موقفاً ظالماً مصراً على العداء والحرب . فكيف تمنع قريش النبي ﷺ وأصحابه من زيارة البيت الحرام ، الذي هو مباح للعرب جميعاً ، وكان هو ﷺ مصراً على تنفيذ

---

(١) في كل ما يتعلق بقصة الحديبية ، راجع : ابن هشام ، جـ ٣ ص ٣٥٥ وما بعدها ، ابن حجر - فتح الباري جـ ٧ ص ٤٣٩ وما بعدها ، صحيح مسلم جـ ١٢ ص ١٣٥ وما بعدها ، ابن كثير .. البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٦٤ .

خطة السلام التي إلتزمها منذ خروجه من المدينة ، فقررَ ألا يعطيها فرصة لاستفزازه والدخول معها في معركة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فما أن سمع بموقفها حتى قال : « يا ويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإلم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة » ، وليتحاشى الاحتكاك بجيش قريش سلك طريقاً صعباً ، تجشم فيه هو وأصحابه ، متاعب كبيرة حتى وصلوا إلى الحديبية . وليدلل على صدق نواياه فقد أطلق سراح مجموعة من جيش قريش ، وقعت أسرى في أيدي المسلمين ، حينما حاولوا الإغارة على معسكر النبي . ولكن كل ذلك لم يجد أمام نزعة قريش العدوانية ، حتى بعد أن عادت إليها كل وفودها التي أرسلتها إلى النبي ، مؤكدة لها أنه ما جاء مقاتلاً ، بل زائراً للبيت يسوق الهدي أمامه . ولكنها أصرت على موقفها . وعلّلت ذلك بعلة سخيفة ، وهي خوفها من ضياع هيبتها وسمعتها أمام العرب . ولكن كل هذا لم يثن عزم النبي ﷺ عن المضي في شوط السلام إلى نهايته وعبر عن ذلك بقوله : « والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألون بها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » وأرسل إلى قريش عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ليفاوضها ، وطالت إقامة عثمان في مكة أكثر مما ينبغي ، حتى أشيع أنه قتل ، وعندئذ كان لابد من أن يتغير الموقف . فإذا كانت قريش قد غدرت برجل مسلم مسالم في الشهر الحرام فإن النبي ﷺ لن يترك مكانه حتى يلقنهم درساً كالذي أخذوه في بدر . وكان المسلمون قد امتلأت قلوبهم غيظاً من صلف قريش وغرورها . فأسرعوا إلى النبي ﷺ يبايعونه على بذل أرواحهم في سبيل الله ولإعلاء كلمته . وكان موقفهم رائعاً باركته السماء وزكاه الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريباً ﴾ [1] .

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

والحق أن القتال كان أحب يومئذ للمسلمين ، لا لأنهم يهوون القتال لذاته ، ولكن لرد عدوان قريش ، التي لم تكتف بطردهم من ديارهم ، بل وتصر على حرمانهم من زيارة البيت ، ولكن النبي ﷺ لم يفقد الأمل في الوصول إلى خطة سلام . فما أن تبين أن خبر اغتيال عثمان غير صحيح ، حتى عاد إلى أسلوب المفاوضات من جديد ، واتصلت المباحثات بين الفريقين .

وانتدبت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض النبي باسمها ، ولكن على أساس شروط قاسية . ونظر النبي ﷺ ببصيرته الملهمة إلى الموقف من جميع جوانبه . ورأى أن مسئوليته كقائد للمسلمين تفرض عليه أن يحقن دمائهم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وعظمة هذا الموقف أنه لم يكن موقف الضعيف الذي يذعن لعدوه استسلاماً لمطالبه ، ولكنه كان موقف القوي الذي يبحث عن السلام . وقبل شروط قريش ، ووقعت معاهدة الحديبية وكان أهم شروطها كالآتي :

أولا : وضع الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنين .

ثانيا : أن يرجع النبي وأصحابه عامهم هذا دون أن يدخلوا مكة ، فإذا كان العام القادم دخلوها لمدة ثلاثة أيام بدون سلاح إلا السيوف في قرابها . ليؤدوا العمرة ، ثم يخرجون .

ثالثا : من أراد من القبائل العربية أن يدخل في حلف النبي وعهده دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش وعهدها دخل فيه ، فدخلت خزاعة في حلف النبي ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش .

رابعا : من أتى النبي من قريش من غير أذن وليه رده عليهم ، أما من جاء قريشاً من عند النبي فلا يردوه عليه .

وكان هذا الشرط الأخير أقسى ما في المعاهدة على قلوب المسلمين ، واعتبروه مذلة لهم ، حتى أن بعضهم - مثل عمر بن الخطاب ﷺ - لم يستطع أن يكتم معارضته . ولكن النبي ﷺ هدَّأهم ، وأظهر من الصبر وسعة الأفق ما لم يسبق له مثيل أمام غرور ممثل قريش ، الذي أصر على حذف بسم الله الرحمن الرحيم ، من صدر المعاهدة ، وعلى أن يكتب اسم النبي مجرداً من صفة النبوة ، وقبل النبي ﷺ كل ذلك تحقيقاً للسلام .

ولقد أظهرت الظروف فيما بعد أن كل الذي تألم له المسلمون كان في مصلحتهم ، وكانت المكاسب التي حصل عليها الإسلام نتيجة صلح الحديبية أروع من أية مكاسب تأتي نتيجة أية معركة عسكرية . وذلك بفضل بعد نظر القائد العظيم عليه الصلاة والسلام ، ولقد كانت الحديبية بداية الفتح الأعظم ونزلت بعدها سورة الفتح تبشر المسلمين بالفتح المبين . ولم يكد يمضي عامان على صلح الحديبية ، حتى تضاعف عدد المسلمين عدة مرات . فعدد المسلمين الذين شهدوا الحديبية كان ألفاً وأربعمائة ، أما الذين ساروا خلف النبي لفتح مكة سنة ٨هـ فكانوا حوالي عشرة آلاف مسلم . كما أن الإسلام خلال هذين العامين استطاع أن يخرج إلى النطاق العالمي .

وإنقلبت مكاسب قريش ، أو التي ظنتها مكاسب خسارة كبرى ، عليها ومكسباً رائعاً للإسلام . وبصفة خاصة الشرط الأخير من شروط المعاهدة الذي اعتبرته قريش مكسباً ضخماً ، ولكنها هي نفسها التي طلبت من النبي تنازلها عن هذا الشرط . فقد جاء أحد مسلمي مكة وهو أبو بصير إلى النبي بعد الحديبية ، وطلبت قريش رده إليها طبقاً لشروط المعاهدة ، فرده إليهم صاحب الوفاء النادر بالعهد . وقال لأبي بصير : « اصبر واحتسب ، وسوف يجعل الله لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً » ، ولكن أبا بصير استطاع الإفلات من مندوبي قريش ، ولجأ إلى ساحل البحر الأحمر ، والتف حوله حوالي سبعين من مسلمي مكة الفارين من ظلم قريش ، وصمموا على الانتقام منها ، وقطعوا عليها طريق

تجارتها إلى الشام ، مما جعلها تتوسل إلى النبي ﷺ أن يضم هؤلاء المسلمين إليه ، وأنها تنازلت عن الشرط الخاص بهم في المعاهدة .

فتح خيبر [(١)]

خيبر قرية كبيرة ، ذات حصون منيعة ، وأراضي خصيبة ، تقع في وادي القرى إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة ، والمسافة بينهما نحو مائة وثمانين كيلو متراً ، وكان يسكنها اليهود . والمصادر الإسلامية لا تحدثنا عن موقف عدائي ليهود خيبر من الدعوة الاسلامية في عهدها المكي ، ويبدو أن موقفهم هذا استمر حتى بعد الهجرة ، فرغم كل ما حدث بين النبي ﷺ ، ويهود يثرب - بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة - وما دأبوا عليه من الغدر والخيانة ، الأمر الذي اضطر النبي إلى اجلاء بعضهم وقتل البعض الآخر ، فلم نسمع أن يهود خيبر تحركوا لنصرة هؤلاء أو الوقوف معهم ، غاية ما في الأمر أنهم قبلوا بعضهم وأسكنوهم معهم في بلدهم ، ومن هنا بدأ موقف يهود خيبر يتغير ، ولعل الذين لجأوا إليهم خاصة من بني النضير ، هم الذين أفسدوا أمرهم ، وحولوا خيبر إلى وكر خبيث للكيد وتدبير المؤامرات والمكائد ضد الاسلام ، بل إن أخبارا وصلت إلى النبي ، أنهم يجرون اتصالات مع قبائل غطفان للتحالف ضده [(٢)] ، ولذلك لما غزاهم ، نزل في وادي الرجيع ، وعسكر هناك ، وهذا الوادي يقع شمال شرق خيبر ، والرسول قادم من الجنوب ، فكان من المنطقي ان يدخل خيبر من جنوبها ، لكنه ﷺ بدأ هجومه عليها من شمالها الشرقي ، وكان هذا إجراءاً عسكرياً في غاية الأهمية ، لأن موقع وادي الرجيع استراتيجي ، بين خيبر وغطفان ، فنزول الرسول في هذا المكان منع أية امدادات يمكن أن تصل إلى يهود خيبر من غطفان ، كما أنه من هذا المكان يمكن أن يراقب

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٧٨ ، وصحيح البخاري جـ ٣ ص ٤٨ ، وعيون الأثر جـ ٢ ص ١٦٨ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ص ٢١٠ .

تحركات بقية اليهود في الشمال ، في وادي القرى وفدك وتيماء .

إذن تغير موقف يهود خيبر ، وأصبحوا يمثلون خطراً كبيراً على الدعوة الاسلامية ، خاصة وأن بلدهم يقع على الطريق الرئيسي المؤدي إلى الشام ، حيث العدو الأخطر للاسلام ؛ وهو الدولة البيزنطية ، فماذا لو حاولت تلك الدولة أن تتصل بهم ، أو يتصلوا هم بها ، ويتحالفوا معها ضد الاسلام ، لايمكن أن ينتظر الرسول ، حتى يحدث ذلك ويفاجأ ، خاصة وأن ما سيجد من علاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، يؤكد أن توقعات الرسول كانت في محلها . فما دام قد أمن من جانب قريش [1] ، فلا بد من الالتفات إلى الشمال ، والقضاء على خطر يهود خيبر بالذات ، أو كسر شوكتهم ، حتى لا تقوم لهم قائمة ببلاد العرب أبدا ، ولذلك لم يقم الرسول في المدينة بعد عوده من الحديبية إلا أقل من شهر [2] ، ثم نادى بالتجهز إلى غزو خيبر ، وأمر ألا يسير معه إلا من شهد الحديبية ، إلا من أراد ان يتطوع وليس له من الغنيمة شيء ، ذلك لأن الذين تخلفوا عن الحديبية تخلفوا جبنا وخوفاً ، وبدون أعذار حقيقية، وظنوا أن الرسول والمسلمين ، لن يعودوا من تلك الغزوة ؛ ولذلك فضح الله موقفهم ، فقال للنبي : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا ۝ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ۝ ﴾ [3] فما دمتم جبنتم عن لقاء العدو الخطير ، فلا ينبغي أن تذهبوا إلى الغنيمة السهلة .

---

(١) طبقا لمعاهدة الحديبية .

(٢) كان غزو خيبر في شهر المحرم سنة ٧ هـ .

(٣) سورة الفتح ، الآيتان ١١ - ١٢ .

تحرك الرسول بقواته :

تحرك الرسول ﷺ على رأس قواته البالغ عددها نحو ألف وستمائة بينهم مائتا فارس ، وقد قام بحركة عسكرية بارعة ، حيث أرسل فرقة من جيشه لمباغتة غطفان في ديارها ، بعد أن علم أن بعض رجالها تحركوا لمعاونة اليهود ، وقصد الرسول بمهاجمة غطفان أن يشغلها بالدفاع عن ديارها عن مساعدة اليهود ، وقد نجحت تلك الخطة نجاحا باهرا ، حيث عاد الغطفانيون إلى ديارهم ، وظلوا على حذر ، ولم يشتركوا مع يهود خيبر في الحرب ووصل ببقية الجيش إلى خيبر ليلا ، وعسكر بوادي الرجيع دون أن يحس به اليهود ، فبينما هم خارجون في الصباح إلى مزارعهم وأعمالهم ، إذا بالجيش الاسلامي يطوق حصونهم ، ورسول الله يقول : « باسم الله الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

وبدأ القتال ، وكان قتالا صعبا ، لأنه لم يكن في مكان مكشوف ، بل كان قتال مدن وأحراش وحصون قوية منيعة ، وكان عدد اليهود يقارب عدد الجيش الإسلامي ، وقد استماتوا في الدفاع عن أنفسهم ، بقيادة سلام بن مشكم ، ورغم ضراوة مقاومتهم ، إلا أنها بدأت تتهاوى أمام اصرار جحافل الإسلام على تحقيق الهدف ، وبدأت الحصون المنيعة القوية تتساقط في أيدي المسلمين واحدا بعد الآخر ، حصن ناعم وحصن الغموص ، وحصن الزبير ... الخ حتى لم يبق إلا حصنا الوطيح والسلالم ، فجمع فيهما اليهود ، وأيقنوا أنه لا جدوى من المقاومة ، عندئذ طلبوا الصلح على أن تحقن دمائهم ، وقد أجابهم الرسول إلى ذلك على الفور ، لأن القتال ليس هدفه ، وإنما هدفه القضاء على الغدر والخيانة . استسلم اليهود وصالحهم الرسول ـ وكان رحيما معهم ـ على أن يبقوا في بلدهم يزرعون أرضهم ولهم نصف ثمارها ، وللمسلمين النصف .

استسلام بقية القرى اليهودية بدون قتال :

بعد أن استسلم يهود خيبر استسلمت القرى اليهودية الأخرى ، فدك وادي القرى [١] وتيماء بدون قتال ، وطلبت ان يعاملها الرسول معاملة يهود خيبر ، فقبل ذلك ، وهذا يدل على منتهى التسامح ، لأن الرسول لم يكن يعادي اليهود كيهود ، وإنما يعادي مسلكهم الغادر ، فالذين اسلموا منهم ، كانوا موضع حبه وتقديره ، وحب أصحابه وتقديرهم ، ويعدون من صحابته ، مثل عبد الله بن سلام ، ومخيريق الذي أسلم ، وقتل شهيدا في غزوة أحد ؛ وهو يجاهد مع رسول الله ﷺ ، وقبل أن يقتل قال لليهود : « يا معشر يهود ، والله لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لحق ، وقال إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل ، فقال رسول الله ... « مخيريق خير يهود » [٢] فالعداء إذن جاء من جانبهم ، بسبب حقدهم وحسدهم للنبي والإسلام .

أما من استجاب منهم لدعوة الحق ، فلا فرق بينه وبين أي مسلم . رغم أن القضاء على شوكة اليهود في شمال المدينة ـ على طريق الشام ـ قد أراح الرسول من هم ثقيل ، إلا أنه لم يغفل لحظة عن تأمين دولته ودعوته من جميع الاتجاهات ، خاصة من ناحية الشمال ، فتتابعت سراياه وبعوثه ، لتثبيت النفوذ الإسلامي ، والهيبة الإسلامية في نفوس أعداء الاسلام ، وقد آن الأوان للخروج بالدعوة الاسلامية من شبه جزيرة العرب إلى العالم .

ولكن قبل أن نسترسل في هذا السياق ، ننوه بحدث جليل سعد له رسول الله ﷺ كثيرا ، وهو عودة المسلمين من الحبشة ، بقيادة جعفر بن أبي طالب ،

---

(١) هناك روايات تفيد أن أهل وادي القرى حصلت منهم مقاومة ولذلك فتح بلدهم عنوة ، انظر : الدرر لابن عبد البر ص ٢٢٠ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٨ .

ابن عم الرسول ، فقال ﷺ : « والله ما أدري أبقدوم جعفر أنا أسر وأفرح أم بفتح خيبر » (١) .

الإسلام والعالم

عرفنا فيما سبق من هذه الدراسة ، أن الإسلام دين عالمي ؛ للناس كافة ، وعرفنا أن معنى العالمية ، أن رسول الله ﷺ مكلف بتبليغ رسالته للعالمين وأن الأسلوب الذي حدده القرآن الكريم ، في مجال الدعوة إلى دينه في الأحوال العادية نص عليه في قوله تعالى : ﴿ إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٢) .

وكان النبي ﷺ ينتظر الفرصة المواتية ليخرج بالدعوة الإسلامية من نطاق الجزيرة العربية ، إلى النطاق العالمي ، وقد جاءت هذه الفرصة بعد صلح الحديبية ، فنتيجة لهذا الصلح ، أصبح النبي ﷺ آمنا من ناحية قريش ، أقوى أعدائه ، كما أنه تخلص من خطر اليهود ومكرهم وكيدهم ، بفتح خيبر ، وعلى الجملة ، فمع بداية العام السابع الهجري ساد شبه الجزيرة العربية جو من الهدوء النسبي ، مكن النبي ﷺ ، من توجيه دعوته الخالدة إلى أكبر عدد ممكن من ملوك وزعماء العالم المعاصرين . فأعد عدداً من جلة صحابته - رضوان الله عليهم - وحملهم رسائل إلى هرقل - عاهل الروم - وكسرى - عاهل الفرس - والنجاشي - عاهل الحبشة - والمقوقس - حاكم مصر - كما أرسل إلى عدد من أمراء العرب في شبه الجزيرة العربية . مثل أمراء البحرين وعمان واليمن ، بالإضافة إلى أمراء الغساسنة بالشام (٣) . ولا نستطيع في هذا الكتاب أن نناقش

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٢١٨ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٣) انظر في موضوع رسائل النبي إلى الملوك والرؤساء ، المصادر الآتية : ابن حجر .. فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٢ وما بعدها وجـ ٨ ص ١٢٧ ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٢ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

كل رسالة على حدة ـ بطبيعة الحال ـ ويكفي أن نلقي الضوء على بعض رسائل النبي ﷺ ، إلى الملوك خارج شبه الجزيرة العربية . فهذه الرسائل تعتبر نقطة تحول كبير في تاريخ ومستقبل الإسلام ، ونقطة البداية في علاقات الإسلام بالعالم ، وعلى أساس هذه الرسائل ، وعلى ضوء ردود الفعل عنها عند من أرسلت إليهم من الملوك . تشكلت علاقات المسلمين الدولية مع الأمم الأخرى . وسوف نكتفي هنا ـ لضيق المكان ـ بذكر واحدة من هذه الرسائل ، كأنموذج لها جميعاً . لإلقاء الضوء على علاقات المسلمين الدولية ، وتأكيد أن السلام هو الأصل في تلك العلاقات . ونلفت النظر إلى أن الرسائل كلها متشابهة تقريباً في صياغتها ومضمونها . والرسالة التي نقدمها هنا هي رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ـ إمبراطور الروم ـ ونصها كالآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فعليك إثم الأريسيين [١] . « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » [٢] .

هذا هو نص رسالة النبي ﷺ إلى هرقل . وهي كما ترى دعوة سلمية إلى الإسلام من رسول الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة . ولم يرد في الرسالة أي تهديد بالحرب أو استخدام القوة لإجبار الآخرين على اعتناق الإسلام ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، بل بدأت الرسالة بالسلام . ومن منطلق السلام الذي هو القاعدة الأساسية لعلاقات الإسلام بالأمم الأخرى . إلا إذا رفض الطرف

---

(١) الأريسيين ـ وجاء مكانها في بعض الروايات الأكارين أو الفلاحين ـ ويبدو أن المقصود بالكلمة : رعايا هرقل .

(٢) راجع نص الرسالة في المصادر المذكورة آنفاً .

الآخر السلام ، وأصر على موقف عدائي . فعندئذ يصبح للإسلام موقف آخر يتناسب مع موقف الآخرين . فماذا كان رد هرقل وغيره على رسائل النبي ﷺ ؟ وما هي النتائج التي ترتبت على هذه الردود ؟ .

بالنسبة لهرقل ، تفيد مصادرنا الإسلامية أنه رد على الرسالة رداً جميلاً [١] . بل وتذهب بعض المصادر إلى أنه مال إلى الإسلام ، إلا أن الروم لم يطاوعوه على ذلك ، مما جعله يعتذر للنبي ﷺ عن عدم قبول الإسلام ، بسبب موقف رجال الدين المسيحي ، أما غالبية مصادرنا الإسلامية فلا تشير مطلقاً إلى رد هرقل . وتطور العلاقات بين المسلمين والروم في آخر حياة النبي ﷺ ، وفي عهد الخلفاء الراشدين يجعلنا نميل إلى ما أخذت بـه غالبية المصادر ، وهو عدم ورود رد من هرقل إلى النبي .

فهرقل عندما وصلته رسالة النبي كان عائدا لتوه من حربه مع الفرس ، تلك الحرب التي انتصر فيها عليهم انتصاراً ساحقاً ، ويبدو أنه كان عائداً معتداً بنفسه وبما حققه من إعادة الصليب الأكبر إلى بيت المقدس ، ومن رده الإعتبار إلى بيزنطة ، التي كان الفرس قد مرغوا أنفها في التراب ، كان مزهواً بهذا كله . فلما جاءته رسالة النبي ﷺ ـ وكان بالشام وقتها كما تذكر بعض المصادر ـ وهو على هذه الحالة لم يهتم بها ولم يرد عليها . ودلت تصرفاته وسلوكه في الفترة التالية لوصول الرسالة على أنه في البداية ـ ربما ـ لم يقدر خطورة الرسالة ولا صاحبها ولا الدعوة التي دعاه إليها . فلما تنبه إلى خطورة الموقف ، وأدرك أن الإسلام قد أصبح قوة ضخمة ، وتصور أنه أصبح خطراً على ملكه ، وأراد أن يقاومه كان الوقت متأخراً جداً . فلم يعد في مقدور أحد ـ كائناً من كان ـ أن ينال من الإسلام أو يوقف زحفه .

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٦٧ .

والسؤال هنا هو ، إذا كانت رسالة النبي ﷺ إلى هرقل سلمية ، وخالية من التهديد بالحرب ، لا حالاً ولا مستقبلاً ، حيث لم يقل النبي ﷺ لهرقل إذا لم تسلم أقاتلك أو سأقاتلك ، إذا كان الأمر كذلك فمن هو المسئول إذن عن الحروب التي نشبت بين المسلمين والروم سواء في حياة الرسول أو بعد وفاته ؟

المسئولية هنا ـ وبدون تعصب أو تحيز ـ تقع كاملة على هرقل والروم معه. فهم الذين بدؤا بالعدوان ضد المسلمين ، وتكررت إعتداءاتهم في غزوة مؤتة ، وفي تبوك ، وحروب الردة ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من هذه الدراسة قريبا . هذا بإيجاز شديد عن هرقل ، وموقفه من الإسلام .

فماذا عن العلاقات بين المسلمين والدولة الكبرى الأخرى في عالم يومئذ وهي الأمبراطورية الفارسية ؟ الواقع أن كسرى فارس كان أكثر غروراً وغطرسة من هرقل . فعندما وصلته رسالة النبي ﷺ ، استشاط غضباً ومزق الرسالة ، بل أكثر من ذلك طلب أن يقبضوا له على النبي ليحاكمه ، ولما علم النبي بذلك الموقف المغرور من كسرى دعى عليه قائلاً : « مزق الله ملكه » وقد إستجاب الله دعاء رسوله ، فقد قامت ثورة ضد كسرى ، والمدهش أن ابنه هو الذي ثار عليه وقتله ، ولكن موقف الفرس لم يتغير تجاه الإسلام نتيجة موت كسرى أبرويز الثاني ، الذي كان موقفه بمثابة إعلان الحرب على الإسلام . وكما أخذ الروم موقف العداء من المسلمين ، وحشدوا قواتهم على الحدود لتهديد المسلمين ، وحرضوا القبائل العربية المنضوية تحت نفوذهم ضد المسلمين ، فقد أخذ الفرس نفس الموقف على الحدود الشرقية ، وظهر ذلك واضحاً في أثناء حروب الردة في خلافة أبي بكر ﷺ . وكما تطورت العلاقات مع الروم ، تطورت كذلك مع الفرس على طريق المواجهة ، إلى أن وضع الخلفاء الراشدون حداً لغطرسة أكاسرة الفرس ، وأزالوا سلطانهم من الوجود . ورفعوا راية الإسلام على كل بلاد فارس ، وخلصوا البلاد والعباد من ظلم الأكاسرة ، والروم جميعا .

عمرة القضاء

في ذي القعدة من العام السابع الهجري خرج الرسول والمسلمون لأداء عمرة القضاء [1] . وكانت قريش تنتظر وصولهم إلى مكة ، لا لترحب بهم ، كما كان يقضي واجب الضيافة ، ولكن لتخلي لهم مكة ثلاثة أيام طبقا للإتفاق ، ولقد وفت بهذا الشرط ، وأخلت مكة فعلا ، لأنها كرهت أن ترى المسلمين وهم يطوفون بالبيت ، لأن ذلك يغيظها ، ولم تكن تدري أنه لن يمر عام آخر ، إلا وسيكون البيت خالصا لله ولرسوله والمسلمين . ولن يعبد فيه أحد إلا الله وحده ، وسيحطم كل ما به من أصنام .

على الرغم من خروج قريش من مكة ، وتفرقهم في الجبال والتلال المحيطة بها إلا أن بعضهم كان يسترق البصر ، ليرى المسلمين ، وهم يطوفون بالبيت ، ولذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين باظهار القوة أثناء طوافهم ليغيظ المشركين ، الذين كانوا يروجون الشائعات بأن المهاجرين قد أوهنتهم حمى يثرب فقد قال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » أتم النبي والمسلمون طوافهم وسعيهم . وأمر بلالاً فصعد فوق سطح الكعبة ، ليؤذن لصلاة الظهر ، فأعلنها الله أكبر ، عالية مدوية تشق عنان السماء ، وأراد الرسول أن يقيم لهم دليلاً على حسن نواياه نحوهم ، وأنه لم يقصد إلا خيرهم ، فعرض عليهم بعد انقضاء مدة الثلاثة الأيام المتفق عليها ، أن يبقى بينهم فترة أطول لعل النفوس تهدأ ، وتكون فرص التفاهم أكبر ، وقال لهم ، وقد عزم على الزواج من ميمونة بنت الحارث الهلالية : « ماذا لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه » ولكنهم رفضوا هذا العرض الكريم وقالوا له في جفاء : « لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا » فخرج عائداً إلى المدينة ، ولكنه كان على يقين ، بأن قريشا أصبحت كالثمرة الناضجة ، ولن يمر وقت طويل حتى تفتح له مكة أبوابها .

---

(١) طبقا لما اتفق عليه في صلح الحديبية .

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

بعد عمرة القضاء بدأ بعض رجالات قريش يعيدون النظر في موقفهم من النبي ، فاكتشفوا أنهم كانوا في عدائه وحربه على خطأ عظيم ، ومن هؤلاء خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، فأسرعا إلى المدينة لاعلان إسلامهما ، وكسبت الدعوة الاسلامية رجلين كانا من ألد أعدائها ، وبعد إسلامهما أصبحا من أعظم أنصارها ، ومن كبار الفاتحين .

أما خالد بن الوليد ، الذي كان قائد فرسان قريش ، في حروبها ضد المسلمين فيقول [1] : « لما أراد الله بي الخير قذف في قلبي الاسلام ، وحضرني رشدي ... فلما خرج رسول الله ﷺ ، إلى الحديبية ، خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله بأصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا وكانت فيه خير ، فاطلع على ما في أنفسنا مما ألهم به ، فصلى صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعا ، فقلت الرجل ممنوع ، فاعتزلنا ، وعدل عن سير خطنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ، قلت في نفسي أي شيء بقى ؟ أأذهب إلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه عنده آمنون ، أفأخرج إلى هرقل ، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم في داري ؟ فأنا في ذلك ؛ إذ دخل رسول الله ﷺ ، في عمرة القضاء ، فتغيبت فلم أشهد حضوره وكان أخي ؛ الوليد بن الوليد ، قد دخل مع النبي ﷺ ، في عمرة القضاء ، فطلبني فلم يجدني ، فكتب إليّ كتاباً ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام ما جهله أحد ، وقد سألني رسول

---

(١) خاتم النبيين ، مرجع سابق جـ ٣ ص ٨٣٨ .

الله ﷺ ، عنك ، وقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتي الله تعالى به ، فقال : « ما مثله يجل الاسلام ؟ ولو جعل تكايته وحده مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » فاستدرك يا أخي ما فاتك من مواطن صالحة ... فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام ، سؤال رسول الله ﷺ عني ، وأراني في المنام ، كأني في بلاد ضيقة مجدبة ، فخرجت في بلاد خضراء واسعة ، فقلت : إن هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة المنورة ، قلت : لأذكرنها لأبي بكر ، فقال : مخرجك الذي هداك الله تعالى للإسلام ، والضيق الذي كنت فيه من الشرك » .

ولما استقر عزم خالد على الدخول في الإسلام ، عرض على صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، أن يصحباه إلى النبي ويعلنا إسلامهما معه ، فقد استبان كل شيء ، وقال لهما : « إن شرف محمد شرف لنا » ، ولكنهما أبيا أشد الاباء ، فسأل عثمان بن طلحة فأجابه ، وتوكلا على الله ، وشدا رحالهما إلى رسول الله ، وفي الطريق لقيهما عمرو بن العاص ، فقال لهما مرحبا بالقوم ، فقالا : وبك ، فقال: إلى أين مسيركم ؟ فقلنا وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام ، واتباع محمد ﷺ ، قال : وذلك الذي أقدمني ، فاصطحبنا جميعا ، حتى دخلنا المدينة المنورة » .

سر رسول الله ﷺ سروراً عظيماً باسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، واستقبلهما استقبالاً حاراً ، لأنه كان يعرف قدراتهما ، وما يمكن أن يؤدياه للإسلام من خدمات ، ومن مثل رسول الله في معرفة أقدار الرجال ؟ ولقد قال لخالد حين دخل عليه : « الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » وإستغفر له رسول الله ، ودعا له بخير ، ثم سماه سيف الله حين أنقذ الجيش الإسلامي في مؤتة من الهلاك [1] .

---

(١) سيرد الكثير من بطولات خالد بن الوليد وأمجاده العسكرية ، في القضاء على الردة ، =

أما ابن العاص ، السياسي الداهية ، الذي أرسلته قريش سفيراً لها إلى الحبشة ليرد المسلمين الذين هاجروا إليها ، وفشل في مهمته ، فقد ظل كذلك على عدائه للإسلام إلى أن أحدث الله الإنقلاب في حياته ، في الوقت الذي قدره سبحانه وتعالى . فأعلن اسلامه على يدي رسول الله ، الذي سر بإسلامه ، ودعا له بالمغفرة وعرف له قدره وقدراته ، وأمره على السرايا ، وأرسله في مهمات سياسية ، وسيبلى بلاء حسناً في حركة الردة ، وفي فتوح الشام ، في عهدي أبي بكر وعمر ، ثم سيرتبط اسمه بفتح مصر ، التي أسس فيها أول عاصمة اسلامية ، هي مدينة الفسطاط ومسجده الذي لا يزال يحمل إسمه ، فرضي الله عنهم جميعا ، وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء .

غزوة مؤتة

أشرنا فيما سبق إلى أن النبي ﷺ ، بدأ يعطي عناية بالغة إلى جبهة حدود الدولة الإسلامية مع الشام - حيث يسيطر الروم - منذ بداية العام الخامس الهجري ، حيث غزا بنفسه دومة الجندل ، ثم أغزى زيد بن حارثة وادي القرى ثم أغزى عبد الرحمن بن عوف دومة الجندل ثانية ، وذلك لإظهار هيبة الإسلام في هذه الجهات ، ثم لانذار القبائل العربية فيها ، بأن التعرض للمسلمين بأي أذى أمر لن يمر دون عقاب . ولكن يبدو أن هذه القبائل لم تفهم ، أو لم ترد أن تفهم ذلك ، فدأبت على الاعتداء على المسلمين وبصفة خاصة على قوافل التجار المسلمين التي تمر بهم ، ولم يسلم منهم حتى رسل النبي ﷺ ، فبينما كان دحية بن خليفة الكلبي عائدا من عند هرقل - بعد أن سلمه رسالة النبي - تعرض له بعض العرب من قبائل جذام ، وأغاروا عليه ، وأخذوا كل شيء معه [1] .

== وفتح العراق والشام ؛ في خلافتي أبي بكر وعمر .

(١) ابن الأثير - الكامل جـ ٢ ص ٢٠٧ .

ثم بلغت هذه الاعتداءات قمتها في هذا العمل الغادر الدنيء ؛ وهو قتل الحارث بن عمير الأزدي ، مبعوث النبي ﷺ ، إلى أمير بصري ، وإليك رواية ابن سعد عن هذا الحادث : « بعث رسول الله ﷺ ، الحارث بن عمير إلى ملك بصري بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ ، رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه - أي على النبي - وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف ، وهم ثلاثة آلاف .. وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الاسلام ، فإن أجابوا ، والا استعانوا بالله وقاتلوهم .. فلما فصلوا من المدينة سمع العدو ، بمسيرهم فجمعوا لهم ، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو ، فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه ، وقد نزل المسلمون معان من أرض الشام ، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام » [١] .

الأمر إذن ليس أمر اعتداءات عفوية متفرقة ، على الإسلام والمسلمين ، وإنما هو أخطر من ذلك بكثير ، هو تحالف ضخم بين القبائل العربية وبين الروم ضد دولة الإسلام الوليدة ، وضد الدعوة الإسلامية والتصدي لها ومقاومتها ، وهو ما لم يمكن السكوت عليه من جانب المسلمين ولذلك كانت مؤتة وكان ما تلاها من أحداث وتطورات بين المسلمين والروم .

تدخل الروم في مؤتة إعلان حرب على الإسلام :

لما وقعت حادثة اغتيال مبعوث النبي ﷺ ، الحارث بن عمير الأزدي ، كان لا بد من عقاب من قام بهذا العمل الغادر لأن دماء الرسل والسفراء والمبعوثين مصانة في كل عرف وفي كل زمان ومكان ، فإذا اعتدى أحد على

---

(١) ابن سعد ، الطبقات جـ ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ ، وانظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن الكريم جـ ١٠ ص ١٨٣ .

مبعوث من مبعوثي النبي بهذا الشكل الدنيء ، فإن هـذا يعتبر إهانـة بالغة للإسلام والمسلمين ، وإذا لم يرد المسلمون على هذا العدوان ، فإن هذا في أقل تقدير سيطمع فيهم أعداءهم ويجرئهم على تكرار هذا الفعل مرات عديدة ، خصوصا في هذه المناطق التي لا غنى للمسلمين عن المرور فيها ، دعاة أو تجارا أو مجاهدين أو مبعوثين ، لذلك كان الرد والعقاب أمراً مشروعا ، فندب النبي ﷺ المسلمين للقيام بهذه المهمة وأمرهم أن يقصدوا إلى المكان الذي استشهد فيه الحارث بن عمير ﷺ ، وقبل القتال أمرهم أن يدعوا الناس إلى الإسلام فإن أجابوا ، فعندئذ يكونون قـد اعتذروا عن فعلتهم وكفروا عـن ذنبهم ، فلا داعي لقتالهم . أما إذا رفضوا الإسلام ، فإنهم بهذا يؤكدون إصرارهم على عدائهم للإسلام ومقاومته ، وعندئذ كانت أوامر الرسول ﷺ لجنوده بأن يستعينوا الله عليهم ويقاتلوهم . وكانت المهمة على هذا النحو محددة تحديداً دقيقاً . فهي مهمة تأديبية ، لتأديب شرحبيل بن عمرو الغساني ومن ظاهره على هذه الجريمة ، ولم يرد فيها ذكر للروم إطلاقا ، بل ربما لم يرد في ذهن النبي ﷺ أن الروم سوف يتصدون للمسلمين بهذه الأعداد الهائلة . فنحن نعرف من حذر النبي وحيطته أنه لو فكر في الروم وتصور أن يدخلوا مع المسلمين في حرب لاستعد لذلك استعدادا أكبر ، ولكانت الحملة على نطاق واسع ، فالروم دولة قوية وإمكانياتها هائلة [١] ، فقد انتصرت على دولة ند لها ؛ وهي دولة الفرس ، التي كانت تنازعهـا زعامـة العالم المعروف حينئذ ، فلو قـدر النبي أن المسلمين سوف يضطرون لحرب الروم لأمدهم بإمدادات أكبر . على كل حال توجهت حملة مؤتة إلى وجهتها وعلى رأسها القواد الثلاثة الذين عينهم النبي ﷺ ، وهم زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فلما علم قوادها أن الروم جمعوا جموعهم لحربهم : « أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن

---

(١) كانت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت .

يمدنا بالرجال ، وإمَّا أن يأمرنا بأمـره فنمضي لـه فشجع الناس عبد الله بن رواحة » [١] .

أي أن المسلمين قدروا خطورة الموقف وتدارسوه ، ولولا غلبة حماسة عبد الله بن رواحة عليهم لربما اختلف الموقف واختلفت النتيجة ، أو لو أرسلوا إلى النبي لكان من الممكن أن يمدهم بالرجال ، أو يرى رأيا فيه نجاحهم وانتصارهم ، ولكن قدر الله وما شاء فعل .

سرت كلمات عبد الله بن رواحة في روح الجند وحمستهم للقتال خصوصا عندما قال : « يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين ، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين ، فقال الناس صدق والله ، وساروا .

بدأت حرب عاتية شرسة بين جيشين ليس بينهما أدنى تكافؤ ، فماذا يصنع ثلاثة آلاف في مواجهة مائتي ألف من الروم والعرب الذين ينضوون تحت سلطانهم ، وقاتل جند الله - كما هو العهد بهم - قتالاً مجيداً ، واستشهد قوادهم الثلاثة على التوالي ، ثم آلت القيادة إلى عبقري الحرب ، سيف الله ؛ خالد بن الوليد ﷺ الذي نظر إلى الموقف نظرة ثاقبة ، وقـدر بعبقريته العسكرية ، وحرصه على المسلمين أن الاستمرار في الحرب أمر خطر قد يودي ببقية المسلمين ، ورأى أن الحكمة تتطلب منه أن ينقذ المسلمين من الهلاك ، فوضع خطته البارعة للانسحاب بمن بقي من المسلمين ، وعاد إلى المدينة حيث استقبلهم الناس مظهرين استياءهم من موقفهم ، وعيروهم وقالـوا لهم : « يا فرار فررتم في سبيل الله » ، وكان تقدير الناس أنهم فروا من المعركة ، ولم يكن

---

(١) انظر عن غزوة مؤتة المصادرَ الآتية : ابن هشام جـ ٣ ص ٤٢٠ ، الروض الأنف - السهيل جـ ٧ ص ١٢ وما بعدها ، ابن سعد - الطبقات جـ ٢ ص ١٢٨ وما بعدها ، ابن الأثير - الكامل جـ ٢ ص ٢٣٥ .

هذا صحيحاً ، فالفرار لم يكن من خلق المسلمين الصادقين أبداً ، ولن يكون ، ولكن الرسول ﷺ قدر موقفهم ورفع معنوياتهم وقال : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » .

وهكذا أصبح جليا أن الروم قد أعلنوها حربا شعواء على الإسلام ودولته . ولكن المسلمين سوف يلقنونهم درسا قاسيا ، وسوف يرغمون هرقل على أن يغادر الشام وإلى الأبد ، وقلبه يقطر دما وهو يقول : « وداعا يا سوريا وداعا لا لقاء بعده » .

فتح مكة (١)

نقضت قريش معاهدة الحديبية حيث أعانت حلفاءها بني بكر ، على خزاعة ، حلفاء الرسول ، ولعلها بنت ذلك على حسابات خاطئة ، فقد ظنت أن هزيمة جيش المسلمين في مؤتة أمام جيش الروم في جمادى الأولى من العام الثامن الهجري ، علامة ضعف ، فاستخفت بأمر المسلمين ، وقدرت أنهم ما داموا قد اشتبكوا مع الروم ، وهزموا في أول معركة معهم ، فلن يستطيعوا التحرك ضدها ، فارتكبت هذا الخطأ الجسيم ، وكان عليها أن تدفع الثمن ، أما الروم التي كانت تتصور أنهم سيكفونها أمر المسلمين ، وسيتولون القضاء عليهم ، فلم تكن تدري أن الأقدار قد قررت أن تمحو وجودهم في المنطقة ، وأن المسلمين سيطردونهم من الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وسيكون أبناء مكة أنفسهم ، بعد فتحها وإسلامهم ، بعض من سيشاركون في هذا الفتح العظيم ، حقا إن أحدا وقتذاك لم يكن يتصور أن الأحداث ستتطور بهذا الشكل السريع.

جاء عمرو بن سالم ، وبديل بن ورقاء ، ورجال من خزاعة إلى رسول الله

---

(١) انظر فتح مكة في : سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣ وما بعدها ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٢ ص ١٢٦ وما بعدها .

ﷺ ، فأبلغوه ما حدث ، وطلبوا نصرته طبقا لما تقضي به المعاهدة ، فأجابهم وقال : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

أما قريش فقد أدركت فداحة الخطأ الذي ورطت نفسها فيه ، وحاولت إصلاحه ، فأرسلت زعيمها أبا سفيان إلى المدينة ، ليجدد معاهدة الحديبية ، ويزيد في مدتها ، وهذا يعكس عجزها ، ويؤكد صدق ما قدره النبي ﷺ ، من عدم قدرتها على غزو المدينة بعد عام الأحزاب ، ولقد توقع رسول الله قدوم أبي سفيان إلى المدينة للمفاوضة على تمديد أجل المعاهدة ، قبل أن يأتي ، لأنه قال لوفد خزاعة : « إن أبا سفيان سيأتي ليشدَّ العقد ، ويزيد في مدة الصلح ، وسينصرف بغير حاجة » ، ولعله أراد أن يطمئن وفد خزاعة ، خوفا من أن يذيع أبو سفيان أخبارا غير صحيحة عن تجديد المعاهدة . وجاء أبو سفيان وحاول أن يكلم رسول الله فيما جاء من أجله ، فلم يكلمه بكلمة ، فذهب يكلم أبا بكر ، فلم يجد عنده طائلا ، فكلم عمر بن الخطاب أن يشفع له عند رسول الله ، فقال : « أنا أفعل هذا والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » ، ثم كلم عليا فرد عليه كرد أبي بكر وعمر ، فلما يئس من كبار الصحابة ، ذهب إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ومعها ابنها الحسن بن علي ، فقال لها : « يا بنت محمد ، هل لك أن تأمري بنيَّك هذا فيجير على الناس ؟ » ، فقالت له : « ما بلغ بني ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ » . بذل أبو سفيان كل ما في وسعه ، فلم يبلغ ما يريد ، حتى ابنته ، أم المؤمنين ، أم حبيبة رضي الله عنها ، لما ذهب إليها ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ، طوته عنه ، ولما استفسر منها ، أرغبت به عن الفرش ، أم رغبت بالفراش عنه ، أجابته في صراحة ووضوح : « إنه فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه » .

رجع أبو سفيان إلى مكة خائبا ، وما يشك في أن رسول الله سيسير إلى مكة ، ليلقنهم درسا في الوفاء بالعهود ، واحترام المواثيق .

صحابي جليل يزل زَلة كبيرة :

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه إذا أراد غزو جهة أظهر أنه يريد غيرها ، ليعمي الأخبار على أعدائه ، ليأخذهم على غرة ، فالمفاجأة في الحرب من أهم عناصر تحقيق النصر ، فلما عزم على المسير إلى مكة ، أخذ في الاستعداد في تكتم شديد ، ولكن لم يكن ممكنا تعمية الأخبار عن كل أصحابه ، فعلم بها بعضهم ، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة ، وحاطب من الذين شهدوا بدرا ، وكان موضع ثقة الرسول ، فقد أرسله سفيرا له برسالة إلى المقوقس حاكم مصر يدعوه إلى الإسلام ، ولكن ذلك الصحابي الجليل زل زلة كبيرة ، حيث أفشى أسرار رسول الله إلى أعدائه في وقت الحرب ، وهي جريمة من أخطر الجرائم ، فقد كتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم فيه بمسير رسول الله إليهم ، وعزمه على غزوهم ، وأعطاه لامرأة ، فهي أدعى ألاَّ يشك فيها أحد ، ويبدو أن المرأة اختيرت لهذه المهمة بعناية ، ولعلها كانت محترفة ، وسبق لها القيام بمثل هذا العمل ، لأنها وضعت الكتاب في مكان لا يخطر على بال أحد ، حيث وضعته في رأسها وضفَّرت عليه شعرها ، حتى إذا تعرضت لعملية تفتيش لا يفطن له أحد ، ولكن الله تعالى أخبر نبيه بحقيقة الأمر . فأرسل خلف المرأة ، علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وقال لهم : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها حظية ، معها كتاب إلى قريش » فانطلقوا ، ووجدوا المرأة ، وفتشوا رحلها كله ، فلم يجدوا شيئًا ، فقالوا : والله ما كذب رسول الله ﷺ ، فقال لها علي : والله لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فحلت قرون رأسها ، فأخرجت الكتاب ، فأتوا به النبي ﷺ ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : والله يا رسول الله ، ما شككت في الإسلام ، ولا رجعت عن ديني ، ولكني كنت ملصقا في قريش ، فأردت أن أتخذ عندهم بذلك يدا يحفظونني بها في شأفتي - أهله وماله - بمكة ، لأن أهلي وولدي بها ، فقال عمر ابن الخطاب : « يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق » ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال :

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

هذه الزلة الكبيرة عقوبتها الإعدام في كل القوانين ، لكن رسول الله ، عفى عن حاطب لأنه كان من أهل بدر . وفي حاطب وفعلته نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ (١) .

مسير الجيش :

في العاشر من شهر رمضان من العام الثامن الهجري ، خرج رسول الله ﷺ ، من المدينة المنورة ، إلى مكة المكرمة ، على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، فيهم المهاجرون والأنصار ، ومعهم جموع من قبائل ، بني سليم ، ومزينة ، وغطفان ، وغفار ، وأسد ، وتميم ، وقيس ، وغيرهم ، حتى إذا بلغ الكديد ـ على بعد أربعين ميلا من مكة ـ أفطر بعد صلاة العصر ـ وكان صائما ـ وشرب وهو على راحلته علانية ، ليراه الناس ، ويقتدوا به ، وليتقووا على عدوهم .

وكان تفكير رسول الله وأمله أن يدخل مكة دون أن تراق قطرة دم واحدة ، لا من المسلمين ، ولا من قريش ، فهو حريص عليهم وعلى سلامتهم وهدايتهم .

خروج العباس بن عبد المطلب لملاقاة الرسول :

خرج العباس بن عبد المطلب من مكة ، وخرج معه ابن أخيه أبو سفيان

---

(١) سورة الممتحنة ، آية ١ ، وانظر : مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٨١ .

ابن الحارث بن عبد المطلب ، وكان كثير الإيذاء لرسول الله ، يهجوه بشعره وينال منه ، وخرج معه أيضا عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، ابن عمته .

وقد التقوا برسول الله ، بالجحفة - على أربعة مراحل من مكة - أما العباس ، فقد رحب به الرسول ، وأعلن إسلامه علانية لأول مرة ، واعتبره من المهاجرين ، فقد روي أنه قال له : « أنا آخر الأنبياء وأنت آخر المهاجرين » أما أبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية ، فأعرض عنهما الرسول ، ورفض في البداية أن يأذن لهما ، لما لحقه من أذاهما بمكة ، ولكن السيدة أم سلمة ﷺ تدخلت وشفعت لهما ، وقالت له : « يا رسول الله لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك » فقبل شفاعتها وأذن لهما ، فأسلما وحسن إسلامهما .

الموقف في مكة :

كانت قريش تتوقع مسير رسول الله إليها ، ولكن لا تعرف متى وكيف ؟ وكل ما صنعه أبو سفيان ، وقد استبد به الرعب والفزع أنه كان يخرج كل ليلة خارج مكة ، يتلمس الأخبار بنفسه ، ليعلم عن أمر رسول الله شيئا ، فبينما هو كذلك ، إذ لقيه بديل بن ورقاء الخزاعيَ ، وكان هو الآخر يتنطس أخبار النبي ، ولكن لهدف آخر ، غير هدف أبي سفيان ، فهو حليف النبي ، وينتظر نصرته . ولذلك عندما رأيا نيران جيش النبي من بعيد ، قال أبو سفيان : لم أر نيرانا كالليلة قط ؛ فقال له بديل بن ورقاء - وهو يريد أن يخدعه - هذه نيران خزاعة ، ولكن أبا سفيان قال : « خزاعة أقل وأذل من أن تكون لها هذه النيران » ، وبينما هما يتحاوران ، سمع كلامهما العباس بن عبد المطلب ، الذي كان قلقا علي مكة وقريش ، ويريد أن يبلغهم خبر مسير النبي إليهم ، ليخرج وفد منهم لاستقباله ، والاستسلام له ، وطلب الأمان ، فلما سمع صوت أبي سفيان ، صاح بأعلى صوته : يا أبا حنظلة ، فميز أبو سفيان صوته فرد عليه : يا أبا

الفضل ، فقال نعم : والتقيا ، وقال العباس : « ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله ... في الناس ، واصباح قريش ، فقال أبو سفيان : فما الحيلة ؟ قال العباس : والله لئن ظفر بك ليقتلنك ، فارتدف خلفي ، وانهض معي إلى رسول الله ... » فلما رأى الناس العباس على بغلة رسول الله ، وخلفه أبو سفيان ، أمسكوا ، إلا عمر بن الخطاب ، فما أن رأى أبا سفيان ، حتى ركض إلى خيمة رسول الله ، فقال له : يا رسول الله ؛ هذا عدو الله أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فأذن لي بضرب عنقه ، ولكن العباس شفع لأبي سفيان عند الرسول ، فعفى عنه ، ونسى كل إساءاته ، وأمر العباس أن يذهب به إلى رحله ، ويأتيه به صباحا ، فلما مثل بين يدي النبي ، قال لـه : « ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال أبو سفيان : « بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغناني » ، قال النبي : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » ، قال : « ... أما هذه فإن في النفس منها شيئا حتى الآن » ، فقال له العباس : « أسلم قبل أن تضرب عنقك » ، فأسلم ، فقال العباس : « يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا ، فقال ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ـ الحرام ـ فهو آمن » .

عاد أبو سفيان بهذا العفو ، وهذا التكريم الزائد ، إلى مكة ، بعد أن رأى بعينيه ضخامة الجيش ، فقد أمر النبي العباس أن يوقفه بخطم الوادي ؛ ليرى كتائبُ الإسلام ، ليمتلأ قلبه رعبا ، وعرض عليه العباس القبائل ، قبيلة قبيلة ، وهو يقول له : هؤلاء سليم ، هؤلاء غفار ، هؤلاء تميم ، هؤلاء مزينة ... إلخ ، إلى أن جاء موكب رسول الله ﷺ ، في المهاجرين والأنصار خاصة ، كلهم في الدروع والبيض ، فقال أبو سفيان : « من هؤلاء ؟ » فقال العباس : « هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار » ، فقال أبو سفيان : « والله ما لأحد بهؤلاء قبل ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما » ، فقال العباس : « يا

أبا سفيان إنها النبوة » ، قال : فنعم إذن . فطلب منه العباس أن يسرع إلى مكة ، ليخبر أهلها بالأمان الذي أصدره رسول الله ، فذهب مسرعا ، وأخبرهم ، وأعلمهم أن رسول الله قد أمن كل من دخل المسجد الحرام ، أو دخل دار أبي سفيان ، أو أغلق عليه بابه ، وليس هناك سماحة أكثر من هذا مع أهل بلد عادوه وآذوه وحاربوه عشرين عاما كاملة .

دخول النبي مكة :

قسم الرسول جيشه إلى أربع فرق ، على رأس كل فرقة أحد الصحابة الأبطال ، فخالد بن الوليد على فرقة ، وأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، والزبير ابن العوام على فرقة وأمره أن يدخلها من شمالها ، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ، وأمره أن يدخلها من جانبها الغربي ، وأبو عبيدة بن الجراح على المهاجرين ، وأمره أن يدخل مكة من أعلاها .

وكانت تعليمات الرسول مشددة لهؤلاء القادة بألا يقاتلوا أحدا إلا إذا قوتلوا ، لحرصه على حقن الدماء ، وعلى دخول مكة بسلام ، ولذلك لما قال سعد بن عبادة : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » ، فزع العباس من مقالة سعد ، وخشي على قريش من الاستئصال ، وبلغها للرسول ، عندئذ أمر الرسول بانتزاع الراية من سعد ، ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، لأنه كان أهدأ من أبيه وأحلم . وقال الرسول : « اليوم يوم المرحمة » .

ودخلت الجيوش مكة ، ملتزمة بتعليمات النبي ، فلم تقاتل إلا من قاتلها .

معركة الخندمة (١) :

رغم الأمان الذي أعلنه الرسول ﷺ ، وأبلغه أبو سفيان لأهل مكة ، إلا

---

(١) الخندمة جبل في مكة .

أن مجموعة من الذين أعمى الحقد أبصارهم وبصائرهم من أبناء مكة ، أبوا إلا القتال ، وكان هذا منتهى الحمق ، لأنهم يعلمون أنهم يحاربون معركة خاسرة ، فإذا كانت مكة كلها لا قبل لها بالجيوش الإسلامية ، فكيف بشرذمة قليلة ، ولكنه العناد ، الذي دفع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف ، للاعتصام بمنطقة الخندمة ، والاستعداد للقتال ، وكان من سوء حظهم أن القوة الإسلامية التي واجهتهم ، كانت بقيادة خالد بن الوليد ، الذي كان قائدهم قبل عام ، وأصبح الآن سيف الله عليهم ، فحمل عليهم حملة لم يثبتوا لها ، وقتل منهم ثلاثة عشر رجلا ، وفر عكرمة وصفوان ، والباقون ، لا يلوون على شيء .
وكان منهم رجل اسمه حماس بن قيس ، كان متحمسا لقتال المسلمين ، ولكن امرأته نصحته بعدم الخروج للقتال ، وقالت له : والله ما أرى أن يقوم لمحمد وأصحابه شيء . فقال لها : والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم [١] . فلما هزموا ، فر من المعركة ، ودخل عليها مذعورا ، وقال : أغلقي علي بابي . فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضربا فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

العفو العام

انتهت هذه المعركة الصغيرة ، ولم يخسر المسلمون فيها إلا شهيدين ، ودخل النبي مكة ظافرا منتصرا على ناقته القصواء ، وقصد الكعبة ، فطاف حولها سبعا ، وهو في غاية الخشوع والخضوع لله سبحانه وتعالى ، الذي من عليه بهذا النصر ، والفتح المبين ، ولا بد أن يكون قد طاف بذهنه شريط ذكرياته مع

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٦ .

أهل مكة ، طوال العشرين عاما الماضية ، وما صنعوه معه ، وأن يتذكر في هذه اللحظة الفريدة ، لحظة أخرى مضى عليها الآن ثمانية أعوام ، حين تآمروا على حياته ، وأجبروه على الخروج من مكة ، أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إليه ، كما قال ﷺ وهو يغادرها ، ثم أردف : « ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت » ، ها هم جميعا أصبحوا في قبضة يده ، وبكلمة واحدة منه ، يقتلون جميعا ، فهل حركت هذه الذكريات الأليمة ، كوامن الحقد في نفسه ، وأحيت رغبة الانتقام ؟ كلا ! فهو لا يعرف الحقد ، ولا يهوى الانتقام ، بل سيعلمهم ويعلم الإنسانية كلها درسا عظيما في العفو والتسامح والبر والرحمة ، فهو نبي الرحمة ، بل هو نفسه رحمة . ولذلك جمعهم بعد أن أتم طوافه ـ وكانوا زهاء ألفي رجل ـ ثم ألقى عليهم خطبة [1] بدأها بقوله : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدَّعي ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ... ثم قال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ..: ثم تلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ، ثم قال لهم : « يا معشر قريش ؟ ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولم يكتف ﷺ ، بهذا العفو العام ، والمن عليهم بحياتهم ، بل صان لهم أموالهم أيضا ، فلم يجر على مكة ما يجري على البلاد المفتوحة من الأسر والسبي والغنيمة ، تكريما لها وتشريفا لأنهـا بلد الله الحـرام ، كما قـال ﷺ : « مكةِ حرام محرَّمة ، لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، ثم هي حرام إلى يوم القيامة » [2] . وأعطى مفتاح الكعبة لعثمان

---

(١) نص الخطبة كاملة في سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣١ – ٣٢

(٢) الدرر لابن عبد البر ص ٢٣١ .

بن طلحة ، وقال : « اليوم يوم بروقاء » [١] ، ثم طهر ﷺ مكة من الأصنام ، والصور والأزلام ، وحطم ذلك كله ، وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ ، وكما طهر الكعبة من الأصنام ، فقد أمر بتطهير ما حولها ، فقد بعث خالد بن الوليد إلى العزَّى ، وكانت قريش تعظمها ، فهدمها ، وكان مكانها في وادي نخلة ، بين مكة والطائف .

غزوة حنين [٢]

فرح الرسول ﷺ ، والمسلمون فرحا عظيما بفتح مكة ، الذي تم بدون قتال تقريبا ، وأخذ المهاجرون ، ينعمون بالاتصال بأهلهم الذين هداهم الله إلى الإسلام ، ونفوسهم مطمئنة إلى أن الأمر قد استقر للإسلام ، وأن الله كلل جهادهم بهذا النصر المبين .

في ذلك الوقت وصلت إلى النبي أخبار بأن قبائل هوازن وثقيف أجمعت على محاربته ، فلماذا ؟ يبدو أن هذه القبائل لم تدرك حتى الآن مغزى الرسالة الإسلامية ، وما تحمله لهم من خير وشرف وسعادة ، فهالها انتصار النبي على قريش ، ولعلها أرادت أن تتصدى للمسلمين ، وتنجح فيما فشلت فيه قريش ، فتكون لها السيادة على بلاد العرب ، ولقد كانت قوة هوازن وثقيف كبيرة ، ولا يستهان بها . وكانت مساكنهم إلى الجنوب الشرقي من مكة ، بلغت أخبارهم النبي ، ولم يكد يمضي على فتح مكة أسبوعان ، وقد تزعم هذه الحركة مالك ابن عوف النصري ، وكان شابا متحمسا مندفعا ، تنقصه الحنكة والتجربة ، ولذلك لما أجمع على حرب النبي ﷺ ، أمر قومه أن يسيروا بأموالهم

---

(١) ودعا له أن يظل مفتاح الكعبة في عقبه إلى يوم القيامة ، ولا يزال معهم إلى الآن .

(٢) راجع تفاصيل الغزوة كلها ، وما جرى فيها ، وغنائمها وقسمتها ، في سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٥ وما بعدها ، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٤٣ وما بعدها .

ونسائهم وأولادهم ، وكان مع القوم دريد بن الصمَّة ، وكان شيخاً كبيرا ، لا قدرة له على الحرب ، ولكنه خرج للانتفاع برأيه وتجربته ، فلما سمع أصوات الأبل والحمير ، وصراخ الأطفال ، سأل ما هذا ؟ فأخبروه أن مالك بن عوف أمر بذلك ، فقال له : يا مالك ؛ لم صنعت ذلك ؟ فأجاب أنه أراد أن يحمِّس الناس على القتال ، حمية لنسائهم وأولادهم وأموالهم ، فقال له : « يا بني إن المنهزم لا يرده شيء ، فإن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت لك ، فضحت نفسك وقومك » ، فلم يقتنع بكلامه ، وصمم على رأيه ، وأمر الناس بالتجمع إلى قمم حنين ، عند مضيق الوادي ، حتى إذا نزله المسلمون شدُّوا عليهم شدة رجل واحد .

أمـا المسلمون ، فقـد سار بهم رسول الله ﷺ ، وكانـوا اثنى عشر ألفـا ـ جيش الفتح عشرة آلاف ، وألفان من مسلمة الفتح من أهل مكة ـ ولعلهم قد غلبتهم نشوة النصر بفتح مكة على أنفسهم ، وداخلهم شيء من العجب ، بل الغـرور بهذه الكثرة ، التي لم يتجمع لهم مثلها من قبل ، فقال قائلهم : « لن نغلب اليوم من قلة » ، فلقَّنهم الله تعالى درسا في التواضع ، حتى يتعلموا أن النصر دائما من عند الله تعالى ، وأن الكثرة وحدها لا تجلب النصر ، فلم تنفعهم في بداية المعركة ، فما أن دخلوا وادي حنين حتى انهالت عليهم نبال هوازن وثقيف وهم في عماية الصبح ، فأُخذُوا على غرة ، واضطرب أمرهم ، وولوا الأدبار ، متخلين عن رسولهم ، وقائدهم ﷺ ، الذي ثبت في المعركة ، وحوله قلة من أهل بيته ، منهم العباس بن عبد المطلب ، وابنه الفضل ، وعلي ابن أبي طالب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، ومن كبار الصحابة : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، ومن شبانهم : أسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد ، وهو ابن أم أيمن ـ حاضنة الرسول ـ وقد استشهد في المعركة .

ولما رأى رسول الله ، انفضاض الناس عنه ، أخـذ يناديهم بنفسه ، قائـلا :

« أيها الناس ، إلى أيها الناس ، أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله » وأمر العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي : يا معشر الأنصار ، يا معشر المهاجرين ، يا أصحاب الشجرة . فلما سمعوا صوته ، أجابوا : لبيك ، لبيك ، عادوا والتفوا من جديد حول النبي ﷺ ، الذي لم يغادر مكان المعركة ، وكان يقول لجذبهم حوله وتشجيعهم على الثبات : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، ومن حسن الحظ أن رجوع المسلمين إلى ميدان المعركة صادف خروج هوازن من مكامنها التي فاجأتهم منها - وهي تظن أنهم هزموا - وبدأ نور الصباح في الظهور ، وتراءى الناس ، واشتدت الحرب ، وكثر الطعن والجلاد ، واطمأنت نفس الرسول ، وأخذ يقول : « الآن حمي الوطيس ، إن الله لا يخلف رسوله وعده » ثم طلب من العباس ، أن يناوله حفنة من الحصى ، فناوله إياها ، فألقى بها في وجوه العدو ، وقال : « شاهت الوجوه » ، واستجاب الله دعاءه ، ودارت الدائرة على هوازن وثقيف ، وصرع علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار ، حامل رايتهم ، فازدادوا ارتباكا ، وركب المسلمون أكتافهم ، واندفعوا يقتلون منهم ويأسرون غير مبالين بالموت في سبيل الله ، حتى اضطر من أفلت من الموت منهم إلى الهرب ، تاركين خلفهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، وقد أحصوا الغنائم ، فوجدوها اثنين وعشرين ألفا من الإبل ، وأربعين ألفا من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة . وبلغ عدد الأسرى ستة آلاف ، وقد وثقوا بالحبال ، وسيقوا إلى وادي الجعرانة ، مع الغنائم ، وأمر النبي بحبسها هناك ، حتى يفرغ من مطاردة الفارين .

وهكذا تحقق النصر ، بعد المفاجأة الأولى التي روعت المسلمين ، ولقد جاء الوحي ليعلمهم أن ما حدث في بداية المعركة ، كان بسبب الغرور الذي سيطر عليكم ، وأن النصر دائما من عند الله ، فقال تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء

الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ [١] .

ومن حسن الحظ أنه رغم ضراوة المعركة ، وخسائر العدو الفادحة في الأرواح ، فإن شهداء الإسلام فيها كانوا أربعة رجال فقط ، حصرهم ابن إسحاق بأسمائهم ، وهم أيمن بن عبيد ، ويزيد بن زمعة بن الأسود ، وسراقة بن الحارث ، وأبو عامر الأشعري [٢] .

أما قتلى هوازن وثقيف فكانوا كثيرين ، وإذا كانت مصادر السيرة لم تقدم لنا إحصاء كاملا ، بكل من قتل منهم ، وكانت تكتفي بالقول : وقد استحرّ القتل في بني نصر بن معاوية مثلا ، وهذه الكلمة تدل على كثرة القتلى ، كما أن ابن عبد البر ذكر أن قتلى بني مالك ـ من ثقيف ـ وحدهم بلغوا سبعين قتيلا ، وإذا أخذنا في الاعتبار أن عدد الأسرى كان ستة آلاف [٣] ، فهذا كله يدل على أن القتلى كانوا على الأقل بالمئات ، وكان بين القتلى دريد بن الصِّمة .

حصار الطائف

أين مالك بن عوف ؟ ذلك الأحمق الذي جر على قومه ذلك البلاء ، لقد هرب في مقدمة الهاربين من المعركة ، ولاذوا جميعا بالطائف ، فقرر رسول الله ملاحقتهم ، قبل أن يلتقطوا أنفاسهم ، وأجل البت في أمر الأسرى ، وتقسيم الغنائم ، إلى ما بعد الفراغ منهم ، وكانت الطائف مدينة محصنة تحصينا جيدا ، وقد عسكر الرسول أول الأمر في وادي العقيق ، وأخذ يرميهم بالمنجنيق ، وهو أول من رمى به في الإسلام ـ كما يقول ابن إسحاق [٤] ، ولكنهم أخذوا من

---

(١) سورة التوبة ، الآيات ٢٥ - ٢٧ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٩٢ .
(٣) الدرر لابن عبد البر ص ٢٤٥ .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٨ .

داخل حصونهم يرمون المسلمين بالنبل ، فاستشهد منهم أحد عشر رجلا ، والثاني عشر كان عبد الله بن أبي بكر ، أصيب في المعركة ، ثم توفي متأثرا بجراحه في المدينة بعد ذلك . ولما رأى رسول الله كثرة القتلى من أصحابه ، تراجع عن مرمى النبل بجنوده ، ثم أراد أن يحرق عنبهم ونخيلهم ليرهبهم ، ولكنهم ناشدوه أن يكف عن تخريب بساتينهم ، فكف عنها ، ثم نادى أنه معتق من يأتيه من الطائف ، فجاءه حوالي عشرين رجلا ، فأخبروه أن داخل الحصون من الطعام والسلاح ما يكفي مدة طويلة . فاستشار أصحابه ماذا يصنع ؟ وقد طال حصاره للطائف ثلاثة أسابيع ، فقالوا له : « يا رسول الله ؛ هم كضب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته فلن يضرك » ، ومعنى العبارة أن المتحصنين داخل حصون الطائف آتون لا محالة ، فلا مفرّ لهم من ذلك ، فاقتنع بهذا الرأي ، ورفع الحصار ، وقبل أن يمضي عام كان وفد ثقيف في رمضان سنة ٩ هجرية عند رسول الله في المدينة يعلنون إسلامهم . وهذا تصديق لدعوته ﷺ ، لهم بالهداية . عندما رفع الحصار عن الطائف ، فقد قال له رجل من أصحابه : « يا رسول الله ؛ ادع عليهم » ، فلم يدع عليهم ، بل دعا لهم ، وقال : « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم » [١] .

الرسول يقسم غنائم حنين

عاد الرسول ﷺ ، إلى الجعرانة ، وهو المكان الذي جمعت فيه غنائم وأسرى هوازن وثقيف ، ليقسمها على المجاهدين ، فأخذ الخمس الذي يخصه طبقا لما حدده الله تعالى له ، في قوله تعالى : ﴿ وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [٢] الآية . وقسم أربعة الأخماس في المجاهدين ، ثم أعطى المؤلفة قلوبهم ، من قريش ، وهم مسلمة الفتح ، وغيرهم أموالاً كثيرة ، فهو يعرف حبهم للمال ، وهم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٤ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٤١ .

أشراف الناس ، فأرضاهم ليتألف قلوبهم ، ويتألف بهم قومهم [١] . فأعطى أبا سفيان بن حرب ، وإبنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن هشام ، وسهيل ابن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وصفوان بن أمية ، ومالك بن عوف ، والعلاء بن جارية الثقفي ـ حليف بني زهرة ـ أعطى كل واحد من هؤلاء مائة من الإبل ، فهم أصحاب المئين ، وأعطى رجالاً آخرين من قريش ، دون المائة .

وأعطى زعماء القبائل الأخرى ، مثل ذلك ، فقد أعطى عيينة بن حصن الفزاري ، مائة ، والأقرع بن حابس التميمي ، مائة ، وأعطى عباس بن مرداس ؛ زعيم بني سليم ، أقل منهما ، فغضب ، وقال شعرا يعاتب فيه رسول الله ﷺ ، لتفضيله عيينة والأقرع عليه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ، قال : « اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه » فأعطوه حتى رضي ، فكان ذلك قطع لسانه ، الذي أمر به الرسول [٢] .

موجدة الأنصار :

أعطى رسول الله ، ما أعطى للمؤلفة قلوبهم ، من الخمس ، الذي أوكل الله تعالى له التصرف فيه ، بنص القرآن . ولم يعط الأنصار ، فوجدوا في أنفسهم ـ أي غضبوا ـ والحق أن غضبهم لم يكن من أجل المال في حد ذاته ، وإنما من تخوفهم أن يكون دورهم ومكانتهم قد تراجعت عند رسول الله ، بعد أن فتح الله عليه مكة ، ولقي قومه ، فقد يستغنى بهم عنهم ، بل ربما يبقى في مكة ، ويترك المدينة . هذه هي مخاوفهم الحقيقية . ولذلك جاء سعد بن عبادة إلى الرسول ، ينقل إليه تلك المخاوف ، فقال له : « يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدواعليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤١ . وليس المقصود المعنى اللفظي لقطع اللسان ، وإنما أراد أسكتوه عني .

قسّمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد » قال : « يا رسول الله ما أنا إلا رجل من قومي » فأمره الرسول أن يجمعهم له ، فجمعهم ، فقال لهم : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلاَّلا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : « بلى ، الله ورسول أمنٌ وأفضل » فقال لهم : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار » ؟ قالوا : « بماذا نجيبك يا رسول الله » ؟ قال : « أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصَدَقْتُم ولَصُدِّقتُم، أتيتنا مُكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا - أي طريقا - وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم إرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظًّا » (١) .

وهكذا أرضى رسول الله ﷺ أنصاره ، وأثلج صدورهم بإعلانه ، أنه لن يتركهم أبدا ، ولن ينس ما قدموه له من معروف، ومؤآذرة ، فالمحيا محياهم والممات مماتهم ، وليس الذين أعطاهم الأموال من المؤلفة قلوبهم ،بأفضل منهم عنده ، ولكنهم لحداثة عهدهم بالإسلام ، ولحبهم الشديد للمال ، رأى بحكمته أن هذا أفضل أسلوب لجذب قلوبهم . أما أنتم فقد وكلتم إلى إيمانكم ، فبحسن السياسة ، وسعة الصدر ، أرضى النبي الجميع ، كل بما يتناسب مع حالته .

كما أنه كان في غاية السماحة والكرم ، مع هوازن عندما جاؤوه

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

مسلمين ، طالبين ردَّ نسائهم وأولادهم وأموالهم ، وقالوا له : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كن يكفلنك - يذكِّرونه بأنه رضع من حليمة السعدية ، وبنو سعد من هوازن - فهم أقرباؤه من الرضاعة . فخيرهم بين أن يستردوا الأموال أو النساء والأولاد . فاختاروا رد النساء والأولاد ، فردَّ عليهم ما كان له ولبني هاشم وبني المطلب ، واقتدى المسلمون به فردوا عليهم ما لديهم . ثم خص أخته من الرضاعة ؛ الشيماء بمزيد من العطف والتكريم .

وبلغ كرمه وتسامحه غايته ، مع مالك بن عوف النَّصري ، الذي ألَّب عليه القبائل ، وقادهم ضده في حنين ، حين جاءه مسلما ، فقد رد عليه أهله وماله ؛ بل أعطاه مائة من الإبل ، أسوة بزعماء قريش من المؤلفة قلوبهم .

وبعد أن انتهى ﷺ ، من ترتيب كل الأوضاع التي نتجت عن غزوة حنين ، رجع إلى الجعرانة ، فأحرم بعمرة ، سميت عمرة الجعرانة ، وكانت في أواخر ذي القعدة ، وقيل أول ذي الحجة .

وبعد الانتهاء من شعائرها ، نظَّم أوضاع مكة ، وعين عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، والياً عليها ، وترك معه معاذ بن جبل ليفقههم في دينهم ، ويعلمهم القرآن .

وعاد قافلا إلى المدينة ، يحف به المسلمون من كل جانب في موكب مهيب ، ليواصل جهاده في سبيل الله ، وكان أهم ما يشغله بعد فتح مكة ، الخطر الذي يمثله الروم على الإسلام والمسلمين ، بعد تكرار عدوانهم في مؤتة وغيرها . ولدفع ذلك الخطر كانت الغزوة الآتي ذكرها ، وهي آخر غزواته ﷺ .

غزوة تبوك سنة ٩ هـ

السبب المباشر لغزوة تبوك يرويه ابن سعد في الطبقات على النحو التالي فيقول : «بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجُذَام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء ، فندبَ رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وذلك في حر شديد » (١) .

كان النبي إذن يرصد كل تحركات الروم وحلفائهم من العرب في هذه الجبهة الخطرة من جبهات العداء للإسلام ، فجاءته الأرصاد بأن الروم بدءوا يتحركون ضد المسلمين ، فأعلن عن غزوهم ، لأنه ما كان ممكنا أن ينتظر حتى يهاجموه في المدينة .

هذا هو السبب المباشر لغزوة تبوك . أما الأسباب الحقيقية الكامنة فهي أن الروم منذ أعلنوا الحرب على المسلمين في مؤتة صراحة ، وحاولوا إبادتهم ، فإنهم فتحوا بأنفسهم باب العداء بينهم وبين المسلمين ، وكان قتالهم واجبا على المسلمين لرد العدوان ، والدفاع عن العقيدة والنفس لأن الله يأمرهم بذلك . فيقول تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ البقرة الآية ١٩٠ ، فحتى لو لم يتحركوا تحركا مباشراً لوجب قتالهم ، لأنهم بدءوا بتحريض العرب ضد الإسلام . ثم حاربوهم صراحة في مؤتة ، وهذا اصرار منهم على مقاومة الإسلام والعدوان على

---

(١) راجع عن غزوة تبوك المصادر الآتية : ابن سعد .. الطبقات جـ ٢ ص ١٦٥ ، الطبري .. تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٤٢ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٢ ص ١٤ ، وابن كثير .. البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢ ، وابن الأثير .. الكامل جـ ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

المسلمين . وجاء الإذن الصريح بقتالهم في السورة التي صاحبت غزوة تبوك ، وهي سورة التوبة والتي تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض .

ونحن الآن في العام التاسع الهجري ، وأوشك النبي ﷺ أن يلحق بالرفيق الأعلى ، فلابد أن يوضح لأمته معالم طريق المستقبل ، وأن يرسم لهم أسلوب عملهم في نشر عقيدتهم ، والدفاع عنها ضد أعدائها . لذلك جاءت هذه الآيات لتحدد الشكل النهائي والحاسم في علاقات المسلمين بأهل الكتاب ، والروم من أهل الكتاب لأنهم مسيحيون ، فقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾ سورة التوبة . الآية ٢٩ .

وقد بينت الآية بيانا واضحا لماذا يقاتل المسلمون أهل الكتاب ؟

أولا : لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانيا : لأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

ثالثا : لأنهم لا يدينون دين الحق .

هذا هو الحكم النهائي الذي يحدد العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب - يهود ونصارى - « والتعليل البارز في هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يَد وهم صاغرون ، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس ، أساس اعطاء الجزية ، وفي هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمي المعاهد ، ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين .

في ضوء هذا التحديد النهائي لشكل العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب ، وفي ضوء ما علمناه من تحركات الروم ضد الإسلام ينبغي أن ننظر إلى تحرك النبي ﷺ لغزوهم في تبوك ، ثم ينبغي أن ننظر أيضا إلى تطور تلك العلاقات ؛ « في عهد الخلفاء الراشدين » .

أصبح الروم عقبة في طريق الإسلام ، رفضوه دينا وعقيدة ، وقاوموه ليصدوا الناس عنه ، فوجب قتالهم حتى يعطوا الجزية ، فإذا أعطوا الجزية ، فهذا يعتبر دليلا على الإستسلام والخضوع والقاء السلاح ، وعندئذ يكف عنهم المسلمون .

بعد وصول الأخبار إلى النبي ﷺ بتحرك الروم ضد الإسلام والمسلمين ، بدأ يعد العدة لمواجهتهم . وقد اختلف الاعداد لهذه الغزوة كما اختلف الأسلوب فيها عما سبقها من غزوات . ففي الغزوات السابقة كان الرسول ﷺ إذا أراد غزو جهة ما ورّى بغيرها ليباغت اعداءه ويأخذهم على غرة ، وهذا ما يعبر عنه العسكريون المعاصرون بأسلوب الاخفاء والمفاجأة . أما في غزوة تبوك فقد أعلن عن وجهته في صراحة لخطورة العدو وبعد الشقة [١] .

فهذه غزوة لها خطرها وشأنها في مستقبل الإسلام والمسلمين ، لذلك لابد أن يسير إليها المسلمون وهم على بينة من أمرهم ، استنفر النبي ﷺ المسلمين وأمرهم بالتأهب ، وحث أهل السعة على المساعدة في تجهيز الجيش ، فأسرع الصحابة الأجلاء إلى تلبية طلب الرسول ﷺ ، وظهر إيثارهم للدعوة والعقيدة على كل شيء سواها ، وأنهم على استعداد للتضحية لا بأنفسهم فحسب ، ولكن بأموالهم أيضاً . أنفق أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم جميعا ، وأنفق غيرهم ، وكان أعظمهم نفقة عثمان بن عفان

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ١٤٢ ، وانظر : ابن سعد جـ ٢ ص ١٦٥ ، وابن كثير جـ ٥ ص ٢ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

ﷺ [١] . فسر النبي بذلك ودعى لهم جميعا بخير ، كما خص عثمان بدعاء لسخائه الكبير . وتسارع أهل الصدق والدين والإخلاص كل يقدم ما يقدر عليه ، وتجمع تحت قيادة النبي ﷺ أكبر جيش يتجمع له منذ بدأ جهاده العظيم من أجل العقيدة ونشر الدين ، كان عدد الجيش نحو ثلاثين ألفا . وصل النبي ﷺ تبوك - بعد رحلة شاقة وعسيرة فالمسافة طويلة - بين المدينة المنورة وتبوك نحو سبعمائة كيلو متر - والطريق صعب - ليجد الروم قد انسحبوا إلى داخل الشام ، ولم يجرؤا على لقائه لما أصابهم من الخوف والفزع من نتائج الصدام العسكري مع جيش يقوده أعظم القواد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام [٢] .

فماذا كان موقف النبي من هذا الجيش المنسحب الفار من الميدان ؟ هذا الجيش الذي حارب المسلمين بضراوة قبل عام واحد في مؤتة ، وكاد يستأصلهم لولا عناية الله ؛ الذي ألهم خالد بن الوليد بوضع خطة لانسحابهم إلى المدينة . هذا الجيش الذي يفر أمام الرسول ، كان يقوده هرقل بنفسه وانتصر به على الفرس انتصاره الحاسم قبل سنتين اثنتين ، فهو يومئذ أقوى جيش في العالم .

ولكنها هيبة النبوة التي أفزعته وألقت الرعب في قلوب جنوده . لو أن أي قائد آخر كان في موقف النبي ﷺ ، ماذا كان سيصنع ؟ لابد أنه كان سينتهز هذه الفرصة ، ويلاحق جيش عدوه المنسحب ويقضي عليه . ولكن النبي ﷺ ، المبعوث رحمة للعالمين ، لم يكن يهدف إلى الحرب من أجل الحرب ، ولم يكن القتال في حد ذاته هدفا من أهدافه وإنما هو وسيلة لإزالة العقبات من أمام الدعوة الاسلامية ، فإذا انسحب الروم من ميدان المعركة ، فلا داعي إذن لملاحقتهم وتتبعهم ، وإن عادوا عدنا وعلى الباغي تدور الدوائر .

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨١ .

ماذا صنع النبي ﷺ في تبوك ؟ :

لقد انسحب الروم تهيبا من لقاء الرسول . فيجب أن يقضي على نفوذهم في هذه المنطقة ، وان يزيل ما بقي لهم من هيبة عند سكانها . وهم أهل أيلة وأذرح والجرباء ودومة الجندل [١] . ولكن كيف ؟ سكان هذه الواحات كانوا يخضعون للروم بصورة أو بأخرى ، وينفذون سياستهم ، والروم قد انسحبوا من الميدان ، وهذه الواحات ستكون على أكبر قدر من الأهمية بالنسبة للمسلمين في صدامهم القادم والأكيد مع الروم ، فسوف تكون هذه المناطق ممرات لجحافل المسلمين ، ويجب أن يؤمنوا هذا الطريق ويخضعوه لسلطانهم ، ويقضوا على كل أثر لسلطان الروم على هذه المناطق .

ولو كان الرسول ﷺ يهدف إلى فرض الاسلام على الناس بقوة السلاح كما يزعم أعداء الاسلام ، لما كان اسهل من ذلك بالنسبة لهذه المجموعات الصغيرة والضعيفة ، لأنهم لم يكن في مقدورهم أن يرفضوا أو يقاوموا بعد أن انسحب أكبر جيش على وجه الأرض في ذلك الوقت أمام المسلمين . ولكن فرض الاسلام بالقوة أمر غير وارد لأنه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ لذلك لما جاء وفد أيلة وعلى رأسه يُحَنَّة بن رؤبة [٢] إلى النبي ﷺ يبدون استعدادهم لقبول شروطه رحب بهم ، وأفهمهم أنهم ان لم يقبلوا الإسلام عقيدة فلن يُكْرَهُوا على ذلك ، بل من حقهم أن يظلوا على عقيدتهم بشرط أن يدفعوا الجزية ؛ كدليل على الخضوع وعدم المقاومة للإسلام . فقبلوا

---

(١) أيلة : بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ مما يلي الشام . أذرح : وهو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز . الجرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام ، قرب جبال السراة من ناحية الحجاز . راجع معجم البلدان لياقوت : عن أيلة جـ ١ ص ٢٩٢ ، وعن أذرح جـ ١ ص ١٢٩ ، وعن الجرباء جـ ٢ ص ١١٨ . أما دومة الجندل فقد سبق تعريفها .

(٢) انظر : ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٠ .

ووافقوا على دفع الجزية ، وعاهدهم النبي ﷺ ، وأمنهم على عقائدهم وأرواحهم وممتلكاتهم ، وهذا هو نص المعاهدة التي أعطاها لأهل أيلة . «بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ، ومحمد رسول الله ، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » (١) .

وحذا أهل أذرح والجرباء حذو أهل أيلة ، فعاملهم النبي ﷺ نفس المعاملة وكتب لهم كتب أمان مماثلة لأمان أهل أيلة (٢) .

أما دومة الجندل ، فاستسلم أميرها أكيدر بن الملك الكندي بعد غارة خاطفة شنها عليه خالد بن الوليد ، وقدم به على النبي ﷺ « فحقن دمه وصالحه على الجزية وخلىَّ سبيله » (٣) .

وهكذا رتب النبي ﷺ أوضاع منطقة الحدود الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية ـ ومهد الطريق الذي سوف يسلكه المسلمون في خلافة الصديق لقهر الروم ، وطردهم نهائيا وإلى الأبد من المنطقة ـ وبسط عليها هيبة الإسلام ، ومكن لنفوذ المسلمين فيها ، كما أجهز على هيبة الروم عند سكانها ، وعاد إلى المدينة بجيشه العظيم تحفه رعاية الله وتحرسه عنايته ، ليواصل مسيرته من أجل تثبيت دعائم الإسلام .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨١ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه الجزء والصفحة .
(٣) المصدر السابق نفسه الجزء والصفحة .

نتائج غزوة تبوك :

لقد كانت غزوة تبوك ذات أثر كبير في حياة الأمة الإسلامية ومستقبلها ، ولم تكن نتائجها محدودة بزمانها ومكانها ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن غزوة تبوك التي حدثت في شهر رجب من العام التاسع الهجري ، كانت نقطة البداية في علاقات الأمة الإسلامية بأوربا المسيحية ؛ تلك العلاقات التي لا زالت قائمة ومستمرة في صور متعددة ، فمن تتبع مقدماتها وسيرها وما وصلت إليه ، نستطيع أن نقول : إن النبي ﷺ أراد منها أن يحدد للأمة الإسلامية عدوا رئيسيا من أعدائها ، وهم الروم ، ونحن دائما نستخدم لفظ الروم الذي استخدمه القرآن الكريم للتعبير عما يسميه المؤرخون ـ الدولة الرومانية الشرقية [١] . تلك الدولة التي كانت تمثل أوربا كلها في تلك الأزمان ، فبعد التجارب التي مر بها المسلمون مع الروم قبيل غزوة تبوك ، والتي وضحت لهم أنهم لن يتركوا الإسلام يشق طريقه إلى العالم في أمن وسلام ، كان واضحا أن الصدام العسكري معهم أمر لا مفر منه طالِ الزمن أم قصر ، وعلى كل حال لم يطل الزمن كثيراً على بداية هذا الصدام ، فبعد ما يقرب من ثلاثة أعوام بعد تبوك بدأ هذا الصدام في عهد الصديق رضي الله عنه [٢] ، وفي عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، طرد الروم نهائيا من الشام ومصر ، ولم تنس أوربا مطلقا ، وطوال تاريخها وحتى الآن ، هذا الذي حدث في عهد الخلفاء الراشدين ، واعتبرت هزيمة الروم أمام المسلمين هزيمة لها كلها . ولم تكن الحروب الصليبية ـ بعد ما يقرب من خمسة قرون من هذا التاريخ ـ والتي عبأت فيها أوربا كل قواها لغزو الشرق الاسلامي ، إلا رد فعل أوربا للإنتقام من المسلمين . وإذا كانت الحروب الصليبية قد حققت أهدافها في البداية لإسباب تتعلق بالعالم الإسلامي نفسه ، وما كان عليه من الضعف والتفكك . إلا أن

---

(١) وتسمّى أيضا الدولة البيزنطية .

(٢) سيأتي الحديث عن ذلك مفصلا في عصر الخلفاء الراشدين .

الصليبيين طردوا في النهاية - بعد وجود إستمر قرنين كاملين ؛ من نهاية القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي - لكنّ عداء أوربا للإسلام والمسلمين لم ينته بإنتهاء العدوان الصليبي على الشرق الإسلامي ، بل عادت من الشرق الإسلامي مهزومة وخائبة ، لتشن حربا صليبية أخرى ضد الوجود الاسلامي في أسبانيا ، وصبت كل أحقادها وثاراتها على المسلمين هناك ، وأجبرت بعضهم على التنصر ، ومن رفض التنصر قتل ، وأبيد بسبب ذلك ملايين المسلمين في شراسة لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، ومن استطاع الهرب من المسلمين والنجاة من وحشية الصليبيين الأوربيين وعبر المضيق إلى شمال إفريقيا ، لاحقه الأسبان والبرتغاليون ، وبدأت أوربا عمليتها في تطويق العالم الاسلامي من الخلف في بداية عهد الاستعمار الأوربي الحديث للعالم . ووصل الأسبان والبرتغاليون إلى شواطيء شبه الجزيرة العربية وتبعهم الإنجليز والفرنسيون ، كل هذا بمباركة الكنيسة الكاثوليكية في روما بزعامة البابا ، وإن الذي يدرس رسائل البابوات المتعاقبة ، لرواد السطو الاستعماري الأوربي من الأسبان والبرتغاليين وغيرهم على الشرق الإسلامي ، يجدها تفيض بالحقد على الاسلام والمسلمين ، فهي تنص في صراحة أن البابا يوصي ؛ بل يأمر جنود المسيح بإبادة المسلمين أينما وحيثما كانوا ، فالسطو الاستعماري الأوربي على الشرق الإسلامي الذي بدأ من عهد الكشوف الجغرافية كان بتأييد الكنيسة والبابا . ألست معي في أن العلاقات بين أوربا والإسلام بدأت في مؤتة وتبوك ولا زالت مستمرة ؟ عداء وحقد من جانب أوربا على الإسلام والمسلمين ، وعلى كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ، ألم تقرأ أن الجنرال اللبني - القائد الإنجليزي - قال عندما دخل فلسطين في أثناء الحرب العالمية الأولى : « الآن انتهت الحروب الصليبية » وأن زميله الجنرال الفرنساوي غورو عندما دخل دمشق زار قبر صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - وقال متشفيا : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » هل يقرأ المسلمون تاريخهم جيداً ؟ وهل يعرفون عدوهم من

صديقهم ؟ ليتهم يفعلون [1] .

هذا ولم تقف نتائج غزوة تبوك عند هذا ، لم تقف عند لفت النبي ﷺ نظر المسلمين لفتا قويا إلى عدو من أعدائهم الرئيسين ، بل هو عدوهم الرئيسي ولم تقف عند حد تمهيد الطريق الذي سوف يسلكونه في مواجهتهم للعالم ، حاملين راية دينهم ، بل إنها كانت ذات أثر عظيم في حياة المسلمين أنفسهم ، ونزلت من أجلها سورة من طوال سور القرآن الكريم ، وهي سورة التوبة . تلك السورة التي حددت بشكل قاطع وأخير العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم في الأرض ، سواء من المشركين أو من أهل الكتب السماوية . كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ، وأوضاع كل طائفة ، وكل طبقة من طبقاته ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وصفا دقيقاً .

فكما كان في هذا المجتمع المسلم ، الصفوة من المسلمين الذين باعوا أرواحهم لله ، وجاهدوا مع رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم . وقال الله تعالى عنهم ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨٨) أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٨٩) ﴾ سورة التوبة . الآيتان ٨٨ ـ ٨٩ .

كان هناك طائفة من المسلمين ، الذين وإن لم يُشك في إيمانهم ، لكن قعدت بهم عزيمتهم عن الجهاد في سبيل الله ، فأنبهم الله تعالى على هذا القعود ، وحثهم على الجهاد في سبيله ، وناداهم بوصف الإيمان ، ليثير هممهم وعزائمهم فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في

---

(١) إن من يتابع ما يجري الآن على الساحة الدولية يدرك دون عناء أن أوربا لا تزال تناصب الإسلام العداء ، بل تعتبره عدوها الأول ، وتحاول ـ كذبا وافتراءً ـ أن تلصق به كل النقائص .

الآخرة إلا قليل ﴿٣٨﴾ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة التوبة الآيتان ٣٨ - ٣٩ . إلى جانب هؤلاء الذين قعدوا عن الجهاد وهم قادرون عليه . كان هناك بعض الصفوة الذين تاقت أنفسهم للجهاد وعز عليهم أن يجاهد الرسول والذين معه ، ولايشتركون في الجهاد ، ولكنهم لايجدون ما يحملون عليه فذهبوا إلى الرسول يستعينونه على الجهاد فاعتذر لهم بأنه لا يجد ما يعينهم به ، هؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ سورة التوبة ، الآية ٩٢ .

إلى جانب هذه النوعيات من المسلمين ، الذين وضحت السورة مواقفهم ومواقعهم ، وأعطت لكل ذي حق حقه . كان المجتمع المسلم - عند غزوة تبوك - يعاني من المنافقين ، الذين كانوا يتسترون تحت إظهار الإسلام ونياتهم تنطوي على الحقد عليه ، وكانوا يظنون أن أمرهم يخفي على الله ورسوله ، فكشفتهم السورة ، وفضحت مواقفهم . ولذلك كان من الأسماء التي عرفت بها سورة التوبة ، اسم الفاضحة [1] من هؤلاء المنافقين من اعتذر لرسول الله عن الجهاد باعذار كاذبة ، فضحها الله تعالى ولم يقبلها ، وقال عنهم ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ التوبة - الآية ٩٤ .

ومن المنافقين من لم يكتف بالقعود عن الجهاد والتخلف عن رسول الله ، بل أخذ يثبط الآخرين عن الجهاد ، ويحرضهم على القعود والتخلف ويحببه إليهم ويبث الأكاذيب والأراجيف في صفوف المسلمين . وهؤلاء الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا

---

(١) د. كامل سلامة ، العلاقات الدولية في الإسلام ص ١٢ .

بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ﴾ التوبة . الآية ٨١ .

وكما بينت السورة وحددت العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب ، كذلك حددت تحديدا نهائياً العلاقات بين المجتمع المسلم والمشركين عامة في شبه جزيرة العرب وأعلنت في مطلعها البراءة منهم ومن عهودهم ، واجلتهم أربعة أشهر ، يختارون خلالها لأنفسهم ، إما أن يدخلوا في دين الله ، وإما أن يقاتلوا ، وهذا هو الشكل النهائي للعلاقات معهم .

وهذا الحكم خاص بمشركي العرب ، فليس امامهم سوى خيار من إثنين إما الاسلام واما القتال .

عام الوفود

عاد رسول الله ﷺ ، من تبوك ظافرا منتصرا ، ليستقبل في مدينته وفود العرب [1] تعلن إسلامها ، لأن العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ولا تؤخذ منهم الجزية ، ولقد وضحت سورة التوبة التي نزلت على رسول الله ، وهو عائد من تبوك ، هذا الأمر بجلاء . فقد قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (١) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين (٢) وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً

---

(١) راجع أخبار الوفود وأسماءها في المصادر الآتية : سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢١ وما بعدها ، والدرر لابن عبد البر ص ٢٦٩ وما بعدها ، وعيون الأثر لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٩٥ وما بعدها .

فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴿٤﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم وأقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴿٥﴾ ﴾ [١] .

هذا باختصار هو حكم مشركي العرب [٢] أما غيرهم من أهل الكتاب خارج جزيرة العرب ، فقد حددت حكم التعامل معهم الآية الآتية : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾ [٣] وقد سبق الحديث عن ذلك .

سمع الناس الإعلان من علي ﷺ يوم النحر [٤] ، ثم عادوا إلى ديارهم ، وبلغوا من لم يشهد الحج من أقوامهم ، ما سمعوا ، وفهموا مغزى الكلام جيداً ، ولذلك هرعت وفودهم من كل صقع من أصقاع شبه جزيرة العرب ، إلى المدينة المنورة ، يعلنون إسلامهم ، وبيعتهم للرسول ﷺ ، ويطلبون معلمين يعلمونهم أحكام الإسلام ومبادئه ، فلم تبق قبيلة إلا أرسلت وفدا . ويضيق المقام هنا عن ذكر أسماء الوفود التي أتت ، وتزاحمت حول مدينة الرسول ، حتى ضاقت بهم الصحراء ، ومن يريد معرفة تلك الأسماء ، فليرجع إلي كتب السيرة ، ففيها تفصيل ذلك ، لأنه من أهم الأحداث في حياة الرسول ، ذلك الذي خرج من مكة ، قبل تسع سنوات ، مطاردا والموت يترصده من كل مكان ، وطالما عرض نفسه على العرب في مواسم الحج ، ولم يجد سميعا

---

(١) سورة التوبة ، الآيات ١ - ٥ .

(٢) كما تبينه تلك الآيات الكريمة .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٢٩ . وانظر : مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٣٥ .

(٤) أمَّر النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ على الحج سنة ٩ هـ ، فلما نزلت سورة براءة بتلك الأحكام أرسل علي بن أبي طالب ليبلغها للناس يوم النحر .

ولا مجيبا . ها هو الآن ، وجميع قبائل العرب تتدافع للقائه ، في مدينته ، وتمثل أمامه ، لتعلن إسلامها ، وبيعتها .

زوجات الرسول (١)

أخرنا الكلام عن زوجات الرسول ﷺ إلى هذا المكان من الدراسة ، حتى نتكلم عنهن جميعا رضي الله عنهن ، بإيجاز شديد ، في سياق واحد .

من الثابت أن الرسول ﷺ ، تزوج ثلاث عشرة امرأة ، ماتت منهن اثنتان في حياته ؛ وهما خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما ، واثنتان لم يدخل بهما ، وهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، فقد وجد بها بياضا في إبطها ، فطلقها ، وسرحها بمعروف ومتّعها ، والثانية : أميمة بنت النعمان بن شرحبيل ، وكانت من الأشقياء ، لأنها عندما دخل عليها ، قالت : « أعوذ بالله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عذت بمعاذ عظيم » وطلقها وسرحها سراحا جميلا .

وتوفي ﷺ ، وعنده تسع زوجات . وكان له جاريتان ، مارية القبطية ، التي أهداها له المقوقس ؛ حاكم مصر ، فأعتقها وتزوجها ، وأنجبت له ابنه إبراهيم . وريحانة ، أعتقها ، ولحقت بأهلها .

هذا العدد من الزوجات الفضليات ، اللاتي اقترن بهن النبي ﷺ ، أخذ منه عدد من المستشرقين ، الحاقدين على الإسلام ، ذريعة للطعن في شخص الرسول الكريم ﷺ ، فاتهموه بأنه رجل شهواني - حاشا لله - كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

---

(١) راجع المصادر والمراجع الآتية : سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٢١ وما بعدها ، وعيون الأثر جـ ٢ ص ٣٧٧ وما بعدها ، خاتم النبيين جـ ٣ ص ١٠٩٦ وما بعدها ، ومحمد ﷺ في المدينة للدكتور أحمد شلبي ص ٢٧ وما بعدها .

فزواجه ﷺ بهذا العدد كان مباحا له من الله تعالى ، وفي أواخر حياته نزل الوحي يحظر الزواج عليه ، فوق ما عنده ، فقال تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ الأحزاب ، الآية ٥٢ .

ولم يكن الدافع إلى ذلك الزواج ، بهذا العدد الكبير هو الشهوة الجامحة ، كما يدعي أعداء الإسلام ، الذين أعمى التعصب والحقد أبصارهم وبصائرهم .

فمن المعلوم أن النبي ﷺ ، قد تزوج من السيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين ، وكانت هي في الأربعين ، وعاشت معه حوالي خمسة وعشرين عاما ، وتوفيت ﵂ في العام العاشر من البعثة ، وكانت قد تجاوزت الخامسة والستين ، وكان هو في الخمسين من العمر ، وفي خلال عشرته لها ، لم يفكر في الزواج من غيرها ، مع أنها كانت قد كبرت ، فالمرأة فوق الخامسة والستين ، عادة ، تنعدم أو تقل رغبتها في المعاشرة الزوجية ، فلو كان ﷺ رجلا شهوانيا ، لتزوج على خديجة ، وحتى بعد وفاتها ، لم يفكر في الزواج بسرعة ، مع أنه كان في أمس الحاجة إلى زوجة تؤنسه ، وتساعده على أعباء رسالته - كما كانت خديجة تفعل - وتدبر له شؤون بيته ، فظل فترة بدون زوجة ، حتى اقترحت عليه خولة بنت حكيم - زوج عثمان بن مظعون - أن يتزوج ، وقالت له : « لم لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها ؟ » فسكت ، فقالت له : « هل تقبل أن أخطب لك زوجة أخرى ؟ » فقال لها : « لا بأس ، إنكن معشر النساء أرفق بذلك » ، فقالت خولة : « إن أردت بكرا ، فعائشة بنت أبي بكر ، وإن أردت ثيِّبا ، فسودة بنت زمعة » فوافق على الزواج من سودة أولا ، لأنها كانت تقريبا في سن خديجة - يعني تجاوزت الخامسة والستين ، ومعنى هذا أنه تزوجها للسكن والعشرة [1] ، وليس

---

(١) ولرعاية بناته ، فكانت فاطمة لا تزال صغيرة في حاجة إلى حنان الأم وعطفها .

للشهوة . ثم خطب عائشة ، وتزوجها بعد الهجرة بعامين تقريبا ، وقد لغط الجاهلون ، وقالوا تزوجها وهي طفلة في التاسعة من عمرها ، وهذا كذب ، لأن خولة بنت حكيم عندما عرضتها عليه بعد وفاة خديجة ـ وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات ـ كانت تعرف أن عائشة تصلح للخطبة والزواج ـ وهي امرأة عاقلة ورشيدة وسديدة الرأي ، وإلا لما فوضها النبي في البحث له عن زوجة ـ ومع ذلك لم يتم الزواج إلا بعد خمسة أعوام من الخطبة ، ثم إن ابن إسحاق ، وهو من أقدم كتاب السيرة النبوية ، وأوثقهم ، يذكر اسم عائشة في السابقين الأولين إلى الإسلام ، مع اختها أسماء [1] ، ومعنى هذا أن عائشة رضي الله عنها كانت تعي وتعقل عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ذلك مرة أخرى أنها عندما بنى بها كانت كبيرة ، يقترب سنها من العشرين عاما ، على افتراض أن سنها عند البعثة كان خمسة أو ستة أعوام ، والزواج تم بعد البعثة بخمسة عشر عاما ، لذلك لا أدري من أين جاء من قال إنها كانت في التاسعة عند الزواج بهذا الخبر ؟ فهل تنقطع ألسنة الحاقدين على الإسلام بعد أن يعرفوا الحقيقة من أوثق مصادرها ؟

الزوجة الثالثة : زينب بنت خزيمة ـ التي لقّبت بأم المساكين لكثرة عطفها وبرها بهم ـ وكانت زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وهو من شهداء بدر ، وكانت ذات عيال ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ليعولها ويعول أولادها ، ويخفف حزنها ، ولم تعش طويلا ، فقد ماتت بعد الزواج بفترة قصيرة .

الزوجة الرابعة : حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وكانت قد ترملت بوفاة زوجها خنيس بن خزامة ، وكان عمر رضي الله عنه قلقا عليها ، ولذلك عرضها على أبي بكر ، ليتزوجها ، فاعتذر ، ثم عرضها على عثمان بن عفان ، فاعتذر ، وعرض عمر ابنته على أصدقائه للزواج منها ، يعتبر دليلا على عظمته ورجولته ، وليس عيبا فيه ، فلما اعتذرا ، عتب عليهما ، وشكاهما للرسول ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٩ .

فقال له الرسول : « يتزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان » ففهم عمر قصد الرسول ، وكان في غاية السعادة ، لمصاهرته لخير خلق الله أجمعين .

الزوجة الخامسة : زينب بنت جحش ، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وقد تزوجها بأمر من الله تعالى ، فقد قال له : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ ، وقد بينا فيما سبق من هذه الدراسة الحكمة من زواجه بزينب رضي الله عنها .

الزوجة السادسة : أمُّ سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومي ، وقد استشهد زوجها أبو سلمة ؛ متأثرا بالجروح التي أصابته في غزوة أحد ، فتزوجها الرسول ﷺ .

الزوجة السابعة : جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار زعيم بني المصطلق ، وقد سبق الحديث عنها ، وذكرنا قول السيدة عائشة عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة من برة - جويرية - » لأن المسلمين أعتقوهم ، إكراما لمصاهرتهم للرسول ، وقد أسلم أبوها وقومها عقب ذلك .

الزوجة الثامنة : صفية بنت حيي بن أخطب ، زعيم يهود بني النضير ، وكانت قد أسرت في فتح خيبر ، ووقعت في سهم النبي ، فسألها عن رأيها في الإسلام ، فقالت : « يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام ، وصدَّقت بك ، قبل أن تدعوني إلى ذلك ، وقد كان أبي يعرف صدق دعوتك ، ولكن العصبية ذهبت به ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله » ، فسألها إن كانت تقبل الزواج منه ، فرحَّبت بذلك ، وكانت صفية غاية في الإخلاص للإسلام ، ولرسول الإسلام ، كما كانت شريفة عاقلة ، ذات حسب وجمال ودين[1] .

---

(١) د. أحمد شلبي ، محمد في المدينة ص ٣٦ .

أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان بن حرب ، كانت هي الزوجة التاسعة ، وكانت زوجة لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجرت معه إلى الحبشة ، ولكنه تنصَّر ومات هناك نصرانيا ، ففارقته بعد تنصره ، فلما علم الرسول بذلك ، خطبها عن طريق نجاشي الحبشة ، فسعدت بذلك ، وتم العقد هناك ، وقد أرسل الرسول ، عمرو بن أمية الضميري ، ليأتي بها وببقية المسلمين من الحبشة ، ويروى أن الذي دفع المهر نيابة عن النبي هو النجاشي نفسه ، وقدره أربعمائة دينار ، وأقام حفلا بهذه المناسبة ، التي اقترنت بمناسبة أخرى سعيدة ، وهي عودة المسلمين من الحبشة إلى ديارهم .

وقد فرح أبو سفيان ـ الذي كان لا يزال مشركا ـ بزواج ابنته من الرسول ﷺ ، وقال : « هو الفحل لا يقدح أنفه » .

ميمونة بنت الحارث الهلالية ، كان ترتيبها العاشرة والأخيرة بين زوجات الرسول ـ بعد خديجة ـ وقد تزوجها في عمرةالقضاء ، وكانت أختا لأم الفضل ، زوج عمه العباس بن عبد المطلب ، وهما اللذان اقترحا عليه زواجها ، لتقوية روابطه بقبيلتها ، بني هلال .

هؤلاء هن أزواج الرسول ﷺ ، وقد رأيت أنهن كلهن ـ عدى خديجة ـ تزوجهن بعد أن تجاوز الخمسين ، وبعضهن بعد أن تجاوز الستين ـ وهي سن متقدمة نسبيا ، يعني الرجل أي رجل مهما بلغت قوة رغبته في النساء ، فلن يحتاج إلى مثل هذا العدد ، فتعدد زوجات الرسول على هذا النحو له أسباب وحكم كثيرة .

منها تقوية الروابط بينه وبين كبار أصحابه ، مثل أبي بكر وعمر ـ كما قوى رابطته بعثمان حين زوجه بنتيه ، رقية وأم كلثوم ، وزوج عليا من فاطمة ـ وبينه وبين كثير من قبائل العرب الكبيرة ، مثل بني هلال ، قبيلة ميمونة بنت

الحارث ، وليس في هذا أي عيب ، فتقوية الروابط الإنسانية بين الناس من أهداف الإسلام ، والزواج ، كان ولا يزال ، عند معظم الأمم ، وخاصة الأمة العربية ، من أهم أسباب ذلك الترابط ، ولذلك أصهر النبي إلى قبائل كثيرة . وهذا كان يساعده في تأليف قلوب العرب ، الذين يقيمون وزنا كبيرا للمصاهرات ، ومن حكم التعدد إيواء وتكريم الضعيفات من أزواج الشهداء ، مثل زينب بنت خزيمة ، وأم سلمة .

ومنها أن هذا العدد من أزواج الرسول ﷺ ، تولين تعليم نساء المؤمنين أمور دينهن ، فعندما كان الرسول موجودا ، كان النساء يذهبن إليه يسألنه ويتعلمن منه ، وحتى في حياته كن أحيانا يسألن أزواجه عن أمور الدين . لكن بعد وفاته ما كن يغشين مجالس الخلفاء والصحابة ، بل كن يذهبن إلى أزواج النبي ، مثل عائشة وحفصة وأم سلمة ، خصوصا وأن بعضهن عمّرن بعد وفاة الرسول طويلا . فعائشة رضي الله عنها ، توفيت عام ٥٨ هـ ، وجويرة بنت الحارث توفيت سنة ٥٦ هـ ، وأم حبيبة سنة ٤٤ هـ ، وميمونة بنت الحارث سنة ٦١ هـ ، وكانت آخرهن وفاة أم سلمة رضي الله عنها ، فقد ماتت ـ كما يقول الذهبي ـ بعد إستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، سنة ٦١ هـ ـ فقد حزنت عليه كثيرا ، ولم تلبث بعده إلا يسيرا ، وانتقلت إلى رحمة الله [١] .

كان أزواج النبي إذن مصدرا هاما من مصادر الأحكام الفقهية ، خاصة التي تتعلق بأمور النساء ، ولقد روي أن النبي ﷺ قال عن عائشة : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

فتعدد أزواجه عليه الصلاة والسلام ، لم يكن الدافع إليه الشهوة الجنسية ، وإنما كانت له دوافع أخرى في غاية النبل والعظمة .

---

(١) الذهبي .. سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٠٢ .

ثم هناك معنى آخر عظيم نستطيع أن نتلمسه من هذا العدد الكبير من الزوجات في حياة النبي ، وهو أنه كان أعظم العظماء لا في أداء رسالته ولا في بناء دولته ومجتمعه فحسب ، بل كان عظيما في بيوته ، زوجا وأبا ، ومن المألوف في حياة العظماء ، أن الرجل العظيم في الحياة العامة ، قلما يكون عظيما في بيته ، ولكن الرسول ، كان أعظم العظماء في الحياة العامة ، وفي تسعة بيوت في وقت واحد ، ومع تسع زوجات ، من بيوت وقبائل مختلفة ، بل من أجناس مختلفة ، وكلهن مقدرات لعظمته ، لأن حياته معهن جميعا ، كانت مثال الطهر والبر والوفاء والحنو والعطف والوضوح ، ومعظم إن لم يكن كل تفاصيل تلك الحياة الشريفة المثالية قد عرفها للناس ، عن طريق هذا العدد من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فلم يجد الناس فيها ، إلا المثل الأعلى ، والكمال الإنساني في سموه ، والسلوك الذي تتطلع إليه النفوس الطاهرة .

ورغم أعباء الرسالة ، ومسئوليات الجهاد وبناء الدولة والمجتمع ، فقد كان يعطي بيوته وأهله حقهم من الرعاية والعناية ، وكان يجد من الوقت ما يكفي ، لا لأداء واجبه نحوهن فحسب ، بل لملاطفتهن ، ومعاونتهن في أمور المنازل ، بل كان يخدم نفسه ـ ليخفف عنهن أعباء العمل ـ فقد كان يخيط ثيابه ، ويخصف نعله ، أليس هو القائل : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ؟ .

حجة الوداع

كانت حجة الوداع في العام العاشر الهجري ، وسميت حجة الوداع لأن النبي ﷺ ، انتقل إلى الرفيق الأعلى بعدها بوقت قصير ، ولأن العبارات التي افتتح بها خطبة الوداع كانت تفيد بأنه لن يلقي أمته بعدها في الحج أبدا ، وسميت حجة البلاغ لأنه ﷺ ، ذكر في نهاية الخطبة عبارات التبليغ لرسالته للناس . وسميت حجة الإسلام ، لأن النبي لم يحج غيرها في حياته .

والحج كما يرى الفقهاء ، فرض على المسلمين في العام التاسع الهجري [(١)] ، وهو آخر أركان الاسلام فرضا ، فالصلاة فرضت على النبي وأمته ليلة الاسراء قبل الهجرة ، والصيام والزكاة فرضتا في العام الثاني الهجري .

فبعد عودته ﷺ ، من غزوة تبوك ، أرسل أبا بكر الصديق ﷺ أميرا على الحج ، وقضى هو أكثر من عام مشغولا باستقبال وفود العرب ، التي توالت عليه من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، تعلن بيعتها واسلامها ، وبذل في ذلك جهدا كبيرا ، وكان يرسل مع كل وفد من يعلمهم أمور دينهم من الصحابة ، ولما اطمأن إلى أن الإسلام قد عم بلاد العرب ، بل فاض على ما حولها من بلاد ، أحس بالغبطة والسرور ، إذ أتم الله عليه نعمته ، ووفقه في أداء رسالته على أكمل وجه ، فبعد هذا الجهاد الكبير ، والصبر الطويل ، لم يبق إلا أن يذهب لأداء فريضة الحج ، ويشكر ربه على عظيم فضله ورحمته به وبأمته ، ثم يعلمهم مناسك حجهم بطريقة عملية ، ويوصيهم وصاياه الأخيرة ، ويلخص لهم في خطبة تعاليم الإسلام وأهدافه وشرائعه ويذكرهم بلقاء الله يوم يقوم الناس لرب العالمين .

خرج رسول الله ﷺ ، من المدينة في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، وأحرم بالحج والعمرة ، من ذي الحليفة [(٢)] وخلفه أكثر من مائة ألف من المسلمين ، الذين سارعوا للسير معه لأداء فريضة

---

(١) فقه السنة .. للشيخ سيد سابق جـ ١ ص ٥٢٧ ، وهناك روايات تفيد أنه فرض قبل ذلك ، وأنه في عام فتح مكة سنة ٨هـ أمر النبي عتاب بن أسيد أمير مكة المكرمة ، على الحج ، فحج بالمسلمين بينما كان المشركون يحجون أيضا .

(٢) حج الرسول مقرنا بالحج والعمرة معا ، بينما حج بعض المسلمين مفردا ، وبعضهم متمتعا ، وذو الحليفة ، ميقات الإحرام لأهل المدينة بالحج والعمرة ، وهي على بعد ستة أميال منها ، في طريق مكة المكرمة .

الحج ، ونوال شرف صحبته ، وكان مشهدا رائعا ومهيبا ، ينحني له التاريخ إجلالا وإحتراما ، فها هو ذا الرجل الذي بدأ دعوته وحده ، والعرب كلهم ضده . والذي لقي منهم ما لقي من العذاب والاضطهاد ، والتآمر على حياته ، مما سبق ذكره كثيرا ، ها هو ذا والعرب كلهم خلفه ، وهو يقودهم ، في تواضع وبر ورحمة ومودة ، وهذه هي نتيجة الإيمان ، والصبر والجهاد في سبيل الله ، وهذا هو ما يجب أن يقف أمامه المسلمون ، متأملين ، مقتدين بنبيهم في هديه وجهاده . خطب الرسول ﷺ ، في هذه الجموع الكبير ، بعد الاحرام فوعظهم ، وعلمهم مناسك الحج ، وقال لهم : « خذوا عني مناسككم » سار ركب الحج النبوي إلى مكة المكرمة فطاف طواف القدوم ، وسعى بين الصفا والمروة ، وفي يوم التروية ـ الثامن من ذي الحجة ـ توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصبح يوم عرفه ، وبعد الصلاة توجه إلى عرفات ـ تاسع ذي الحجة ـ وهناك خطبهم خطبة الوداع (١) ، وهي خطبة طويلة ، استهلها ﷺ بقوله : « أيها الناس اسمعوا قولي ، فإني لا أدري ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من إئتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع ، دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ ابن عم النبي ـ وكان مسترضعا في بني ليث ، فقتلته هذيل ، فهو أول ما ابدأ به من دماء الجاهلية » .

---

(١) خطب النبي ﷺ ، أكثر من خطبة في حجته تلك ، أشهرها هذه الخطبة التي ألقاها يوم عرفات ، راجع نصها كاملا في سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ، وراجع عيون الأثر جـ ٢ ص ٣٥٣ .

ثم واصل ﷺ ، خطبته ، مقررا فيها قواعد الإسلام وشرائعه ، هادما لقواعد الشرك والجاهلية ، موضحا تحريم المحرمات ، التي اتفقت جميع الشرائع السماوية على تحريمها ، وهي الدماء والأموال والأعراض ، ووضع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وحذرهم من الفتن . وختمها بتلك الكلمات المباركات ، فقال : « فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله ، وسنة نبيه ، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » ... قالوا : « اللهم نعم » فقال : « اللهم فأشهد » .

وبعد أداء بقية مناسك الحج ، ومنها طواف الإفاضة ، والسعي بين الصفا والمروة ، عاد رسول الله ﷺ ، سعيدا مغتبطا ، إلى مدينته - في أواخر ذي الحجة - ليستعد للقاء ربه ، راضيا مرضيا عنه من الله الذي أرسله رحمة للعالمين . ومن أمته التي بلغها رسالة ربه ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، فصلوات الله وسلامه عليه ، في الاولين والآخرين ، إلى يوم الدين .

بعث اسامة بن زيد :

بعد أقل من شهر من عودة الرسول إلى المدينة - في المحرم سنة ١١ هـ - جهز جيشا وأمّر عليه أسامة بن زيد ، وأمره بالتوجه إلى الشام لتأديب القبائل العربية المعادية للإسلام ، ولتثبيت هيبة المسلمين في عيون الروم ، وقد اعترض بعض الصحابة على تأمير أسامة ، وهي صغير السن ، على جيش فيه كبار الصحابة ، لكن الرسول أصر على قيادة أسامة للجيش ، ليعلمهم أن القيادة كفاءة وليست بالسن ، غير أن هذا الجيش لم يقدر له الذهاب إلى وجهته في حياة الرسول ، فلما بويع أبو بكر الصديق خليفة كان أول قراراته هو إنفاذ هذا

الجيش ، كما أمر رسول الله ، لأنه أدرك أهدافه من وراء ذلك ، وأنه اضافة إلى ما سبق قصد لفت أنظار المسلمين إلى خطر الروم عليهم ، وسنعود إلى ذلك عند الحديث عن عهد أبي بكر ﷺ .

مرض الرسول ووفاته

بعد عودة الرسول ﷺ ، من حجة الوداع ، بنحو شهرين ، وفي أواخر شهر صفر ، من العام الحادي عشر للهجرة ، بدأ مرضه ، وكان يشكو من الصداع ، ويقول : « وارأساه » (١) وقيل إن سبب المرض كان الحمى ، وقيل من أثر أكله من الشاة المسمومة ، التي كانت أهدتها إليه زوجة سلام بن مشكم اليهودية ، بعد فتح خيبر ، وعند بداية المرض كان في بيت زوجه ميمونة بنت الحارث ﷺ ، فاستأذنها هي وبقية نسائه ، بعد أن مرَّ عليهن في بيوتهن ليودعهن ، في أن يمرَّض في بيت عائشة ﷺ فأذنَّ له ، ثم ذهب إلى البقيع - مقبرة أهل المدينة - فزار قبور أصحابه ، واستغفر لهم ، وعاد إلى بيت عائشة ، وكان في بداية مرضه يتحامل ويخرج ويصلي بالمسلمين ، فلما اشتد عليه المرض ، ولم يقو على الخروج ، أمر أبا بكر الصديق أن يصلي بهم إماما ، وأصر على ذلك ، ورفض أن يصلي بهم عمر بن الخطاب ، وذلك ايماء إلى أفضلية أبي بكر ﷺعلى عمر، وسائر الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وهذه الإيماءة سيكون لها أثر كبير في اختياره خليفة بعده .

وفي صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، من العام الهجري الحادي عشر ، على رأس عشر سنوات من مقدمه المدينة المنورة ، فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ، وكانت صدمة قاسية للمسلمين ، الذين روَّعتهم وفاة نبيهم وقائدهم ، لدرجة أن بعضهم لم يصدق وفاته من هول

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٢٨٥ ، وراجع أيضا في مرض الرسول ووفاته : سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٣٢٠ وما بعدها .

الصدمة ، ومنهم عمر بن الخطاب ، الذي كان من أكثرهم فزعا وحزنا ، أما أبو بكر الصديق ، فلم يكن موجودا لحظة الوفاة ، فقد كان في منزله بالسنح - من ضواحي المدينة - فلما بلغه الخبر الحزين ، جاء على الفور ، ووجد الناس واجمين ، قد استبد بهم الحزن ، وعمتهم الحيرة ، حول بيوت النبي ، ووجد عمر بن الخطاب ، يخطب ويهدد ويتوعد من يقول : إن النبي قد مات ، فلم يكلمه ، وإنما قصد إلى بيت ابنته عائشة ، حيث جسد النبي الطاهر مسجىً هناك فكشف الغطاء عن وجهه الشريف ، وتأكد من وفاته ، فقبله في جبينه ، وقال : « بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا يا رسول الله » ثم خرج إلى الناس ، الذين كانوا ينتظرونه ، وقد تعلقت به آمالهم ، فلعله يعلن لهم أن النبي لم يمت ، ولكنه كان رجل الموقف ، فمع أنه أقرب الناس إلى نفس الرسول ، وحزنه عليه لا حد له ، لكنه عرف الحقيقة المرة ، ولا بد أن يعلنها للناس في شجاعة ورباطة جأش ، ليواجهوا الموقف بكل أحزانه وتبعاته فقال لهم : بعد أن حمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، « أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ، آل عمران الآية ١٤٤ . فقال عمر بن الخطاب حين سمع أبا بكر يتلو هذه الآية : « كأني لم أسمعها من قبل » (١) .

هذه هي الحقيقة يعلنها الصديق ، وفي نفسه ما فيها ، فالنبي بشر تنطبق عليه قوانين الله في البشر ، من حيث الحياة والموت ، والله تعالى قال له : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ الزمر الآية ٣٠ وقال له : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ الأنبياء . الآية ٣٤ ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ آل عمران الآية ١٨٥ .

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٢٨٨ .

وما دام ﷺ ، قد بلغ رسالته وأدى أمانته ، وأكمل الله له دينه وأتم عليه نعمته ، فليلحق بالرفيق الأعلى وينعم في جواره بالنعيم المقيم .

بدأ التفكير في تجهيزه ، من غسل وتكفين ودفن ، فاختلفوا أين يدفن ؟ فقال أبو بكر - الذي تصرف في هذا اليوم العصيب برزانة وإتزان ، يليق بعظماء الرجال ، في المواقف الصعبة - قال : « سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ما مات نبي إلا دفن حيث مات » ثم شرعوا في غسله ، وكان الذين تولوا غسله ، أهل بيته ، علي بن أبي طالب ، وعمه العباس ، وابنه الفضل ، واشترك معهم اسامة بن زيد ، وشقران مولاه ، ولم يجردوه من قميصه أثناء غسله ، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب ، وصلوا عليه فرادى ، صلى عليه الرجال أولا ، ثم تلاهم النساء ، ثم الأطفال ، في يوم الثلاثاء ، التالي لوفاته ، ووری الجسد الطاهر التراب ، ليبقى ذكره خالدا يعطر الكون ، ويتردد اسمه على ملايين الألسن كل لحظة من ليل أو نهار ، في الصلوات ، وكلما ذكر اسمه الطاهر ، وصدق الله العظيم ، القائل له : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

شخصية الرسول في نظر كتاب الغرب

كانت أخلاق الرسول ، وصفاته الشخصية أهم العوامل التي ساعدت على تكوين المجتمع الإسلامي الأول تكوينا سليما ، فقد كانت أخلاقه رخاء وسماحة وصفاء ، وحسبك أن الله سبحانه وتعالى ، وصفه بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ووصف الرسول نفسه بقوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقد كانت هذه الأخلاق من الأسباب التي جمعت الناس حوله ، قال تعالى : ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وأخلاق الرسول السمحة بدأت قبل البعثة ، فهو لم يسجد لصنم قط ، وكان معروفا بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشترك فيما تعوده شبان قريش من عبث ومجون (١)

---

(١) محمد ﷺ في المدينة ، للدكتور أحمد شلبي . القاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ،

وبعد البعثة زادت أخلاقه بهدى الوحي سموا وعظمة ، وأصبح أعظم العظماء في كل شيء ، في الصدق والأمانة ، والوفاء والحياء والشجاعة ، والكرم ، والزهد والصبر على الشدائد ، ومواجهة أعباء الرسالة ، ومشكلات الحياة ، عظيما ورحيما في معاملة أصحابه ومعرفة أقدارهم ، عظيما مع أهله وفي بيوته .

ولقد بهرت أخلاقه عددا من كتاب الغرب ، فأنصفوه وقالوا كلمة الحق عنه .

يقول وليم موير : « إن من صفات محمد الجديرة بالتنويه ، الرأفة والاحترام اللذين كان يعامل بهما أصحابه ، فإن التواضع وإنكار الذات ، والرأفة والأناة والسماحة ، تغلغلت في نفسه ، فأحبه كل من حوله ، ولم يكن الاصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه عند ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحا تم كالذي تركه عند وفاته » (١) .

ويقول الشاعر لامارتين : « إن محمدا هو أعظم رجل بجميع المقاييس ، التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية ، فإذا كان مقياس العظمة الإنسانية هو إصلاح شعب متدهور ، فمن ذا الذي يطاول محمدا في هذا المضمار ؟ وإذا كان مقياس العظمة هو توحيد الإنسانية المفككة الأوصال ، فان محمدا أجدر الناس بهذه العظمة ، لأنه جمع شمل العرب بعد تفكك شامل ، وإذا كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء في الأرض ، فمن ذا الذي ينافس محمدا الذي محا مظاهر الوثنية ، وثبّت عبادة الله وقوانينه في عالم الوثنية والقوة » (١).

== وراجع في أخلاق النبي ، كتب السنة ، وكتب الشمائل النبوية ، وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، وزاد المعاد لابن القيم ، ومن أخلاق النبي ﷺ للدكتور أحمد الحوفي ، وغيرها من كتب السيرة والتاريخ .

(١) نقلا عن كتاب محمد في المدينة ـ مرجع سابق ص ١١١ ، ١١٢ .

ويقول واشنجتون ارفنج : « إن من أبرز صفات محمد تسامحه مع خصومه ، ولسنا نعرف رجلا في التاريخ كمحمد في هذا المضمار ، لقد تسامح في أوقات كان الزعماء في أمثالها ينكلون بمن كانوا معارضين لهم تنكيلا بشعا ، ولكن تسامح محمد مع خصومه ، ومع معارضيه ، حقق له سيادة وتفوقا على كل الزعماء عبر القرون »[(١)] .

أما الدكتور مايكل هارت ، صاحب كتاب « المائة الأوائل »[(٢)] فقد وضعه على رأس القائمة مبررا ذلك ، أمام القراء الغربيين ، الذين يكتب إليهم في الأساس ـ بأنه الإنسان الوحيد في التاريخ ، الذي نجح نجاحا مطلقا ، على المستوى الديني والدنيوي ، نشر الاسلام ، وهو من أعظم الديانات ، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا ، وبعد مرور القرون العديدة ، فإن أثره لا يزال متجددا وقويا » .

وكلمات المنصفين من الباحثين غير المسلمين ، عن النبي ﷺ ، لا حصر لها . ونحن في الحقيقة لسنا في حاجة إلى أقوالهم لنثبت عظمة نبينا عليه الصلاة والسلام ، وإنما أوردنا هذه الأقوال ، لنبين أن أخلاقه كانت محل تقدير ، حتى من غير المسلمين .

والحق أن جوانب العظمة ، والكمال الإنساني في شخصية الرسول ، لا يستطيع أحد أن يحصرها ، أو يحيط بها ، وستظل سيرته وأعماله وأخلاقه ، مجالا رحبا ، للبحث والدراسة والتأمل والاقتداء ، ما دامت الحياة ، وسيظل ما أرسى من مبادىء وقيم سامية ، قدوة حسنة ، ومصدر إلهام لكل طلاب الكمال الإنساني من بني آدم في كل مكان وزمان .

---

(١) نقلا عن كتاب محمد في المدينة ـ مرجع سابق ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) ترجم الأستاذ أنيس منصور هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان « الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ » نشر الزهراء للإعلام العربي الطبعة السابعة ١٩٨٦م ، والحديث عن الرسول من ص ١٣ - ١٩ .

قيام الخلافة الراشدة

عرفنا فيما سبق من هذه الدراسة كيف أقام الرسول ﷺ ، الدولة الإسلامية عقب الهجرة إلى المدينة ، وكان هو أول رئيس لها ، إلى جانب قيامه بتبليغ الرسالة الاسلامية إلى الناس ، وبوفاته صلى الله عليه وسلم ، انتهت مهمة التبليغ ، وانقطع الوحي ، فهو خاتم الأنبياء ، وبقيت مهمة رئاسة الدولة شاغرة ، فكان لابد من اختيار أحد الصحابة لشغلها وقيادة الأمة الإسلامية ، ولقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ، أهمية هذه المسألة ، وضرورة أن يختاروا لدولتهم رئيسا يخلف النبي في إدارة أمورهم ، فاجتمع الأنصار لحظة وفاته ﷺ ، في سقيفة بني ساعدة - التي كانت لهم مثل دار الندوة لقريش في مكة - حيث كانت مكانا لمناقشة وتدبير أمورهم ، اجتمعوا في السقيفة لاختيار خليفة منهم ، ظنا منهم أنهم الأحق بذلك من غيرهم ، فالبلد بلدهم ، والدولة قامت عندهم ، ورشحوا لذلك سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه ، على أثر ذلك جاء رجلان من الأنصار هما : عويم بن ساعدة ، ومعن بن عدي [1] وأخبرا أبا بكر وعمر بالأمر، ليحضرا هذا الاجتماع الخطير ، وأدراكا منهما لأهمية الأمر ، توجها معهما إلى السقيفة ، وفي الطريق لقيهما أبو عبيدة بن الجراح ، فأخذوه معهما ، فلما وصلوا إلى الاجتماع ، وجدوا سعد بن عبادة - وكان مريضا - يتكلم ، مبينا أحقية الأنصار بالخلافة ، فأراد عمر بن الخطاب ، أن يبدأ الكلام ، ولكن أبا بكر طلب منه أن ينتظر ، فامتثل عمر لرأي أبي بكر ، الذي بدأ كلامه ، فقال : مبينا أحقية المهاجرين بخلافة النبي - بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي : « إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتّى ... فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه ، بتصديقه والإيمان به ، والمواساة له ... فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

بهذا الأمر من بعده ، لا ينازعهم إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلّة أزواجه ، وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون في مشورة ولا تقضى دونكم الأمور » [١] ... ثم قال : « ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش ، هم أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم » - يقصد عمر وأبا عبيدة - ولكنهما رفضا أن يتقدما على أبي بكر وقالا : « لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني إثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك » [٢] . هذه أقوى مرشحات أبي بكر عند الصحابة ، فقد أخرج ابن سعد عن الحسن ، قال : « قال علي بن أبي طالب - لما قبض رسول الله ﷺ ، نظرنا في أمرنا ، فوجدنا النبي ... قدّم أبا بكر في الصلاة ، فرضينا لدنيانا ، من رضى رسول الله ﷺ لديننا » [٣] لذلك رفض أبو عبيدة ، ورفض عمر ، وتقدم من أبي بكر ، وقال له : « ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار » [٤] .

وهكذا تمت هذه البيعة ، التي سميت البيعة الخاصة ، لأن كثيرا من المسلمين لم يحضروها ، خاصة آل الرسول ﷺ ، الذين كانوا مشغولين في مراسم دفنه ، وتمت في جو من الأخوة الاسلامية ، والود والاحترام ، وبعد مشاورة ونقاش وحوار هادىء ورزين ، ودلّت على إحساس عميق بالمسئولية من كبار الصحابة ، وضرورة استمرارية الدولة ، وكرهوا أن يبيتوا ليلة واحدة بعد

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٠ ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية .
(٢) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢١ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٥ .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٣٩ .

وفاة نبيهم بدون إمام ، يدبر أمورهم ، ويواجه الموقف ويتخذ ما يلزم من قرارات .

البيعة العامة :

وفي اليوم التالي ، وبعد الانتهاء من دفن الرسول ﷺ ، اجتمعوا مرة أخرى في مسجده ، وحدثت لأبي بكر بيعة أخرى ، أوسع نطاقا ، حضرها جمهور الصحابة ، سميت البيعة العامة [1] . وكأن البيعة الأولى كانت بمثابة ترشيح في سقيفة بني ساعدة ، احتاجت إلى تصديق وتوثيق من عامة المسلمين ، وهذا يدل على إدراك سياسي عميق من جانب الصحابة ، رضوان الله عليهم . وقد حدث ذلك كله ، في سلاسة ويسر ، يدلان على أن تربية الرسول ﷺ لهؤلاء الرجال ، قد أثمرت ثمرات طيبات ، فأهم وأخطر مشكلة تم حلها على هذا النحو ، وبهذه السرعة ، بدون مشكلات كبيرة .

لماذا لم يعين النبي خليفته ؟ :

الذي عليه جمهور علماء أهل السنة أن النبي ﷺ ، لم يعين خليفة له ، ولم يوصي بتعيين أحد ، فلماذا ترك هذا الأمر ؟ الذي يمكن قوله في هـذه المسألة ، بعد استقراء أقوال كبار العلماء ، أن النبي ترك هذه القضية للمسلمين يحلونها بالطريقة التي يرتاحون إليها ، في ضوء تعاليمه وإرشاداته ، إذ لو حدَّد لهم شخصا بعينه وعيَّنه خليفة ، لظن بعض الناس أن هذا التعيين من الله ورسوله ، وفي هذه الحالة فإن هذا الشخص سيكتسب قداسة ، ولا يستطيع أحد أن يناقشه ، أو ينتقد تصرفاته وقراراته ، ثم إن الأمر قد يؤول إلى الوراثة ، ما دام التعيين صادرا من النبي ، وهذا أمر خطير ، فولي الأمـر عند المسلمين بشر ، يخطيء ويصيب ، فإذا أصاب أعانوه ، وإذا أخطأ قوَّموه . وهذا أهم مبدأ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٦٩ .

قام عليه نظام الخلافة الاسلامية . والنبي ﷺ ، حتى لم يحدد لهم الطريقة التي يختارون بها من يتولى أمورهم ، لأن طريقة الاختيار تخضع لتطور الظروف والأحوال ، فإذا كانت البيعة عن طريق المصافحة المباشرة باليد تناسب مجتمعهم في ذلك الوقت ، فقد لا تناسب المجتمعات الإسلامية في أزمان لاحقة ، فقد يكون الأنسب الانتخاب المباشر ، أو على درجات ، أو ما شابه ذلك من طرق الاختيار .

فترك النبي لهذا الأمر كان لمصلحة المسلمين ، حتى لا يقيدهم بشخص أو بطريقة ، وتركهم أحرارا ، وقد فهموا هم مراده ، وتصرفوا على أساسه . وكل ما يمكن أن يقال في هذه المسألة الخطيرة ، أن النبي أومأ إيماءة ذات مغزى بتقديمه أبابكر ليؤم المسلمين في الصلاة ، أثناء مرضه ، وكأنى به ، عليه الصلاة والسلام ، قد رشح أبا بكر للخلافة ، مجرد ترشيح ، وليس إلزاما ، وكأنه يقول لهم : « إذا أردتم رأيي فأنا أرشح أبا بكر ، فإذا رأيتموه أهلا لها وجديرا بها ، وصالحا لتحقيق مصلحتكم في دينكم ودنياكم ، فأنتم وذاك ، وإلا فلتروا لأنفسكم » .

وهذا رأي كبار علماء أهل السنة في القضية ، فالحافظ بن كثير ، يقول : بعد أن ذكر كل الروايات حول ما جرى في سقيفة بني ساعدة ، وبيعة أبي بكر ، يقول : « ومن تأمل ما ذكرناه ... ظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينص على الخلافة عينا لأحد من الناس ، لا لأبي بكر ، كما زعمه طائفة من أهل السنة ، ولا لعلي ـ ابن أبي طالب ـ كما يقول طائفة من الرافضة ، ولكن أشار اشارة قوية ، يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق »[1] .

والخلاصة : أنه ببيعة أبي بكر البيعة العامة في مسجد الرسول في اليوم التالي لوفاته قامت دولة الخلفاء الراشدين ، التي استمرت نحو ثلاثين عاما

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ٢٥١ .

١١-٤٠ هـ ، وكانت استمرارا لعصر النبي ﷺ .

وفي الصفحات التالية سيكون حديثنا عن تلك الدولة العظيمة وما تحقق فيها من جلائل الأعمال في كل المجالات .

* * *

الخليفة الأول

عندما تختار أمة من الأمم حاكما يحكمها ، ويدير شؤونها ، ويقوم على أمرها ، يتساءل الناس عادة ، عن ماضي هذا الحاكم ، نشأته ، أخلاقه ، صفاته ، ومواقفه في تاريخ أمته ، وسلوكه الشخصي ، وعلاقاته بالناس ، أما الحكم على الحاكم وعهده ، وكفاءته في إدارة أمور الدولة ، فيكون عادة بعد انتهاء حكمه .

فمن هو الخليفة الأول للرسول ؟

هو عبد الله بن عثمان بن عامر ـ وكان أبوه يلقب بأبي قحافة ـ من قبيلة تيم بن مرة بن كعب ، وفي مرة بن كعب يلتقي نسبه بنسب الرسول ﷺ ، وأمه ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر ، تيمية كأبيه ، وكنيته أبو بكر ، ولقبه عتيق ، ولد سنة ٥٧٣م ، بعد مولد الرسول بثلاث سنوات .

نشأ أبو بكر في مكة المكرمة ، وكان رأس قبيلته بني تيم ، وكان يتحمل المغارم والديات عن قريش وهي مهمة خطيرة ، في مجتمع كالمجتمع المكي ، مما يدل على ثقة الناس فيه ، وأنه كان رجلا مرموقا في قومه .

كان أبو بكر يشتغل بالتجارة ، وكان تاجرا ناجحا ، وكان نسابة قريش ، يقول ابن اسحاق : « وكان أبوبكر رجلا مألفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته » (١) .

وقد ترفع أبو بكر عن عادات الجاهلية ، وما كانوا يقترفونه من مجون وشرب الخمر، وقد ارتبط بصداقة متينة مع رسول الله ﷺ ، قبل البعثة ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٧ .

توثقت عراها أكثر فأكثر بعد زواج النبي من خديجة ، وإنتقاله إلى بيتها ، الذي كان قريبا من بيت أبي بكر ، فالاتفاق في الطباع وصفاء النفس ، كل ذلك قوى الروابط بين النبي ، وبين الرجل الذي سيكون أول من يؤمن به من الرجال ، والذي سيكون ساعده الأيمن في جهاده من أجل دعوته ، وخليفته من بعده في حكم أمته .

إسلامه :

تجمع مصادر السيرة ، وكتب التاريخ ، على أن أبا بكر كان أول من أسلم وآمن بالنبي من الرجال الأحرار (١) ، فهو لسلامة فطرته كان يعاف ما عليه قومه من عبادة الأصنام ، ويرى في السجود لها إهانة لكرامة الإنسان ، لذلك ما أن بعث النبي ﷺ ، ودعاه إلى الإسلام ، حتى أسلم على الفور ، لثقته في صدق النبي وأمانته ، يقول ﷺ : « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ـ تأخر في الإجابة ـ ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم عنه ـ ما تأخر ـ حين ذكرته له ، وما تردد فيه » (٢) .

وعلى يديه أسلم طائفة من كبار الصحابة ، وقد سبق ذكر ذلك عند الحديث عن المسلمين الأوائل . ومنذ أسلم وهب نفسه وماله لله ورسوله ، فكان يشتري العبيد الذين كانت قريش تعذبهم لإسلامهم ، ومن أشهرهم بلال بن رباح ، وكان يزود عن رسول الله بكل ما أوتي من قوة .

يروي البخاري ، مرفوعا عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : « رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ ، وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه ، وخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر ؓ ، فدفعه عنه ، ثم قال : أتقتلون رجلا أن

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٣ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٨ .

يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » [١] . وعلى الرغم مما أصابه من الأذى من قريش ، فلم يضعف ولم يتخل عن رسول الله أبداً . ومن أجلِّ مواقفه تصديقه للنبي في حادث الإسراء ، فحين حدثهم النبي حديث الاسراء والمعراج أسرعوا إلى أبي بكر يخبرونه ، ظنا منهم أنه لن يصدق ، ولو حدث ذلك لكانت كارثة ، ولكن أبا بكر عندما أخبروه ، قال : وقبل أن يسمع من النبي : « والله لئن كان قاله لقد صدق ، فإني أصدِّقه في أبعد من هذا ، أصدقه في خبر السماء يأتيه في ساعة من ليل أو نهار » ، ومن يومئذ لقب بالصديق .

ولشدة ثقة الرسول فيه ، كان هو الوحيد الذي اختاره ليرافقه في رحلة الهجرة الخطيرة إلى المدينة ، وهو الذي قام بعمل كل الترتيبات اللازمة لها .

وبعد الهجرة كان ملازما للنبي ﷺ ، في ليله ونهاره ، ولم يتخلف عن غزوة من غزواته ، ولا مشهد من مشاهده ، مجاهدا بنفسه وماله . حتى قال الرسول عنه : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ، إلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر» [٢] وليس من شك أن أبا بكر ـ عند علماء الأمة ـ أفضل المسلمين على الإطلاق ، بعد الرسول ﷺ ، وآية أفضليته عند الرسول ، أنه أمره على الحج سنة ٩ هـ ثم اختاره دون الصحابة أجمعين لينوب عنه في إمامتهم في الصلاة عند مرضه ، وكان هذا أقوى مرشح له للخلافة ، فرضي الله عنه ، ورضى عنه رسول الله ، وبشره بالجنة ، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الدالة على أفضليته كثيرة [٢] .

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٤٠ ، ٤٤ .

أبو بكر يحدد منهجه في الحكم :

بعد أن بويع أبو بكر البيعة العامة ، قام فخطب في الناس خطبة قصيرة ، وضح لهم فيها أسلوبه الذي سيحكم به فقال : بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ـ : « أما بعد أيها الناس فإني قد ولِّيت عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ،لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله ، إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » [1] .

هذه هي خطبة أبي بكر ، كلمات بسيطة واضحة ، ولكنها في غاية الخطورة والعظمة ، فالخليفة الأول يقول للناس : أنتم اخترتموني بمحض ارادتكم ، وأنا مسئول أمام الله أولا ثم أمامكم عن أعمالي ، فإن كانت حسنة فلتعينوني ، وإن كانت سيئة فقوموني . ولا توافقوني على خطأ ، وهذا اعتراف صريح بحق الأمة في مراقبة تصرفات الحاكم . ونقده وتقويمه ، وهذه آية الآيات في قضية الحكم من أولها إلى آخرها . فإذا تمسكت الأمة بحقها هذا فهو خير لها ولحكامها، وإذا أهملته أو فرطت فيه ، فلا تلومن إلا نفسها ، ومعظم الكوارث تحدث ، ويكثر الفساد عندما تفرط الأمة في نقد وتقويم حكامها ، أو تضيق صدور حكامها عن تقبل النقد البناء .

قدرة أبي بكر على مواجهة الصعاب :

الذي كان معروفا عن أبي بكر في حياة الرسول ، الرقة والوداعة والرحمة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٦٩ .

والرأفة ، ولكن الخلافة كشفت عن أن أبا بكر لم يكن هذا فقط ، إنما كانت نفسه تنطوي على عبقرية فذة وشجاعة فائقة وحزم نادر ، وقدرة عجيبة على اتخاذ القرارات الخطيرة في أصعب الظروف ، فأين كانت كل هذه العظمة ، وكل هذا الجلال في شخصية الصديق ؟ كل هذا كان موجودا ، ولكنه كان يتوارى حياء وخجلا من عظمة الرسول ، أما الآن وبعد أن غاب البدر ، فقد بزغ نجم أبي بكر يتلألأ في الليل الداجي ، لينير للمسلمين طريقهم ، الذي بات محفوفا بالمخاطر ، وظهرت مواهب الرجل الذي قدِّر له أن يقود سفينة الإسلام وسط أمواج عاتية ، مثل حركة الردة ، وتكالب الدول الكبرى على وأد الاسلام ودولته في مهدهما . فقادها إلى بر الأمان ، بحكمة ومهارة وحسن سياسة ، ونزاهة وعفة ، حتى أسلم الراية إلى الفاروق ؛ عمر بن الخطاب ، فمضى بها على ذات الطريق ، خطوات وخطوات ، حتى تركها هو بدوره ، دولة عملاقة ، أقوى دولة كانت في العالم ، ساعة نعى الناعي الفاروق عمر ، رضي الله عنهم جميعا .

بعث أسامة :

أول وأصعب القرارات التي اتخذها أبو بكر ، قراره بإنفاذ جيش أسامة إلى جنوب الشام ، كما كان أمر به الرسول ﷺ ، وصعوبة ذلك القرار وخطورته ، أن الصديق ﷺ ، أقدم عليه في ظروف بالغة الصعوبة والخطر ، فمعظم القبائل العربية ارتدت عن الإسلام ، حتى مكة نفسها همت بالردة ، لولا أن سهيل بن عمرو ردعهم ، وقال لهم : « لماذا ترتدون ، والنبوة كانت فيكم ، والخلافة أصبحت فيكم ؟ » والطائف أيضا حاولت الردة فمنعهم من ذلك عقلاؤهم ، وقالوا لهم : « لقد كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من يرتد » كما استفحل أمر مدعي النبوة ، مسيلمة الكذاب في اليمامة ـ شرق شبه جزيرة العرب ـ وطليحة بن خويلد الأسدي ، في بني أسد ، في منطقة بذاخة ـ ماء لبني أسد ـ إلى الشرق من المدينة المنورة ـ ولقيط بن مالك في عمان ، جنوب شرق بلاد العرب ، والأسود العنسي في اليمن . وكل هؤلاء ظهروا في أواخر

حياة الرسول ، ولكنه ﷺ ، لم يحفل بهم كثيرا ، وكان على يقين بقدرة من يخلفه على التعامل معهم ، والقضاء على حركتهم ، وفي الوقت نفسه ، أمر بانفاذ جيش أسامة إلى جنوب الشام ، لتأديب القبائل القاطنة هناك ، والمعادية والمعتدية على المسلمين ، ولتثبيت هيبة الاسلام في عيون الروم التي فرضها عليهم في غزوة تبوك ، لعدوانهم المتكرر على المسلمين ، وليلفت نظر أصحابه إلى خطورة تلك الدولة الكبيرة على الإسلام ، ولكن هذا الجيش لم يذهب لأداء مهمته ، بسبب مرض الرسول ووفاته ، فكان أول قرار اتخذه الخليفة الأول ، أبو بكر ، هو تنفيذ ما عزم عليه الرسول ، لمعرفته بالهدف الذي كان يتوخاه من هذا ، فقد لخص سياسته في جملة واحدة ، حين قال : « وإنما أنا متبع ولست بمبتدع » (١) أي أنه سيسير في سياسته على خطى الرسول ، ونهجه ، وكان على يقين من الله أن النجاح سيحالفه ، ما دام يسير على هدى الرسول ﷺ .

لكن معظم الصحابة عارضوه في ارسال هذا الجيش ، وعللوا معارضتهم بأن الردة قد عمت شبه جزيرة العرب ، وأن الخطر شديد ، ومحدق بهم ، فالمدينة نفسها أصبحت في دائرة الخطر ، لأن العرب جميعا رمتهم عن قوس واحدة ، هذا كله صحيح ، ولم يكن الأمر أمر العرب وحدهم ، بل إن اليهود والنصارى ، وكل أعداء الاسلام ، قد اشرأبت اعناقهم ، وتحفزوا للقضاء على الإسلام (٢) . فبقاء الجيش في المدينة أصبح ضرورة لحمايتها من الأخطار المحيطة بها .

كل ذلك لم ينل من عزيمة الصديق ، الذي وقف كالأسد الهصور ، يدفع الأخطار عن الاسلام ، باتخاذ أصعب القرارات ، يقول الطبري : « فقال له

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٤ .
(٢) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الناس ، إن هؤلاء جل الناس ـ يقصدون جيش أسامة ـ والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين ، فقال : ... والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة ، كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته »[١] .

ولقد ظهرت عظمة سياسة أبي بكر ، عندما ذهب جيش أسامة ، وحقق الهدف الذي قصده رسول الله ، وعاد محملا بالغنائم[٢] ، وأكثر من هذا فإن مسير أسامة إلى الشام ، وعودته منها بجيشه سالما ، بدون خسائر تذكر ، أرهب القبائل العربية التي مر عليها في شمال شبه جزيرة العرب ، لأنهم قالوا : « لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش الكبير ، إلى هذا المكان البعيد ، في مثل هذا الوقت » ولذلك وبفضل هذا الجيش ، كانت حركة الردة في المناطق التي مر بها أسامة بجيشه أضعف منها في أي مكان آخر في شبه جزيرة العرب .

أبو بكر وحركة الردة

موقف أبي بكر الصديق من حركة الردة ، ومواجهته لها ، من أروع المواقف في التاريخ ، لأنه أظهر إيمانه العميق بانتصار الحق ، مهما كانت قوة أعدائه ، وتصميمه على الدفاع عن الاسلام مهما كلفه ذلك من جهد ، وعلى الرغم من أن حروب الردة سفكت فيها دماء زكية ، واستشهد فيها آلاف من الصحابة ، إلا أنها تعتبر مفخرة لعهد الصديق ، ودليلا ناصعا على حسن سياسته وقوة شكيمته ومضاء عزيمته .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) نذكر بما سبق ذكره من أن هدف الرسول ﷺ من انفاذ بعث أسامة إلى الشام كان لتأديب القبائل العربية التي دأبت على العدوان على المسلمين وارتكبت جرما فظيعا حيث قتلوا مبعوث النبي وهو الحارث بن عمير الأزدي ، إلى أمير بصرى الغساني .

لقد بدأت القصة بالقبائل التي منعت الزكاة ، مثل عبس وذبيان وغطفان الخ ، فقد أرسلوا وفدا إلى المدينة يعرض على أبي بكر مطالبهم ، وأنهم لم يرفضوا الإسلام ، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة المدينة ، لأنهم يعترون من دفعها ، ويعتبرونها اتاوة تدفع لأبي بكر ، ولم يدركوا أثرها العظيم في التكافل الإجتماعي بين المسلمين . فكان رأي فريق من الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، أن يستجيب أبو بكر لهم ، ولا يجبرهم على دفع الزكاة ، خاصة وأن المدينة مكشوفة ، وليس بها قوة تدافع عنها ، لأن جيش أسامة لم يعد بعد ، ولكن أبا بكر مرة أخرى يظهر مقدرة فذة على إتخاذ القرار السليم ، فيرد على عمر رداً قاسياً : « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجبّار في الجاهلية خوّار في الإسلام ؟ ... والله « لو منعوني عقالا - الحبل الذي يجر به الجمل - لجاهدتهم عليه » [١] .

ما أروع هذا الموقف من الصديق ! فماذا لو وافق عمر ومن معه على رأيهم ، وقبل المساومة في دين الله ؟ ألن يشجع هذا التنازل قبائل أخرى ، فتمتنع عن دفع الزكاة أسوة بهؤلاء ، ومن يضمن ألا يتطور الموقف وتذهب قبائل أخرى إلى أبعد من ذلك فتمتنع عن إقامة الصلاة أو غيرها من أركان الاسلام ، ويكون هذا هدما للدين من أساسه ، وهذا ما كان يخشاه أبو بكر ، وكأنى به يتمثل موقف الرسول ﷺ ، عندما جاءه وفد ثقيف يعلنون إسلامهم ، وطلبوا منه أن يعفيهم من أداء الصلاة ، فرفض ذلك وقال لهم : « لا خير في دين لا صلاة فيه » [٢] ولعل الصديق نفسه قصد ذلك عندما قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » . وهذه هي عظمة الاقتداء برسول الله ، التي قادت أبا بكر إلى النجاح في كل أعماله .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٤٤ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٧ .

على كل حال لم يكن أبو بكر صاحب قرارات صائبة فقط ، وإنما كان يقرن قراراته بالأعمال . فقد رأى الغدر في عيون وفد القبائل التي امتنعت عن دفع الزكاة ، وأدرك أنهم لابد وأن يهاجموا المدينة ، لا سيما وأنهم عرفوا غياب معظم الرجال مع جيش أسامة ، ولذلك ما أن عادوا إلى ديارهم ، حتى أعلن هو الاستنفار في المدينة ، واتخذ من مسجد رسول الله غرفة عمليات عسكرية ، وبات ليلته يعد ويستعد ، وأمر عددا من كبار الصحابة بحراسة مداخل المدينة ، كان على رأسهم علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ﷺ .

وإليك ما يرويه الطبري مما قاله ذلك الرجل العظيم ، في ذلك الموقف الخطير ، قال أبو بكر : « إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد - البريد مسافة قدرها عشرون كيلومترا - وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ، وأن نوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدوا وأعدوا » [١] .

وحدث ما توقعه ، فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة المدينة ، فوجدوا المسلمين في انتظارهم فهزموهم وردوهم على أعقابهم ، إلى ذي القصة - شرقي المدينة - وفرت فلولهم ، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة ، وكان هذا الإنتصار ذا أهمية بالغة ، لأنه برهن على عظمة قيادة الصديق ، وأن المسلمين قادرون على رد كل معتد حتى في غيبة جيشهم ، اتخذ أبو بكر من ذي القصة مكانا لادارة المعركة ضد حركة الردة بأكملها، وفي هذه الأثناء جاءته الأخبار بوصول أسامة وجيشه سالما غانما منتصرا ، فهرع الخليفة بنفسه لاستقبال قائده الشاب ، الذي قام بهذه المهمة الخطيرة . فقد كان في براثن الأسد - دولة الروم - وبعد أن احتفى أبو بكر بأسامة وجيشه أنابه عنه في حكم المدينة ، وعاد

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٤٥ .

هو إلى ذي القصة ، ليدير المعركة مع المرتدين بعزيمة لا تلين .

أسباب حركة الردة :

قبل أن نتحدث عن مواجهة أبي بكر لحركة الردة العامة في كل بلاد العرب ، يجب أن نعرف أسبابها ، ولماذا ارتدوا ، بعد أن جاءت وفودهم ، وأعلنت إسلامها أمام الرسول ﷺ ، في السنة الأخيرة من حياته ؟ الحق أن لهذه الحركة الخطيرة أسبابا كثيرة ، أهمها أربعة أسباب :

١ ـ **السبب الأول** : أن اسلام أغلبهم كان ضعيفا ، فهم قد أذعنوا للقوة ، قوة المسلمين التي لم يكن لهم قبل بمواجهتها ، أو قل كان استسلاما ولم يكن إسلاما حقيقيا ، فظنوا أن وفاة الرسول ستفت في عضد المسلمين ، ولن يستطيعوا مواجهتهم وكانوا واهمين في ذلك ، فسرعان ما عرفوا أن الخليفة الأول قادر على ردعهم . ولقد عبر القرآن الكريم عن حالتهم تلك في قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ الحجرات الآية ١٤ .

٢ ـ **السبب الثاني** : قوة العصبية القبلية عندهم ، فمعظم الذين ارتدوا والتفوا حول أنبيائهم الكذابين كانوا يعلمون صدق النبي ﷺ ، ولكن كل قبيلة كانت تريد أن يكون لها نبي من أبنائها ، حتى لو كان كذابا ، كما أصبح لقريش نبي من أبنائها ، ولقد عبروا عن تلك الحالة في وضوح ، فأحد بني حنيفة قال لمسيلمة : أشهد أنك كذاب ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر [١]، وقال عيينة بن حصن الفزاري : عن طليحة بن خويلد الأسدي ، نبي من الحليفين خير من نبي من قريش ، ومحمد مات ، وطليحة حيٌّ .

---

(١) ربيعة ومضر هما ابنا نزار بن معد بن عدنان ، فهما أخوان ، وإلى مضر ينتمي رسول الله ﷺ ، وإلى ربيعة ينتمي مسيلمة الكذاب .

٣ ـ **السبب الثالث** : أن زعماء القبائل وشيوخها كانوا مستفيدين من الوضع القبلي القديم ، فحياة معظم القبائل كانت تقوم على الإغارة والسلب والنهب ، وكان شيوخها يأخذون ربع ما تحصل عليه في إغاراتها ، لذلك تزعموا حركة الردة وحرضوا أبناء القبائل عليها ، ليستمروا في السيطرة على قبائلهم .

٤ ـ **السبب الرابع** : تدخل وتحريض الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب ، الفرس والروم ، فهذه الدول حاولت أن تقضي على الاسلام باستخدام العرب ، عن طريق التحريض والمساعدة ، فلما فشلت تدخلت تدخلا مباشرا ، كما سنعرف فيما بعد ، فعلى سبيل المثال ، حرَّض الفرس عرب الخليج على الردة ، ثم أمدوا سجاح بنت الحارث اليربوعية ؛ التي ادعت النبوة ، بجيش قوامه أربعون ألف رجل ، جاءت به من العراق ، الذي كان تحت الحكم الفارسي ، لتحارب المسلمين [١] ، ولما فشلت تدخلوا تدخلا مباشرا ضد المثنى بن حارثة الشيباني ؛ الذي كان يحارب المرتدين على حدود العراق ، وسيرد المسلمون على ذلك ، وسيزيلون دولة الفرس من الوجود .

أما الروم ـ البيزنطيون ـ فقد فعلوا الشيء نفسه ، وعرفنا عدوانهم المتكرر على المسلمين ، بدأ من غزوة مؤتة سنة ٨ هـ . وفي حروب الردة ، اعتدوا على أحد جيوش المسلمين ، الذين كان يقوده خالد بن سعيد بن العاص ، في منطقة تيماء ، في شمال الحجاز ، وهزموه ، بل قتلوا معظم جنوده [٢] وسوف يلقنهم أبو بكر درساً قاسيا ، بعد أن ينتهي من حروب الردة .

هذه هي أهم أسباب حركة الردة ، فكيف واجه أبو بكر تلك الحركة الخطيرة ؟

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٥٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٠٣ .

المواجهة السلمية :

أراد أبو بكر أن يعذر إلى المرتدين ، وأن يبصرهم بخطورة ما أقدموا عليه ، فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام ، الذي أكرمهم الله به بدون قتال ، وأرسل لهم كتابا بنص موحد ، يقرأ على كل القبائل ، لعلهم يعقلون . ونص الخطاب طويل ، وسنكتفي منه بالجزء الأخير ، الذي قال فيه : « وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ، .. ولا يقبل من أحد إلا الاسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ... » (١) .

الاستعداد العسكري :

لم يكتف أبو بكربهذا الاجراء السلمي ، وإنما بدأ على الفور في الاستعداد العسكري ، وهوفي الحقيقة كتب هذا الكتاب من وسط الميدان في معسكره في ذي القصة ، وكان يأمل أن يستجيب المرتدون ويعودوا إلى دين الله بدون إراقة دماء ، ولكن لم يركن إلى ذلك ، بل أعد أحد عشر جيشا في وقت واحد ، لتغطية جميع مناطق الردة ، في كل شبه جزيرة العرب ، ليشغل كل قبيلة بالدفاع عن نفسها في ديارها ، ولم يعطهم فرصة للتجمع والتكتل ضده ، وهذه براعة عسكرية نادرة من أبي بكر ﷺ .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٥١ ، وراجع تفاصيل كل حركة الردة وما دار فيها من حروب وما تمخض عنها من نتائج في نفس المصدر ص ٢٤٩ وما بعدها .

وقد اختار لهذه الجيوش أمهر قواده العسكريين ، وأكثرهم خبرة بالقتال .

١ - أول وأعظم هؤلاء القواد ، عبقري الحرب ، وسيف الله ، خالد بن الوليد ، وأمره بقتال المرتدين من بني أسد وغطفان وحلفائهم بقيادة نبيهم الكذاب ؛ طليحة بن خويلد الأسدي ، في بذاخة ، فإذا انتهى منهم توجه لقتال المرتدين من بني تميم في البطاح ، إلى الشرق من ديار بني أسد .

٢ ، ٣ - عكرمة بن أبي جهل وأردفه بشرحبيل بن حسنة ، وأمرهما بالتوجه إلى اليمامة حيث مسيلمة الكذاب ، ومن معه ، وأمرهما ألا يقاتلاه حتى يأمرهما بذلك ، لأن أبا بكر كان يعرف قوة جيوش مسيلمة ، وأنهما لن يقدرا عليه ، بل يشغلانه حتى يحين الوقت المناسب لإرسال قوات أكبر لمواجهة بني حنيفة في جموعها الكثيرة .

٤ - العلاء بن الحضرمي ، وأمره بقتال المرتدين في البحرين وما والاها .

٥ - حذيفة بن محصن ، وأمره بقتال المرتدين في دَبَا في جنوب شرق شبه جزيرة العرب .

٦ - عرفجة بن هرثمة ، وأمره بقتال المرتدين في مهرة في جنوب شبه الجزيرة .

٧ - المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، وامره بقتال المرتدين في جنوب اليمن

٨ - سويد بن مقرن ، وأمره بقتال المرتدين في تهامة اليمن ، على ساحل البحر الأحمر .

٩ - عمرو بن العاص ، وأمره بقتال قبائل قضاعة في الشمال .

١٠ - معن بن حاجز ، وأمره بقتال المرتدين في هوازن وبني سليم .

١١ - خالد بن سعيد بن العاص وأمره أن يعسكر في تيماء ، ولا يقاتل أحدا إلا إذا قوتل . وقد أشرنا إلى ذلك آنفا .

ومن تتبع الانتشار الجغرافي لتلك الجيوش ، تتضح عبقرية الصديق العسكرية في ملاحقة المرتدين في كل مكان يوجدون فيه .

أهم معارك حروب الردة [١]

لم يستجب المرتدون لدعوة أبي بكر السلمية ، وركبوا رؤوسهم ، فبدأ القواد ينفذون أوامره بقتالهم ، وكانت أول المعارك تلك التي خاضها خالد بن الوليد في بذاخة - شرق المدينة ، ضد المرتدين من غطفان وبني أسد ، وحلفائهم ، ممن التفوا حول طليحة بن خويلد الأسدي ، الذي ادعى النبوة ، وقد استطاع خالد هزيمتهم هزيمة منكرة ، وفر نبيهم الكذاب ، طليحة ، وتركهم بعد أن ضاقت عليه السبل ، واتضح كذبه ، وهذا الرجل أسلم في عهد أبي بكر نفسه ، وقام بدور عظيم في الفتوحات ، في بلاد فارس ، في عهد عمر بن الخطاب . بعد أن هزم خالد ، هذا التجمع القبلي الخطير ، وغنم منهم مغانم كثيرة ، وأرسل عددا من زعمائهم أسرى ، مقيدين في السلاسل إلى أبي بكر ، توجه لقتال المرتدين من بني تميم بزعامة مالك بن نويرة ، في منطقة البطاح ، في نجد طبقا لتعليمات الخليفة ، وهزمهم ، وقضى على الردة في ديارهم .

معركة اليمامة :

اليمامة تعبير جغرافي قديم ، يشمل المناطق الشرقية من شبه جزيرة العرب ، التي تقع فيها مدينة الرياض ، عاصمة المملكة العربية السعودية في

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٤٢ وما بعدها .

الوقت الحاضر ، ومعركة اليمامة نفسها كانت بالقرب من هذه المدينة ، ووقعت المعركة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ، والمرتدين بقيادة مسيلمة الكذاب ، وكان أبو بكر كما ذكرنا آنفا ، قد أرسل عكرمة بن أبي جهل ، وشرحبيل بن حسنة ، للوقوف في وجه مسيلمة ، وأمرهما ألا يقاتلاه ، لأنه كان يعرف قوة بني حنيفة اتباع مسيلمة وحلفائهم ، وإنما قصد أبو بكر أن يشغل مسيلمة في دياره ، لئلا يجد فرصة للتحالف مع غيره من المرتدين ، وتستفحل قوته ، ولكنهما تعجلا ، وخالفا أوامرالخليفة ، واشتبكا مع مسيلمة في حرب لم يستطيعا الصمود أمامه فيها ، وعادا منهزمين ، ولعلهما تسرعا في بدء الحرب ليتشبها بخالد بن الوليد ، الذي كانت انتصاراته على المرتدين في بذاخة والبطاح قد ملأت أخبارها كل بلاد العرب ، عندما وصلت أخبار هزيمتهما إلى أبي بكر ، غضب عليهما غضبا شديدا ، وطلب منهما إلا يعودا إلى المدينة ، التي كانت تعيش في فرحة غامرة ، ونشوة كبيرة من أخبار الانتصارات التي بدأت تتوالى عليها ، فلم يشأ أبو بكر أن يفسد على أهل المدينة فرحتهم عندما يرون وجوه المنهزمين ، وفي الوقت نفسه قرر أنه ليس في وسع أحد أن يقضي على مسيلمة الكذاب ، وقواته الضخمة ، سوى سيف الله ، خالد بن الوليد ، ومن حسن الحظ ، أن خالدا وقتئذ كان قد فرغ من القضاء على المرتدين من بني أسد وغطفان وتميم ، فجاءته أوامر أبي بكر أن يتوجه إلى اليمامة ، للقضاء على مسيلمة ، وامتثل القائد البطل لأوامر الخليفة ، وسار في صحراء وعرة مسافة تقرب من ألف كيلومتر ، وهناك التقى بجيوش مسيلمة في مكان يسمى عقرباء ، وكانت قواته أربعين ألفا ، أما قوات خالد بن الوليد ، فكانت نحو ثلاثة عشر الفا ، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار ، ودارت الحرب ، وكانت حربا شرسة ، أصعب المعارك التي خاضها المسلمون في حروب الردة ، حتى إن وطأتها اشتدت عليهم في البداية ، وكادوا ينهزمون ، لولا أن خالدا زأر كالأسد ، ونادى بأعلى صوته بشعار المسلمين يومئذ « وامحمداه » فأشعل جذوة الإيمان في قلوب المسلمين ، فأقبلوا على القتال دون التفكير في الحياة ،

وصبروا لعدو الله وعدوهم ، حتى هزموهم هزيمة منكرة ، وقتل زعيمهم ونبيهم الكذاب ، مسيلمة ، وقتل منهم نحو عشرين ألفا ، ومن بقي منهم على قيد الحياة استسلم لقوات ابن الوليد ، وأخذهم أسرى .

أما شهداء المسلمين ، فكانوا أكثر من ألف ومائتي رجل ، منهم عدد من القراء حفظة القرآن الكريم ، وهكذا انتهت معركة عقرباء ، وهي أكبر وأشهر معارك الردة بانتصار ساحق للمسلمين ، وهزيمة كبيرة للمرتدين ، وترجع أهمية تلك المعركة إلى آثارها على بقية المرتدين ، فقد ترامت أخبارها إلى كل مكان ، وتناقل الناس ماذا فعل خالد بن الوليد بمسيلمة وبني حنيفة ، كما تناقلوا أفعاله بالمرتدين في بذاخة والبطاح ، كل هذا أصابهم بالأحباط ، وقر في أذهانهم أن المسلمين لا ينهزمون ، ولذلك كانت مهمة بقية القادة الذين أشرنا إليهم قبل قليل في المناطق التي توجهوا إليها أسهل بكثير مما واجه خالد بن الوليد في اليمامة ، ليس معنى هذا أنهم لم يصادفوا متاعب ومشقات ، فقد أبلوا بلاء حسنا كل في ميدانه ، وقبل مضي عام على بدء حركة الردة كانوا قد قضوا عليها في كل مكان ، وعادت شبه جزيرة العرب إلى الوحدة الدينية والسياسية ، تحت لواء حكومة أبي بكر في المدينة ، كما كانت في آخر حياة الرسول ، وانتصرت مباديء الإسلام على العصبية القبلية ودعاوي الجاهلية ، وانتشر سلطان الاسلام في شبه جزيرة العرب ، وبدءوا يستعدون لأداء الدور العظيم الذي اضطلعوا به في تاريخ البشرية ، وكان كل ذلك بفضل بركة الخليفة الأول ، الذي واجه الموقف بكل صعوباته ومخاطره بإيمان راسخ وعزيمة لا تلين ، وثقة في نصر الله بغير حدود ، ومهارة القادة الكبار الذين اختارهم الله لهذه المهمة الخطيرة ، واستبسال المسلمين ، دفاعا عن عقيدتهم ودولتهم ، بإيمان قوي ، وعزيمة صلبة .

قضى أبو بكر إذا على الخطر الداخلي الذي تعرض له الإسلام ودولته بعد وفاة الرسول ، وعليه الآن أن يواجه الخطر الخارجي ، القادم من خارج

الحدود ، من قبل الفرس والروم ، وكما كان عظيما في القضاء على الردة ، فسيكون أعظم في مواجهة هؤلاء أيضا.

الفتوحات الاسلامية في عهده

دوافعها وأسبابها :

المتتبع لحركة الفتوحات الاسلامية - خارج شبه جزيرة العرب - يدرك دون عناء أن هذه الفتوحات جاءت استطرادا ، وتحت ضغط الظروف ، وأن المسلمين اضطروا إليها اضطرارا ، فلم يكن لهم برنامج - معد سلفا - للفتح خارج بلادهم ، أو الصدام مع الآخرين ، لأن نشر الاسلام ، الذي هو الغاية الأولى للمسلمين ، لم يكن يتطلب بالضرورة أعمالا حربية ، فالدين إيمان مقره في القلوب ، والقلوب لا يستطيع أحد أن يفرض عليها شيئا بالقوة « لا إكراه في الدين » وكل ما كان يطلبه المسلمون من الآخرين أن يفسحوا لهم الطريق ، ليدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسياسة الرسول نفسه أكبر دليل على ذلك ، فقد كانت تقوم على تأمين شبه جزيرة العرب ، ضد أي عدوان خارجي ، ودعوة الناس إلى الإسلام بالحسنى ، ولكن الدول صاحبة السلطان والهيمنة - على شؤون العالم - يومئذ - الفرس والروم - لم يعطوا المسلمين هذه الفرصة . وأخذوا يكيدون لهم ويعتدون عليهم ، وقد عرفنا كيف فرّق كسرى فارس رسالة النبي ، وكيف تدخل الفرس في حروب الردة بالتحريض والمساعدة ، وأخيرا بالعدوان السافر . أما الروم فقد عرفنا ماذا فعلوا بالمسلمين في غزوة مؤتة ، وماذا كان دورهم في حروب الردة ، باختصار هؤلاء جميعا أجبروا المسلمين على خوض الحرب ضدهم . فالدافع الرئيسي للفتوحات الاسلامية ، هو رد العدوان ، وتحقيق الحرية لنشر العقيدة الاسلامية دون عوائق ، وليس لنشر العقيدة ، والفرق بين المعنيين كبير ، ويدرك دون عناء .

فتح العراق :

أثناء القضاء على حركة الردة ، أخذ أحد القادة المسلمين ، وهو المثنى بن حارثة الشيباني ، يطارد المرتدين إلى الشمال ، على الساحل الغربي للخليج العربي ، ولما وصل إلى حدود العراق ، تكاثرت عليه قوات الفرس ، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين ، الذين ظنوا في البداية أنهم قادرون على القضاء على الإسلام - سبق الحديث عن سجاح ، وقواتها الضخمة التي خرجت بها من العراق ، بتأييد ومساعدة منهم وفشلها في تحقيق أهدافهم - عندئذ ألقوا بثقلهم في المعارك ، ولما رأى المثنى أنه غير قادر بما معه من قوات على مواجهة جيوشهم ، أرسل إلى الخليفة أبي بكر ، يشرح له موقفه ، ويطلب مددا ، فأدرك الخليفة خطورة الموقف ، ورأى أن يردع الفرس ، ويرد عدوانهم ، فرماهم بأعظم قواده خالد بن الوليد ، الذي كان لا يزال في اليمامة ، بعد أن قضى على الردة وهزم بني حنيفة ونبيهم الكذاب مسيلمة ، وأردفه بقائد آخر من القواد العظام ، وهو عياض بن غنم ، يقول الطبري [1] : « كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، إذ أمَّره على حرب العراق ، أن يدخلها من أسفلها ، وإلى عياض إذ أمَّره على حرب العراق ، أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا إلى الحيرة ، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، وقال إذا اجتمعتما بالحيرة ، وقد فضضتما مسالح فارس ، وأمنتما أن يؤتي المسلمون من خلفهم ، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخرعلى عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ، ومستقر عزلهم ، المدائن » .

وهكذا أراد أبو بكر أن يذكي روح المنافسة الشريفة بين كبار القادة ، ليلقن الفرس درسا لم يلقنهم أحد إياه من قبل ، ما داموا لم يتركوا المسلمين يدعون إلى دينهم في حرية وأمان . وعلى الباغي تدور الدوائر .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٤٧ .

تحرك خالد بقواته من اليمامة ، متجها إلى العراق ، في المحرم من العام الثاني عشر الهجري ، وفي خلال عدة شهور ، خاض خلالها سلسلة من المعارك ضد الفرس في ذات السلاسل ، والمذار ، والولجة ، وأليس - وهذه اسماء الأماكن التي دارت فيها الحروب - وقد هزمهم في كل تلك المعارك واستقر في الحيرة عاصمة العراق في ذلك الوقت ، في شهرربيع الأول ، من العام نفسه [1] ، وبعد فتح الحيرة ، فتح الأنبار ، وعين التمر ، إلى الشمال من منها ، ثم جاءته أوامر من أبي بكر ، أن يعود إلى الحيرة ، ويستقر فيها إلى أن تأتيه أوامره ، لأن الحرب كانت قد بدأت في الشام مع الروم ، وسيضطر أبو بكر لتحريك خالد من العراق إلى الشام ، كما سنذكر قريبا ، أما عياض ، فلم يتمكن من الوصول إلى الحيرة ، لانشغاله بالقضاء على الردة في دومة الجندل ، على الحدود بين شبه جزيرة العرب والشام ، وسيبقى الموقف في العراق على هذا الوضع إلى ما بعد وفاة أبي بكر ، وفي مطلع خلافة عمر بن الخطاب سنتابع ما يجري في هذه الجهة .

وخلاصة القول : أنه في خلال بضعة شهور ، فتح خالد أكثر من نصف العراق . وصالح أهله على دفع الجزية ، ولم يجبر أحدا على الدخول في الاسلام [2] .

فتح الشام :

كان أحد قادة حروب الردة ، وهو خالد بن سعيد بن العاص ، قد أمره الخليفة أبو بكر أن يعسكر بقواته في منطقة تيماء - شمال الحجاز - وألا يقاتل أحداً إلا إذا قوتل ، وقصد أبو بكر من حشد هذا الجيش في هذا المكان ، وهو على الطريق إلى الشام ، أن يكون احتياطيا يمد القوات المحاربة في جهات أخرى

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٩ .

(٢) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٤٥ .

عند الضرورة ، ثم يراقب تحركات الروم ؛ لأنه كان على يقين أنهم سيستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة ، ويكررون عدوانهم ، ومع ذلك كانت أوامره صريحة لخالد بن سعيد بألا يقاتل أحدا ، وقد حدث ما تحسبه أبو بكر ، فقد هجم الروم على جيشه ، ومعهم القبائل العربية القاطنة في الشام ، وأوقعوا به هزيمة ساحقة ، وقتلوا معظم جنوده ، واستشهد إبنه في المعركة ، فلما وصلت أخبار تلك الهزيمة إلى أبي بكر ، يقول الطبري : « عند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره » [١] .

معنى عبارة الطبري ؛ أن أبا بكر أدرك أن الروم عازمون على مواصلة الحرب ، ضد المسلمين ، وأن المسلمين إذا لم يتحركوا لصد عدوانهم قبل فوات الأوان ، فستكون العواقب وخيمة ، ويصبح كل ما بناه المسلمون في خطر شديد ، لذلك جمع كبار الصحابة على الفور لاستشارتهم في أمر الروم ، فاستقر رأيهم على تلقينهم درسا ، كالدرس الذي لقنوه للفرس حتى يعودوا إلى رشدهم ، ويكفوا عدوانهم على المسلمين .

وشرع أبو بكر في حشد الجيوش لتحقيق ذلك الهدف ، فجهز أربعة جيوش رئيسية ، وجه كل واحد منها إلى منطقة من مناطق الشام ، وكان توجيهها كالآتي :

١ ـ جيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، ووجهه إلى حمص في شمال الشام .

٢ ـ جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، ووجهه إلى دمشق ، في وسط الشام

٣ ـ جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة ، ووجهه إلى الأردن .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٨٩ .

٤ - جيش بقيادة عمرو بن العاص ، ووجهه إلى فلسطين .

وقال لهم : إذا عملتم منفردين ، فكل واحد منكم أمير على من معه من قوات - وكان مع كل واحد نحو ثمانية آلاف جندي - ثم أمير على المنطقة التي يفتحها ، أما إذا الجأتكم الظروف إلى الاجتماع في صعيد - مكان - واحد ، فالقائد العام ، أبو عبيدة بن الجراح .

موقعة اليرموك :

تحرك القادة الأربعة بجيوشهم ، فلما دخلوا جنوب الشام ، وجدوا جيشا روميا عدده نحو مائتي ألف بقيادة تذارق - أخو هرقل - (١) . يساندهم حوالي ستين ألفا من العرب ، بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني ، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الأعداد الهائلة ،ودارت بينهم مراسلات ، تجمعوا بعدها في وادي اليرموك ، وأصبح أمير الجيوش كلها أبا عبيدة ، حسب تعليمات الخليفة ، وبعد دراسة موقفهم قرروا رفع الأمر إلى أبي بكر ليتصرف ، ويمدهم ، وتفهم أبو بكر حقائق الموقف وقال عبارة أبلغ من كتاب ، قال : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » أي أن الخليفة رأى أنه لن ينقذ الموقف في الشام ، ويعيد الروم إلى صوابهم سوى سيف الله خالد بن الوليد ، فكتب إليه وهو بالعراق « أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق ، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخفِّفًا في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام ، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ، ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم ، فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك » (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٠٦ .

(٢) فتوح الشام ، محمد بن عبد الله الأزدي ص ٦٨ ، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، القاهرة ١٩٧٠ .

امتثل خالد لأوامر الخليفة ، وسار من العراق ، ومعه سبعة آلاف جندي ، في واحدة من أخطر المسيرات العسكرية في التاريخ ، حيث قطعوا في صحراء قاحلة مسافة أكثر من ألف كيلومتر في ثمانية عشر يوما ، وكان أهم ما ينقصهم الماء ، وقد دبره خالد بطريقة تدل على عبقريته [١] ، وصل خالد إلى وادي اليرموك ، الذي شهد أعظم وأخلد معاركه ، وتسلم القيادة من أبي عبيدة ، وسحق جيش الروم - الذي كان أقوى جيوش الدنيا يومئذ - سحقا ، وليس هزيمة فقط ، لأن هذا الجيش العتيد لم يعد صالحا للقتال بعد ذلك ، لأن من نجى منه من القتل - قتل من جيش الروم مائة وعشرون ألفا - هبطت روحه المعنوية إلى الحضيض ، ولم يعد قادرا على قتال حقيقي بعد الآن .

استشهد من المسلمين يوم اليرموك ثلاثة آلاف ، وقد فتح النصر العظيم الذي حققوه في اليرموك [٢] ، الطريق لفتح بقية الشام ، وذلك سيتم في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، وسيأتي الحديث عنه في حينه إن شاء الله .

جمع القرآن في عهد أبي بكر

القرآن الكريم ؛ هو كلام الله تعالى ، الذي أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ ، عن طريق أمين الوحي جبريل ، عليه السلام ، وقد نزل على النبي منجما - يعني متتاليا - طوال ثلاث وعشرين سنة ، وكان الرسول كلما نزلت آية ؛ أو آيات ، يأمر الصحابة بكتابتها ، ويقول : « ضعوها في مكان كذا من سورة كذا » فالقرآن كله كان مكتوبا في صحف متفرقة عند وفاة الرسول ،

---

(١) كانت الطريقة التي دبر بها خالد المياه لجيشه بسيطة ، لكنها فذة ، فقد اتخذ من بطون الأبل خزانات للمياه ، وكان في كل مرحلة ينحر عددا منها يأكلون لحومها ، ويستفيدون بالماء الذي في بطونها .

(٢) كانت معركة اليرموك على الأرجح في جمادى الأولى سنة ١٣ هـ قبيل وفاة أبي بكر ، انظر : تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٩٤ وما بعدها .

وكان عدد كبير من الصحابة يحفظونه كاملا ، وكان جبريل يأتي للنبي ، ويعرض عليه القرآن مرة كل عام ، وفي العام الأخير من حياته عرضه عليه مرتين [١] بصورته التي في المصحف بين أيدينا الآن .

وفي حروب الردة ـ خاصة في معركة اليمامة ـ استشهد عدد كبير من الصحابة حفاظ القرآن ، ففزع لذلك عمرو بن الخطاب ، وأشار على أبي بكر بضرورة جمع القرآن ، في مصحف واحد ، خشية أن يستشهد بقية الحفاظ ، فيضيع ، أو يدخله التحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه ، كما حدث للكتب السابقة ، وكان هذا اقتراحا عظيما من عمر ، وفي البداية تردد أبو بكر ، وقال : « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ » فقال له عمر : « أرى والله إنه خير » يقول أبو بكر : « فلم يزل عمر يراجعني ، حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت الذي رأى عمر » ثم استدعا زيد بن ثابت الأنصاري ، أحد كتاب الوحي لرسول الله وقال له : « إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه » يقول زيد : « فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن » [٢] .

فتتبع زيد القرآن وجمعه في مصحف واحد من الرقاع والعظام ، والعسب ـ سعف النخيل ـ التي كان مكتوبا عليها ، ومن صدور الرجال .

وهكذا توَّج أبو بكر أعماله الجليلة ـ قضاؤه على حركة الردة ، والفتوحات ـ بهذا العمل الخالد ، وهو جمع القرآن ، الذي هو دستور الاسلام وحقق بذلك وعد الله تعالى بحفظ كتابه ، حيث قال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ سورة الحجر الآية ٩ .

---

(١) الدرر ، لابن عبد البر ص ٢٨٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ص ٧٧ .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ، وإن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين »[1] .

ظل المصحف عند أبي بكر ، وبعد وفاته انتقل إلى عمر بن الخطاب ، وبعد وفاة عمر ، حفظ عند حفصة بنته ، أم المؤمنين ، وفي عهد عثمان دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة واحدة ، فأخذه عثمان منها ، وجمعه الجمع الثاني ، أي وحد القراءة ، وسنذكر ذلك فيما بعد .

وفاة ابي بكر

في خلال سنتين وثلاثة أشهروعشرة أيام ؛ هي مدة خلافة الصديق ، قام فيها بأعمال خالدة ، ونهض بمسئولية خلافته للنبي في إدارة أمور المسلمين على أحسن ما يكون وخير ما يكون ، ودل على صدق نظرة النبي وثقته فيه حين قدمه ليؤم المسلمين في الصلاة أثناء مرضه ، فقدمه الصحابة للخلافة ، فكان لها أهلا . وعاش للمسلمين ، ووهب حياته لخدمتهم ، والدفاع عن عقيدتهم ودولتهم ، ولم يأخذ من الخلافة شيئا ، ولم يترك مالا ولا عقارا ، وكان يعيش كواحد من المسلمين ، بمخصصات غاية في البساطة ، فرضوها له ، ليترك التجارة ، ويتفرغ لسياسة الدولة وإدارة أمورها ، وحتى هذه المخصصات البسيطة ، قال لابنته ، أم المؤمنين عائشة : احسبوها وردوها إلى بيت مال المسلمين ، لأني أكره أن ألقي الله ، وقد أخذت على عملي للمسلمين أجرا ، رحمك الله يا أبا بكر ، فأنت بهذه العظمة ، وهذه النزاهة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وفي أواخر شهر جمادى الآخر من العام الثالث عشر الهجري فاضت روح أبي بكر إلى بارئها ، بعد مرض استمر نحو اسبوعين ، كان سببه الحمى كمرض الرسول ، وتولى بعده الفاروق عمر بن الخطاب .

---

(١) نفسه .

عمر بن الخطاب ١٣ - ٢٣ هـ

نسبه وصفاته وإسلامه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدى وأمه حنتمة بن هشام بن المغيرة .

أسلم في العام الخامس من الهجرة ، وعمره سبع وعشرون سنة ، وكان إسلامه بعد أربعين رجلا ، وإحدى عشرة امرأة ، أسلموا قبله ، وكان قبل إسلامه معاديا للإسلام شديدا في عداوته ، لكن الله شرح صدره للاسلام ، استجابة لدعـوة النبي ﷺ له ، فقد روى ابن عباس ، أنه ﷺ ، قال : « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب » [(١)] ، وكان إسلامه نصرا كبيرا للمسلمين ، فرحوا به جميعا ، وكان أكثرهم فرحا الرسول ﷺ .

وكان ذا شخصية قوية ، وإرادة وحزم وعزم ، وله هيبة تنخلع لها قلوب الرجال ، وكان سفير قريش في الجاهلية ، بينها وبين بعضها ، وبينها وبين غيرها من القبائل ، وهي مهمة تحتاج إلى علم وعقل وحسن تصرف ورجولة ، وكان كل ذلك متوفرا في عمر رضي الله عنه .

وكان في بداية نشأته يشتغل بالرعي ، ثم عمل في التجارة ، يذهب من أجلها إلى الشام وإلى اليمن ، وكان يحرص على مقابلة حكام وأمـراء تلك البلاد ، ليزداد علما وخبرة بالحياة ، وكان أحد سبعة عشر رجلا من قريش يعرفون القراءة والكتابة في مكة .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٩ - وفي رواية أخرى : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » المقصود ، عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام بن المغيرة ؛ الملقب بأبي جهل ، فكانت الاستجابة من نصيب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان قوي البنية ، طويل القامة ، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم كأنه راكب على دابته ، أبيض اللون تعلوه حمرة ، جهوري الصوت قليل الضحك ، لا يمازح أحداً ، مقبلاً على شأنه ، هذه هي أبرز صفاته الجسدية ، أما صفاته الأخلاقية ، فإننا يمكننا أن نجملها في صفات أساسية ، هي : الإحساس الكامل بالمسئولية ، والشدة والفراسة ، والعدل والهيبة ، والغيرة على العرض والشف ، وواضح أن هذه الصفات هي نتاج عوامل كثيرة متنوعة ، مثل نشأة عمر الأولى وثقافته ، والقيم التي غرسها الإسلام في نفسه . أما عن إحساس عمر الكامل بمسئوليته قِبَل الرعية ، فذلك ما لا حاجة بنا إلى التدليل عليه ، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التي ملكت عليه شغاف نفسه ، والتي شهد له بها الجميع ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فالعقيدة وحدها ، هي التي تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسي ، وهي التي تجعل الإنسان رقيبا على نفسه في جميع حركاته وسكناته ، ولن تغني عنها أية رقابة أخرى ، ولو كانت عبادة الواجب ، التي يريد البعض أن يحلها محل خشية الله [1] .

عمر والرسول ﷺ :

منذ أسلم عمر بن الخطاب ، احتل المكانة التالية لمكانة أبي بكر الصديق ، عند النبي ﷺ ، لصفاته العالية ، التي أسلفنا ذكر بعضها ؛ ودعوة النبي أن يعز الله به الإسلام ، لم تكن دعوة من فراغ ، بل كانت ناشئة عن معرفة دقيقة بخصائص الرجل ، الذي سيكون ثالث ثلاثة في الإسلام ، بعد النبي ﷺ ، وخليفته الأول أبي بكر ، يقول الأستاذ عباس العقاد : « ومن تحصيل الحاصل أن نقول : إن محمداً - ﷺ - قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر ، وكل خليقة من خلائق طباعه ، وراقبه قبل إسلامه ، وبعد إسلامه ، فلم تفته كبيرة ولا

---

(١) د. سليمان الطماوي .. عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة .. دراسة مقارنة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ ـ دار الفكر العربي ص ٢٦ ـ ٢٧ .

صغيرة من مواطن العظمة فيه ، إلا أنه لم يحمد منه شيئا كما حمد حبَّه للحق وكراهته للباطل » [١] .

ولكن مهما كانت أخلاق عمر وصفاته ؛ فلم تكن لتبلغ به الشأو والمكانة التي بلغها لولا إسلامه وصلته بالرسول ﷺ ، والتربية التي تلقاها على يده معلمه الأعظم ، فمحمد رسول الله ، هو الذي أفسح المجال لهذه المواهب العمرية وأطلقها من عنانها ، لتظهر وتؤدي دورها لا في تاريخ الإسلام فحسب ، بل في تاريخ البشرية كلها . فعمر بن الخطاب من عظماء الدنيا ، ولقد وضعه الكاتب النصراني الأمريكي الدكتور مايكل هارت بين الخالدين المائة في التاريخ الإنساني كله .

كان عمر يناقش ويعترض في صراحة وجرأة - أحيانا - على النبي - في مواقف كثيرة - في أسرى بدر ، وفي صلح الحديبية ، وفي الصلاة على رأس النفاق - عبد الله بن أبي بن سلول - ، والنبي يسمع برحابة صدر ، بل ويشجِّع عمر - وغيره - على ابداء آرائهم ، ليربيهم على حرية الرأي والمشاركة في القرار ، لأنه كان يعرف أنه يُعدُّ للدنيا أعدل من عرفت من القادة والحكام ، فهو يعلِّم عمر الحرية والشجاعة في ابداء الرأي ، ليعلمها عمر للمسلمين ، عندما يأتي دوره ليقود الأمة ، ويصبح مسئولا عنها ، ولقد استفاد عمر من دروس أستاذه ومعلمه محمد ﷺ ، استفادة عظيمة ، ظهر أثرها أكثر في سياسته وإدارته لأمور الدولة الإسلامية في أيام خلافته . وبرز عمر ليحتل - كما أشرت آنفا - المكان الثالث في الإسلام ، ومرة أخرى نقتبس من كلام الأستاذ عباس العقاد ، الذي يقول : « فلو لم يكن في دراسة عمر إلا أن نرى رجلا عادلا بالغا في عدله ، قويا بالغا في قوته ، معجبا بالبطولة بالغا في إعجابه ، مستقلا بالرأي بالغا في استقلاله ، لكفى بذلك ظفرا لعلم الأخلاق » [٢] .

---

(١) عبقرية عمر - ص ١٩٤ طبعة ١٩٦٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .

منذ أسلم عمر بن الخطاب وهو من أكثر الصحابة ملازمة للنبي ، حتى إن الصحابة أطلقوا عليه هو وأبي بكر وزيري محمد ، وأحاديث الرسول ، في الدعاء له والثناء عليه كثيرة ومتواترة ، منها قوله ﷺ : « إنِ الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » [١] . وقوله : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون - أي ملهمون - فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » [٢] .

ولشفافية روح عمر وإخلاصه لدينه كان يقول الرأي - يعارض به أحيانا رأي الرسول - فينزل القرآن مؤيدا رأي عمر ، وقد عدد العلماء عشرين موقفا من هذه القبيل ، منها موقفه من أسرى بدر ، وفي تحريم الخمر ، والصلاة على المنافقين ، والصلاة في مقام إبراهيم ، وفي ضرب الحجاب على زوجات النبي ﷺ ... إلخ [٣] .

توليته الخلافة

تحدث العلماء كثيرا ، واختلفوا كثيرا حول أفضلية بعض الصحابة على بعض ، وجمهور علماء أهل السنة ، متفقون على أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل كترتيبهم في تولِّي الخلافة ، وكان الصحابة أنفسهم يعرفون ذلك ، فقد ذكرنا سابقا تقديم النبي أبا بكر ليؤم المسلمين في الصلاة ، ورفضه أن يقوم بهذا عمر بن الخطاب ، وعندما تأخر أبو بكر يوما عن الصلاة قدم بلال - مؤذن الرسول ، اجتهادا منه - عمر بن الخطاب ، ليؤم المسلمين في غياب أبي بكر ، فلما سمع الرسول عمر يقيم الصلاة ، رفض ، وقال : « أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » وعلى الرغم من رفض الرسول أن يؤم الناس عمر ، وإصراره على أن يؤمهم أبو بكر ، إلا أن هذا التصرف التلقائي من بلال ، يدل

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٧ ، ١٢٢ .

على أن الصحابة كانوا يعلمون أن أفضلهم أبو بكر ، وبعد أبي بكر عمر بن الخطاب ، وكان أعرفهم بهذه الحقيقة أبو بكر نفسه ، لذلك اتجه إليه نظره ليلي الخلافة بعده ، لما طلب المسلمون منه ذلك أثناء مرضه ، فقد قال لهم : « إنه قد نزل بي ما ترون ، ولا اظنني إلا ميتا ، لما بي من المرض ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحلَّ عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمِّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمَّرتم في حياة منى ، كان أجدر ألا تختلفوا بعدي » .

هكذا أراد الصديق ﷺ ، أن يختار المسلمون خليفتهم بأنفسهم ، وبارادتهم الحرة ، دون تدخل منه . لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أصلح لتولي الخلافة بعده ، وتحمل تبعاتها الجسام ، فقبل ، وطلب منهم مهلة ، حتى ينظر لله ولدينه ولعباده ، وبعد تفكير عميق ، استقر رأيه على عمر بن الخطاب ، بعد استشارة كبار الصحابة ، عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم ، فأثنوا على عمر وزكّوه وباركوا ترشيحه ، ومع ذلك فقد اعترض نفر قليل منهم على ترشيح عمر للخلافة ، وعلى رأسهم طلحة بن عبيد الله [١] ، وبرّروا اعتراضهم بقسوة عمر وشدته ، لكن أبابكر طمأنهم في رفق وتؤدة ، أن ما يلاحظونه من شدته ، إنما هو لله وفي الله ، وقال لهم : " وإنه يشتد لأنه يراني لينا " ، ليحدث نوعا من التعادل في قمة السلطة بين الخليفة ، وساعده الأيمن ، وأضاف أبو بكر قائلا : « لو أفضي الأمر إلى عمر لترك كثيرا مما هو فيه » [٢] .

وهذا الاعتراض لا يقلّل أبدا من سداد رأي أبي بكر في عمر ، ولا من شأنه عمر نفسه ، بل يدل على حيوية الرجال ، وحريتهم في إبداء آرائهم الشخصية في الرجل الذي سيحكمهم ، وهذه ثمرة من ثمرات تربية النبي ﷺ ، لهم وتدريبهم على إبداء الرأي في القضايا العامة دون خوف ،

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٢٥ .
(٢) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٢٨ .

والخلافة هي قضية القضايا ، ويكفي أن الغالبية العظمى من الصحابة أجمعت على تزكية عمر ، ورضيت به . وهذه هي روح الإسلام وتعاليمه ، وهذا هو ما تسير عليه الأمم الحية في اختيار حكامها ، فالاجماع ليس شرطا ضروريا في اختيار الحاكم ، وإنما تكفي فيه الاغلبية المطلقة . على كل حال ، اطمأنت نفس أبي بكر ـ بعد استشارة كبار الصحابة – إلى اختيار عمر ليتولى أمانة المسئولية بعده ، فأشرف على الناس– وهو مريض ـ وقال لهم : « أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا »[١] .

وهكذا أراد أبو بكر ان يطمئن إلى رضى المسلمين باختياره ، فرضاهم بعمر وبيعتهم له بعد وفاة أبي بكر ، هو الذي جعل خلافته شرعية ، لا مجرد الترشيح من أبي بكر ، فلو لم يرضوه ، وبايعوا غيره ، ما كان عهد أبي بكر وترشيحه حجة عليهم ، لأن الخليفة يستمد سلطاته من الأمة التي تختاره وتوكله في القيام بمهام منصبه .

وبعد وفاة الصديق ، بايعوه مرة أخرى في مسجد الرسول ، وبهذه البيعة انعقدت خلافته ، وصارت شرعية بارادة الأمة ، وكان عليه أن يوضح للناس منهجه الذي سيسير عليه في الحكم ، وجاء ذلك في أول خطبة إليهم ، فبعد الفراغ من دفن أبي بكر ﷺ ، صعد عمر منبر رسول الله ﷺ ، ووقف على درجة أدنى من التي كان يقف عليها أبو بكر ـ تأدبا وإجلالا لأبي بكر ـ وخطب فيهم خطبة قصيرة ، جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي ، وذكر أبي بكر بكل خير وفضل [٢] : « أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ، ما تقلدت أمركم » قال هذه العبارات

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٢٨ .

(٢) الفاروق عمر ، د. محمد حسين هيكل جـ ١ ص ٩٣ – ٩٤ الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

في تواضع وتأثر ورفق ، فأثنى عليه المسلمون خيرا ، وزاد ثناؤهم عليه حين رأوه يرفع بصره إلى السماء ، ويقول : « اللهم إنّي غليظ فلّيني ، اللهم إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني بخيل فسخِّني » وفي اليوم التالي خطبهم خطبة أخرى أراد منها أن يزيل من نفوسهم ما قد يكون فيها من مخاوف من شدته التي عبَّروا عنها لأبي بكر حين رشحه لخلافته ، فقال : « بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلطتي ، وقالوا : كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ، ومن قال ذلك فقد صدق ... إنني كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رءوفا رحيما ﴾ فكنت بين يديه سيفا مسلولا ، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي ، فلم أزل مع رسول الله ، حتى توفاه الله ، وهو عني راض ، والحمد لله كثيرا ، وأنا به أسعد .. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بلينه ، فأكون سيفا مسلولا ، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل ، وهو عني راض، فالحمد لله على ذلك كثيرا وأنابه أسعد ، ثم إني وليت أموركم أيها الناس ، فأعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت - أي زادت - فارتعد بعضهم من الخوف ، لكنه طمأنهم بسرعة فقال : ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والقصد - أي الاعتدال - فأنا ألين لهم من بعضهم على بعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحد أو يتعدّى عليه حتى أضع خده على الأرض واضع قدمي على الخد الآخر ، حتى يذعن بالحق ، وإني بعد شدِّتى تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ،.. ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم عليَّ ألاّ أجبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألاّ يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك ... وإذا غبتم في البعوث - يقصد

الغزوات - فأنا أبو العيال - أرعاهم - فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم » أطمأن المسلمون عند سماعهم هذا الكلام من خليفتهم ، خصوصا لما شرح لهم أن شدته لن تكون إلا على الظالمين الذين يعتدون على الناس ، وما لهم لا يطمئنون وهم يعلمونه رجلا صادقا في كل ما قال ، وقد زادهم اطمئنانا عندما وعدهم أن من يغيب منهم عن عياله في جهاد أو سفر ، فهو أبو عيالهم يرعاهم ويقضي حوائجهم . فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

الفتوحات في عهده

مواصلة فتح العراق [١] :

تركنا الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق ، وكانت أوضاعها أن المسلمين قد انتصروا انتصارا عظيما على الروم في موقعة اليرموك ، بقيادة خالد ابن الوليد ، وسنترك الشام الآن ، لنعود إليها بعد أن نعرف ماذا جرى في العراق وبلاد فارس ، خاصة وأن تغييرا قد حدث في قيادة الجيوش الاسلامية في الشام بعد اليرموك .

أما في العراق ، فبعد أن رحل عنها خالد بن الوليد ليتولى القيادة في الشام تنمَّر الفرس بخليفته على قيادة المسلمين في العراق ، المثنى بن حارثة الشيباني ، وأخذوا يضغطون عليه ، وأخذ هو يطلب نجدة من أبي بكر ، ولكنه لم يتلق ما كان يريد ، لأن أبا بكر كان مشغولا بحرب الروم في الشام ، ثم

---

(١) راجع تفاصيل حوادث الفتوحات في عهد عمر في تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٤٤ وما بعدها . وفي كتاب الفاروق عمر بن الخطاب ، للدكتور محمد حسين هيكل . بجزأيه الطبعة السادسة - دار المعارف بالقاهرة .

داهمه المرض ، ولما أبطأ رده على المثنى جاء بنفسه إلى المدينة ، ليعرف سبب ذلك الابطاء ، فوجد أبا بكر على فراش المرض ، فلم يستطع أن يكلمه ، لكن أبا بكر علم بوجود المثنى في المدينة ، وأدرك أنه ما جاء إلا لضرورة ، ولذلك كان آخر كلامه لعمر بن الخطاب ، أمره له بأن يجهز جيشا يرسله مع المثنى إلى العراق ، لصد عدوان الفرس ، فعمل عمر بوصية أبي بكر، وكان من أول ما عمله أن أرسل جيشا إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي .

معركة الجسر :

خاض أبو عبيد بن مسعود معركة ضد جيوش الفرس ، في شهر شعبان سنة ١٣ هـ سميت موقعة الجسر ، لأن المسلمين أقاموا جسرا على نهر الفرات لعبور قواتهم البالغ عددها تسعة آلاف ، وكان عبورهم النهر خطأ عسكريا جسيما وقع فيه أبو عبيد ، ولم يسمع نصيحة القادة الآخرين ، ومنهم المثنى نفسه ، فقد حذروه وبصَّروه من أن موقف المسلمين غربي النهر أفضل لهم فليترك الفرس يعبرون النهر ويقاتلهم ، فإذا انتصر المسلمون فسيكون عبور النهر إلى الشرق سهلا ، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون إليها ليعيدوا ترتيب قواتهم ، ولكنه لم يستجب فحلَّت بالمسلمين هزيمة على يد القائد الفارسي بهمن جاذويه ، وقتل أبو عبيد نفسه ، ومعه أربعة آلاف من شهداء الإسلام ، لأن الفرس استخدموا الفيلة في الحرب لأول مرة مع المسلمين ، الذين لم يكن لهم دراية بمواجهتها في الحروب فكانت مفاجأة لهم .

موقعة البويب :

كانت هزيمة المسلمين في الجسر قاسية عليهم ، فهذه أول مرة يهزمون فيها منذ بدأت الفتوحات ، فبذل المثنى جهدا كبيرا لتأمين عبور من بقي من قوات المسلمين النهر ، وأدرك بفهم القائد الحصيف أنه لابد من خوض معركة أخرى ، وعلى وجه السرعة ضد الفرس لرفع معنويات المسلمين ، واستفاد من

تجربة أبي عبيد ، واستدرجهم إلى غربي النهر ، وقد عبروا مدفوعين بنشوة النصر الذي حققوه في معركة الجسر ، وظنوا أن انتصارا جديدا على المسلمين سيكون أسهل من الانتصار الأول ، ولكن المثنى فاجأهم - بعد أن استثار حميَّة العرب القاطنين في المنطقة - وأوقع بهم هزيمة ، على حافة نهر يسمى البويب ، وسميت المعركة باسمه ، وهكذا استطاع أن يبدد ظلال هزيمة الجسر ، وأن يعيد إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ، لكنه في الوقت نفسه أدرك بعد طول تجاربه وخبراته العسكرية ، أنه ليس قادرا بما معه من قوات على مواجهة الفرس ، الذين ألقوا بكل ثقلهم في الميدان . فتراجع إلى الوراء ، ليكون بمأمن من هجماتهم ، وأرسل إلى عمر بحقيقة الموقف ، وطلب منه أن يتصرف على ضوء موقفهم الذي هم فيه .

معركة القادسية (١)

كان عمر بن الخطاب يتابع مواقف الجيوش في كل الجبهات بكل الاهتمام والإحساس بالمسئولية ، والفهم العميق والتقدير السليم للقوى التي ينازلها المسلمون ، وخاصة على جبهة الفرس ، لأن جبهة الشام أصبحت آمنة إلى حد كبير ، ولا خوف هناك على المسلمين ، بعد هزيمة الروم في اليرموك ، فقد زال الخطر . أما الجبهة التي تستحق كل الاهتمام ، فهي جبهة الفرس ، ولذلك ما أن وصلته تقارير المثنى عن وضع المسلمين في العراق ، حتى عزم على قيادة الجبهة بنفسه ، على رأس جيش كبير لينسى الفرس وساوس الشيطان ، كما أنسى خالد ابن الوليد الروم تلك الوساوس ، ولكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه ، ورأوا من الأفضل أن يبقى هو في المدينة ، يدير أمور الدولة ويشرف على تجهيز

---

(١) القادسية ، قرية موقعها كان قريبا من موقع مدينة الكوفة الحالية في وسط العراق تقريبا ، وكانت المعركة سنة ١٤هـ ، وانظر عن القادسية ومجرياتها ونتائجها : تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٧٧ وما بعدها .

الجيوش ، ويختار لقيادة الحرب ضد الفرس قائدا كفؤا ، فقبل نصيحتهم ، وقال لهم : أشيروا علي ، فأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص ، وقالوا عنه ، هو الأسد في عرينه ، فاستدعاه على الفور ، وأمَّره على جيش كبير ، واتجه سعد وعسكر في القادسية ، وقبل نشوب المعركة أرسل وفدا إلى بلاط فارس ، لمقابلة آخر ملوكهم ، يزدجرد الثالث ، يعرض عليه الإسلام ، فاذا قبل فسيتركونه ملكا على بلاده ، كما ترك رسول الله ﷺ ، باذان ملكا على اليمن ، وإذا رفض الاسلام فلن يكره عليه ، لكن لابد أن يدفع الجزية دلالة على عدم المقاومة ، وإذا رفض دفع الجزية ، فمعنى ذلك أنه مصمم على حرب المسلمين ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الاسلام إلى الناس ، وفي هذه الحالة فهم مضطرون لحربه .

سمع يزدجرد هذا الكلام فأخذه العجب وعلته الدهشة ، لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام الخطير من هؤلاء الناس ، فرد على رئيس الوفد قائلا : «إني لا أعلم أمة كانت أشقي ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ؛ قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي - الحدود - فيكفوناكم ، لا تغزون فارس ، ولا تطمعون . . . . وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملَّكنا عليكم ملكا يرفق بكم » [1] .

ها هو الملك الفارسي يتحدث بالمنطق القديم ، منطق السيادة والاستعلاء ، وكأنه لا يعرف ماذا حدث في الدنيا منذ ظهور الاسلام ؟ ولذلك رد عليه زعيم الوفد المسلم ، بأن كلامه عنهم صحيح قبل بعثة النبي ، أما الآن ، فالأمر قد اختلف ، وليس لديهم وقت يضيعونه معه في الكلام ، فإما أن يسلم ويكون له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو يدفع الجزية ، أو يكون حسم الموقف بالحرب في القادسية ، ورفض الملك في غطرسة وكبرياء ، ما عرضه عليه المسلمون ، وكانت ثقته كبيرة في جيوشه ، وفي أكبر وأشهر قواده ، رستم ، وبدأ يستعد

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٩٩ .

للحرب ، وعاد الوفد إلى سعد بن أبي وقاص في مقر قيادته بالقادسية ؛ وأخبروه الخبر ، فاستعد هو أيضا لهذا اللقاء الحاسم ، ودارت معركة القادسية ، الشهيرة ، التي استمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع ، وأسفرت عن نصر ساحق للمسلمين ، وهزيمة منكرة للفرس ، وقتل قائدهم رستم ، وبطل أبطالهم وتشتت من نجا من القتل من جنودهم ، واعتبرت معركة القادسية من المعارك الفاصلة في التاريخ ، لأنها حسمت أمر العراق العربي نهائيا ، وأخرجته من السيطرة الفارسية ، التي استمرت عليه قرونا طويلة ، وأعادته إلى أهله (١) .

فتح المدائن . عاصمة الفرس :

بعد القادسية ، انفتحت الطريق أمام المسلمين إلى المدائن عاصمة الفرس ، إذ لم يعد جيشهم قادرا على مواجهة الجيش الاسلامي ، فأخلى له الطريق ، وعبر سعد بقواته نهر دجلة من أضيق مكان فيه ، بنصيحة سلمان الفارسي ، ودخل عاصمة كسرى ، ليجد الملك قد فر منها ، وقد كان قبل أيام قليلة ، يهدد ويتوعد ، ويتحدث إلى المسلمين من منطق عال ، فها هو يترك عاصمة بلاده ، ويهرب ، ويدخل سعد إلى القصر الأبيض - هكذا كان يسمى مقر ملك الأكاسرة وكان آية من آيات الفخامة والبهاء ـ ويصلي لله صلاة الشكر على هذا الفتح العظيم ، ويتلو في خشوع قول الله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ۝ وزروع ومقام كريم ۝ ونعمة كانوا فيها فاكهين ۝ كذلك وأورثناها قوما آخرين ۝ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ۝ ﴾ الدخان ، الآيات ٢٥ ـ ٢٩

---

(١) لا يتسع المجال في هذه الدراسة للحديث عن البطولات والتضحيات التي بذلها المجاهدون المسلمون لدحر الفرس ، ووضع حد لغطرستهم وجبروتهم . ومن يريد معرفة تفاصيل ذلك فليرجع إلى مصادر التاريخ وأهمها تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٧٧ وما بعدها .

وجلس سعد بن أبي وقاص في نفس الإيوان الذي مزّق فيه كسرى أيرويز الثاني ، رسالة النبي ﷺ ، فمزق الله ملكه استجابة لدعوته - والذي كان يجلس فيه متكبرا متجبرا مغرورا ، آخر ملوك الفرس ، يزدجرد الثالث .

أرسل سعد إلى عمر رسولا يبشائر النصر والغنائم ، وطلب منه السماح له بمواصلة الفتح في بلاد فارس ، ولكن عمر رفض ذلك ، وقال له : « وددت لو أن بيننا وبينهم سدا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم ، حسبنا من الأرض السواد - أي أرض العراق - إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » (١) . وموقف عمر هنا يدل أقوى دلالة على أن المسلمين لم يكونوا دعاة حرب وتوسع ، وإنما فقط أصحاب رسالة يريدون تبليغها للناس في حرية وأمان ؛ فإذا أخلى لهم الناس الطريق ، وكفوا عنهم ، فإن الحرب لن يكون لها أي مسوغ عندئذ .

موقعة نهاوند سنة ٢١ هـ (٢) :

كانت سياسة عمر بن الخطاب أن يقف بالفتوحات الاسلامية في حدود العراق والشام ، ولا يتعداهما ، فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التي نزحت من شبه جزيرتهم ، وأقامت مملكة الحيرة في العراق ، ومملكة غسان في الشام ، من يمتون إلى المسلمين بأوثق الصلات ، فمن حق المسلمين أن يطمعوا في مؤازرتهم ، وانضمامهم إليهم ، ومن واجبهم أن يحرروا تلك البلاد من سيطرة الفرس والروم ، أما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم ، فلم يكن للمسلمين الأولين مطمع في غزوه وفتحه ، هذا ما كان يفكر فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بعد القادسية ، ودخول سعد المدائن .

---

(١) تاريخ الطبري : جـ ٤ ص ٢٨ .

(٢) نهاوند ، مدينة عظيمة في إيران ، في منطقة ما يسمّى بالعراق العجمي ، شرقي نهر دجلة ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي جـ ٥ ص ٣١٣ .

على أن الحوادث كثيرا ما كانت أقوى من الرجال ، وكثيرا ما حملتهم على تعديل سياساتهم ، وقد حملت حوادث الفتوحات وتطوراتها عمر بن الخطاب على تعديل سياسته تلك إزاء الفرس والروم جمعا. وعلى كره منه[١]. فقد كان يعتقد أن الفرس بعد هزيمتهم في القادسية ؛ تلك الهزيمة القاسية ، سوف يجنحون إلى السلام مع المسلمين ، لأن الأرض التي أخذوها منهم أرضا عربية ـ وهي العراق ـ وليست أرضا فارسية ، لكنهم لم يفعلوا ما اعتقده عمر ، بل فعلوا العكس ، فالتفوا حول ملكهم ، الذي هرب من المدائن ، وشجعوه على خوض حرب جديدة ضد المسلمين لطردهم من العراق ، وأن جموعهم احتشدت في نهاوند ، باعداد هائلة ـ كانوا نحو مائتي ألف ؛ حسب تقديرات المؤرخين ـ بقيادة الفيرزان [٢] .

وصلت تلك الأخبار عمر بن الخطاب ، فاستشار كبار الصحابة ، كيف يواجه هذا الموقف ؟ فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين في بلادهم ، فعمل بمشورتهم ، وجهز جيشا قوامه نحو أربعين ألف مجاهد ، وأمَّر عليهم النعمان بن مقرن ، ودارت معركة نهاوند ، وانتهت بنصر عظيم للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للفرس ، وقد سمَّى المؤرخون المسلمون ذلك النصر الكبير ، الذي تحقق في نهاوند فتح الفتوح ، أي الفتح الأعظم ، يقول الطبري : « وافتتحت نهاوند فلم يكن للأعاجم ـ الفرس ـ بعد ذلك جماعة » [٣] فقد تفرقت كلمتهم ، ولم تقم لهم قائمة ابدا بعد ذلك ، وزالت دولتهم من الوجـود . فقد استجاب الله لدعـوة النبي علـى كسرى حيث قـال : « مزق الله ملكه » .

---

(١) الفاروق عمر ـ مرجع سابق جـ ٢ ص ٥ .

(٢) راجع تفاصيل موقعة نهاوند في تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١١٤ وما بعدها .

(٣) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١١٦ .

الانسياح في بلاد فارس :

كانت معركة نهاوند من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ ، فقد حسمت مصير الامبراطورية الفارسية إلى الأبد ، وهذه هي أول مرة في التاريخ تزول فيها امبراطورية بكاملها من الوجود ، عبر معركتين - القادسية ونهاوند - على أيدي المسلمين ، وبعد انتصار نهاوند قرر عمر بن الخطاب القضاء تماما على التهديد الفارسي للدعوة والدولة الإسلامية ، وتحرير الشعب الفارسي نفسه من ظلم الأكاسرة واستبدادهم ،فأصدر أوامره للقادة المسلمين بالانسياح في أرجاء الامبراطورية الفارسية لفتحها جميعها ، فقد أمر نعيم بن مقرن بالتوجه على رأس جيش إلى همذان ، وبعد فتحها يتوجه إلى خراسان ، وأمر عتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله بالتوجه إلى أذربيجان ، يدخلها أحدهما من حلوان والآخر من الموصل ، وبعث عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان ، وسراقة بن عمرو إلى باب الأبواب - على بحر قزوين - وبعث الأحنف بن قيس إلى خراسان ، وعثمان بن أبي العاص الثقفي إلى اصطخر ، وسارية بن زنيم إلى فساودا ربجرد ، وعاصم بن عمرو التميمي إلى سجستان ، وسهيل بن عدى إلى كرمان ، والحكم بن عمرو التغلبي إلى مكران (١) . وهكذا غطت جيوش الاسلام جميع المقاطعات الفارسية ، والذي يلفت النظر هنا أن حكام تلك المقاطعات الذين كانوا هم الذين كاتبوا يزدجرد الثالث ، وحرضوه على خوض معركة نهاوند ضد المسلمين ، نراهم هنا بعد انتصار المسلمين الساحق في المعركة ، يتخلون عن ملكهم ، ويتركونه يهيم على وجهه في البلاد ، ويسارعون إلى تسليم مقاطعاتهم إلى المسلمين دون قتال تقريبا - حرصا على مصالحهم - فلم نشهد معارك كبيرة كالقادسية أو نهاوند .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن انسياح المسلمين في بلا فارس ، انظر : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٦ وما بعدها .

والخلاصة أنه في خلال عامين ٢٢ / ٢٣ هـ ، فتحت كل بلاد فارس ، وأصبحت تحت السيادة الإسلامية ، وكانت سيادة من طراز جديد وفريد ، سيادة كلها رحمة وتسامح ، لم يألفها الفرس من قبل ، فلم يجبر المسلمون أحدا على الدخول في الاسلام ، وإنما قبلوا منهم الجزية ، واعطوهم معاهدات ،[١] ضمنوا لهم فيها حرية عبادتهم وأموالهم وأنفسهم ، وبدأ لبلاد فارس تاريخ جديد ، وانتهى أمر الفرس جميعا - تقريبا - إلى اعتناق الاسلام ، وأصبحت بلادهم ركنا وحصنا حصينا من حصون الإسلام ، ولا تزال ، وستظل ان شاء الله إلى يوم الدين .

استكمال فتح الشام

تحدثنا قبل ذلك عن معركة اليرموك ، التي حدثت في أواخر حياة أبي بكر الصديق [٢] ، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب ، بادر بعـزل خالد بن الوليد ، [٣] من القيادة العامة ، وأعادها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، الذي كتب إلى الخليفة يشرح له ظروف المسلمين ، والموقف بينهم وبين أعدائهم بالشام ، وطلب مشورته ، فكان مما قاله أبو عبيدة لعمر : إن بعض جنود الروم الذين نجوا من الموت في معركة اليرموك تجمعوا بفحل في الأردن ، كما أن مددا كبيرا تحرك من حمص - حيث كان الامبراطور هرقل يدير المعارك - إلى دمشق ، فكتب عمر إلى أبي عبيدة : أن يبدأ بدمشق ، لأنها حصن الشام ، وبيت ملكهم ، وأن يشغل قوات الروم في فحل بخيل تكون بازائهم ، وبعد أن يفتح الله عليهم دمشق ، يعودون إلى فحل ، فإذا فتحها الله عليهم ، يسير هو وخالد بن

---

(١) نصوص تلك المعاهدات في المصدر السابق ص ١٥٢ وما بعدها .

(٢) سرنا في ترتيب وقائع فتح الشام حسب رواية الطبري ومن حذا حذوه مثل ابن الأثير وابن كثير ، فهم يرون أن اليرموك كانت أول معارك المسلمين الكبرى في الشام ، أما الوقدي والأزدي والبلاذري ، فيرون عكس ذلك تقريبا .

(٣) سنتحدث فيما بعد عن قصة ، عزل خالد بن الوليد بكاملها .

الوليد ، لفتح شمال الشام ، ويخلف شرحبيل بن حسنة في الأردن ، وعمرو بن العاص في فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان في دمشق .

فتح دمشق :

طبق أبو عبيدة الخطة التي اقترحها عمر بن الخطاب ، فأرسل قوة إلى فحل بقيادة أبي الأعور السلمي ، وسار هو وبقية القادة لحصار دمشق ، الذي يروى أنه استمر ما يقرب من ستة أشهر ، ثم استطاع خالد بن الوليد أن يقتحم المدينة من الباب الشرقي ويدخلها ، عندئذ أدركت قوات الروم المحاصرة أن المدينة أصبحت في قبضة المسلمين ، فهرعوا إلى أبي عبيدة الذي كان معسكرا بقواته أمام باب الجابية ، وفتحوا له الباب فدخل بدون قتال ، وطلبوا أن يعاملهم على هذا الأساس . فقبل منهم ، وخالف رأي خالد الذي كان يرى أن المدينة فتحت عنوة . فهي كلها غنيمة للمسلمين ، لكن أبا عبيدة ـ وكان ألين وأسهل من خالد ـ عاملهم كأن المدينة كلها فتحت صلحا ، وقاسمهم أموالهم وكل ما في مدينتهم ، وهذه هي سماحة الإسلام في معاملة المغلوبين .

فتح الأردن وفلسطين :

بعد فتح دمشق ، ترك فيها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ، أميرا عليها ، وعاد هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، فحاصروا الروم بفحل ، ثم هزموهم ، واستولوا على طبرية وبيسان ، ووقفوا على أبواب فلسطين ، وهنا توجه أبو عبيدة وخالد إلى شمال الشام لفتحها تاركين عمرو بن العاص وشرحبيل لفتح بقية الأردن وفلسطين ، ولم يكن هذا أمرا سهلا ، فقد كانت قوات الروم كثيرة العدد والعتاد ، يقودها أكبر قواد الروم : الأطربون ، مما

---

(١) سنتحدث فيما بعد عن قصة عزل خالد بن الوليد بكاملها .

جعل عمرو بن العاص يكتب إلى عمر بن الخطاب ، يستمده ويستشيره ، فأمر عمر يزيد بن أبي سفيان أن يوجه أخاه معاوية إلى قيسارية ؛ وهي ميناء خطير على ساحل البحر تأتي منه الامدادات إلى الروم ، وقد نجح معاوية في فتح قيسارية ، بعد معارك شرسة ، قيل أن قتلى الروم فيها ، كانوا ثمانين ألفا . ثم استولى المسلمون على غزة ، وأخذوا يستولون على مدن الساحل الشامي الواحدة بعد الأخرى حتى أصبح كله في قبضتهم ، وحرموا الروم من الامدادات التي كانت تأتيهم عن طريق البحر .

أما عمرو بن العاص فقد أراد أن يشتت قوات الروم ، عندما علم أن الاطربون توجه بقواته إلى اجنادين ، فوجه علقمة بن حكيم ، ومسروقا العكّي إلى إيلياء فشغلا حاميتها ، ووجه أبا أيوب المالكي إلى الرملة للغرض نفسه ، وكتب بذلك كله إلى عمر بن الخطاب ، وذكر له دهاء الاطربون وسعة حيلته في الحرب ، فقال عمر : « قد رمينا أطربون الروم باطربون العرب فانظروا عمّ تنفرج » فانفرجت عن نصر ساحق حققه ابن العاص على أطربون الروم في أجنادين ، التي كانت معركتها من الشراسة ، بما جعل بعض المؤرخين يقرنها باليرموك [١] ، وبعد هزيمة الأطربون في اجنادين انسحب بفلول قواته إلى مصر، على أمل أن يستطيع العودة إلى الشام مرة أخرى ، ولكن هيهات . فسيلاحقه عمرو بن العاص ، ويفتح مصر ، بعد فتح فلسطين .

عمر بن الخطاب يتسلم بيت المقدس :

لا شك أن معركة اجنادين كانت من كبريات المعارك في الشام ، وأنها حددت مصير فلسطين ، وبعدها حاصر عمرو بن العاص بيت المقدس ، وهنا أدرك البطريرك صفرونيوس أن المدينة لن تقو على المقاومة ، وهي صائرة إلى المسلمين لا محالة ، فدخل في مفاوضات مع عمرو بن العاص على تسليمها ،

---

(١) انظر : د. محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر جـ ١ ص ٢٣٠ .

لكنه اشترط أن يأتي عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلمها ، لأنها مدينة لها مكانة كبيرة عند أهل الأديان السماوية الثلاثة ، ويبدو أن هذه كانت خطة مدبرة بين صفرونيوس ، والقائد البيزنطي ، الذي تقهقر إلى مصر - الاطربون - وكانا يهدفان من وراء ذلك كسب الوقت ، فإنه بين ان يكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في المدينة ، ليأتي إلى فلسطين ، وبين تحقق ذلك لابد أن يمر وقت طويل ، عدة شهور على الأقل ، لأن عمر كان في شغل شاغل بأمر الدولة والفتوحات في الشام والعراق وبلاد فارس ، فحضوره إلى الشام ليس أمرا سهلا ، على كل حال قصد البطريريك والقائد أن يكسبا وقتا يمكنهما من سحب كل قواتهم المتبقية في فلسطين إلى مصر ، استعدادا للانقضاض من جديد على الشام ، ويظهر ان عمرو بن العاص نفسه كان يدرك ذلك ، وأراد أن يعطيهم تلك الفرصة ، لأنه كان ينوي أن يفتح مصر ، وهو لذلك في حاجة إلى حضور أمير المؤمنين عمر ، ليعرض عليه ذلك ، فكتب إليه وحضر عمر ، وتسلم بيت المقدس ، وهو في غاية الخشوع والتواضع ، والشكر لله على هذا الفتح المبين والفضل الكبير ، وكتب لأهل بيت المقدس معاهدة آية في التسامح والرفق والرحمة [١] ، أمنهم على عقائدهم وأموالهم وأنفسهم ، ورفض الفاتح العظيم أن يصلي في كنيسة القيامة ، لا لأن الصلاة فيها لا تجوز ، ولكنه خشي أن يستولى عليها المسلمون فيما بعد ، بحجة أن أمير المؤمنين صلى فيها ، وهذا منتهى العدل والانصاف للمغلوبين .

فتح شمال الشام :

أثناء أن كان شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص يفتحان بقية الأردن وفلسطين ، كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، يسيران مظفرين في شمال الشام ، ففتحا حمص ، ثم انعطف خالد إلى الشرق إلى قنّسرين ، التي طال حصاره ، لها لحصانتها ، فصاح في أهلها صيحة الأسد قائلا : « ما أنتم ؟

---

(١) نص المعاهدة في تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٦٠٩ .

والله لو كنتم في السحاب لأصعدنا الله إليكم أولأنزلكم إلينا » وفتحها عنوة ، ولما سمع عمر بن الخطاب بفعال خالد في قنّسرين قال : « عقمت النساء عن أن يلدن مثل خالد ، لقد أمّر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر كان والله أعلم بالرجال مني » وهذه شهادة من عمر بعبقرية خالد العسكرية .

أما أبو عبيدة فسار الى الشمال ففتح حماة وحلب ، وكان هرقل قد انتقل من حمص إلى انطاكيا ، عندما علم بزحف المسلمين إليه ، فلاحقه أبو عبيدة إلى انطاكية ، فلم يجد الامبراطور الكبير بدا من مغادرة الشام مغادرة نهائية وقلبه يقطر دما على جهوده التي بذلها في استرداد الشام من الفرس ، وقبل أن يهنأ بها يأتي المسلمون فينتزعونها منه ، يا له من رجل سيء الحظ ! على كل حال ودع الرجل المنطقة وهو يغادرها من انطاكيا عن طريق البحر إلى القسطنطينية وهو يردد «السلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده ونعم البلد أنت للعدو » .

وهكذا استكمل المسلمون فتح الشام كله ، إلى حدوده الطبيعية مع آسيا الصغرى في الشمال ، وهي سلسلة جبال طوروس ، لتتلاحم قواتهم في الشام مع قواتهم في العراق ، يا له من فتح عظيم ! حققه رجال عظماء ، خلدهم التاريخ ، وما ينتظرهم عند الله أعظم وأبقى وأدوم خلودا ، فهنيئا لهم .

مؤتمر الجابية :

بعد أن تسلم عمر بن الخطاب بيت المقدس ، اتجه إلى الجابية - ضاحية من ضواحي دمشق - وعقد هناك مؤتمرا موسعا ، حضره كبار القادة في المنطقة ، أبو عبيدة وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل ، ويزيد بن أبي سفيان ، وغيرهم وسمع منهم ما أراد أن يسمعه عن سير الفتوحات ، وأسمعهم توجيهاته ، وأطمأن على أن كل شيء يسير على ما يرام ، بتوفيق الله ، وهنا أسر إليه عمرو بن العاص بما عزم عليه من فتح مصر ، فوافقه ، وسنذكر ذلك بعد قليل ثم عاد الخليفة إلى مدينة الرسول . ليواصل جهاده في تدعيم الدولة ونشر العدل في الأرض .

فتح مصر ١٨ ـ ٢١ هـ :

بعد أن تسلم عمر بن الخطاب مفاتيح بيت المقدس من صفرونيوس ، اتجه إلى الشمال ، وعقد مؤتمرا في الجابية ـ جنوب دمشق ـ حضره جميع القادة المسلمين ، أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ويزيد ومعاوية ، ابنا أبي سفيان ، وغيرهم ، سمع منهم ، وناقش معهم ما تم انجازه ، والترتيبات المطلوبة لإدارة تلك البلاد إدارة حسنة ، تكفل إشاعة العدل والحرية بين الناس ، وجعلهم يحسون بأن ما أصبحوا فيه تحت الحكم الاسلامي أفضل مما كانوا فيه تحت الحكم البيزنطي ، وأعطى عمر توجيهاته في كل ما طرح من أمور ومشكلات ترتبت على الفتح ، واطمأن إلى سلامة موقف المسلمين ، وأن القادة جميعهم على مستوى المسئولية ، عسكريا وسياسيا واداريا .

وهنا عرض عمرو بن العاص والي فلسطين ، على عمر بن الخطاب ضرورة فتح مصر ، لأن كل القوات البيزنطية التي نجت من القتل في حروب الشام لجأت إلى مصر [١] ، التي كانت في ذلك الوقت مستعمرة تحت الحكم البيزنطي ، وأن القائد الرومي ـ الأطربون ـ قائد قواتهم في فلسطين فرَّ إلى مصر ، ليستعد من جديدللانقضاض على المسلمين في الشام ، فالروم كانت لا تزال تراودهم آمال في استرداد الشام من المسلمين ، كما استردوها من الفرس قبل سنوات قلائل ، فلو بقيت مصر في أيديهم فإن ذلك سيكون خطرا عظيما على المسلمين ، وستكون كل فتوحاتهم في الشام مهددة ، بل قد يصل الخطر

---

(١) كان عمرو بن العاص يدرك أن البطريرك صفرونيوس عندما طلب منه أن يأتي عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلم بيت المقدس لمكانتها ، كان يخبئ وراء ذلك خطة سياسية خطيرة، دبَّرها مع القائد البيزنطي الأطربون ، وهي انسحاب القوات البيزنطية من فلسطين إلى مصر استعدادا للانقضاض على المسلمين في الشام حين تحن الفرصة ، ومع ذلك قبل عمرو بن العاص ، لأنه كان ينوي ملاحقتهم إلى مصر لأخذها منهم ، وهو في حاجة لمحادثة عمر في هذا الأمر وأخذ موافقته .

إلى شبه جزيرة العرب نفسها ، الحق ان الإنسان لا يملك الا أن يبدي تقديره العظيم لفهم عمرو بن العاص لأهمية فتح مصر ، على الأقل من الناحية العسكرية ، فكل تجارب التاريخ قديما وحديثا تؤكد هذه النظرية ، وهي أن أية قوة تسيطر على الشام فلا بد أن تؤمن نفسها بالسيطرة على مصر والعكس صحيح أيضا . بعد أن سمع عمر شرح ابن العاص للموقف اقتنع بوجهة نظره ، وأذن له في المسير إلى مصر لفتحها [1] فسار إليها بأربعة آلاف جندي ، وكان ذلك في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٨ هـ ، ودخل العريش بدون قتال ، ثم توجه إلى الفرما - مدينة قديمة شرق بور سعيد الحالية - ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها البيزنطية ، وبعد ذلك توجه إلى بلبيس - في محافظة الشرقية الحالية - فهزم جيشا بيزنطيا كبيرا كان يقوده الأطربون - القائد الذي جاء إلى مصر من فلسطين ، ظنا منه أنه قادر على حمايتها ، بل الانقضاض منها على الشام - ثم هزمهم في موقعة عين شمس ، ولما كانت كل قواتهم قد تجمعت في حصن بابليون - بالقرب من مصر القديمة الحالية - فقد طلب عمرو مددا من الخليفة عمر بن الخطاب، ليتمكن من الاستيلاء على الحصن ، فأمده بثمانية آلاف على دفعتين ، على رأسهم عدد من القادة العظام ، الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، والمقداد بن عمرو ، ومسلمة بن مخلد الأنصاري ، الذين قال عنهم عمر بن الخطاب : إن الواحد منهم يعدل ألف رجل .

حصار حصن بابليون :

كان حصن بابليون قويا منيعا ، محصنا بعدد من الأبراج والأسوار الشامخة ، وكان يطل على النيل من الناحية الغربية ، مقابلا لجزيرة الروضة ،

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٤٧ وما بعدها ، وهو أهم مصدر للفتح الإسلامي لمصر ، فليرجع إليه من يريد التوسع في أخبار الفتح . وهناك عدة روايات حول فتح مصر ، أصحها ما أثبتناه هنا ، وهي اقتناع عمر بوجهة نظر عمرو ، والإذن له في فتحها دون تردد ، لوجاهة الأسباب التي ذكرها .

التي كانت بدورها محصنة تحصينا قويا ، وعلى الرغم من كل ذلك ضرب المسلمون الحصار على الحصن لمدة سبعة شهور ، ولما أحست قوات الروم داخل الحصن بحرج موقفها ، وأحس المقوقس ـ قيرس ـ باليأس يدب في نفسه ، جمع قادة الجيش ورجال الدين وشرح حقيقة الموقف ، وكان أهم مما قاله لهم : إن المسلمين متفوقون في الحماس والروح المعنوية والاستعداد للموت في سبيل تحقيق هدفهم ، بل مصممون على ذلك ، فهو ينصح بأن يفتدي الروم مصر بشيء من المال ، يدفعونه للمسلمين ليعودوا إلى بلادهم ، وكان الرجل واهما في تصوره هذا ، لأن المسلمين لم يخرجوا من بلادهم من أجل المال ، بل من أجل أهداف أسمى من ذلك ، فعند قدوم وفده لمقابلة عمرو بن العاص ، ليعرض عليه ذلك ، كان رد عمرو في بساطة ووضوح : نحن نعرض عليكم ثلاث خصال ، أن تدخلوا في الإسلام ، وتكونوا إخواننا ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم الإسلام فعليكم أن تدفعوا الجزية ـ دليلا على عدم مقاومتكم لنا وفي مقابل حمايتكم ـ وان أبيتم هاتين الخصلتين ، جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين (١) .

عاد الوفد البيزنطي إلى المقوقس ، وبلَّغوه ماسمعوه من عمرو بن العاص، فطلب وفدا يذهب إليه من المسلمين لمزيد من المفاوضات . فأرسل إليه عمرو وفدا من عشرة رجال ، بقيادة عبادة بن الصامت ، وكرر عليهم المقوقس عرضه، وهو أن يدفع لكل جندي من المسلمين دينارين ولقائدهم عمرو بن العاص مائة دينار ، وللخليفة عمر بن الخطاب ألف دينار ، على أن يعودوا إلى بلادهم ، ويتركوا مصر ، فسخر عبادة من هذا الهراء ، وأعاد على المقوقس في حسم ما

---

(١) أثناء مفاوضات الوفد البيزنطي مع عمرو ركزوا أنظارهم على المسلمين ليعرفوا حقيقة هؤلاء الناس الذين لم تقف أمامهم قوة ، ونقلوا ذلك إلى المقوقس ، وقالوا له : إنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار ، والموت أحب إليهم من الحياة ، فلما سمع المقوقس ذلك قال : إن قوما هذه صفاتهم وأخلاقهم لو راموا الجبال لأزالوها من مواقعها .

عرضه عمرو بن العاص على وفدهم . وإزاء اصرار المسلمين على موقفهم رضخ المقوقس ـ بعد التشاور مع رجاله ـ وقرر دفع الجزية ، لكن كان لا بد من أخذ رأي الامبراطور هرقل في ذلك ، غير أن الأخير رفض ، بل اتهم المقوقس بالخيانة والتواطيء مع المسلمين .

فتح الحصن :

لما لم يف الروم بما اتفق عليه المقوقس من دفع الجزية ، قرر المسلمون وضع حد لهذه المماطلة ، وفي أوائل شهر مارس سنة ٦٤١م ، منتصف ربيع الأول سنة ٢٠هـ اقتحم المسلمون الحصن ـ وكان الزبير بن العوام قد تسلق على سوره ونزل فيه وفتح أبوابه للمسلمين في حركة بطولية نادرة ـ ولما أدرك قائد الحصن البيزنطي ـ جورج ـ أن الحصن على وشك السقوط في أيدي المسلمين ، هرع إلى عمرو وعرض عليه الصلح ، ومع أنه كان في الامكان الاستيلاء على الحصن بالقوة ، إلا أن عمراً استجاب لدعوة الصلح في الحال ، مما يدل على أن المسلمين دعاة سلام ، وليسوا طلاب حرب ، واتفق على شروط للصلح هي :

١ ـ أن يخرج جنود الروم من الحصن في مدة ثلاثة أيام .

٢ ـ أن يرحلوا مبحرين في نهر النيل إلى الاسكندرية ، ومعهم ما يكفيهم من الطعام .

٣ ـ ان يستولى المسلمون على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب .

وهكذا فتح الله على المسلمين أقوى حصن في مصر .

فتح الاسكندرية [1] :

من الواضح أن الشروط السابقة كانت خاصة بحصن بابليون ، وبعد الاستيلاء عليه توجه عمرو بن العاص بجيشه إلى الاسكندرية ، عاصمة مصر في ذلك الوقت ، وكان الاستيلاء عليها ذا أهمية كبيرة ، فبفتحها يتم فتح مصر كلها ، وفي طريقه إلى الاسكندرية ، فتح عمرو بن العاص كل ما مر به من مدن وقرى ، وكان المصريون من القبط ـ خير عون له في مسيرته تلك ـ وعندما وصل إلى الاسكندرية ضرب عليها الحصار ، دار بينه وبين حاميتها الرومية قتال متقطع ـ استمر عدة شهور ـ اضطربت خلالها أحوال الدولة البيزنطية اضطرابا شديدا ، بعد وفاة هرقل سنة ٦٤١ هـ ، ولم يجد الامبراطور الجديد هرقليوناس بدا من تفويض المقوقس في عقد صلح مع المسلمين ، فبدأ المفاوضات التي انتهت بتوقيع اتفاقية كانت اهم بنودها :

١ ـ عقد هدنة لمدة احد عشر شهرا ، يجلو الروم خلالها عن مصر عائدين إلى بلادهم .

٢ ـ ان يظل المسلمون في مواقعهم خلال هذه الهدنة وان يمتنعوا عن القتال وكذلك الروم .

٣ ـ الا يعود جيش الروم إلى مصر مرة أخرى ولا يسعى لاستردادها [2].

٤ ـ الا يتعرض المسلمون للكنائس بأي أذى ، ولا يتدخلوا في شؤون المسيحيين الدينية .

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاري ، القسم الأول ص ٢٥٩ وما بعدها ، وتاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٠٤ وما بعدها . وفتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٦ وما بعدها .

(٢) سينقض الروم هذا الشرط ويهاجمون الأسكندرية بعد وفاة عمر بن الخطاب .

٥ ـ السماح لليهود بالاقامة في الاسكندرية .

٦ ـ أن يأخذ المسلمون من الروم رهائن ـ ١٥٠ من الجنود ، ٥٠ رجلا من المدنيين ـ يحتفظون بهم ،حتى يتم تنفيذ بقية الشروط .

٧ ـ على كل من دخل في ذلك العقد من الروم ، وأراد البقاء في مصر أن يدفع الجزية ، وبعقد هذا الصلح وجلاء القوات الرومية عن الاسكندرية يكون فتح بقية الديار المصرية امرا مفروغا منه ، فقد أرسل عمرو بن العاص فرقا من قواته لفتح بقية مصر ، بوجهيها البحري والقبلي ، وفي نحو عامين ١٩ـ٢١هـ ، تم فتح مصر بأكملها .

موقف القبط من فتح مصر :

كان فتح مصر أسهل وأيسر فتح حققه المسلمون ، لأن الشعب المصري ـ القبط ـ لم يشترك في المعارك ضد المسلمين ، بل بالعكس رحب بهم وساعدهم وقدم لهم خدمات جليلة ، وكان المصريون يدلون المسلمين على أيسر الطرق ويمهدونها لهم ، ويمدونهم بالطعام ، لأنهم ذاقوا الأمرين من حكم الروم ، الذين كانوا يضطهدونهم دينيا ـ مع أنهم مسيحيون مثلهم ـ واستغلوهم أبشع استغلال وأرهقوهم بالضرائب ، أما المسلمون ، فقد سمعوا عن عدلهم منذ فتحوا الشام ، فلما تعاملوا معهم ، أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة ، فأعطوهم الحرية الدينية كاملة ، وأعادوا بطريركهم ، بنيامين - الذي كان الروم نفوه إلى وادي النطرون - إلى كنيسته بالاسكندرية ، فحفظ الرجل هذا العمل الجليل للفاتح عمروبن العاص ، وعاونه كثيرا في طريقة ادارة مصر ادارة حسنة ، وباختصار أشاع الفتح الاسلامي لمصر جوا من الحرية والتسامح والعدل ، والعمران لم تعرفه البلاد منذ زمن بعيد ، وإليك نص المعاهدة التي أعطاها عمرو بن العاص لأهل مصر : (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عمرو بن العاص ، أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم

وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب - أهل النوبة - وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ... ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، على ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين، شهد الزبير بن العوام، وعبد الله ومحمد ابناه -ابنا عمرو بن العاص- وكتب وردان وحضر »[١] .

وقد عمل المسلمون بوصايا رسول الله ﷺ ، حيث أوصاهم بأهل مصر خيرا عندما يفتحونها . لأن لهم ذمة ورحما . فعاملوهم بالرفق والتسامح ، كما نصحهم بأن يتخذوا منها جندا كثيفا ، فأجنادها من خير أجناد الأرض ، لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . وهكذا حرر المسلمون مصر من الحكم البيزنطي البغيض ، وأصبحت منذئذ ولاية اسلامية ، بل مركز العالم الاسلامي كله ، ومنطلق الفتوحات في شمال أفريقيا والأندلس . هل نتذكر هنا أيضا قول النبي ﷺ ، عن المقوقس ، حاكم مصر البيزنطي عندما أرسل له سنة ٧ هـ يدعوه ليسلم ، فلم يقبل الاسلام ، فقال الرسول عنه : « ضنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه » [٢] صدقت يا رسول الله ، فقد ذهب عنه ملكه ، وآلت مصر إلى المسلمين ، لينعم أهلها بالعدل والحرية في ظل الاسلام .

وبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر ، اتجه غربا ليؤمن مواقعه ، حتى وصل إلى طرابلس الغـرب ، ومن هناك أرسل كتابا إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، يستأذنه في الاستمرار في فتح شمال افريقيا [٣] ، لكن عمر رفض ذلك ، وأمره بالعودة إلى مصر ، وهذا دليل آخر على أن المسلمين لم يكونوا

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٠٩ .

(٢) عيون الأثر ، مصدر سابق جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٦ - ١١٧ .

دعاة حرب وطلاب توسع في الفتوحات ، وإنما هم أصحاب رسالة سامية ، استمتعوا بخيراتها ، ويريدون أن يشركوا غيرهم معهم في تلك الخيرات .

عوامل نجاح الفتوحات الاسلامية

في خلال السنوات العشر التي تولى عمر فيها الخلافة ١٣ ـ ٢٣ هـ فتحت العراق والشام ومصر والامبراطورية الفارسية برمتها ، فامتدت حدود الاسلام من ولاية برقة ـ في ليبيا حاليا ـ غربا ، إلى نهر جيحون شرقا ، ومن بحر قزوين في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب ، وهذه الفتوحات التي تمت بهذه السرعة الفائقة حيَّرت المؤرخين في تفسيرها وتعليل أسبابها ، فقد أذهلهم أن العرب الذين كانوا قبل سنوات قلائل ـ قبل ظهور الاسلام ـ قليلي الشأن لا حول لهم ولا قوة ، لا يأبه بهم أحد ، ولا يحسب لهم أي حساب ، أذهل المؤرخين أن هؤلاء العرب هم الذين فعلوا كل ذلك في هذا الوقت القصير ، فقد أزالوا امبراطورية بكاملها ، وهي الامبراطورية الفارسية من الوجود، بضربتين اثنتين ، واحدة في القادسية سنة ١٤ هـ والثانية في نهاوند سنة ٢١ هـ تلك الأمبراطورية التي كانت قد وقفت ندا ، بل أكثر من الند أحيانا ، للإغريق والرومان نحو ألف سنة ، ولكنها تهاوت ، وانهارت جيوشها أمام المسلمين الفاتحين كما تتهاوى أوراق الخريف .

والامبراطورية الأخرى ، التي كانت تنافسها في زعامة العالم يومئذ ، وهي الامبراطورية البيزنطية ، تحطم جيشها على يد المسلمين ، بقيادة خالد بن الوليد في معركة واحدة في اليرموك سنة ١٣ هـ . كما سبق ذكره ، وبعد ذلك انفتحت الطريق للمسلمين لاستكمال فتح الشام كله ثم أضافوا إليه مصر ، وبهذا يكونون قد أخذوا من الدولة البيزنطية أغنى وأعظم ولاياتها في الشرق ، مما جعل الامبراطور هرقل يغادر المنطقة حزينا يائسا كاسف البال ، ليلقي حتفه بعد ذلك بسنوات قلائل ، كمدا وأسفا على جهوده الضائعة ، التي بذلها في

استرداد تلك الولايات الجميلة ، من أيدي الفرس ، قبل ذلك بوقت قصير ، هذه الفتوحات العظيمة ، التي تمت في هذا الوقت القصير ، حيّرت المؤرخين كما ذكرت آنفا ـ في تفسيرها .

يقول ماكس مايرهوف في كتابه « العالم الاسلامي » يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منتمين إلى عشائر ، ليست عندهم العدد والأعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير ، جيوش الرومان والفرس ، الذين كانوا يفوْقونهم مرارا ، في الأعداد والعتاد » (١) .

وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين ، أنهم لم يدركوا السبب الرئيسي في نجاح الفتوحات الإسلامية ، لأنهم عادة يربطون بين الانتصارات والهزائم في الحروب ، وبين أعداد الجيوش المتحاربة ، وما معها من عدة وأسلحة ، فلما رأوا أعداد المسلمين أقل بكثير من أعداد أعدائهم ، وكذلك كانت أسلحتهم متواضعة للغاية ، ولا تقارن بما كان عند الفرس والروم من عتاد وأسلحة ، راحوا يبحثون عن أسباب أخرى غير قضية العدد والأسلحة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . فمنهم من قال : إن المسلمين واجهوا الفرس والروم وهم في حالة ضعف وانهيار ، بعد الحروب الطويلة المتكررة بينهم ، فانتصروا عليهم بسهولة ، وفي وقت قصير .وهذا تعليل ساذج وبعيد عن الواقع ، فالحروب التي دارت في القادسية ونهاوند واليرموك ، لا تؤيد هذا التعليل ، فقد كانت حروبا كبيرة ، ولم تكن جيوش الفرس والروم ضعيفة ، وانكسارهم وهزائمهم أمام المسلمين لم يكن مرجعها ضعف قوتهم المادية ـ الرجال والأسلحة ـ بل لأن معنوياتهم كانت منحطة إلى أبعد الحدود ، وفي المقابل كانت معنويات المسلمين في السماء ، ،يعرفون هدفهم الذي يحاربون من أجله ، والموت كان أحب إليهم من الحياة ، وهذا هو السبب الرئيسي في انتصاراتهم ، الذي نسيه الكتاب

---

(١) نقلا عن المد والجزر في تاريخ الإسلام ـ أبو الحسن الندوي ـ طبع القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، ص ١٧ .

الغربيون أو تناسوه ، فمنبع القوة الجبارة التي تمتع بها المسلمون ، ولم يدركها كثير من الأوربيين ، يفسره أبو الحسن الندوي فيقول : [١] « منبع هذه القوة ، وسبب هذا الانقلاب العظيم ، الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ ، أن العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد ﷺ ، أصحاب دين ورسالة ، فبعثوا بعثا جديدا ، وخلقوا من جديد ، وانقلبوا في داخل أنفسهم - أي تغيروا - فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، نظروا إلى العالم حولهم ، فإذا الفساد ضارب أطنابه ، وإذا الظلم ماد رواقه ، وإذا الظلام مخيم على العالم كله ، وكل شيء في غير محله ، فمقتوه وأبغضوه ، ونظروا إلى الامم وطوائف البشر حول جزيرتهم - وطالما رأوها بتعظيم واجلال وغبطة وكبار - فإذا أنعام ودواب في صورة البشر: ﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ محمد الآية ١٢ ... فاستهانوا بهم ، وبما هم فيه من ترف ونعيم ، وزخارف وزينة ، ... وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم . واستخلفهم في الأرض ، ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ الأنبياء الآية ١٠٥ ، وقوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾ النور آية ٥٥ ، وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض - أي جمعها وقربها - فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض » - لعله يقصد الذهب والفضة - وقوله : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » وعرفوا أن

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ وما بعدها .

الله قد ضمن لهم النصر ، ووعدهم الفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفوا بالمخاوف والأخطار ، وذكروا قول الله تعالى : ﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ آل عمران ، الآية ١٦٠ - وقوله : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ البقرة، آية ٢٤٩ .

وقد بلغ من قلة اهتمامهم بالعدد والسلاح ، واستخفافهم بشأن عدوهم ، حتى كأنهم من حديد وعدوهم من طين أو خزف . قال المؤرخون : لما أقبل خالد ابن الوليد من العراق ، ليتولى قيادة الجيوش في الشام لحرب الروم ، قال رجل من نصارى العرب أمامه : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فنهره خالد ، وقال له: ويلك « بل قل : ما أكثر المسلمين وأقل الروم ، ان الجيوش تكثر بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال » .

هذا هو السبب الرئيسي لانتصارات المسلمين الأولين في كل فتوحاتهم ، فهم ليسوا باغين ولا معتدين ، وإنما يدافعون عن عقيدتهم وأنفسهم ، وفي سبيل ذلك هم مستعدون للتضحية بكل شيء ، الأنفس والأموال .

ومن العجيب أن الأعداء أنفسهم الذين واجههم المسلمون قد فهموا ذلك المغزى ، الذي عجز عن فهمه بعض المؤرخين المعاصرين ، وعلى رأسهم هرقل نفسه ، يروي ابن كثير في البداية والنهاية [١] أن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين - وانتصاراتهم - قال لرجاله : - وكان عندئذ موجودا في حمص - « ويحكم ان هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لا قبل لأحد بهم فاطيعوني وصالحوهم ... على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ،

---

(١) جـ ٧ ص ٥ .

وإن أنتم أبيتم ذلك ، أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم » ونفس الكلام تقريبا قاله المقوقس لجنود الروم في مصر ، ولكنهم لم يستجيبوا فدارت عليهم الدوائر ، ومزقوا كل ممزق ، وأصبحوا أحاديث ، يتناقلها الناس .

نتائج الفتوحات الاسلامية وآثارها على العالم

لقد ترتب على هذه الفتوحات الاسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى في تاريخ العالم ، فقد أحدثت تغييرات جذرية ، وتأثيرات عميقة على رقعة واسعة من الأرض التي فتحت ، وشملت تلك التأثيرات الأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية واللغوية ، ولازالت مستمرة في حياة تلك الشعوب وفي زيادة مطردة ، ومن هذه الناحية - ناحية التأثيرات وعمقها واستمرارها - فإن الفتوحات الاسلامية إذا قورنت بحركات فتوحات سابقة عليها ، كفتوحات الاسكندر المقدوني التي سبقتها بنحو الف سنة ، أو جاءت بعدها كغزوات المغول ، التي تلتها بنحو ستة قرون ، فإن تلك المقارنة تظهر عظمة الإسلام ، وأن الفتوحات الاسلامية كانت أعظم حركة فتوحات عرفها التاريخ واكثرها خيرا وبركة على العالم بأسره .

ففتوحات الاسكندر وامبراطوريته التي شادها في الشرق ، انهارت وتمزقت أوصالها بعد وفاته مباشرة ، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ .

أما غزوات المغول فإنها هي ذاتها تقدم أقوى البراهين على عظمة الفتوحات الإسلامية ، وخلودها ، وعظمة نتائجها وآثارها ، لأن تلك الغزوات المغولية البربرية ، التي لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلا من قبل في همجيتها ووحشيتها ، قد دمرت معظم العالم الإسلامي في الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة ، ولم يوقف زحفها المدمر سوى الجيش المصري الباسل - بقيادة السلطان قطز ، وأمير جيوشه الظاهر بيبرس - الذي سحق المغول وألحق بهم أول

هزيمة منذ ظهورهم ، وكان ذلك في ملحمة عين جالوت على أرض فلسطين ، في شهر رمضان المبارك سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م .

هذه الغزوات المغولية البربرية ، كان يمكن أن ينساها التاريخ ، أو يذكرها ككابوس عابر فظيع ، ألمّ بالإنسانية في مسيرتها الطويلة ، ثم مضى إلى سبيله ، كان يمكن أن يحدث ذلك ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية ، وهداها إلى دينه فأسلم أغلب المغول ، وطواهم الإسلام تحت جناحه ، وأظلهم بحضارته وحولهم من قوة مدمرة إلى طاقة خيِّرة ، ومن أعداء مهاجمين إلى اتباع مدافعين ، بل مشاركين في صنع الحضارة الاسلامية ، فقد شادوا حضارة ارتبطت باسهم ، في الهند وإيران وافغانستان ، وهذه الظاهرة المغولية ، عكست نظرية ابن خلدون ، التي يقول فيها : إن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب ، فالذي حدث هنا أن الغالب - المغول - هو الذي قلد المغلوب - المسلمين - واعتنق دينهم واستظل بحضارتهم وهذه هي عبقرية الإسلام الخالدة والباقية ما بقي الليل والنهار .

والخلاصة : ان كل أرض وصلت إليها الفتوحات الاسلامية ، انتشر فيها الاسلام ، بحرية تامة ، ودون اكراه ، وانتشرت اللغة العربية والثقافة والمعارف الاسلامية ، وتشكل عالم اسلامي واحد ، ولم يتراجع الاسلام عن أية منطقة من العالم وصل إليها - سوى الأندلس - كان تراجعه هناك لاسباب تعود إلى المسلمين وليس إلى الإسلام ، وحتى عندما تراجع عن الأندلس عوض ذلك أضعافا مضاعفة ، في مناطق أخرى في آسيا الجنوبية الشرقية وفي افريقيا وأوربا وغيرها وبدون حروب أو معارك . بل عن طريق الدعاة والتجار المسلمين ، مما يدحض أي كلام عن انتشار الاسلام بالسيف ، كما يردد أعداء الاسلام في كتاباتهم .

عمر وادارة الدولة

الدولة الاسلامية التي كان يديرها عمر بن الخطاب ﷺ ، بعد تمام الفتوحات في عهده ، كانت تتكون من شبه جزيرة العرب ، والعراق والشام ومصر ، وجميع مقاطعات الدولة الفارسية القديمة ، وكانت مقسمة إلى عدد من الولايات وفيما يلي اسماء الولاة عند وفاته :

فشبه جزيرة العرب ، كانت بها ولاية مكة المكرمة ، وواليها نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، الطائف ، واليها سفيان بن عبد الله الثقفي ، صنعاء - باليمن - واليها يعلي بن منية ، والجند - باليمن أيضا - واليها عبد الله بن أبي ربيعة .

العراق ، أنشأ فيها عمر مدينتين جديدتين ، هما البصرة ، في جنوبه والكوفة في وسطه ، وجعل ولاية البصرة مسئولة إداريا وعسكريا عن جنوب العراق ، والولايات الجنوبية من الدولة الفارسية القديمة ، وعند وفاته كان عليها أبو موسى الأشعري ، أما ولاية الكوفة فمسئولة إداريا وعسكريا عن شمال العراق ، والولايات الشمالية من الدولة الفارسية القديمة ، وعند وفاة عمر كان واليها المغيرة بن شعبة .

الشام بعد الفتح مباشرة كان عليها عدد من الولاة ، لكن عند وفاة عمر كانت كلها تحت ولاية معاوية بن أبي سفيان [1] .

أما مصر ، فيقول ابن عبد الحكم : « توفى عمر ، رحمة الله عليه ، ومصر على أميرين ، عمرو بن العاص ، بأسفل الأرض - الدلتا - وعبد الله بن سعد بن

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٤١ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص١٥٥ .

أبي سرح على الصعيد » [١] .

هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف ، والتي ضمت أمما وشعوبا كثيرة ، كيف كان يديرها عمر بن الخطاب من المدينة المنورة ، في زمن كان أسرع وسيلة مواصلات ؛ فيه هي الحصان ، مع ملاحظة أن الحصان لا يصلح للمسافات الطويلة ،وإنما الجمال هي التي كانت وسيلة مواصلات رئيسية في ذلك الزمان؟.

الواقع أن عبقرية عمر بن الخطاب تجلت أعظم ما تجلت في ميادين الإدارة، فقد ضبط ونظم وأحكم إدارة تلك الدولة بمقدرة فائقة ، لازالت مثار دهشة لعلماء الإدارة العامة ، وللقادة الإداريين . ومن الصعب على أي باحث أن يحيط بجوانب العظمة العمرية في مجال الإدارة ، ولذلك سنركز على بعض الأمور ، علّها تعطي القاريء فكرة . رئيسية عن الموضوع .

أولا : عمر واختيار الولاة :

لم يكن في مقدور عمر بن الخطاب أن يدير الدولة الاسلامية مباشرة لاتساعها من ناحية ، ولانشغاله بتوجيه الفتوحات ومتابعتها وإمداد القادة بما يحتاجون من جنود وعتاد وتوصيات وتوجيهات ... الخ من ناحية أخرى ، لذلك كان لابد من الاستعانة برجال يديرون شؤون الولايات البعيدة عنه ، أما القريبة منه فكان يديرها بنفسه، فقد كان يقول : ما يحضرني من أموركم لا ينظر فيه أحد غيري، أما ما بعد عني فسوف اجتهد في توليته أهل الدين والصلاح والتقوى ، ثم لا أكتفي بذلك ، بل لابد من متابعتهم لأعرف هل يقومون بالعدل بين الناس أم لا ؟ فكيف كان يختار ولاته وعماله ؟ ها هي شروطه فيهم :

---

(١) فتوح مصر ص ١١٨ .

أولا : لم يستعمل عمر أحدا من أهله وأولاده وهذا مسلك له مغزاه ، ولا يخفى على فطنة أحد ، كما أنه قلما استعمل كبار الصحابة على الأمصار ، بل استبقاهم معه في المدينة ليعينوه في شؤون الدولة ، ويقدموا له المشورة ، فهم أركان حكومته . ومن أهم شروط عمر في الوالي :

١ ـ **القوة والأمانة** ، والمقصود بالقوة ، قوة الدين وقوة الارادة وحزم الأمور ، أما الأمانة فلا تحتاج إلى شرح ، ومن أقواله المأثورة في هذا المجال : « إنِّي لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه » لذلك فقد عزل شرحبيل ابن حسنة عن الأردن ، وعمير بن سعد عن حمص ، وضم عملهما إلى معاوية ابن أبي سفيان ، ولما تكلم الناس في ذلك ، لأن المعزولين أسبق إسلاما من معاوية وأفضل ، وضح أنه لم يعزلهما عن سخطه أو خيانة ، وقال مبررا قرراه: « أريد رجلا أقوى من رجل » .

٢ ـ **الهيبة مع التواضع :**

على الرغم من شدة عمر في محاسبة عماله وولاته ، إلا أنه أدرك بفطرته السليمة ، وموهبته الإدارية النادرة ، حاجة ولي الأمر والمسئول الإداري إلى الهيبة واحترام الناس له ، حتى يستطيع أن يقودهم ويدبر أمورهم ، ولكن الهيبة لا ينبغي أن تتجاوز حدودها لتصبح تسلطا وتعاليا ، ولذلك كان يقول : « أريد رجلا ـ أي واليا ـ إذا كان في القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم » وهذه لفتة رائعة من عمر للفرق بين تواضع الأمير عن مقدرة ، وبين اجتراء الرعية على الأمير ، ممايؤدي إلى الخروج على النظام ، وانعدام الطاعة التي هي ركن كل نظام صالح [١] .

---

(١) عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ، د. سليمان الطماوي ص ٢٧٥ .

٣ ـ الرحمة بالناس :

كان عمر يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس ، ويوصيهم بالرعية ، وعندما كان يولي أحدا ، يكتب له كتاب تولية ويشهد عليه بعض الصحابة ، ويشترط عليه ألا يظلم أحدا في جسده ولا في ماله ، ومن وصاياه لعماله في مناسبة من المناسبات العامة ، قوله لهم : « ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى ، يهتدي بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم » هذا كلامه للولاة ، ثم قال لجمهور الناس الذين كانوا حاضرين :

« أيها الناس ، إني أشهدكم على أمراء الأمصار ، إني والله لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ، ويقسموا عليهم فيأهم ، ويحكموا بينهم ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليَّ » .

ولم يكن عمر ينفرد بتولية أحد ، بل كان يستشير كبار الصحابة ، كما كان يختبر العامل طويلا ، ويراقبه قبل أن يعهد إليه بعمل كبير . ولم يكن يعهد لأحد بطلب الولاية لنفسه ، فمن القواعد التي سنها الرسول : أن طالب الولاية لا يُولي .

ثانيا : قواعد العمل بالنسبة للعمال والولاة :

لم يكن عمر يقنع بحسن اختيار الولاة على شروطه الدقيقة التي كان يشترطها ، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل ، والقواعد التي يسيرون عليها ، إما في صورة خاصة محدد ،كما كان يحدث في عهد الولاية ، أو في توجيهات عامة في المؤتمرات التي كان كثيرا ما يعقدها للعمال والولاة ، خاصة في موسم الحج، يناقش معهم فيها السياسات العامة للدولة ،ويطلع على أحوال ولاياتهم.

ثالثا : المتابعة :

لقد فطن عمر إلى فاعلية المتابعة وأثرها في حسن سير الإدارة ، وأن العمال والولاة عندما يعلمون أن الخليفة يراقب أعمالهم ويتابعها حتى وهو بعيد عنهم ، فإنهم سيجتهدون في عملهم ، وتقل أو تنعدم أخطاؤهم ، لذلك لم يقنع بالتدقيق في اختيار الولاة ، وأن يكونوا من خيار المسلمين وأتقاهم ، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاد ، يحصون حركاتهم وسكناتهم ، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها ، لأنه أدرك « أن الخطأ قد يقع بدون قصد ، وأن الانحراف لا يبدأ كبيرا ، وأن كل شيء في أوله يمكن وقفه قبل استفحاله ، عملا بالحكمة الخالدة ، الوقاية خير من العلاج ، ومن هذه الناحية يمكن أن ندرك تشدد عمر في منع ولاته من أن يمتازوا على الرعية في شيء »[1] .

رابعا : سياسة الباب المفتوح :

من أهم عوامل نجاح الإدارة في عهد عمر ، أن أوامره كانت صارمة للولاة والعمال ، ألا يغلقوا أبوابهم دون الناس ، أو يحتجبوا عنهم ، فقد أدرك بعبقريته الإدارية منذ ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة ، آفة الإدارة في كل عصر ، وهي احتجاب كبار المسئولين عن أصحاب الحاجات ، فكم من مصالح الناس ، بل من مصالح الدولة ذاتها ، تتعطل بسبب بعد المسئولين عن الناس واغلاق الأبواب ، ولذلك لم يكن عمر يتهاون أبدا مع أي أمير أو وال يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما كان شأنه ، فقد بلغه ـ عن طريق رجاله وعيونه الذين كان يدسهم على العمال لمراقبتهم -أن سعد بن أبي وقاص، فاتح العراق، وبطل القادسية، وخال الرسول ﷺ ، قد بنى له بيتا في الكوفة من طابقين ،

---

(١) عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ، مرجع سابق ص ٥٠٢ .

سماه الناس قصر سعد - لأن بقية البيوت كانت من طابق واحد - وأنه اتخذ لمكانه الذي يباشر منه أعمال الولاية بابا ، فأرسل على الفور محمد بن مسلمة الأنصاري ، الذي كان مبعوث عمر في المهمات الكبيرة ، وأمره أن يحرق ذلك الباب ، الذي يحول بين الأمير - سعد - وبين دخول الناس ، وأن يقدم بسعد معه ، ولما قدم عليه ، وبخه ولم يقبل اعتذاره ، أن داره قريبة من السوق ، وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم ، ثم رده إلى عمله ، بعد أن أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبدا ، وكان هذا دأبه مع جميع الولاة في كل الولايات ، لذلك سارت الأمور على خير ما يرام .

خامسا : المؤتمرات العامة :

من ابتكارات عمر الادارية فطنته إلى أهمية المؤتمرات العامة ، لمناقشة أمور الدولة ، فهذا يؤدي إلى مشاركة أكبر عدد من المسلمين في صنع السياسة والقرار ، عن طريق الحوار والمشاورة ، فاهتدى إلى استثمار مناسبة من أجل المناسبات الدينية وأعظمها ، وهي مناسبة الحج ، وتجمع الناس في البلد الحرام ، وعند البيت العتيق ، منزل الوحي ، فقرر أن يحج كل عام - عدا العام الأول من خلافته حيث أناب عنه في إمارة الحج عبد الرحمن بن عوف - وأن يطلب من كل الولاة في كل الأمصار الإسلامية ، أن يوافوه ليحجوا معه ، وهناك يدور النقاش والحوار والحساب مع الولاة عما صنعوا في عامهم الذي مضى ، وما ينوون عمله في عامهم الآتي ، وقبل ذلك تكون تقارير عيونه وارصاده بين يديه قبل مجئ الولاة ، بحيث تكون كل أمورهم واضحة أمامه ، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر شيئا ، وهم كانوا يعرفون كل ذلك ، فكانوا يحرصون على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة وسليمة ، فالخليفة لا يرحم من يثبت عليه أي تقصير أو مخالفة لشرع الله ، فكانت هذه المؤتمرات من أكثر الوسائل فعالية في حسن سير الإدارة ، والتزام الولاة بتعليمات الخليفة .

سادسا : محاسبة الولاة والأمراء :

من الاجراءات الإدارية الصارمة التي اتبعها عمر بن الخطاب ، محاسبته للولاة وقادة الجيوش ، محاسبة حازمة ، على أي خطأ مهما كان ، وليس عنده كبير فوق المساءلة في ذلك الأمر ، الذي اعتبره ضمانة من أعظم ضمانات حسن سير العمل ، وتحقيق المصلحة العليا للمسلمين ، وقلما نجا وال أو أمير أو قائد من محاسبة ومساءلة عمر ، وكان الرجل عادلا وحصيفا في محاسبته لمرؤوسيه ، فكما كان حريصا على مساءلتهم لتقويم أعمالهم ، فقد كان حريصا على توفير الهيبة لهم في عيون الناس ، حتى لا يتجرؤا عليهم . وكان إذا رأى الخطأ يسيرا ويمكن إصلاحه ، اكتفى بالتأنيب ، ورد الوالي إلى عمله ، وقد فعل ذلك كثيرا مع قادة كبار ، أمثال عمروبن العاص ، أما إذا كان الخطأ كبيرا ، ويضر بمصلحة الدولة ـ من وجهة نظره ـ فقد كان يعزل المخطىء على الفور مهما كان شأنه ، فمصلحة المسلمين عنده فوق كل اعتبار ، بل كان أحيانا يعزل لحكمة سياسية ، يقدرها هو من موقع مسئوليته عن الأمة ، فقد عزل سعد بن أبي وقاص ـ ذلك البطل الكبير ـ عن الكوفة لما رأى العلاقة ساءت بينه وبين رعيته ، مع أن سعدا لم يخطىء ولم يقصر [١] .

وأحيانا كان يعزل لأنه يريد رجلا أقوى من رجل ، كما قال : عندما عزل عمير بن سعد عن حمص وشرحبيل بن حسنة عن الأردن ، وضم عملهما إلى معاوية بن أبي سفيان ، وكل ذلك لحكمة سياسية ، ولمصلحة المسلمين ولضمان حسن سير العمل في الدولة .

وهنا ـ ونحن في مجال العزل والتولية ـ ينبغي أن نتوقف قليلا عند أخطر قرارات عمر ، وهو عزل خالد بن الوليد :

---

(١) ولذلك عندما طعن عمر ورشح الستة أهل الشورى جعل سعدا واحدا منهم ، بل قال عنه: « إذا أصابت الخلافة سعدا فهو أهل لها وإلا فاوض الخليفة بعدي أن يستعمله فإني لم أعزله عن عجز أو خيانة » وهذا رد اعتبار لسعد رضي الله عنه .

لا شك أنه من أخطر قرارات عمر بن الخطاب ـ في ذلك المجال ـ قراره بعزل خالد بن الوليد ، ولقد أثار هذا القرار الخطير دهشة الناس وقتها ـ ولا يزال البعض يدهش له إلى الآن ـ أكثر من أي قرار آخر مماثل ، فقد عزل عمر قادة كبارا ، كسعد بن أبي وقاص - كما سبقت الإشارة - وأبي موسى الأشعرى والمغيرة بن شعبة ، ولكن لم تثر ضجة بشأنهم ، مع علو مقامهم وعظم مكانتهم - كما أثيرت بشأن عزل خالد ، وماذلك إلا لتميز خالد عنهم جميعا من ناحية ، وتوقيت العزل من ناحية ثانية .

ولقد عزل خالد مرتين ، مرة في مطلع خلافة عمر بن الخطاب ، سنة١٣هـ . حين نحاه عن قيادة الجيوش الاسلامية في الشام ، وهو في أوج مجده ، بعد انتصاره الرائع على الروم ، في معركة اليرموك الخالدة ، وأعاد عمر القيادة عند ئذ إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وقد تقبل خالد - القائد البطل - ذلك القرار بروح الجندي المسلم الحق ، الذي يعمل ويجاهد في سبيل الله . ولاتهمه الألقاب والرتب ، فخالد هو خالد ؛ سواء أكان في موقع القيادة أو في أي موقع آخر ، ولذلك سار بعد ذلك العزل في صحبة أبي عبيدة بن الجراح ، وتحت قيادته ، وفتح معه حمص وغيرها ، وحقق فتحاً عسكرياً هائلاً في قنسرين ، عجب له عمر نفسه ، وأثنى عليه - كما سبقت الإشارة - فلو كان في نفسه شئ من عمر من أجل عزله لما استمر في جهاده وفتوحاته : هذا عن العزل الأول.

أما العزل الثاني فقد كان سنة ١٧ هـ . بعد فتحه لقنسرين ، وفي هذه المرة عزله عمر بن الخطاب ، عن كل عمل من أعمال الدولة ، بل أمر أبا عبيدة أن يقاسمه ماله، فما السبب ؟

السبب المباشر لذلك العزل الثاني - الذي صاحبه نوع من القسوة - أن عمر بلغه أن خالدا أعطى الأشعث بن قيس الكندي ، عشرة آلاف درهم مرة واحدة ، فغضب غضباً شديداً ، وقال : (أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة

المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان) [١] ومعنى هذا أن عمر رأى خالدا يتصرف في أموال المسلمين بطريقة تتنافى مع روح الاسلام ، ومصلحة المسلمين ، طريقة هي أقرب إلى سلوك امراء العرب القدامى ، من المناذرة والغساسنة ، فخالد يعطي المال لكبار الشخصيات والشعراء ، لينال ثناءهم ، وهذا أمر لايقبله عمر ، وربما خشى أن يقلد خالدا غيره من القيادة ، ويطلقوا أيديهم في الأموال ، ويسري الخلل ، ويفلت الزمام ، وهذا لايكون أبدا وابن الخطاب حي يرزق . لذلك أصدر أمره إلى أبي عبيدة ، بعزل خالد ، ومقاسمته أمواله ، وتم له ما اراد .

هذا هو السبب المباشر للعزل الثاني النهائي . أما مايكمن وراء ذلك ففي الحقيقة -- وهذا مانستقيه من سياق التاريخ الصحيح للرجلين الكبيرين - أن عمر بن الخطاب لم يكن مرتاحاً للطريقة التي يتبعها خالد في فتوحاته ، وكان يعتبر في سيفه رهقاً وتسرعا، وأخذ عليه قتله مالك بن نويرة - زعيم المرتدين من بني تميم - وزواجه من امرأته ، وأشار على أبي بكر بعزله ، وقال له : (أكتب إلى خالد ألا يعطي شاة ولا بعير إلا بأمرك) فكتب أبو بكر لخالد بذلك ، فرد عليه خالد : (إما أن تدعني وعملي ، وإلا فشأنك وعملك) ولايخفى مافي هذه الإجابة من الاعتداد بالنفس ، وهنا أشار عمر على أبي بكر بضرورة عزله ، ولكن أبا بكر كان يعرف قدر خالد ، ولذلك كان رده على عمر : (فمن يجزى عنى جزاء خالد) وكلام أبي بكر واضح ، وقد أضاف ليؤكد سر تمسكه بخالد : (سمعت رسو الله ﷺ يقول) : (فنعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، خالد بن الوليد سيف من سيوف الله ، سله الله على الكفار والمنافقين).

---

(١) مرجعنا الأساسي في قصة عزل خالد بن الوليد ، كتاب البداية والنهاية للعلامة الإمام ابن كثير جـ٧ ص ١١٣ - ١١٨ - والنصوص المحصورة بين الأقواس مأخوذة منه ، فليرجع إليه من يشاء ، لاننا لانريد الاكثار من الهوامش .

على كل حال ظل أبو بكر على رأيه ، وتمسك بخالد ، قائلا لايغنى غناءه أحد ، وظل عمر على رأيه وشكوكه فيه ، فلما توفى أبو بكر ، وآلت الخلافة إليه، كان من أول قراراته ؛ قرار عزل خالد من القيادة العامة لجيوش المسلمين في الشام ، وقال : (ماكان الله ليراني آمر أبا بكر بشئ لا أنفذه أنا) ثم كان عزله الثاني النهائي ، الذي أشرنا إليه قبل قليل .

وخلاصة مانريد قوله - ليطمئن الناس - بشأن هذه القضية المثيرة ، أن عمر عندما أصدر قراريه ، الأول والثاني ، بعزل خالد ، لم يكن ينزع عن عداء شخصي لخالد ، كما يصور البعض[1] فعمر أكبر من ذلك ، وتاريخه كله ليس فيه قرار واحد اتخذ لأسباب شخصية ، وانما كلها لأسباب موضوعية ، وبناء على اجتهاد رشيد لمصلحة المسلمين . وجوهر القضية ، ان عمر كانت تساوره شكوك في تصرف خالد في أموال المسلمين ، وظل علي شكوكه تلك حتى وفاة خالد، فلما تبين له أن تلك الشكوك لم تكن في محلها ، ندم على تصرفه مع خالد ، بل كان ينوي أن يوليه لولا أن الموت كان لخالد أسبق ، ولقد جعل خالد

---

(١) من أسخف مايروى في ذلك - وأبعده عن الحقيقة - تلك الرواية التي تعزو عزل عمر لخالد إلى عداء شخصي قديم بينهما ، منذ كانا صبيين - في الجاهلية - يلعبان ، حيث صرع خالد عمر ، فكسر ساقه ، فظل يذكر ذلك لخالد ويحقد عليه . فهل من المعقول أن يظل أثر لعبة بين طفلين في الجاهلية باقيا وراسخا في مخيلة عمر بن الخطاب ، وهل من أجل هذا يضحي بأعظم قادة الفتوحات ، اللهم إن هذا إفك مبين ، وقد لايعرف الكثيرون صلة القرابة القريبة بين الرجلين فخالد ابن عم أم عمر بن الخطاب ، حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، فهو في مقام خاله . كما أن عزل خالد لاعلاقة له بقصة مقتل مالك بن نويرة - زعيم بني تميم - فالرجل قتل في حروب طاحنة ضد المرتدين ، في عهد ابي بكر الذي اعتبره قتل خطأ ، ودفع ديته من بيت المال ، وانهى الموضوع ، صحيح عمر انتقد خالدا لقتله مالكا وأشار على أبي بكر بعزله ، لكنه لم يذهب إلى حد اتهامه صراحة بمقتله ، ولو كان يحمله مسئولية مقتله عمدا لما أكتفى بعزله ، بل لأقام عليه الحد - وصرامة عمر في ذلك معروفة ، أما وانه لم يفعل أذن فلا علاقة لقصة مقتل مالك بعزل خالد .

وصيته إلى عمر بن الخطاب بعد موته ، وأغلب الظن أن خالدا فعل ذلك ليبرهن لعمر على نزاهته وبراءة ساحته من أموال المسلمين ولذلك عندما فحص عمر ثروة خالد ، ولم يجد شيئاً ذا بال من الأموال ، بل وجد سلاحه فقط.

قال عندئذ : « رحم الله أبا سليمان لقد كنا نظن به أمورا ما كانت » (١)

هذا هو مفتاح الموقف كله بين الفاروق وسيف الله .

وبعد ، فعلينا أن نسأل ، هل كسب الاسلام أم خسر من قرار عزل خالد ابن الوليد . وحرمان الدولة من بطولاته ؟ الحق أن غياب خالد بن الوليد عن ساحة الجهاد في ذلك الوقت كان خسارة كبرى للمسلمين ، خسارة قائد عظيم كان لايزال قاراً على العطاء ، لو بقي في ميدانه الذي عشقه عشقاً ، حتى ليمكننا القول : إن المرارة التي أحس بها من قرار عزله لم يكن مرجعها إلى حرصه على الإمارة ، وإنما لحرمانه من ميدان الجهاد ، لأن ذلك البطل الفذ كان هدفه الأسمى منذ أن أكرمه الله بالإسلام الجهاد في سبيل الله ، ولم يكن يطربه سوى سماع قعقعة السلاح وصليل السيوف ، فلم يكن له هدف سوى إعلاء دين الله، وجعل كلمته هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فهو نفسه الذي قال : «ماليلة يهدي إلى فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام ، أحب إلى من ليلة شديدة الجليد ، في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » .

---

(١) ذهبت ظنون عمر بن الخطاب وبرئت ساحة خالد بن الوليد من أخذ شيئ من الأموال دون وجه حق ، ولو كان الرجل الذي فتح العراق ودوخ الفرس ، ثم فتح الشام ودوخ الروم ، نهما إلى المال لكان لديه الملايين ، ولكنه كان جندياً مجاهداً في سبيل الله .

" المؤامرة "

ماهي قصة أبي لؤلؤة ، ذلك الذي اغتال أعدل من عرفت الأرض من الحكام ؟ هو غلام مجوسي ، من أسرى معركة نهاوند ، وقع من نصيب المغيرة بن شعبة ، وكان صاحب حرف كثيرة ، فقد كان يجيد الحدادة والنجارة والنقاشة ، وكان سيده يتركه يعمل ، ويأخذ منه درهمين في اليوم ، فشكى لأمير المؤمنين عمر ، مستكثراً الدرهمين ، فسأله عمر عن صناعته فأخبره ، فقال له : لا أرى ذلك كثيرا - لأن تلك المهن كانت رائجة في ذلك الوقت ، وهو يكسب منها مالا وفيرا - ، فحقدها العبد المجوسي وصمم على قتله ، هذا هو السبب الظاهر والمباشر ، الذي روته كتب السيرة والتاريخ ، ولكنه سبب لايقنع وحده بارتكاب جريمة خطيرة كهذه ، فالأمر أخطر من ذلك وأبعد مدى ، ووراءه تدبير واسع النطاق . ومؤآمرة محكمة ، وأي متأمل للحادث في سياقه التاريخي ، وملابساته والمشتركين فيه ، لا يجد أية صعوبة في الجزم بأنها كانت مؤامرة نسجت خيوطها في بلاد فارس نفسها ، وكان أبو لؤلؤة مجرد أداة تنفيذ، وكان هو مستعدا بتكوينه للقيام بها ، فقد روى عنه أنه كان كلّما رأى أسرى بلاده في المدينة يقول : (أكل عمر كبدي) .

فعمر هو الذي أزال دولة الفرس من الوجود ، وأنزل الأكاسرة من على عروشهم ، فدبروا هذه المؤامرة لقتله ، ولم تكن الجريمة فارسية فقط ، بل كانت فارسية باشتراك أبي لؤلؤة والهرمزان - الذي كان أميراً فارسيا وأسر في الحروب وجاء إلى المدينة وادعى الاسلام - وكانت - المؤامرة - يهودية باشتراك كعب الأحبار ، ونصرانية باشتراك جفينة - نصراني من أسرى الحيرة - .

وكعب الأحْبار ، كان يهوديا ادعى الاسلام ، وجاء إلى عمر قبل طعنه بثلاثة أيام ، وقال له : ياأمير المؤمنين اعهد - أي اختر لك خلفا بخلفك في الحكم - فإنك ميّت بعد ثلاثة أيام ، فتعجب عمر وسأله ، كيف عرفت ذلك ؟ قال : أجده في التوراة ، فقال عمر : ياسبحان الله هل تجد عمر بن الخطاب مذكورا في التوراة ، قال :أجدك بصفتك ، ولكن عمر لم يُعرْ هذا الحديث اهتماما ، لأنه كان في صحة جيدة ، وبنية جسمه قوية ، ولم يكن متقدما في السن.

فهل كان كعب الأحبار على علم بما دبر أبو لؤلؤة وبقية شركائه ؟ يقول الدكتور هيكل : (لابد إذا أن يكون كعب الأحبار عرف سر ما كان يجري فوجه النذير إلى عمر ، وأغفل عمر أمر هذا النذير . . . فحدث ماحدث ، ونذير كعب وطعنات أبي لؤلؤة تدل على أن في الأمر سرا لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة ، لكنه ظهر من بعد) [1] .

أما الهرمزان وجفينة فأمرهما أوضح من أمر كعب الأحبار ، واشتراكهما في الجريمة لا لبس فيه ، فقد شهد عبد الرحمن بن عوف ، لما رأى الخنجر الذي طعن به عمر ، أنه رآه في اليوم السابق على الجريمة مع الهرمزان وجفينة ، وسألهما ما يصنعان به ؟ فقالا : نقطع به اللحم ، وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أنه مّر في الليلة التي طعن أبو لؤلؤة عمر في صبيحتها في أحد طرق المدينة ، فوجد أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يتناجون - أي يتحدثون سرا - فلما بغتهم ، أي طلع عليهم فجأة ، قام أبو لؤلؤة مرتبكا ، فسقط منه نفس الخنجر الذي طعن به عمر .

ويعلق الدكتور هيكل على ذلك قائلا : (لم يبق اذا في الأمر ريبة ، هذان شاهدا عدل ، يشهدان بأن الهرمزان وجفينة كان معهما السكين الذي قتل به

---

(١) الفاروق عمر ، المرجع سابق جـ٢ ص ٢٨٠ .

باحساس شعبه ، فسوف يستقيم الحكم ، وينصلح حال الرعية ، ويوم ينفصل الحاكم عن شعبه وتكون له حياته الخاصة ، فحينئذ ينفتح باب الفساد) (١) .

وكما حرص عمر على أن يجعل من نفسه قدوة ومثلا في سلوكه ، فقد حرص على أن يجعل من أولاده وأهله قدوة كذلك ، فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه كان يعرف أن الناس ينظرون إليهم، وقد يكونون بابا من أبواب الفساد ، فأغلق هذا الباب بإحكام، بأوامره الصارمة إليهم بإلتزام كل تعليماته ، وكان يقول لهم ، إذا عزم على أمر يهم المسلمين : « لقد عزمت على كذا وكذا ، أو نهيت الناس عن كذا وكذا ، وأقسم بالله لو خالفني أحد منكم لأضاعفن له العقوبة » .

بهذه الإجراءات حصَّن عمر نفسه وأولاده وكل من يلوذون به ضد أية إغراءات أو انحرافات ، فاحترمه المسلمون وأحبوه وأطاعوه ، سواء أكانوا أمراء أم من عامة الناس ، فلا يعرف التاريخ حاكما - بعد رسول الله ﷺ ، وخليفته الأول أبي بكر الصديق - أطاعه كبار الأمراء وصغارهم كما أطاعوا عمر بن الخطاب ، لا لهيبته في عيونهم فحسب ، بل للقدوة في حياته ، ولانضباطه الشديد، ولكل هذا احتل تلك المكانة العالية في التاريخ الانساني ، والتي جعلت ما يكل هارت يضعه بين الخالدين المائة في تاريخ البشرية ، ويقول عنه : (وقد كان عمر خليفة حكيما وسياسيا بارعا ، وما انجزه شئ باهر ، وربما بدا غريبا أن شخصية مثل عمر بن الخطاب ليست معروفة لدى الغرب ، مثل شخصيات شارلمان او يوليوس قيصر ، ومع ذلك فقد استحق هذا المكان الرفيع بين الخالدين) (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) الخالدون مائة - مرجع سابق ص ٢١١ .

" عدل عمر "

لن نطيل الكلام عن عدل عمر بن الخطاب، فليست هناك صفة من صفاته الكثيرة ارتبطت باسمه كما ارتبطت به صفة العدل ، حتى إذا ذكر عمر ؛ ذكر الناس العدل، الذي أصبح هو رمزه في كل العصور ، فهو والعدل صنوان، وعظمة العدل العمري أنه عدل مطلق ، لايفرق بين قريب وبعيد ، أو بين عدو وصديق ، أو بين حبيب وغير حبيب ، والأخبار المتواترة في ذلك أكثر من أن تحصر ، ولعل أصدق مثل على تجرده في عدله ، وعدم خلطه بين عواطفه كإنسان ، ومسئولياته كحاكم ، عليه أن يجري العدل بين الناس ، قصته مع أبي مريم السلولي ، قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، فقد كان عمر يحب أخاه زيدا حبا جما، ملك عليه كل مشاعره ، فاستشهد زيد في حروب الردة ، في معركة اليمامة في عهد أبي بكر الصديق ، وكان الذي قتله أبو مريم الحنفي ، ولكن الرجل أسلم بعد ذلك ، وقابل عمر وهو خليفة ، فلما عرفه عمر قال له : (أأنت قاتل زيد بن الخطاب؟) قال : (نعم يا أمير المؤمنين) قال: (والله لا أحبك أبدا) فقال أبو مريم: (أوتمنعني بذلك حقا لي) قال : لا قال : (إذا يا أمير المؤمنين إنما يأسي على الحب النساء) يقصد الرجل أنه مادام لايظلمه فلا يهمه أحبه أم كرهه ، لأن النساء هن اللائي يأسفن على الحب ، ولا لوم على عمر في التعبير عن عواطفه نحو من قتل أخاه ، فهذا شئ لا يملكه ، فإن الرسول ﷺ ، لما رأى وحشي الذي قتل عمه حمزه في غزوة أحد ، لم يطق النظر إليه، مع أن الرجل أسلم ، والرسول نفسه عفى عنه ، ولكنه قال له : (غيِّب وجهك عني يا وحشي لا أراك) فعمر معذور في ذلك ، لكن دلالة القصة على عظمته في أن غضبه من الرجل الذي قتل أخاه لم يحمله على ظلمه، وهذه آية الآيات في ضبط النفس والتجرد، لا يتأتى إلا لمثل عمر بن الخطاب ، الذي امتد عدله ورعايته للرعية ليشمل المسلمين وغير المسلمين ، وكل من يعيش

علـى أرض الاسلام ، فعندما رأى يهودياً يتسول أنزعج لذلك وأحزنه ، وأخذ الرجل من يده وأعطاه معونة عاجلة من بيت الدقيق[١] وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين.

" احساسه بالمسئولية "

كل من يقرأ تاريخ عمر بن الخطاب يدرك دون عناء أن إحساس الرجل بمسئوليته عن الأمة التي يحكمها كان طاغياً ، ملك عليه كل جوارحه ، فهو لم يكن يعتبر نفسه مسئولا عن البشر ، وعن إيصال الحق لصاحبه أينما كان ، كما عبر عن ذلك بقوله (والله ليأتين الراعي بصنعاء حقه من هذا المال دون أن يسأل عنه) بل كان يعتبر نفسه مسئولا عن البهائم ، وقد عبر عن ذلك بقوله : (والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسئولاً عنها أمام الله ، لماذا لم أعبد -أسوي - لها الطريق) أي أن الرجل يعتبر نفسه مسئولاً عن تسهيل حياة كل الكائنات الحية في دولته ، وجعلها تعيش في أمن وأمان واطمئنان ، رأى مرة رجلا حمَّل جمله أكثر مما يطيق ، فضربه بالدرة ، وأمره ألا يحمل الجمل أكثر من طاقته . والرجل الذي كان يقوم بتلك الفتوحات العظيمة ، واستكمال بناء الدولة الاسلامية الكبيرة ومؤسساتها وأجهزتها ، والمثقل بكل تلك الهموم ، كان يجد من الوقت مايمكنه من متابعة أحوال الناس وتفقدها بنفسه ، ليقف هو ذاته على أوجه النقص ليتلافاها أولا بأول، فكان كثير الطواف ليلا بالمدينة[٢] فسمع ذات ليلة طفلاً يبكي بكاء مستمرا فسأل عن أمره ، فعرف أن أمه منعت عنه الرضاع، لأنك - آي عمر- لاتفرض عطاء من بيت المال إلا للأطفال المفطومين، فانزعج وقال ويحك ياعمر ، كم تسببت في تعذيب أطفال المسلمين ، وأصدر

---

(١) بيت الدقيق انشأه عمر لاغاثة الجياع الذين لايجدون الطعام .

(٢) راجع في تجوال عمر ليلا بالمدينة ليتفقد أحوال الناس تاريخ عمر بن الخطاب لابي الفرج ابن الجوزي ص ١٠٠ ، مابعدها - دار احياء علوم الدين ، دمشق بدون تاريخ .

أوامره على الفور بفرض عطاء لكل مولود في الاسلام منذ ساعة ولادته ، ونادى مناديه : لاتعجلوا فطام أولادكم ، فاننا سنفرض عطاء لكل مولود في الاسلام .

والحوادث من هذا القبيل لا حصر لها ، حتى قد يظنها بعض الناس من المبالغات ، ولكنها متواترة في المصادر التي أرخت لعمر وعصره ، فمن يصدق أن خليفة المسلمين يأخذ امرأته - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - ومعها كل مايصلح لحالة ولادة ، لمساعدة امرأة غريبة جاءها المخاض ، ويشترك هو معها في الإشراف على ولادتها وصنع الطعام لها . ولما أنجز مهمته قال لزوج المرأة : (إذا كان الغد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه) [1] .

" عمر والقضاء "

عندما بويع أبو بكر بالخلافة شكى لعمر من كثرة اعبائها ، وخوفه من عدم النهوض بكل مسئولياتها ، فقال له عمر : (أنا أكفيك القضاء وأبو عبيدة يكفيك الأموال) ومعنى ذلك أن عمر كان قاضياً لأبي بكر ، ويقال : مكث عامين لم يختصم إليه أحد ، لصرامته في الحق ، وفي عهده هو اتسعت الدولة واحتاج كل إقليم إلى قاض ، فعين عمر القضاة ، وكان منهم شريح بن الحارث الكندي ، على قضاء الكوفة ، وكعب بن سور ، على قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس ، على قضاء مصر ، وأبا الدرداء ، على قضاء الشام . وكان يدقق كثيراً في اختيار القضاة ، ولم يكن في حاجة إلى سن قوانين يحكمون بها ، فالحكم كله طبقا لما جاء في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، عليه الصلاة والسلام ، ولكنه كان في حاجة إلى تعليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر ، فقد كتب لأحدهم يقول له : (إذا جاءك شئ في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال ، فإن

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ .

جاءك أمر ليس في كتاب الله ، فانظر سنة رسول الله ﷺ ، فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر اي الأمرين شئت ، ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت ان تأخر فتأخر) وضرب لهم أصلح الأمثلة ، باجتهاده، حين لم يقطع يد السارق عام المجاعة ،رعاية للظروف ، ولم يقطع يد غلمان حاطب بن أبي بلتعة ، حين سرقوا لأن سيدهم أجاعهم فالجأهم إلى السرقة ، وإنما حمَّله ، هو أن يدفع العوض لصاحب الناقة المسروقة مضاعفاً ، عقابا له على تقصيره في اطعامهم.

ومن أعظم وصاياه للقضاة وصيته لأبي موسى الأشعري ، ومما جاء فيها : (آس- أي سوى - بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لايطمع شريف في حيفك - ظلمك - ولا ييأس ضعيف من عدلك ، والبينة على من أدعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً حرَّم حلالاً أو حلَّل حراماً . . . الخ .

اصلاحاته ومنشآته :

لعمر بن الخطاب كثير من الاصلاحات والمنشآت التي لم يسبق إليها والتي سماها مؤرخو سيرته ، أوليَّات عمر ، (١) فهو أول من سميٍّ أمير المؤمنين، وأول من أتخذ مبدأ التأريخ للدولة الاسلامية ، بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، بعد استشارة كبار الصحابة وكان ذلك سنة ١٦ هـ . واول من اتخذ بيت المال - الذي يشبه خزينة الدولة في تلك الأيام - وأول من مصَّر الأمصار ، أي بنى مدنا جديدة ، مثل البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط -مصر القديمة حاليا - في مصر ، وأول من وسع المسجد الحرام بمكة المكرمة

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي - مصدر سابق ص ٧٥ ومابعدها وتاريخ الخلفاء للسيوطي - مصدر سابق ص ١٣٦ ، ومابعدها .

وجعل له سوراً في مثل قامة الرجل ، كما وسع مسجد رسول الله ﷺ ، وأدخل فيه دار العباس بن عبد المطلب وفرشه بالحصباء - الحجارة الصغيرة - وكانو قبل ذلك يصلون على التراب .

وأول من دوَّن الدواوين ، وهي تشبه الوزارات في وقتنا الحاضر ، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس والروم ، وهذا يدل على مرونته وسعة عقله ، واستفادته من التراث الإداري ، الذي كان موجودا في البلاد التي فتحها المسلمون في عهده .

فأنشأ ديوان العطاء - أشبه بوزارة الأوقاف أو الشؤون الإجتماعية في وقتنا الحاضر ، وهذا الديوان كان منوطا به العطاء الدائم الذي فرضه عمر للمسلمين - وأنشأ ديوان الجند - وزارة الدفاع حاليا - وانشاء ديوان الخراج - وزارة المالية - ونظم البريد ، الذي كان يستخدم في امور الدولة .

ومن أعظم اجتهاداته ابقاؤه الأرض المفتوحة في أيدي أهلها يزرعونها ويدفعون خراجا - إيجاراً - للدولة للانفاق منه على الجيش والمرافق العامة ، ولقد أمر بإعادة مسح الأرض - أي قياسها واختبارها - ووضع الخراج المناسب على الارض حسب جودتها ، وهو أول من قنَّن الجزية على أهل الذمة كما يقول ابن الجوزي ، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهما ، على الفرد في السنة ، وعلى المتوسطين أربعة وعشرين ، وعلى الفقراء القادرين على الكسب أثني عشر ، وأعفى منها الشيوخ والنساء والاطفال ورجال الدين والعاجزين عن الكسب ، سبق القول أنه فرض للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاء من بيت المال .

ومن دلائل عبقريته ؛ أنه كما ترك الأرض لأهلها يزرعونها لأنهم أكثر خبرة من العرب وقتئذ - في الزراعة وفلاحة الأرض - كما أن الأخيرين كانوا في شغل بأمر الجهاد وتأسيس الدولة وادراتها ، فقد ترك معظم الدواوين خاصة ديوان الخراج ، في ايدي أبناء البلاد المفتوحة ، يزاولون العمل فيها بلغاتهم ، لأنها كما يقول الاستاذ عباس العقاد : (ليست من أسرار الدولة ، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم ، وهو فرائض الدفاع والجهاد) [١] ولاشك ان ترك تلك الأعمال في ايدي أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث ارتياح لهم ، جعلهم يشعرون بأنهم شركاء في حكم بلادهم- وهذا شئ كانوا محرومين منه قبل الاسلام ، خاصة في مصر - فاطمأنوا اكثر للحكم الاسلامي ، بل أخذوا يعتنقون الاسلام ، ويتعلمون اللغة العربية .

" استشهاده "

قضى عمر بن الخطاب في الخلافة عشر سنين وبضعة أشهر ، متجرداً لله ولدينه ، منكرا ذاته وأهله ، متوجها بكل عقله وقلبه وجوارحه للنهوض بالعبء العظيم الذي القاه القدر على عاتقه ، فكان هو القائد الأعلى للجيش ، والفقيه الأكبر بين فقهاء المسلمين ، والمجتهد الذي يرجع الكل إلى رأيه ، ويقر الكل باجتهاده ، والقاضي النزيه العادل الذي يأخذ للضعيف حقه من القوي ، والأب البار الرحيم بالمسلمين جميعا ، صغيرهم قبل كبيرهم ، وضعيفهم قبل قويهم ، وفقيرهم قبل غنيهم ، والسياسي المحنك الذي يعرف مايريد ، والإداري الحكيم الذي يسرت له حكمته أن يسوس الأمم المتباينة في الجنس واللغة والدين، ويدبر أمورها ؛ أحسن مايكون التدبير ، وفوق ذلك كله يتقبل النقد وتصويب

---

(١) عبقرية عمر ص ١٥٢ ، طبعة ١٩٦٩ .

أخطائه برحابة صدر لانظير لها . ولاعجب اذن أن ينطلق المسلمون في عهده ، يحركهم صدق ايمانهم ، وحرصهم على الاستشهاد في سبيل الله فيفتحوا العراق وبلاد فارس والشام ومصر ، ويصبحوا محط أنظار العالم ، وكانوا قبل إسلامهم أمة بدوية ، تعيش لنفسها ، وتخضع لنفوذ غيرها [1] .

هذا الرجل العظيم تكون نهايته القتل ، يا لمفارقات الأقدار ! !

كان عمر يحرص على تسوية صفوف المسلمين في الصلاة بنفسه ، وفي فجر اليوم الذي تلقى فيه الطعنة الغادرة من يد أبي لؤلؤة المجوسي ، لعنة الله عليه . وهو يوم الأربعاء السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ ، سوى الصفوف كعادته ، وبدأ ينوي مكبرا للصلاة ، إذا بأبي لؤلؤة يخرج فجأة من أحد زوايا المسجد ، ويسدِّد للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم ، فقطَّع أمعاءه، وسقط مغشياً عليه ، واضطرب المسلمون اضطراباً شديداً من هول المفاجأة ، وأقبلوا على هذا الملعون محاولين القبض عليه ، ولكنه أخذ يضرب شمالاً ويميناً ضرباً عشوائياً ، فأصاب أثنى عشر من الصحابة مات منهم ستة ، ثم أتاه رجل من خلفه ، وألقى عليه رداءه وطرحه أرضا ، فلما أيقن أنه قد أصبح في قبضتهم قتل نفسه ، بذات الخنجر الذي طعن به أمير المؤمنين ومات على الفور منتحراً ، قبل موت الخليفة نفسه ، الذي حملوه إلى بيته ، وظل فترة طويلة فاقد الوعي ، فلما أفاق ، كان أول سؤال سأله للمسلمين ، «هل صليتم الصبح ؟ » قالوا : نعم ، قال : « الحمد لله ، لا إسلام لمن ترك الصلاة » ثم كان سؤاله الثاني: من الذي قتلني ؟ - قال من الذي قتلني مع أنه لايزال حياً يتكلم لأنه أيقن أن الطعنة قاتلة ، لانهم كانوا يسقونه اللبن فكان ينزل كما هو ، قالوا : أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، قال الحمد لله الذي جعل منيتي على يد رجل كافر لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجني بها عند الله يوم القيامة .

---

(١) الفاروق عمر ، د . هيكل جـ٢ ص ٢٧٤ .

فغياب ذلك البطل المعلم عن ساحة الجهاد كان خسارة ، لكنها خسارة أمكن تعويضها . فالساحة كانت مليئة بالكفايات والأبطال ، الذين عوضوا غياب بطل الأبطال. خاصة وأن الشام آنئذ كانت قد دانت كلها -تقريباً- للمسلمين .

أما ماكسبه الاسلام وتاريخه من عزل خالد ، فهو شئ عظيم وهائل ، فقد كسب أنموذجاً فريداً من النظام والطاعة والأنضباط من أعظم القواد لقرار خليفة المسلمين .

فكما برهن خالد على عظمته وعبقريته العسكرية في ميدان الجهاد ، فقد برهن على عظمته الأخلاقية ، وارتفع بإيمانه فوق آلامه ، وآثر مصلحة الاسلام والمسلمين على كل شئ سواها ، وضبط سلوكه وسيطر على نفسه، فقد كان ابن الوليد من طراز أولئك الرجال العظام الذين خلقوا للبناء، والتشييد، بناء الأمم والدول والحضارات ، وليس من أولئك الذين يبحثون عن أمجاد شخصية ويبنون تاريخهم وعظمتهم على إثارة الفتن ، فعندما رآه أحد رجاله متأثرا بما حدث ، قال له : « اصبر أيها الأمير فإنها الفتنة » فقال القائد الفذ ، تلك الكلمة الخالدة العظيمة : « أما وابن الخطاب حي فلا » وهذه كلمة تدل على أن خالداً كان على يقين أن قرار عمر لم يكن أبدا يهدف إلى الاساءة إليه . رحم الله عمر ابن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، فقد كانا آيتين من آيات الله وقوتين من قوى القدر ، سخرهما سبحانه وتعالى لنصرة هذا الدين ، كل في مكانه وحسب إمكاناته ، فجزاهما الله عن الاسلام خير ما يجزي الصديقين والشهداء .

سابعاً : القدوة الحسنة :

لقد ذكرنا آنفا أن جوانب العظمة في شخصية عمر بن الخطاب ، وبصفة خاصة في مجال السياسة والادارة لايمكن لأحد أن يحيط بها ، ولذلك نختم كلامنا عنه بالحديث عن القدوة الحسنة في شخصية عمر وأثرها في ادارة الدولة.

لقد أدرك عمر بفطرته ، وتعلمُه من الرسول ﷺ ، أثر القدوة في سياسة الناس ، لاسيما عندما تأتي من أعلى ، فالحكمة الخالدة تقول : الناس على دين ملوكهم ، وعمر لم يكن ملكا ، بل خليفة للنبي ﷺ ، في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ومن هنا كان يدرك أن مسئوليته مضاعفة ، وعليه أن يعلِّم الناس بأعماله قبل أن يعلِّمهم بأقواله ، وكثيرا ما كان يردد على مسامعهم قوله : « سأسوسكم بالأعمال وليس بالأقوال » وكان كثيرا ما يقول : (الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الامام إلى الله ، فإن رتع الامام رتعوا) (وقد يكون إدراك الحقائق يسيرا ، ولكن تقمصها في الحياة ليس سهلاً دائماً ، وكما كان سهلاً على عمر أن يدرك تلك الحقيقة ، فإنه نجح في أن يتقمصها ، وأن يضرب للبشرية مثلا بنفسه وبمن يلوذون به لايجود التاريخ بمثله مرة أخرى) [1] . فقد كان عمر قدوة في حياته الخاصة في مأكله ومشربه ومركبه ، يعيش كما يعيش عامة الناس دون تمييز وحتى عندما فرضوا له عطاء من بيت المال ليعول منه أسرته قدروا له راتباً يمكنه من معيشة رجل من أوسط الناس ، لا أغناهم ولا أفقرهم ، وفوق ذلك كان يشارك المسلمين ويواسيهم إذا أصابهم ضر ، ففي عام الرمادة المشهور سنة١٨هـ الذي أصابت الناس فيه مجاعة شديدة ، في شبه جزيرة العرب لقلة الأمطار ، فاهتم بأمر الناس وأخذ يجلب إليهم الأقوات من الأقطار الأخرى ، مصر والشام والعراق ، وكان هو يأكل مما يأكله الناس ، فساءت صحته لكثرة أعبائه – ولا ننسى أبدا أن عمر كان يؤسس دولة ويفتح فتوحات وينشئ أجهزة . . الخ – فنصحه بعض أصحابه بأن يحسن من طعامه ، ليقوى على العمل وإنجاز مصالح المسلمين ، ولكن الخليفة العظيم رد بتلك المقولة الخالدة : (كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم) ، ويعلق الدكتور سليمان الطماوي على ذلك بقوله : (ويقيناً أن هذه الحقيقة التي عبر عنها عمر ببساطة ، هي مفتاح الحكم الصالح في كل عصر وزمان ، فيوم يحس الحاكم باحساس شعبه ، فسوف

---

(١) عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة ، مرجع سبق ذكره ص ٦٣ .

عمر ، ويشهد أحدهما أنه رأى ابا لؤلؤة القاتل يأتمر قبل القتل معهما ، ويقرران أن ذلك كله كان عشية طعن عمر . أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يشك في أن أمير المؤمنين ذهب ضحية مؤامرة ، كان هؤلاء الثلاثة أبطالها ، ولعل غيرهم من ابناء فارس ، أو من الأمم الأخرى التي غلبها المسلمون كان معهم فيها ؟) (١)

ومما يؤكد أن قتل عمر بن الخطاب كان مؤآمرة ، انتحار أبي لؤلؤة نفسه ، فليس هناك رجل يقدم على عمل كهذا من أجل بضع دراهم ، وحتى لو رأى أن عمر لم ينصفه ، فقد كان يمكنه أن يعاود الشكوى بسهولة ، ويأخذ حقه ، فعمر هو خير من يأخذ حق الضعيف من القوى ، ولكن العبد ملئ حقداً وأوعز إليه فأقدم على جريمته إقدام من يؤمن أنه يقوم بعمل بطولي ، يستحق أن يدفع من أجله حياته ، فالإيمان - حقًا أوهما - هو وحده الذي يجعل المرء يخاطر بحياته ، ثم هناك أمر آخر يؤكد المؤامرة ، وأنها نسجت خيوطها في بلاد فارس نفسها ، وهو انتقاض معظم بلاد فارس على المسلمين وثورتهم بهم ، ونقض معاهدات الصلح ، التي وقعها معهم الفاتحون المسلمون ، وضمنوا لهم بها حرية أديانهم وأنفسهم وأموالهم ، فور سماعهم خبر مقتل عمر ، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك بفارغ الصبر ، إن ماحدث في بلاد فارس بعد وفاة عمر يشبه حركة الردة بعد وفاة الرسول ، لأنهم تصوروا أن وفاته وغيابه عن الدنيا هي فرصتهم لإعادة الأمور إلى ماكانت عليه قبل الفتوحات ، وطرد المسلمين من البلاد التي فتحوها، وكانوا واهمين في تصورهم هذا ، فمع أن وفاة عمر خسارة كبرى للمسلمين ، بل لهم هم أنفسهم - لو كانوا يعقلون - ، فإن خليفته في قيادة الأمة الاسلامية ، عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، ومن حوله من القادة والأمراء كانوا قادرين على ردع الفرس ، والقضاء على تمرّدهم ، وردّهم إلى الطاعة والنظام ، وقد فعلوا ذلك بعظمة واقتدار يذكراننا بما فعله الصديق مع أهل الردة .

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص ٢٦٢ .

وهذا حديث سيكون موضعه عند الكلام علي خلافة عثمان نفسه ، وعثمان لم يؤدب الفرس فقط ، وإنما أدب الروم أيضاً ، لأنهم هم من جانبهم فكروا في العودة إلى مصر والشام ، وقد تمكنوا بالفعل من النزول في الاسكندرية والاستيلاء عليها ، وسنعرف قريباً كيف تعامل معهم عثمان ورجاله، وكيف طردوهم منها إلى الأبد .

" تفكير عمر في امر الخلافة بعده . ووفاته "

أيقن عمر بعد أن تلقى تلك الطعنات الغادرة أنه لم يبق من عمره سوى ساعات ، وكذلك أيقن المسلمون ، ولذلك ألحُّوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم والحقيقة أن تلك كانت واحدة من أهم اهتماماته ، وهو في هذا الوقت العصيب ، الذي يعاني فيه سكرات الموت ، فالرجل كان عظيما إلى آخر لحظة في حياته ، ولم ينس مسئوليته عن الأمة ، ولم تحيِّره مسألة كمسألة الخلافة ، التي اقترح لها أفضل الحلول من وجهة نظره ، فقد رشح لها ستة من الصحابة ، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، وقال لهم يختارون واحدا منهم ، ومع أن ابن عمه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل،كان من المبشرين بالجنة، فقد استبعده من أهل الشورى، مظنَّة أن يقع عليه الاختيار لقرابته منه، كما استبعد ابنه عبدالله من الترشيح تماما ، بل رد رداً قاسيا على من اقترح عليه ترشيحه ، وهذا يدل على كامل نزاهته ، وابعاد شبهة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامي ، وأن يكون الأمر دائماً في يد الأمة ، تختار الأصلح ليتولى أمورها ، قال عمر للمسلمين : (عليكم هؤلاء الرهط - الجماعة من الناس - الذين قال رسول الله: (إنهم من أهل الجنة) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله فيهم ، ولكن الستة ، هم ، علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد ابن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله [1] .

---

(١) كان طلحة أول وأقوى المعارضين لترشيح ابي بكر لعمر للخلافة ، ومع ذلك فإن عمر العظيم جعله واحدا من الستة ولم يستبعده ، لأنه اعترض عليه ، مما يدل على مطلق نزاهة عمر وأن كل تصرفات كانت موضوعية ، ومتجردة لله ، ولمصلحة المسلمين ، ولا دخل للعواطف فيها .

ارتاح المسلمون لهذا الترشيح ، لثقتهم في صدق نظرته وحرصه وأمانته على مصلحتهم وسنرجئ الكلام عن الطريقة التي اختاروا بها الخليفة الثالث ، الآن لنذكرها عند اختيار عثمان .

كان الأمر الآخر الذي أهتم به عمر في تلك اللحظات الحزينة ، هو أن يدفن إلى جوار الرسول ﷺ ، وأبي بكر الصديق ﷺ ، في بيت عائشة لينعم بصحبتهما في الآخرة . كما نعم بها في الدنيا . فعندما طعن أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة ﷺ ، وقال له قل لها : عمر يقرأ عليك السلام ، ويستأذنك في أن يدفن مع صاحبيه ، فأتاها عبد الله فوجدها تبكي . فسلم عليها ، ثم قال لها ما أمره به أبوه ؛ فقالت : (كنت والله أريد ه لنفسي - أي المكان - ولأوثرته به اليوم على نفسي) فلما رجع عبد الله وأخبر أباه أن عائشة أذنت له ، تهلّل وجهه ، وقال الحمد لله : (ما كان شئ أهم إلى من ذلك المضجع) . ثم أوصى بعدم المبالغة في تكفينه ، فلما توفي في اليوم التالي لطعنه ، وهو يوم الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة من العام الثالث والعشرين للهجرة حسب ماذكره ابن الجوزي (١) وكفّنوه في ثلاثة أثواب : أسوة بكفن الرسول ﷺ ، وصلى عليه صهيب الرومي ، رضي الله عنه - لأن عمر نفسه كان أمره أن يصلي بالناس بعد طعنه في مسجد الرسول ، ثم دفن مع الرسول وأبي بكر ، فرضي الله عنه ، وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، وإذا كان جسده الطاهر قد ووري التراب ، فإن ذكراه ، وذكر عدله ونزاهته واحساسه بالمسئولية، ستبقى أبد الدهر ، شاهد صدق على عظمة الاسلام ، ورسول الاسلام ، في تربية الرجال ، من أمثال الفاروق عمر بن لخطاب .

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٥٧ .

" خلافة عثمان بن عفان ٢٤ - ٣٢ هـ "

نسبه : عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بعد عام الفيل بست سنوات (سنة ٥٧٦ م) فهو أصغر من النبي ﷺ . بنحو ست سنوات ، وأمه اروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجدته لأمه، البيضاء بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ ، فعثمان يلتقي في نسبه من جهة أبيه وأمه مع النبي ﷺ ، في عبد مناف .

صفاته : تصفه المصادر التي أرخت له [١] بأنه كان ربعة من الرجال ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، أبيض ، مشربا بحمرة ، غزير الشعر، كان شعره يكسو ذراعيه ، طويل اللحية ، أحسن الناس ثغرا .

أخلاقه : وصف عثمان رضي الله عنه بسماحة النفس ، ورقة المشاعر، وأنه كان رضي الخلق ، كريما شديد الحياء ، صوّاماً قوّاماً ، محبوباً من الناس في جاهليته واسلامه ، ومن شدة حبٍّ الناس له فإن النسوة كنَّ يدلّلن أطفالهن بقولهن : (احبُّك والرحمن حبَّ قريش عثمان) . وقد حدَّث هو عن نفسه ، فقال : (لقد اختبأت لي عند ربي عشرا، إني لرابع أربعة في الإسلام، ولقد أئتمنني رسول الله على ابنتيه - رقية - ثم توفيت ، فزوجني الأخرى - أم كلثوم - ووالله ماسرقت ولازنيت في جاهلية ولا إسلام قط ، ولاتغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسحت فرجي بيمنى منذ بايعت رسول الله ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ، ولا مرَّت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة ، فإن لم أجد فيها رقبة أعتقت في التي تليها رقبتين) .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤٧ ومابعدها والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني جـ٦ ص ٣٩١ ومابعدها . تحقيق طه محمد الزيني ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦ م .

إسلامه : كان عثمان من السابقين إلى الاسلام ، وكان الذي دعاه إليه أبو بكر، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فاسلم على يديه ، بعد أبي بكر مباشرة، ولذلك قال : إنه كان الرابع في الاسلام ، وإسلام عثمان له قيمة وأهمية خاصة، لأن اغلب رجالات قومه ، من بني أمية عادَوْا الرسول والإسلام عداء سافرا ، وهو نفسه تعرض لضغط شديد منهم ليرجع عن دينه ، ولكنه قاوم الضغوط وتحمل الأذى ، وحرص على إسلامه أشد الحرص ، فعندما علم عمه الحكم بن أبي العاص بإسلامه ، أوثقه بالحبال ، وقال له : (ترغب عن دين آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أدعك حتى تدع ما أنت فيه ، فأجابه عثمان في صلابة المؤمن (والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه) كذلك تعرض لضغط شديد من زوج أمه - توفي ابوه وهو صغير فتزوجها - عقبة بن أبي معيط ، الذي كان أشد الناس عداوة لرسول الله ، ليرجع عن دينه فلم يرجع ولم يلن ، ووقفت أمه معه ، وهي كما أشرنا أنفا بنت عمة الرسول ﷺ ، وكان عقبة يؤنبها على وقوَفها مع عثمان ، فكانت تقول عن النبي ﷺ ، (ومن أولى به منا) ؟

مصاهرته للرسول : عثمان بن عفان هو الوحيد الذي تزوج من ابنتي نبي ، فقد زوجه الرسول من ابنته رقية ، وكان هذا مصدر سعادة وفخار لعثمان، والرسول نفسه كان سعيدا بهذا الزواج ، لما كان يتمتع به عثمان من أخلاق عالية ومما له دلالة في ذلك مايرويه أسامة بن زيد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، بعثه بصحفة فيها لحم إلى رقية بعد زواجها من عثمان ، يقول أسامة : (فدخلت فإذا رقية رضي الله عنها جالسة ، فجعلت مرة أنظر إلى وجه رقية ، ومرة أنظر إلى وجه عثمان ، فلما رجعت سألني رسول الله ﷺ ، قال لي : « دخلت عليهما ؟ » قلت : نعم ، فقال : « وهل رأيت زوجا أحسن منهما ؟ » قلت : " لا يارسول الله " [1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٠ .

ظلت رقية زوجا لعثمان إلى أن توفيت يوم أنتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى ، ولذلك لم يحضر عثمان بدرا ، لأن الرسول أمره بالبقاء معها ليمرضها ، ومع ذلك عده في البدريين ، وفرض له في غنائمها وبعد وفاة رقية رضي الله عنها ، زوجه الرسول اختها أم كلثوم ، رضي الله عنها ، ولهذا لقب بذي النورين .

ولما توفيت في العام التاسع للهجرة ، حزن عثمان حزناً شديداً ، لانقطاع مصاهرته للرسول ، ولكن الرسول واساه مواساة جميلة ، تدل على رقة مشاعره وسمو ذوقه ، فقد قال له : (لو كانت لنا أخرى لزوجناكها ياعثمان) ويروى أنه ﷺ قال : (زوجوا عثمان : لو كان لي ثالثة لزوجته ، وما زوجته إلا بالوحي من الله) [١] .

مواقف عثمان مع الرسول : مواقف عثمان رضي الله عنه مع الرسول، ومؤازرته له ولدعوته منذ أسلم أكثر من أن تحصى ، فلقد جاهد بنفسه وماله، فهاجر الهجرتين الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، وصاحبته زوجه رقية بنت النبي ﷺ في الهجرتين -وتحمل كثيرا من الأذى من أهله كما ذكرنا أنفا، ليرجع عن إسلامه ، فصبر وصمد ولم يترك إسلامه قط- وكان عثمان من أكثر قريش مالا، وقد بذل ماله في سبيل الله، ولم يتردد كلما دعاه الرسول إلى الأنفاق في سبيل الله ، سواء في تسهيل الحياة وتقديم الخدمات للمسلمين ، أو تجهيز الجيوش للجهاد. كان المسلمون يعانون من قلة المياه في المدينة، وكانت هناك بئر، تسمى بئر رومة، وكان يملكها رجل من غفار يبيع الماء، وكان ذلك يشق على المسلمين فاشتراها عثمان باثنى عشر ألف درهم، ووهبها للمسلمين.

أما إنفاقه المال في تجهيز الجيوش فقد بلغ قمته في تجهيز جيش العسرة ، في غزوة تبوك ، في العام التاسع الهجري ، وقد مر ذكرها - فقد جهّز

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

وحده ، ومن ماله الخاص ، ثلث الجيش - وكان عدده ثلاثين ألفا - فدعى له الرسول ﷺ ، بخير ، وقال : (ماضرَّ عثمان مافعل بعد اليوم) [١] .

ولقد شهدالمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، عدا غزوة بدر - وقد عرفنا سبب تخلفه عنها - وفي عام الحديبية ، سنة ٦ هـ ، أراد الرسول ﷺ ، أن يرسل أحد أصحابه إلى مكة لمفاوضة قريش ، وأمر عمر بن الخطاب بالذهاب ، ولكن عمر اعتذر عن عدم القيام بالمهمة ، ووضّح عذره ، فقال للرسول . إني أخشى على نفسي من قريش ، لشدتي عليها وعداوتي إياها ، ولكن أدلك على رجل أمنع وأقوى بها مني ، عثمان بن عفان ، لأن أهل عثمان ، كانوا في مكة كثيرين ، ويحمونه من أي عدوان - فبعث النبي عثمان ، ولما أشيع أنهم قتلوه قال النبي : (لوكانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم) وبايعه أصحابه بيعة الرضوان ، تحت الشجرة ، البيعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن فقال : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ الفتح . الآية ١٨ - فبايع النبي نفسه نيابة عن عثمان ، وقال ﷺ : (إن عثمان بن عفان ، في حاجة الله وحاجة رسوله ، فضرب باحدى يديه على الأخرى) [٢] مشيرا إلى أن هذه بيعة عثمان ، فكانت يد الرسول لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم ، ومعلوم أنه رضي الله عنه كان من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ .

ثناء الرسول عليه .

الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ ، في الثناء على عثمان وذكر فضائله كثيرة ، منها : (مايرويه الشيخان، البخاري ومسلم ، في حديث طويل، أن النبي كان في بيته جالسا متبسّطاً ، فجاء أبو بكر وهو على حاله ، يعني لم

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٢ .
(٢) تاريخ الخلفاء ، مصدر سابق ، ص ١٥٢ .

يغير هيئة جلوسه ، ثم جاء عمر بن الخطاب فظل على حاله ، فلما جاء عثمان، جمع النبي عليه ثيابه ، فلَّما خرجوا كلمته عائشة ، وسألته لماذا صنع مع عثمان مالم يصنعه مع أبي بكر وعمر ، فقال لها : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) [١] وكذلك بشره الرسول بالجنة ، وتنبأ له بالشهادة وقال عنه : (لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان) [٢] .

وثناء الصحابة على عثمان كذلك لاحصر له ، من ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عندما سئل عن عثمان فقال : (ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين) .

وكان عثمان من أقرب المقربين إلى الخليفتين ، أبي بكر وعمر ، وأحد أركان حكومتهما ومن كبار مستشاريهما ، وكان موضع ثقتهما ، ويكتب لهما. وهو الذي كتب كتاب ولاية العهد من أبي بكر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً ، وترتيب عثمان في الفضل بين الصحابة كترتيبه في الخلافة ، كما يرى جمهور علماء الأمة .

" قصة أهل الشورى وبيعة عثمان "

لقد مر بنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكر طويلاً في أمر الخلافة بعده ، ولم يشأ أن يعهد إلى شخص بعينه ، وقال : إن أعهد - يعني لشخص محدد - فقد عهد من هو خير مني - يقصد أبا بكر عندما عهد إليه هو نفسه - وإن لم أعهد ، فلم يعهد من هوخير مني ، يقصد الرسول ﷺ ، حين تركها شورى بين المسلمين ، ولعل اجتهاده أداه إلى أن تصرف الرسول وأبي بكر ، يعطي له الفرصة هو أيضاً ، أن يسلك طريقة أخرى لاختيار من يخلفه ، يثري

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥١ .

(٢) الإصابة ، مصدر سابق ، جـ٦ ، ص ٣٩٢ .

بذلك تجربة طرق الاختيار ، وليرسخ في أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط دائماً بالأمة ، وإرادتها ورضاها ، وهي التي تملك محاسبته ان حدث منه تقصير أو أخطاء ، وتملك عزله عن منصبه إن ارتكب مايستوجب العزل .

لكل ذلك رشح لها الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة ، والذين توفى الرسول ﷺ ، وهو عنهم راض ، وقد مرّ ذكرهم ، ولا بأس من إعادة ذكر أسمائهم هنا ، وهم ، علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . ولم يأمر أحدا منهم أن يصلّي بالمسلمين إماماً ، لئلا يظن الناس أنه يميل إليه ، بل أمر صهيب الرومي أن يصلي بهم ، لتكون فرصتهم متساوية في الاختيار .

وكانت تعليماته مشددة ألا تمضي ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عليهم أمير من هؤلاء الستة ، لأن الأمة في ذلك الوقت كانت تواجه مشاكل لاحصر لها في البلاد المفتوحة ، والسرعة في حسم هذه المسألة ضرورية ، ليأتي خليفة يباشر أمور الدولة ، ويتحمل المسئولية ، ويصدر القرارات المطلوبة ، ولقد كانوا هم أيضاً على قدر عال من الشعور بالمسئولية ، فبمجرد أن فرغوا من دفنه ، شرعوا في التفاوض ، واستمر ذلك بعض الوقت ، ولما رأي عبد الرحمن بن عوف أن المفاوضات طالت ، وخشي فوات الوقت اقترح عليهم أن يخرج نفسه منها ، -أي يتنازل عن حقه في الخلافة - ويتركوا له اختيار الخليفة ، فوافقوا على ذلك ، فشرع في معرفة أرائهم هم ؛ واحدا واحدا ، على انفراد ، فرأى الأغلبية تميل إلى عثمان ، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة : (فلا يخلبو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان أحدا) [1] فلما اطمأن إلى أن الأغلبية تزكّي عثمان ، أعلن ذلك على ملأ الصحابة في مسجد الرسول ﷺ ، ولما كان عبد الرحمن يعلم أن الذي يلي عثمان منزلة عند الصحابة، هو علي بن أبي طالب ،

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٣ - كتب التاريخ زاخرة بتفاصيل كثيرة حول الموضوع ، وخلاصة ماحدث هو ماذكرناه هنا .

الذي زكاه ، عدد منهم ، فقد رأى أن يوضح له هو بالذات ، أن الأغلبية مع عثمان ، فقال له: (أما بعد ، ياعلي فإني قد نظرت في الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلا - كأنه يحذره من المخالفة - ثم أخذ بيد عثمان ، فقال : نبايعك على سنة الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين بعده ، فبايعه عبد الرحمن ، وبايعه المهاجرون والانصار) [١] ولم يتخلف عن بيعته أحد من الصحابة ، وكان ذلك بعد وفاة عمر بثلاثة أيام ، فاستقبل بخلافته أول المحرم من العام الرابع والعشرين من الهجرة . وبعد تمام البيعة ، صعد منبر الرسول ﷺ ، وخطبهم .

خطبة البيعة :

قال : رضي الله عنه ، بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي (إنكم في دار قلعة - أي دار رحلة - يقصد إنكم لستم مخلّدون في الدنيا -وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه.. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ،ولايغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بما مضى ، ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لايُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها : الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلا ؛ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها . واطلبوا الآخرة..) [٢] إلى آخر ما قال ، رضي الله عنه:

وأول مايلاحظ على الخطبة الأولى ، التي افتتح بها عثمان خلافته ، خلوها من الإشارة إلى المنهج الذي سيسير عليه في حكم الدولة الإسلامية ، ولعله اكتفى بما قاله لعبد الرحمن بن عوف ، لحظة البيعة ، من أنه سيعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وسيرة الخليفتين بعده ، على الرغم من ذلك فإن هذه الخطبة صورة لفظية دقيقة ، حملت المعاني التي تعبر عن شخصية الخليفة

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٢) تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، جـ٤ ، ص ٢٤٣ .

الشيخ - الذي أتم العقد السابع من عمره يومئذ - والرجل الذي أقبلت عليه الدنيا بمباهجها ، فزهد فيها ، ورغب فيما عند الله ، لأنه الخير والأمل ، فلم يكن غريباً أن تكون الوقفة الأولى لعثمان مع رعيته ، هي وقفة الناصح ، المرشد ، الذي يود أن يكون الناس جميعا على ماهو عليه ، تقي وزهادة ورغبة في لقاء الله ونعيم الآخرة الأبدي ، ليس هذا غريبا ، لأنه شأن كل راع مخلص كعثمان [١] .

كتبه إلى العمال والولاة :

في الأيام الأولى من خلافته ، كتب عثمان رضي الله عنه ، عددا من الكتب إلى الولاة والعمال وأمراء الأجناد ، بل وإلى عامة الناس ، تتضمن نصائحه وإرشاداته لجميع رعيته وتعبر عن ذات نفسه ، ومايكنه للأمة من نصح وخير ، وحرص على مصالحها .

يقول الطبري : أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله ، جاء فيه : (أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة - يرعون مصالح الأمة - ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة - وهذا تحذير للولاة من أن يكون كل همهم جمع الأموال - وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ،ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإن عادوا كذلك ، أنقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن اعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم ثنوا بالذمة - أهل الذمة - فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء [٢] .

---

(١) الخلفاء الراشدون ، دكتوران ، محمد محمد زيتون ، محمد جبر ابو سعده ص ١٢٢ ، دار الوفاء للطباعة . القاهرة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) تاريخ الطبري ، المصدر السابق جـ٤ ، ص ٤٥ ، وانظر بقية الكتب في نفس الصفحة .

وهذا كتابه إلى أمراء الاجناد: (أما بعد ، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر - بن الخطاب - مالم يغب عنا ، بل كان عن ملأ منا ، فلا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله مابكم ، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون ، فإني انظر فيما ألزمني الله النظر فيه ،والقيام عليه) وهذا كتابه إلى عمال الخراج : (اما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، ولا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق ، واعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها، ولاتكونوا أول من يسلبها . . . والوفاء الوفاء ، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم) وهذا كتابه إلى عامة الرعية : (أما بعد ، فإنكم إنما بلغتم مابلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد الاجتماع) .

هذه الكتب توضح السياسة العامة التي كان عثمان رضي الله عنه يتوخَّى أن يتبعها عماله وولاته في إدارة شؤون الأمة ، وهي سياسة طابعها الرفق بالرعية ، والسهر على مصالحها ، والإنصاف في جمع الخراج ، وإيصال الحقوق إلى أصحابها ، والإحسان إلى أهل الذمة ، ورعاية جميع طوائف الأمة، والوفاء الوفاء حتى للأعداء ، فانظر إلى قوله الرائع : (ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء) .

" الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان "

المسلمون والفرس :

عرفنا عند حديثنا عن الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب ، أنه أمر المسلمين بالانسياح في بلاد فارس ، بعد معركة نهاوند ، وتعبير الانسياح ؛ ذلك التعبير الموحى المعبِّر ، هو من كلام المؤرخين القدامى، أطلقوه ليدللوا على أن الجيوش الإسلامية انساحت في بلاد فارس ، كما ينساح الماء على أرض مستوية ملساء ؛ فلم يوقفه شئ ، وهذ ماحدث مع الجيوش الاسلامية ، فلم

تكد تلاقي مقاومة تذكر ، وما أجملناه عن هذا الموضوع في عهد عمر نزيده هنا بعض التفصيل ، لارتباطه بعهد عثمان رضي الله عنه ، وسياسته في الحفاظ على منجزات ابي بكر وعمر ، والقضاء على ردة الفرس ، ونقضهم المعاهدات التي وقعها معهم القادة المسلمون في عهد عمر .

وكان عمر - كما ذكرنا آنفا - قد وجه أكثر من عشرة جيوش ، على رأس كل جيش قائد من كبار القادة [1] ، وأمرهم بالقضاء على ملك الأكاسرة، ووضع حد لغطرستهم وتجبرهم ، وتخليص الشعوب من ظلمهم وعسفهم .

ونجح هؤلاء القادة جميعاً في مهمتهم ، وتم فتح كل تلك المقاطعات ، وكان أمراؤها الفرس الذين حرضوا يزدجرد الثالث على خوض معركة نهاوند، قد غيروا موقفهم ، وتخلوا عن فكرة الدفاع عن الامبراطورية ومجدها الغابر ، وبدأوا يفكرون في أنفسهم ومستقبلهم ، ورأوا أن مصلحتهم تحتم عليهم التعاون مع الدولة الجديدة ، وهي الدولة الاسلامية ، ولذلك ما أن اقترب القادة المسلمون من تلك المقاطعات إلا كان هؤلاء الأمراء يسارعون إلى لقائهم ، طالبين الصلح راغبين عن القتال ، ولم يبدوا مقاومة تذكر ، ولم نجد معارك كالقادسية أو نهاوند ، وفي الحقيقة إنَّ هؤلاء الأمراء كانوا واقعيِّين ، فقد رأوا ، ألاَّ جدوى من المقاومة ، فسلموا بلادهم ، على شروط المسلمين ، وقبلوا دفع الجزية، ووقعت معهم جميعا معاهدات ، كانت آية في الرحمة والعدل والتسامح من جانب المسلمين، وسنكتفي بايراد نص واحدة منها ، للتدليل على صدق مانقول: وهي معاهدة عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان. (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، أهل

---

(١) تجد تفاصيل كل ذلك في تاريخ الطبري جـ٤ ، ص ١٤٦ ، ومابعدها ، والكامل في التاريخ لابن الآثير جـ٣ ، ص ١٨ ومابعدها .

أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها ، وأهل مللها كلهم ، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم - ليس على صبيٍّ ولا على امرأة ، ولا زمن - مريض - ليس في يديه شئ من الدنيا ، ولا متعبد متخل ، ليس في يديه شئ من الدنيا ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، وعليهم قرى المسلم - ضيافه - من جنود المسلمين ، يوما وليله، ودلالته - على الطريق - ومن حشر منهم - أي من يستعان به منهم في الجيش، في الخدمات وليس في الجهاد - في سنة ، وضع عنه جزاء تلك السنة - يعني لايدفع جزيتها - ومن أقام فله مثل مالمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه، وكتب جندب ، وشهد بكير بن عبد الله الليثي ، وسماك بن خرشه الأنصاري [١].

أعدنا ذكر الفتوحات التي تمّت في عهد عمر بن الخطاب ، وذكر المعاهدات التي اعطاها قادة الجيوش الاسلامية لأهل فارس ، والتي تعبر عنها جميعا : تلك المعاهدة السالفة الذكر ، لنربط بين ماحدث في عهد عمر ، وماحدث في عهد عثمان ، لأن معظم المقاطعات الفارسية نقضت معاهداتها، لأنهم ظنوا أن مقتل عمر فرصتهم لطرد المسلمين من البلاد التي فتحوها ، وقد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن اغتيال عمر ، ومؤآمرة الفرس ودورهم في تدبير مقتله ، فبلاد فارس احتاجت إلى فتح جديد ، في الواقع في عهد عثمان رضي الله عنه ، وكانت أذربيجان نفسها التي ذكرنا معاهدة أهلها أول من نقض المعاهدة في مطلع خلافة عثمان ، يقول الطبري (وفي هذه السنة - يعني سنة اربع وعشرين - غزا الوليد بن عقبة اذربيجان وأرمينية ، لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر بن الخطاب) [٢] .

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ١٥٥ .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٢٤٦ .

لم تكن أذربيجان وأرمينيه وحدهما ، هما اللتان نقضتا معاهداتهما ، إنما كل المقاطعات الفارسية فعلت الشئ نفسه ، وسرت الردة في كل أرجاء البلاد، ردة تشبه الردة التي حدثت في بلاد العرب عقب وفاة الرسول ﷺ ، - من بعض الوجوه - وكما وقف الصديق كالأسد الهصور ، وقمع الردة في شبه جزيرة العرب ، وأعاد إليها الوحده الدينية والسياسية ، وردها إلى النظام والطاعة، فقد فعل عثمان بن عفان الشئ ذاته مع الفرس ، ووقف هو ، ومعه كبار الصحابة في مدينة الرسول ، يجهز الجيوش ويصدر أوامره إلى أمراء الأمصار. الوليد بن عقبة في الكوفة ، وعبد الله بن عامر في البصرة ، في التصدّي بحزم وعزم لحركة الردة الفارسية ، وإعادتهم إلى الطاعة والنظام ، والحق أن إعادة فتح المقاطعات الفارسية كانت أصعب من فتحها الأول في عهد عمر بن الخطاب ، لأنها حينذاك سلّمت بدون قتال تقريبا بعد هزيمتهم في نهاوند . أما الآن في عهد عثمان فقد خاض المسلمون معارك شرسة في كل المقاطعات ، واثبتوا للفرس أن غياب عمر عن الساحة لم يفت في عضدهم ، وكان الخليفة عثمان وأمراؤه وقواده على مستوى المسئولية ، وفي بضع سنوات - ٢٤ - ٣١ هـ - نجح المسملون في إعادة فتح كل بلاد فارس مرة أخرى ، ومن تصاريف القدر أن تلك المعارك شهدت الفصل الأخير من حياة آخر ملوك آل ساسان ، يزدجرد الثالث ، فقد لقي مصرعه [1] ، لا على يد المسلمين ، بل على يد رجل فارسي ، في مرو عاصمة خراسان سنة ٣١ هـ ، وبموته كتبت شهادة الوفاة للدولة الفارسية نهائياً. وطويت صفحتها من التاريخ ، وبدأ للبلاد تاريخ جديد تحت راية الاسلام ، تاريخ كله عدل ورحمة وتسامح ، واسلمت الأمة الفارسية ، وأصبحت منذئذ جزءا مهما من العالم الاسلامي ، وأسهمت اسهاما كبيرا في الحضارة الاسلامية .

---

(١) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٩٣ ، ومابعدها .

ومما يجد ذكره ، ويثير الإعجاب أن المسلمين كانوا رحماء بالفرس ، حتى بعد ردتهم ، فلم يقسوا عليهم ، ولم ينكّلوا بهم ، بل كانوا بعد الانتصار عليهم يقبلون اعتذارهم ، ولم يزيدوا عليهم أية التزامات ، وأعادوا معاملتهم طبقا للمعاهدات الأولى ، وهذا هو منتهى التسامح والعدل ، الذي لم تعرفه العلاقات الدولية إلا في ظلال الحكم الإسلامي .

يقول الطبري : (ثم إن الوليد - ابن عقبة - صالح أهل اذربيجان على ثمانمائة ألف درهم ، وذلك هو الصلح الأول الذي كانوا صالحوا عليه . . . سنة اثنتين وعشرين ، بعد وقعة نهاوند بسنة ، ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر ، فلما ولي عثمان ، وولّى الوليد بن عقبه الكوفة ، سار حتى وطئهم بالجيش ، فلما رأوا ذلك انقادوا إليه وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل ، فقبض منهم المال ، وبث فيمن حولهم من أعداء المسلمين الغارات) [1] .

" المسلمون والروم في عهد عثمان "

لم يكن الفرس وحدهم ، هم الذين طمعوا في المسلمين بعد وفاة عمر ابن الخطاب ، وانما كان الروم بدورهم قد حاولوا طرد المسملين من مصر والشام ، وأجلبوا على المسلمين ، حسب ماذكر الطبري . لأنهم هاجموا المسلمين بقوات كبيرة من آسيا الصغرى إلى درجة أن والي الشام القدير ، معاوية بن أبي سفيان أضطر إلى طلب مدد من الخليفة عثمان ، وكما فعل ابو بكر الصديق حين حرّك قوات من العراق إلى الشام ، بقيادة خالد بن الوليد لتدارك الموقف هناك - كما ذكرنا من قبل - فقد اقتدى عثمان بأبي بكر وحرّك قوات من العراق مرة أخرى لنجدة أهل الشام ، من غدر الروم ، فقد كتب إلى والي الكوفة ، الوليد بن عقبة : (أما

---

(١) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٤٧ .

بعد ، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإن أتاك كتابي هذا ، فابعث رجلا ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف ، إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام)[١] . فلما وصل كتاب أمير المؤمنين عثمان إلى والي الكوفة، جمع الناس وخطب فيهم ، وأبلغهم أمر الخليفة فقال : (أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسنا - يقصد ولايته وما يتبعها - رد عليهم بلادهم التي كفرت ، - يشير إلى انتفاضة أهل اذربيجان وردهم إلى الطاعة - وفتح بلادا لم تكن افتتحت ، وردهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله رب العالمين ، وقد كتب إلي أمير المؤمنين ، يأمرني أن أندب منكم مابين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف ، تمدون اخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ، وفي ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله ، مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب الناس ، فلم يمض ثالثة -أي ثلاثة أيام - حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة ، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم ، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة ، فشنوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ماشاءوا من سبى ، وملؤا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصونا كثيرة)[٢] . كل هذا حدث في أول عام من خلافة عثمان رضي الله عنه ، مما يدل على يقظته وحراسته لثغور المسلمين، وحماية بلادهم .

محاولات الروم العودة إلى مصر .

لم يتعظ الروم - البيزنطيون - بما حلّ بقواتهم على أيدي المسلمين في الشام ، فقد ردوهم على أعقابهم ، بل استولوا على كثير من حصونهم ، ومع ذلك لم يكفوا عن محاولتهم ، في العودة إلى مصر، ذلك أن الامبراطور الجديد

(١ ، ٢) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

الذي اعتلى عرش الدولة البيزنطية وهو قنسطانز الثاني ٦٤٢ - ٦٦٨ م - ٢٢-٤٨ هـ - سيطرت عليه فكرة استرداد الشام ومصر من أيدي المسلمين، كما استرد جده هرقل هذه البلاد من الفرس قبل سنوات قليلة من الفتح الاسلامي، فارسل حملة بحرية كبيرة، بقيادة أحد كبار قواده البحريين ويدعى؛ مانويل، وقد استطاع هذا القائد بالفعل النزول في الاسكندرية والاستيلاء عليها، بمساعدة من بقي فيها من الروم والاغريق سنة ٢٥هـ - ٦٤٥ م - وبدأ يتوغل في البلاد جنوباً قاصدا حصن بابليون، وهنا تنبه الجنود المسلمون إلى أن خير من يستطيع الدفاع عن مصر وطرد الروم منها، هو فاتحها عمرو بن العاص- الذي كان قد استعفى من حكمها في مطلع خلافة عثمان - فطلبوا من الخليفة عودته إليها، فلم يتردد الخليفة في تكليف عمرو بتلك المهمة، ولم يتردد الفاتح الكبير في العودة إلى مصر، لاستردادها من الروم وطردهم منها إلى الأبد، وقد حقق هدفه كاملاً [١]. وقتل مانويل قائد الحملة البيزنطي.

استمرار فتح شمال افريقيا في عهد عثمان:

عندما أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢١ هـ - ٦٤١م في خلافة عمر بن الخطاب، واصل زحفه ناحية الغرب، حتى وصل إلى طرابلس -عاصمة ليبيا حالياً - متوغلاً مسافة تبعد عن حدود مصر الغربية بنحو ألفي كيلو متر، ومن هناك كتب لعمر بن الخطاب كتابا يعلمه فيه بمكانه الذي هو فيه، ويطلب منه الإذن بمواصلة الفتح في افريقية - تونس الحالية - ولكن عمر بن الخطاب رفض، وأمره، بالعودة إلى مصر [٢]، لأنه لم يكن يبغي مزيدا من الفتوحات، فالفتوحات ليست غاية للمسلمين،وإنما هم اضطروا إليها للدفاع عن أنفسهم - كما ذكرنا ذلك مرارا من قبل،-

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، مصدر سابق، جـ٣، ص ٨١.
(٢) فتوح مصر - لابن عبد الحكم، ص ١٧٢ - ١٧٣.

أما هدفهم الحقيقي فهو نشر الاسلام ، وهذا لايحتاج بالضرورة إلى القوة، اذا أخلى الأعداء الطريق أمام الاسلام ، وكل ماكان يهم الخليفة عمر بن الخطاب أن ينظم البلاد التي تم فتحها ، وإن يقيم فيها العدل وينشر روح التسامح الإسلامي ، وبعدها فإن الناس سوف تقبل على الاسلام بدون حاجة إلى حروب ومعارك . هذه كانت سياسة عمر بن الخطاب التي أراد تطبيقها ، ولكن الفرس لم يسكتوا ، مما جعله يغير تلك السياسة ، كما اسلفنا القول .

ولما ولي عثمان، تطورت الأمور على جبهة الروم - في شمال أفريقيا - واصبحوا خطرا على الاسلام ، مما جعل والي مصر ، عبد الله بن سعد يكتب إلى عثمان : ان الروم لازالوا مسيطرين على شمال افريقيا ويغيرون باستمرار على حدود مصر الغربية ، ويسببون لنا كثيرا من المتاعب ، ومن ثم يجب التصدي لهم وردعهم قبل أن يتجرؤا ويهاجموا مصر نفسها ، فاقتنع عثمان بوجهة نظره بعد أن استشار الصحابه، فوافقوه على أن يأذن له بتجهيز حملات عسكرية لتأديبهم ، وكف عدوانهم ، ومما زاد عثمان والصحابة اقتناعا بوجهة نظر عبد الله بن سعد ، محاولات الروم المتكررة في العودة إلى مصر ، ومنها حملتهم على الاسكندرية ، التي سبقت الاشارة إليها . أرسل عثمان جيشا من المدينة ، مددا لابن سعد ، كان فيه عدد من الصحابة ، منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير ، وقاد عبد الله بن سعد الجيش سنة ٢٧هـ - ٦٤٧ م وتوغل غربا حتى وصل قرطاجة - عاصمة إقليم تونس في ذاك الوقت - ودارت عدة معارك، بينه وبين ملكها ، جريجوار - الذي تسميه المصادر العربية جرجير - والذي كان يحاول الاستقلال بتلك البلاد عن الدولة البيزنطية ، وكان النصر حليف المسلمين ، فانتصروا في كل المعارك ، وقتل الملك جريجوار، قتله عبد الله بن الزبير ، ولما لم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار في تلك المناطق ، بل إلى تأديبهم وكف أذاهم ومنع عدوانهم في تلك المرحلة ، فقد اكتفى القائد عبد الله بن سعد بعقد معاهدة صلح مع زعماء

البلاد ، تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير من المال . وعاد الجيش الاسلامي إلى مصر وقد امتلأت أيدي الجنود بالغنائم والأهم من ذلك ، امتداد النفوذ الاسلامي إلى إفريقية - تونس الحالية - وبعد عودة عبد الله بن سعد إلى مصر ، قام بغزوة إلى بلاد النوبة جنوبا سنة ٣١هـ - ٦٥١م - ومع أنها لم تكن غزوة حاسمة ، فلم تخضع النوبة للمسلمين ، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين اتفقا فيه على تبادل التجارة والمنافع .

يقول ابن عبد الحكم : (وإن عبد الله بن سعد بن ابي السرح صالحهم على هدنة بينهم ، على أنهم لا يغزونهم ، ولا يغزو النوبة المسلمين ، وأن النوبة يؤدون كل سنة كذا وكذا رأسا من السبى ، وأن المسلمين يؤدون إليهم كذا وكذا من القمح ومن العدس) [١] . يعني تعتبر هذه المعاهدة معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، كما يقال بلغة هذه الايام .

" نشأة الاسطول في عهد عثمان "

من أعظم الإنجازات العسكرية في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : إنشاء الاسطول الحربي الاسلامي ، فالعرب قبل الاسلام لم يعرف عنهم أنهم ركبوا البحر محاربين ، وإن كان بعضهم - مثل أهل اليمن والخليج - قد ركبوه متاجرين . فلما ظهر الاسلام ، وبدأت حركة الفتوحات الاسلامية ، وتم لهم فتح الشام ومصر، وجدوا أنفسهم وقد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط - الذي كان يعرف وقتئذ ببحر الروم، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة ولم تنازعهم في ذلك دولة أخرى- ولكي يحافظ المسلمون على شواطئهم ضد هجمات الأساطيل البيزنطية، كان لابد لهم من أن يمتلكوا قوة بحرية ، وكان أول من تنبه إلى ذلك ، وإلى الشام ، معاوية بن

---

(١) فتوح مصر ، ص ١٢٨ .

أبي سفيان ، رضي الله عنه ، لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام - مثل صور وعكّا وصيدا وبيروت - منذ عهد أبي بكر الصديق ، ثم عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا ، وواجه معاوية صعوبات كبيرة في فتح مدن الساحل، لقوة تحصيناتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية من توالي الإمدادات التي كانت تأتيها من البحر ، فهذه المدن لم تكن مجرد مدن ، وإنما محطات للأساطيل البيزنطية، لكل ذلك أدرك معاوية أنه بدون قوة بحرية إسلامية لن يستطيع المسلمون الدفاع عن كل الساحل الشامي ، ضد الاساطيل البيزنطية فعرض الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب ، وجسّم له الخطر في عبارات بليغة ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، هناك قرية من قرى الروم - يقصد جزيرة قبرص - في عرض البحر ، تتخذها أساطيلهم قاعدة للعدوان علينا ، هذه القرية قريبة من حدودنا إلى درجة أن أهل حمص - من مدن الشام - يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها [١] . فأذن لنا ببناء أسطول حربي بحري ، لكن عمر بن الخطاب رفض ذلك رفضا قاطعا ، لخوفه الشديد على المسلمين من أهوال البحر، وكان يري أن الوقت لازال مبكرا على الدخول في هذا الميدان الخطير ، وسيأتي ذلك في الوقت المناسب ، عندما تتوفر للمسلمين الخبرة الكافية ، وقال لمعاوية عبارة قصيرة تلخص موقفه تماما من القضية .

قال عمر : (لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم) [٢] يعني سلامة المسلمين عنده مقدمة على أي اعتبار آخر ، وطلب من معاوية أن يستعيض عن ذلك بتقوية حصون السواحل . أمام اصرار عمر لم يكن في وسع معاوية إلا الانتظار، إلى أن تتهيأ ظروف أفضل ، ولكنه لم يطرد الفكرة من عقله ولم يفقد الأمل في تحقيق الهدف .

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٢٥٨ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ٣ ، ص ٩٦ .

عثمان والأسطول :

بعد أن تولى عثمان الخلافة في مطلع عام ٢٤هـ ، بادر معاوية على الفور وعرض عليه مشروعه لانشاء الأسطول ، فرفض في البداية ، وذكّر معاوية بأنه كان على علم بكل مادار بينه وبين عمر بن الخطاب في ذلك الشأن ، وأنه ليس أقل حرصا من عمر على سلامة المسلمين ، لكن معاوية ألحَّ على عثمان إلحاحاً شديداً ، وكان أجرأ عليه منه على عمر ، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر منه بالأذن [1] ، وكان إذنا مشروطا . فقد اشترط عثمان على معاوية ألا يكره أحدا من الجنود على العمل في الأسطول ، ووافق معاوية على هذا الشرط ، وبدأ العمل على الفور في بناء الأسطول ، بالتعاون مع والي مصر ، عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، مستثمرين كل الامكانيات المتاحة ، والصالحة لصناعة السفن في كل من مصر والشام ، ففي مصر توجد ترسانات لصناعة السفن ، وعدد كبير من العمال المهرة المدربين على العمل في هذا الميدان . كما يوجد بها شجر الصنط الذي تصلح اخشابه لعمل الصواري وضلوع السفن ، وفي الشام يوجد الكثير من المواد اللازمة لصناعة السفن ، مثل اخشاب الصنوبر والبلوط والعرعر ، وقد أدّى التعاون الوثيق بين مصر والشام ، بفضل سياسة معاوية الحكيمة ، واصراره على إنجاز العمل ، الذي يعتبر هو صاحب الفضل الأول في التفكير فيه ، أدى التعاون إلى بروز الأسطول الإسلامي كقوة بحرية ضاربة في البحر المتوسط في وقت قصير للغاية ، بحيث لم يصبح الاسطول الاسلامي ندا للاسطول البيزنطي فقط ، بل سيتفوق عليه ، وسينتزع منه

---

(١) الحق أن موافقة عثمان رضي الله عنه على انشاء الاسطول جاءت في موعدها تماما ، وليس معني رفض عمر للفكرة ان يظل هذا الرفض إلى الابد ، لأن السياسة المرنة الواعية هي التي تستجيب لمتطلبات الظروف ، فعثمان ادرك ان معاوية على صواب ، وعمق هذا الادراك الهجوم الذي شنه الاسطول البيزنطي على الاسكندرية ، فالموافقة نابعة من تقدير سليم للموقف .

السيادة على البحر الأبيض المتوسط ، الذي سيصير بعد فترة قصيرة بحيرة إسلامية .

فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ :

كان أول عمل عسكري بحري ناجح قام به الأسطول الإسلامي ، هو فتح جزيرة قبرص. التي كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار ، لقربها منها ، ولأنها كانت محطة كبيرة من محطات الأساطيل البيزنطية ، وكانت هي السبب المباشر فيما فكر فيه معاوية ، وفيما دار بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب من قبل .

فما أن أنزلت سفن الأسطول في البحر حتى كانت قبرص هي الهدف الأول - وقد غزاها معاوية سنة ٢٨ هـ - يعني بعد أربع سنين فقط منذ أخذ الأذن من الخليفة عثمان ، بالبدء في انشائه ، واربع سنين ليست مدة طويلة ، لانشاء اسطول بحري حربي وهذا يدل على الجدية والسرعة والحماس الذي تم به العمل .

كانت الغزوة مشتركة ، اشتركت فيها قوات الشام ، وقوات مصر بقيادة عبد الله بن سعد ، ونزلوا في قبرص واستولوا عليها ، فعرض أهلها الصلح ، فقبل منهم معاوية ، ليقيم لهم الدليل الحي على أن المسلمين لايبغون العدوان على احد ، وانما هم يدفعون العدوان عن بلادهم .

واشترط معاوية لعقد الصلح عدة شروط منها : (١)

١ - ان يدفع أهل قبرص جزية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار .

---

(١) الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، جـ٣ ، ص ٩٦ .

٢ - ان يعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد سواحلهم .

٣ - إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم يكون أهل قبرص على الحياد، ولكن لايمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك .

عاد المسلمون إلى شواطئهم بعد توقيع الصلح ، ووفوا بكل التزاماتهم نحو أهل قبرص ، لكنهم هم لم يوفوا ، بل غدروا ونقضوا الصلح ، مما جعل معاوية يعود لغزو الجزيرة مرة أخرى سنة ٣٣هـ ، وضمها إلى ممتلكات المسلمين ، وليدلل لأهلها أن المسلمين هذه المرة لن يتركوها ، لأن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين ، فقد نقل إليها اثنى عشر الفا من المسلمين من الشام ، اسكنهم فيها ، وبنى لهم الدور والمساجد [١] .

موقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ .

مر بنا محاولات الروم العديدة للعودة إلى الشام ومصر ،وعرفنا أن المسلمين تصدٌوا لهم ، وحالوا بينهم وبين ذلك ، معاوية بن أبي سيان في الشام وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد في مصر، ولكنهم لم يكفوا عن المحاولة، ولازالت الآمال تراودهم في استرداد تلك البلاد الجميلة الغنيَّة من المسلمين ، والآن برز عنصر جديد أزعج الروم غاية الإزعاج ، وهو ظهور الأسطول الإسلامي، الذي بدأ قوياً عملاقاً من أول لحظة ، ووضح ذلك من نجاحه في الاستيلاء على جزيرة قبرص، التي كانت من أهم قواعد الأساطيل البيزنطية في شرق البحر الأبيض المتوسط ، لذلك صمم الأمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني

---

(١) فتوح البلدان . للبلاذري ، ص ١٨٢ .

على تحطيم الاسطول الاسلامي ، قبل أن تكتمل قوته ، ويستفحل خطره ، فتظل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط للإسطول البيزنطي وحده ، فعبأ الامبراطور كل قواته البحرية ، وسار قاصدا سواحل الشام ، ولايراوده شك في قدرته على تدمير السفن الإسلامية ، لأنها ناشئة جديدة ، وخبرة المسلمين البحرية قليلة ، فأني لها أن تتصدى للأساطيل البيزنطية العتيدة ، ولكن الامبراطور كان لايزال يعيش في الأوهام ، فالمسلمون لم يكن يغيب عن أذهانهم أن نزول أسطولهم إلى البحر ، ونجاحه في فتح جزيرة قبرص سيثير ثائرة الروم وامبراطورهم، وأنه لابد سيدخل معهم في حرب بخرية ، فاستعدوا لذلك الموقف ، وتجلى مرة أخرى التعاون الوثيق بين مصر والشام ، واسندت قيادة الأسطول إلى والي مصر القدير عبد الله بن سعد بن ابي السرح ، والتقى الأسطولان ، الإسلامي والبيزنطي ، بقيادة الإمبراطور نفسه ، في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، جنوبي شاطئ آسيا الصغرى - تركيا الحالية - ودارت معركة بحرية كبيرة ، سُمِّيت ذات الصواري ، لكثرة السفن التي اشتركت فيها من الجانبين - خمسمائة مركب من جانب الروم ، ومائتي مركب من جانب المسلمين - وانتهت بنصر عظيم للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للأسطول البيزنطي ، وكاد الامبراطور نفسه يهلك في المعركة ، لكنه نجا بأعجوبة .

أثر معركة ذات الصواري على علاقات المسلمين والروم :

كانت النتيجةالتي أنتهت إليها معركة ذات الصواري ذات أثر عظيم على العلاقات بين المسلمين والروم ، ويعتبرها كثير من المؤرخين نتيجة حاسمة في تاريخ تلك العلاقات ، بل في تاريخ البحر الأبيض المتوسط خلال العصور الوسطى ، فقد أنهت وصفه ببحر الروم ، وجعلته حريا أن يدعى بحر الإسلام والمسلمين ، والدليل على ذلك أن الأمبراطور قنسطانز الثاني ، أقلع تماماً عن فكرة العودة إلى مصر والشام ، وأدرك أن كل تلك المحاولات ضرب من العبث وضياع الوقت ، فأقدام المسلمين رسخت في تلك البلاد ، وها هو

أسطولهم الناشئ يحمي شواطئهم ، وينتصر على الأسطول البيزنطي انتصاراً ساحقا في ذات الصواري .

لذلك لم يعد الامبراطور من المعركة إلى عاصمته القسطنطينية ، وإنما عاد إلى جزيرة صقلية ، قبالة شاطئ تونس ، ليحمي ماتبقى من شمال افريقيا ، ولكن حتى هذا لم يعد ممكنا ، فقد قتل هو نفسه في صقليه سنة ٦٦٨م وشمال افريقيا كله سيفتتحه المسلمون ، بل سيعبرون البحر إلى الأندلس ، ولكن ذلك سيكون في عهد بني أمية ، بعد عهد الخلفاء الراشدين ، وسبحان مغير الأحوال .

مصحف عثمان :

إذا كان لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أن يفخر بالعديد من الانجازات الهائلة . مثل القضاء على انتقاض الفرس والروم ، وردعهم ، وتثبيت أقدام المسلمين في البلاد المفتوحة ، أو في الحقيقة يمكن القول أن تلك البلاد قد فتحت من جديد في عهد عثمان ، إذ لولا حزمه وعزمه ، ولولا رجولة وشجاعة قواده وجنوده - وقبل كل ذلك عون الله وتأييده - لكان من الممكن أن تضيع كل تلك الفتوحات ، التي تمت في عهد سلفه العظيم ، الفاروق عمر ابن الخطاب .

ومثل انشاء الاسطول الإسلامي الذي تحدثنا عنه طويلاً منذ قليل ، أقول: إذا كان لعهد عثمان أن يفخر بكل تلك الانجازات الكبيرة ، فإنَّ له أن يفخر بأعظم منها كلها ؛ وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة ، فهذا العمل هو مفخرة المفاخر لعهد عثمان ، وهو الباقي إلى يوم القيامة ، لأنه لولا جمع القرآن وحفظه ، تصديقاً لوعد الله سبحانه وتعالى [١] . لضاعت الأمة

(١) لقد تعهد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم في قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) سورة الحجر آية ٩ .

الأسلامية فهو الذي حفظ لها بقاءها . تحدثنا في آخر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن الجمع الأول للقرآن الكريم ، وظروفه وأسبابه ، فما هي البواعث التي دعت إلى هذا الجمع الثاني في عهد عثمان رضي الله عنه ؟ أعني جمع الناس على قراءة واحدة للقرآن الكريم . يقول العلماء :

للقرآن الكريم صورتان واضحتان ، صورة صوتية مقروءة ، وصورة مكتوبة مدونة ، فقد حرص الرسول ﷺ على تدوين الآيات فور نزولها ، وعندما أنتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان قد تولى بنفسه ترتيب الآيات في السور، والسور ذاتها كما جاءت في المصحف ، والتي بلغ عددها مائة وأربع عشرة سورة ، وذلك طبقا للعرضتين الأخيرتين اللتين عرضهما جبريل عليه السلام ، على النبي في السنة الأخيرة من حياته ، أما الصورة الصوتية فتتضح في تلقي القرآن مشافهة من الرسول ، وقد حفظ الصحابة القرآن باللهجات التي درجوا عليها ، وأجاز لهم النبي ذلك ، وهكذا ظهر الاختلاف في وجوه القراءة بين الصحابة من بدء نزول القرآن ، نتيجة للهجة التي أعتادها اللسان [1] .

ولما جمع القرآن الكريم في الصحف في عهد أبي بكر - بهيئته المكتوبة - بقيت الصورة الصوتية كما هي ، ولما فتحت البلاد وتفرّق الصحابة فيها - وقراءتهم للقرآن مختلفة - أخذ أهل كل إقليم يقرؤُونه بقراءة الصحابي أو الصحابة الذين عاشوا بينهم، فبعضهم مثلا يقرأ « فازّلهما الشيطان عنها » ، وآخرون يقرؤنها " فأزالهما الشيطان عنها " وتمسك أهل الكوفة بقراءة عبد الله ابن مسعود ، وأهل الشام بقراءة أبي بن كعب ، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعري، ومع اتساع الفتوحات ، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحوّل إلى تعصب ، بل كاد يؤدي إلى الفتنة بينهم ، مما أفزع الصحابي الجليل ،

---

(١) تاريخ القرآن ، د . عبد الصبور شاهين ص ٦ .

حذيفة بن اليمان ، الذي كان يغزو في أذربيجان ، فلما عاد إلى الكوفة ، قال: لأميرها سعيد بن العاص (لقد رأيت في سفرتي هذه أمرا ، لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ، ثم لايقومون عليه أبدا ، قال : وماذاك ؟ قال رأيت أناسا من أهل حُمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأيت أهل دمشق يقولون : إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة يقولون : مثل ذلك ، وانهم قرؤا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون : مثل ذلك وإنهم قرؤا على أبي موسى الأشعري ،ويسمون مصحفه لباب القرآن) ، فلما وصلوا الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك ، وحذرهم مايخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ ، . . وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتيَنّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان - ولأشيرن عليه : أن يحول بين الناس وبين ذلك . . . وسار إلى عثمان ، فأخبره بالذي رأى ، وقال:أنا النذير العريان . فأدركوا الأمة ، فجمع عثمان الصحابة ، وأخبرهم الخبر ، فأعظموه ، ورأوا جميعا ما رأي حذيفة ، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر - ابن الخطاب - أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها ، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر، وبعده أخذها عمر بن الخطاب، وعند موته حفظت عند ابنته حفصة ، فأرسلتها إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت ، وهو الذي رأس لجنة الجمع الأول في عهد أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصحف ، وقال عثمان : إذا اختلفتم - يعني في كلمة أو كلمات - فاكتبوها بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، فلما نسخوا المصحف . . . ارسل الى كل أفق - أي إقليم - بمصحف ، وحرّق ماسوى ذلك ، وأمر أن يعتمدوا عليها)[1] . هذه

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ٣ ، ص ١١١ - ١١٢ ، ومن الواضح أن أمر عثمان باحراق المصاحف الأخرى كان حرصا منه على عدم تعددها لئلا يعود الخلاف بين المسلمين ، وهذا من أعظم أعماله واجل حسناته رضي الله عنه .

هذه هي قصة الجمع الثاني للقرآن الكريم في عهد عثمان في مصحف واحد ، سمِّي بالمصحف الإمام ، أو مصحف عثمان ، وهذه مكرمة جليلة من مكارمه الكثيرة ، رضى الله عنه .

وفيما يلي نماذج لبعض الكلمات كما جاءت على رسم مصحف عثمان مقارنة بأوجه قراءتها الأخرى :

الكلمة او الجملة كما في مصحف عثمان	بعض اوجه قراءتها
ابراهيم	ابراهام
ملك يوم الدين	مالك يوم الدين
وعلَّم آدم الأسماء كلها	وعُلِّمَ آدمُ الاسماء كلها
ولا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم	ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم
فبُهِتَ الذي كفر	فَبَهَتَ الذي كفر
فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم	. . . غير متجنف لإثم
يخرج نباتُه	يُخرجُ نباته
ذريتهم	ذرياتهم

" الفتنة واسبابها "

سارت الأمور في الدولة الاسلامية على خير مايرام ، في الشطر الأول من خلافة عثمان رضي الله عنه - ٢٤ - ٣٠ هـ - فالإدارة منضبطة ، وولاة الأقاليم من أكفأ الولاة ، وقد نجحوا في كبح التمرد الفارسي ، وردُّوا الروم عن

العودة إلى الشام ومصر ، كما ذكرنا آنفا- وتم بناء الأسطول الحربي الاسلامي، الذي فرض السيادة الاسلامية على البحر الأبيض المتوسط . باختصار كان كل شئ يبشر بالخير ويدعو إلى التفاؤل ، واطراد التقدم في جميع المجالات ، ولكن مع بداية سنة ٣١ هـ ، هبت على الأمة الإسلامية رياح فتنة عاتية ، زلزلت اركانها وكبّدتها تضحيات جسيمة ، وأحرقت بنارها الظالمين والمظلومين ، والمذنبين والأبرياء - تصديقاً لقول الله تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الأنفال ، الآية ٢٥ .

وهذه الفتنة الهوجاء استمرت للأسف الشديد ،نحو عشر سنين ، ماتبقى من خلافة عثمان ، وكل زمن خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحديث عنها يبعث في النفس الأسى والحزن والألم العميق . إذ بينما كنا نتحدث عن فتوحات وانتصارات ، وتنظيم إدارة ، وإنشاء أجهزة ودواوين وتمصيرحواضر إسلامية ، والأمة الاسلامية ، وخليفتها : السمح الطيب الحيّ العطوف ، مشغولة بحفظ كتاب ربها ودستور دينها ودنياها ، ونبراس هدايتها ، القرآن الكريم ، بينما نتحدث عن ذلك كله ، وتمتلئ النفوس المسلمة حبًّا وإعجاباً وتقديراً واحتراماً وهيبة وإجلالا ، وفخراً واعتزازا ، بالعصر ورجاله ، إذ نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن أمر تكرهه النفوس الصافية أشد الكراهة ، ذلك هو حديث الفتنة التي لعن رسول الله ﷺ ، من يوقظها من نومها . فما أسباب تلك الفتنة ؟

المؤامرة الكبرى على الأمة الإسلامية :

لانشك لحظة واحدة - بعد دراسة متأنية للموقف من جميع أبعاده - أن تلك الانعطافة الخطيرة التي حدثت في حياة الأمة الإسلامية ، وأوقعتها في براثن تلك الفتنة العاتية كانت نتيجة مؤآمرة واسعة النطاق ، مؤآمرة كانت أحكم في تدبيرها وأوسع في أهدافها ، وأشرس وأخطر في نتائجها من مؤآمرة

اغتيال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لا لأن عثمان وعليّ رضي الله عنهما - اللذين ذهبا ضحيتها كانا أفضل أو أهم من عمر، ولكن لأن اغتيال عمر - مع أنه كان خسارة فادحة للأمة الإسلامية - لم يخلّف آثارا خطيرة بين المسلمين، ولم يُقسِّمهم إلى شيع وأحزاب - شيعة وخوارج وغيرهم- كما حدث في آخر عهد عثمان ، وفي عهد علي ، فالذي خطط لقتل عمر والذي نفذ، كلهم كانوا غير مسلمين وغير عرب ، أما الذين قتلوا عثمان، وعلي بعده، فإنهم عرب مسلمون - للأسف الشديد - وهذا هو وجه الخطورة ، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم ، فالذي تطمئن إليه النفس ان الذي تولى التخطيط للفتنة ، وقتل عثمان واغراق الأمة كلها في بحر من الدماء ، كان هو عبد الله ابن سبأ - ذلك اليهودي الذي أدعى الاسلام ، ليتمكن من الكيد للأمة الاسلامية من داخلها ، والذي لقب بابن السوداء - لسواد أمه - وقبل أن نتحدث عنه وعن دوره وخطورته ، نتحدث عن الظروف التي كانت سائدة - في الدولة الاسلامية آنئذ - واستغلها هو لتحقيق أهدافه الشريرة ، أسوأ استغلال وأبشعه .

أولاً : تغيرت الظروف - وربما كان هذا تطورا طبيعيا في حياة الأمة - في آخر حياة عثمان ، عمَّا كانت عليه في خلافة عمر بن الخطاب ، بل وبداية خلافته هو نفسه ، فقد كثرت الغنائم في أيدي الناس ، وبدأوا يتوسعون في المأكل والملبس والمشرب ، خاصة الجيل الجديد من العرب، الذي دخل في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ ، ولم يتأدب بآدابه ، ولم يتعود حياة القناعة ، والاقتصاد في المعيشة ، التي كان يحياها الصحابة في حياته ﷺ ، ذلك التوسع في المأكل والمشرب لم يرض صحابيا اشتهر بالزهد في الدنيا ، وهو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، فسخط على عثمان وولاته وعماله ، وحملهم مسئولية ذلك التطور الاجتماعي الطبيعي والذي لم يكن من صنعهم ، وأخذ ينادي بنظرية غريبة على الاسلام وأصوله وقواعده ، فقد قال : بتحريم أن يمتلك المسلم شيئا من المال فوق حاجة يومه وليلته ، وهذا قول في غاية الغرابة ،

والأغرب أنه استشهد عليه بآية من القرآن الكريم ، هي قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ التوبة الآية ٣٤ .

ولم يوافق أبا ذر أحد من الصحابة على رأيه هذا ، وكانوا يرون أن المال إذا جمع من حلال وأدى عنه حق الله وهو الزكاة فلا يعتبر كنزا، ولاتنطبق عليه الآية ، ثم من أين أتى أبو ذر بهذا الرأي ، مع أن الثابت أن الرسول ﷺ ، كان يخزن مؤونة بيوته لمدة سنة إذا كانت الظروف تسمح بذلك ، يقول الامام النبهاني في وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ص ٨٦ : (روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ كان يعزل نفقة العيلة سنة) فإذا كان رسول الله يحتاط ويخزن مؤونة سنة ، فكيف يحرم أبو ذر على المسلمين أن يحوزوا مالا فوق حاجة يومهم وليلتهم . ثم إن الله تعالى شرع في القرآن الكريم نظاماً دقيقاً للمواريث ، ومعنى ذلك أن المسلم عندما يموت يترك تركة وثروة تقسم بين ورثته ، وكثير من الصحابة كانوا أغنياء على عهد رسول الله ﷺ ، ومنهم عثمان نفسه وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأموالهم كانت في سبيل الله ،ولم يعب عليهم الرسول ثراءهم ، بل يروى أنه ﷺ قال :(نعم المال الصالح للعبد الصالح) ، وقصة سعد بن أبي وقاص مع رسول الله مشهورة ، عندما أراد أن يتصدق بكل ماله ، فنصحه الرسول أن يبقي شيئا لأولاده ، وقال له : (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) على كل حال لو احتفظ أبو ذر برأيه لنفسه لكان الأمر هيِّنا ، ولكنه أخذ يذيعه في الناس ، فتجمع حوله الكسالى والعاطلون الذين استهوتهم دعوته ، والذين يريدون أن يعيشوا عالة على عمل غيرهم ، والاسلام لايشجع على البطالة وإنما يدعو إلى العمل الجاد .

أخذ أبو ذر يؤلب الناس على عثمان وولاته ، وكانت دعوته سببا من اسباب تفاقم الفتنة ، رغم أنه هو نفسه كان عثمان اقنعه بان دعوته لاتوافق

كل الناس ، فإذا أراد أن يعيش بين الناس فليعش مثلهم ، واذا أراد الزهد فليعتزلهم ، فاعتزلهم وسكن الربذة - شرقي المدينة المنورة - واجرى عليه عثمان رزقاً وفيرا وأعطاه خادما ، لكن دعوته كانت قد استشرت وتلقفها ابن سبأ واستغلها في تشويه سمعة عثمان ، لمكانة أبي ذر من الناس ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثانياً : عندما بدأت الفتوحات الإسلامية على جبهتي الفرس والروم ، منذ خلافة أبي بكر ، شارك فيها أعداد كبيرة من أهل اليمن ، وأهل منطقة الخليج، وكان دورهم في الانتصارات لاينكر ، ولكنهم بعد أن فتحوا البلاد وجدوا الامارات والوظائف الرئيسية أسندت إلى غيرهم ، خاصة أبناء قبيلة قريش ، وابناء المهاجرين والانصار ، فلم يعجبهم ذلك الوضع ، مع أنه كان ضروريا ، لأن المهاجرين والأنصار وابناءهم ، أولى بالإمارة وقيادة الجند ، لأنهم يعرفون الاسلام وشرائعه أكثر، فقدَّمهم علمهم وفقههم في الدين وسابقتهم في الاسلام ، وجهادهم مع رسول الله ﷺ ، لا مجرد أنسابهم ، ولكن الأخرين لم يقتنعوا بذلك ، ورأوا أنفسهم أحق بالولايات التي فتحوها بسيوفهم : وعن هؤلاء يقول ابن خلدون : [1] (وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار - البصرة والكوفة والفسطاط - جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ، ولا هذَّبتهم سيرته وآدابه، ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر ، والبعد عن سكينة الإيمان ، وإذا بهم عند استفحال الدولة -سعتها وقوتها - قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار - أي تحت حكمهم . . . فاستنكفوا عن ذلك وغصُّوا به - أي لم يرضهم واستكبروا عليه - لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة، وقبائل كندة والأزد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا إلى الغضِّ من قريش

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، جـ ٢ ، ص ٦١٩ - ٦٢٠ . تحقيق د . علي عبد الواحد وافي .

والأنفة -التعالي- عليهم والتمريض في طاعتهم - التحريض على عدم طاعة الأمراء- والتعلل في ذلك بالتظلم منهم ، والاستعداء عليهم) كلام ابن خلدون طويل جدا في هذا الموضوع . وملخصه أنه تكونت جبهة عريضة من أبناء تلك القبائل ، معارضة لسيطرة أبناء المهاجرين والأنصار على الدولة الاسلامية ، وأن شكاواهم من الولاة واتهامهم بالظلم لم تكن حقيقية ، وإنما كانت ذريعة للنيل منهم ، ومن عثمان نفسه ، وقلب الدولة وتغيير ذلك الحكم الذي يتهمونه بالظلم ، وهؤلاء كانوا صيدا سميناً لابن سبأ ، الذي أخذ ينفخ في النار ، ويصب عليها زيتا ، حتى تزداد اشتعالاً ، لتحرق الأمة الاسلامية بأسرها، فكما استغل أبا ذر ودعوته للزهد ، فقد استغل السخط الذي كان يملأ قلوب هؤلاء أيضا لتحقيق هدفه الشرير .

ثالثاً : بالفعل عندما بدأت هذه الحركة ، أو هذه الفتنة ، كان معظم ولاة الأقاليم من قريش ، بل من بني أمية ؛ أهل عثمان وأقربائه ، مهما سهّل على ابن سبأ مهمته ، ونبادر فنقول : للحق والحقيقة إن هؤلاء الولاة ، وهم معاوية ابن أبي سفيان والي الشام ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر ، وعبد الله بن عامر والي البصرة والوليد بن عقبة والي الكوفة ، كانوا من خيرة الولاة . وقد رأينا جهودهم في تثبيت الفتوحات بعد استشهاد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه . وأنهم كانوا ولاة قبل خلافة عثمان ، بل بعضهم ؛ وهو معاوية كان واليا في الشام ، وفاتحاً من عهد أبي بكر الصديق ، وأن عثمان لم يولّهم لهوى في نفسه، أو لأنهم أقرباؤه فقط، بل ولاّهم لكفايتهم ومقدرتهم الإدارية، وكيف يوليهم لمجرد القرابة ، إذا كانوا غير جديرين بالولاية ، وهو الذي سمع رسول الله ﷺ ، يقول : (من وَلِي من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين فقد خان الله ورسوله [١]) ومن المؤسف أن كتابا كبارا ممن كتبوا عن هذه الأحداث لم يتحروا الدقة ، وأكاد أقول الأمانة

---

(١) السياسة الشرعية ، لابن تيمية ، ص ١١ .

العلمية في كتابتهم ، فصوّروا الأمر كما لو أن عثمان جاء بهؤلاء الولاة من عرض الشارع ، وعيّنهم على الولايات الكبيرة ، وحملهم على رقاب الناس ، لأنهم أقرباؤه فقط،وهذا افتراء على عثمان رضي الله عنه،فالدكتور طه حسين، في كتابه الفتنة الكبرى [١] ، يصوّر أمر استعفاء عمرو بن العاص من إمارة مصر ، بناء على طلبه ، على أنه عزل من جانب عثمان ، الذي عيّن مكانه أخاه من الرضاعه عبد الله بن سعد ، ولايذكر شيئا مما يذكره مؤرخو مصر الإسلامية مثل ابن عبد الحكم والكندي ، من أن عبد الله بن سعد كان واليا على صعيد مصر من قبل عمر بن الخطاب ، وقد اشرنا إلى ذلك من قبل ، فلما تولى عثمان الخلافة بعد عمر بن الخطاب ، طلب منه عمرو بن العاص أن يخصّه وحده بإمارة مصر كلها ، ويعزل عبد الله بن سعد عن إمارة الصعيد ، فرفض عثمان ، فاعتزل عمرو الولاية بناء على طلبه ، ولم يعزله عثمان ، يقول ابن عبد الحكم (طمع عمرو في ولاية مصر كلها ، فلما رفض عثمان ، قال عمرو : (لست راجعاً إلا على ذلك)[٢] فهو الذي استقال من عمله . هذا ماحدث ، وماروته أوثق مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، ولكن الدكتور طه حسين تجاهله تماماً ، لماذا ؟ الله أعلم ، وهذا مثل واحد على عدم الدقة ، وعدم الأمانة في تناول التاريخ الإسلامي ، خاصة تلك الأحداث المهمة ، التي حدثت في عهد الصحابة ، الذين نقلوا لنا الدين كله ، وهم كلهم عدول ، وأهل ثقة وأمانة، ونحن قبلنا منهم هذا كله بالتصديق ، فكيف نشك في نواياهم في امر الدنيا .

رابعاً : إذا كان أبناء القبائل العربية التي شاركت في الفتوحات من بدايتها قد أغضبهم سيطرة المهاجرين والأنصار وأبنائهم على الدولة الاسلامية وتولي المناصب الكبيرة فيها ، فالذي لاشك فيه أن هناك أيضا من أبناء البلاد المفتوحة - خاصة بلاد فارس - من لم يسترح إلى سيادة العرب عليهم ،

---

(١) جـ ١ ، ص ١٢٢ ، ومابعدها .
(٢) فتوح مصر ، ص ١١٨ .

وسيطرتهم على بلادهم ، وهم الذين كانوا بالأمس يحتقرونهم وينظرون إليهم نظرة استعلاء ، فإذا بهم بين عشيّة وضحاها يجدونهم قد فتحوا بلادهم ، وأصبحوا أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في تقرير مصائرها ، فعز عليهم ذلك، وهؤلاء لم يتركوا فرصة لزعزعة الدولة الاسلامية الا انتهزوها ، خاصة من لم يتمكن الاسلام من قلوبهم منهم ، فكان لهم دور خطير في إثارة الفتنة على عثمان ، واستمر دورهم هذا إلى آخر العهد الأموي .

خامساً : كل ماتقدم كان يمكن تداركه وعلاجه ، بل حاول عثمان رضي الله عنه استرضاء الثائرين الغاضبين ، وإجابة كل مطالبهم ، لكنهم استمروا في تأليب الناس عليه ، ثم قتلوه في النهاية . لأنه لان لهم وحلم عليهم أكثر مما ينبغي ، ولو أخذهم بالشدة والحزم ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب مع أمثالهم ، لارتدعوا وانحسمت الفتنة في مهدها ، وقد لخص العلماء ذلك فابن العربي يقول : (وكان أبو ذر يطلق من الكلام - ضد عثمان وولاته - مالم يكن يقوله في زمان عمر) [1] ومعنى ذلك أنه كان يخاف حزم عمر ، وتجرأ على عثمان ، لسماحته ولين جانبه ، ولم يكن هذا حال أبي ذرٍ وحده ، بل كل الأشرار استثمروا سماحة عثمان وحياءه ، وطمعوا فيه ، وارتكبوا أبشع جريمة في حق خليفتهم ، بل في حق المسلمين جميعاً .

عبد الله بن سبأ :

نأتي إلى الشيطان، الذي آلى على نفسه إغراق الأمة في لجج من الفتن والحروب ، واستغل كل الظروف السابقة ووظفها لتحقيق أهدافه ، فهو رجل يهودي من صنعاء ، ادّعى الإسلام في عهد عثمان ، وأخذ يبُثُّ في المسلمين أفكاراً غريبة ، وبعيدة عن الإسلام ، مثل قوله بالوصية ، أي أن علي بن أبي طالب . هو وصِيّ النبي محمد ﷺ ، وخليفته من بعده ، ومعنى ذلك أن

---

(١) العواصم من القواصم ، ص ٧٦ .

الصحابة الثلاثة ، أبا بكر وعمر وعثمان ، اغتصبوا حقه في الخلافة : من هذه النقطة بدأ ابن سبأ ، مستغلا كل الاطراف التي سبق الحديث عنها ، ووضع للثائرين والناقمين على اختلاف مشاربهم واهدافهم ، خطة خبيثة ماكرة للتحرك ضد الخليفة وولاته ، ولّما كان يعرف أن عثمان نفسه رضي الله عنه فوق الشبهات، فقد أشار عليهم بالنيل من الولاة أولاً ، حتى إذا نجحوا في تشويه سمعتهم ، انتقلوا إلى عثمان ، باعتباره المسئول الأول عن هؤلاء الولاة ، وكان مما قاله لأتباعه : (إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله - يقصد علياً - فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤا بالطعن على أمرائكم ، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس) [١] بهذا التدبير الشيطاني بدأ ابن سبأ يفسد أمر الأمة ، وأخذ يتنقل في الأقاليم، من البصرة إلى الكوفة إلى الشام إلى مصر ، وفي كل بلد يبُثُّ أفكاره ويسمِّمُ أفكار بعض الناس ، وكانت خطته من الإحكام ، وأتباعه من الإذعان له وتنفيذ تعليماته ، بحيث أنهم نجحوا في زرع الشكوك في نفوس الصحابة في المدينة ، مثل علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وحتى السيدة عاشة رضي الله عنها ؛ كل هؤلاء الصحابة كانت تصلهم معلومات غير حقيقية عن ظلم عمال الأقاليم ، وكانوا للأسف يصدقونها ، ولم يتبينوا كذبها إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن وقعت الواقعة ، وقتل الخليفة الثالث مظلوماً .

اجراءات عثمان لمواجهة الموقف :

لما كثر القيل والقال عن ولاة الأقاليم ، ووصل ذلك إلى سمع عثمان رضي الله عنه ، جمع أهل المدينة ، وقال لهم: أشيرُوا علي فأشاروا عليه بأن يرسل رجالا من عنده إلى الأقاليم للتحقيق فيما وصلهم ،كما كان عمر بن الخطاب يفعل ، فاستجاب على الفور ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ،

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الشام ، وعمار ابن ياسر إلى مصر - لاحظ أنهم جميعا من صلحاء الصحابة ، ولايوجد واحد منهم من بني أمية حتى لايتهموا بالتحيز - فذهبوا وعاد الثلاثة الأول ، وقدّموا للخليفة تقارير أن الأمور على خير مايرام (١) ، وأن كل الشكاوى التي تصل المدينة ، شكاوي باطلة ولا أصل لها ، وأن الولاة يقومون بأعمالهم خير قيام ، وهذا ماعلموه من اسئلتهم للناس هناك ، عدا عمار بن ياسر لم يعد من مصر ، لأنه لما وصلها تصادف وجود ابن سبأ فيها، فاستقطبه وضمّه إلى صفه، للأسف الشديد مما جعل الأمر يستفحل ضد عثمان . كان على عثمان بعد أن أخبره هؤلاء الصحابة ببطلان مزاعم السبئية -أتباع ابن سبأ الذين ألّبهم على عثمان وكلهم عرب مسلمون كما سبقت الإشارة - أن يقبض عليهم ويعاقبهم -العقاب الذي يستحقونه - ولكنه بدلا من ذلك لان لهم ، وعطف عليهم ، وحاول استرضاءهم ، فرضي غالبية الناس البسطاء، الذين لم يكونوا على بينة بما يدور في أذهان زعماء الفتنة ، من أمثال الأشتر النخعي ، وعمرو بن الأصم، وحرقوص بن زهير السعدي ، والغافقي بن حرب ، وحكيم بن جبلة ، وغيرهم ، عندما ذهب هؤلاء إلى المدينة على رأس وفود أهل مصر والبصرة والكوفة ، وكانوا نحو عشرة آلاف وقد خرجوا متظاهرين بالحج ، واخفوا نواياهم الخبيثة عن عامة الناس، وشكوا إلى الخليفة من عمالهم بعض تصرفات لايرضونها ، فوعدهم خيرا وأمرهم بالعودة إلى بلادهم ، فرضي عامة الناس ، لما رأوا سماحة الخليفة ، ووثقوا في وعوده بإجابة مطالبهم ، وكان الرجل صادقاً حقا ، وكان يمكن ان تهدأ الأمور ، وتستقر الاحوال ، غير أن زعماء الفتنة المتآمرين مع ابن سبأ ساءهم ماحدث وأسقط في أيديهم وصمموا على افساد الأمر كله ، وقتل الخليفة ، أو عزله ، فتخلفوا في المدينة وزوروا كتابا ادعوا كذبا أنهم وجدوه مع غلام من غلمان عثمان ، موجه إلى والي مصر؛ عبد الله بن سعد، يامره فيه بقتل بعضهم وتعذيب وسجن البعض الآخر،

---

(١) المصدر السابق، جـ ٤ ، ص ٣٤١ .

فعادوا من الطريق ، بهذا الكتاب المزعوم ، فعرضوه على علي بن أبي طالب فأدرك أنه مزوَّر ، لأن الذين ادعوا أنهم وجدوه هم أهل مصر ، ولكنهم عندما عادوا عادوا جميعا - أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة - مع أن طرقهم مختلفة ، فعودتهم في وقت واحد تدل على أن الأمر مدبر ، فقال لهم علي : (كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم على مراحل . . . هذا والله أمر أبرم بالمدينة) [1] يشير علي رضي الله عنه إلى أن هذا الكتاب دبَّره زعماء الفتنة ، الأشتر النخعي ومن معه بالمدينة ، فهو كتاب مزور لم يكتبه عثمان، لأنهم لما سألوه عنه أقسم أنه لم يكتبه ولم يعلم به ، وهو صادق في ذلك . فلما علموا أن أمرهم انكشف ، وخطتهم أصبحت مفضوحة قالوا لعلي : (ضعوه حيث شئتم - أي الكتاب مصممين على كذبهم - لاحاجة بنا إلى هذا الرجل ليعتزلنا) [2] وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مختلقة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين ، أو سفك دمه ، الذي عصمه الله بشريعة الاسلام ، وماهذا الكتاب المزور إلا ذريعة للوصول إلى هدفهم الحقيقي .

حصار الخليفة وقتله :

تشبث الأشرار ، بهذا الكتاب المزور ، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم - لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب - فحصروه في بيته ، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه ، فهو رحمه الله كان قد رفض عرضا من معاوية بن أبي سفيان بأن يذهب معه إلى الشام ، لانه يخشى أن يثب عليه الثائرون، فلم يرض أن يغادر جوار رسول الله ﷺ ، ويترك مدينته، فعرض عليه معاويه أن يرسل له جندا من الشام يحمونه ، وحتى هذا رفضه أيضاً ، وكره أن يضيِّق على أهل مدينة الرسول ﷺ ، بجيش يضايقهم في معاشهم ،

(١ ، ٢) تاريخ الطبري جـ٤ ، ص ٣٥١ .

وهكذا حتى وهو أمام ذلك الخطر الداهم ، الذي استهدف حياته كان حانيا على المسلمين مشفقا عليهم . رضي الله عنه ، ورحمه رحمة واسعة . ولما رأى الصحابة - على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهم - الخليفة قد حصر في بيته وأحاط به الثوار الاشرار ، أرسلوا أبناءهم ، لحراسته ، لكنه رضي الله عنه أدرك أن أبناء الصحابة - وهم عدد قليل - إن تصدوا لهؤلاء الأشرار - وكانوا زهاء عشرة الاف [1] - ، فقد يقتلونهم جميعا ، فحرصا منه على هؤلاء الشباب ، وكراهية لسفك الدماء جعلاه يقسم عليهم - أي على أبناء الصحابة - بماله عليهم من حق الطاعة أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم - ولعله كان يفكر أن الثوار إذا قتلوه هو فستنتهي المشكلة ، فرأى التضحية بنفسه لحقن الدماء ، ولكن دمه الطاهر ، الذي سفك في ذلك اليوم ، كان مقدمة لبحور من دماء المسلمين سالت بعد ذلك نتيجة لقتله .

فحقن الدماء الحقيقي كان في قتل زعماء الفتنة ، هؤلاء الأشرار الذين تجاوزوا كل حد في الجرأة على أمير المؤمنين ، على كل حال امتثل أبناء الصحابة لأمره ، وعادوا إلى بيوتهم ، لكنه طلب منهم ماء للشرب ، لأن الثوار منعوا عنه الماء ، وأقدموا على عمل لم يفعله الفرس والروم ، على حسب تعبير علي بن أبي طالب - يمنعون الماء عن عثمان الذي اشترى للمسلمين بئر رومة ، ووهبها لهم بناء على طلب الرسول ، الذي بشره على ذلك العمل العظيم بنهر في الجنَّة . كان أول المغيثين لعثمان بالماء أم المؤمنين ، أم حبيبة بنت أبي سفيان - زوج النبي ﷺ - ولكنها لم تستطع أن توصل إليه الماء ، لأن الثوار منعوها ، بل أساءوا معها الأدب وسبوها ، ولم يرعوا لها حرمة ، فهي أمهم

---

(١) هذه الآلاف المؤلفة كانت مضللَّة ، ضللها زعماء الفتنة ، واقنعوها بسلامة موقفهم ، وأثروا عليها ، وكانوا يحركونها كيف شاءوا .

بنـص القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٦ .

فلما فعلوا بأم حبيبة ذلك ، ذهب إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال لهم : (إن الذي تصنعون لايشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين . لاتقطعوا عن الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وماتعرّض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله قالوا لا والله ولا نعمة عين – يعني ولاقطرة ماء تصله – لأنتركه يأكل ويشرب) [١] .

وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحاماً ، متسلقين من دور مجاورة.وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن ، وروّعوا الأمة الإسلامية في إمامها، ذلك الذي كانت تستحى منه الملائكة ، بشهادة الصادق المعصوم ، محمد ﷺ ، والذي بشره بالجنة ، وتنبأ له بالشهادة ، كان استشهاده رضي الله عنه في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٣٥هـ .

قتل عثمان مظلوماً ، لم يرتكب ذنباً يستحق حتى أن يرفعوا أصواتهم عليه ، فضلا عن أن يقتلوه ، وحتى لو كان كل مارموه به من تهم صحيحاً – مع أنه كله باطل وملفق [٢] . فليس جزاؤه القتل ، وإباحة دمه الحرام ، ولكن الضلال والفساد الذي عشعش في عقولهم ، والحقد الذي زرعه ابن سبأ في نفوسهم ،جعلهم يحولون فضائله وإنجازاته العظيمة إلى تهم وجرائم ،فمثلا اتهموه بأنه تخلف عن بيعة الرضوان في الحديبية ، مع أنهم يعلمون أنه عندئذ كان في مكة سفيراً للرسول يقوم بمهمة اعتذر عنها عمر بن الخطاب لخطورتها، وناب النبي نفسه عن عثمان في البيعة ، فكانت بيعته عن عثمان أفضل من

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٣٨٦ .

(٢) العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي ، ص ٦٢ .

بيعتهم لأنفسهم . كما اعتبروا جمعه للقرآن في مصحف واحد وعلى قراءة واحدة جريمة أيضاً ، مع أن هذه أعظم أعماله باعتراف الصحابة أنفسهم ، الذين كانوا شهودا على ذلك وأقروه ، ولم يعترض عليه منهم أحد ، وهذا هو علي ابن أبي طالب ، رضي الله عنه ، عندما قدم الكوفة ، وسمع رجلا منهم يعيب على عثمان جمعه المصحف ، يقول له : (اسكت فعن ملإٍ منا فعل ذلك فلو وليت منه ماولى عثمان لسلكت سبيله) (١) .

وأصدق وصف للذين قتلوا عثمان ظلما ، هو وصف ابي بكر بن العربي لهم ، فبعد أن فندَّ كل التهم الباطلة التي ادعوها ضده قال : (وأمثل ماروى في قصته - أي عثمان - أنه بالقضاء السابق ، تألَّب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها، ممن طلب أمرا فلم يصل إليه ، وحسد حسادة أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلة دين وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة ، وإذا نظرت إليهم ، دلَّك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم ، وبطلان أمرهم) (٢) .

بقيت كلمة لابد منها عن ابن سبأ ، فبعض الناس لايصدق أن رجلا واحدا مهما بلغت قدراته يستطيع أن يفسد أمر أمة بكاملها ، لدرجة أن بعضهم ينكر وجوده أصلا ، ولكن الواقع أن الرجل كان موجوداووجوده حقيقة تاريخية ، وهو كأي متآمر خبيث كان يتمتع بقدر كبير من الدهاء والمكر، لدرجة أنه استطاع أن يستميل إلى صفه صحابيين جليلين ، هما أبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والأخير كان أرسله عثمان إلى مصر ليحقق فيما نسب إلى واليها ، أي أنه كان موضع ثقة الخليفة وإلا لما ارسله ، ولكن ابن سبأ أقنعه بوجهة نظره ، وضمَّه إلى صفه ، وكسب تأييده . كما أنه استغل كل الساخطين من أبناء العرب الطامعين في الوظائف ، التي فاتتهم لعدم سابقتهم

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .
(٢) العواصم من القواصم - مصدر سابق ، ص ١١١ .

وقلة فقههم في الدين ، واستغل حقد الحاقدين من ابناء البلاد المفتوحة ، الذين سقطت دولهم ، وبادت عروشهم ، وخلق من كل ذلك تيارا عاما ادى إلى فتنة عارمة ، ذهب ضحيتها عثمان ، ولكنها لم تنته بعد .

خلافة علي بن أبي طالب ٣٦ - ٤٠ هـ

نسبه ونشأته : [١]

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة . وهو ابن عم النبي ﷺ ، وتربى في بيته ، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال ، وكان - كما مرَّ ذكر ذلك من قبل - قد كفل رسول الله ﷺ ، بعدوفاة جده عبد المطلب ، وأحسن إليه كثيرا ، وكان يفضِّلُه على أولاده، لذلك لما تيسرت أمور الرسول المادية ، أراد أن يرد جميل عمه معه، وأن يخفف عنه أعباء المعيشة ، فأخذ عليا ليعيش معه في بيته ، وكان عمره يومئذ ست سنين ، فشاءت إرادة الله تعالى أن ينشأ في بيت النبوة ، وهو أطهر بيت ، فوقاه الله أرجاس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان ملازماً لرسول الله ﷺ ، وكانت خديجة رضي الله عنها تعامله كواحد من أبنائها .

صفته ومكانته: تصف المصادر التاريخية عليا رضي الله عنه، بأنه كان ربعة من الرجال يميل إلى القصر ، أسمر اللون ، أصلع الرأس ، حسن الوجه ، عريض المنكبين ، غزير اللحية ، قوي الجسم ، واسع العينين . ومناقبه رضي الله عنه كثيرة ، منها الشجاعة والعلم الغزير ، والزهد في الدنيا مع القدرة عليها ، وأحد من حفظوا القرآن كله من الصحابة ، وعرضه على رسول الله ﷺ ، وكان أكثر الصحابة معرفة به وبتفسيره ، وأسباب نزوله وأسراره وأحكامه ، ولا عجب في ذلك ، فهو كما عرفنا - تربى في بيت النبي، وكان

---

(١) راجع في ترجمة تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٦ ومابعدها .

أول الناس إسلاماً بعد خديجة - وأسلم وعنده نحو ثمان سنوات ، فكان بذلك أسبق من غيره في معرفة ماينزل منه ، وفي تلقيه وحفظه ، وكان من كتاب الوحي ، ولذلك اختص في سيرته بلقب الإمام ، لأفضليته العلمية والفقهية ، وكان أقضى الصحابة رضي الله عنهم جميعا ، كما اشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجة ، وهو أحد العشرة الذين بشَّرهم رسول الله ﷺ ، بالجنة ، وقد آخى الرسول بينه وبينه بعد الهجرة ، ثم زوَّجه فاطمة ابنته ، وأولاده منها ، الحسن والحسين ، هم الذين حفظوا نسل الرسول ﷺ . وموقفه ليلة الهجرة يدل على شجاعته الفائقة ، فلقد نام في فراش النبي ﷺ ، وهو يعلم خطورة ذلك ، ويعرف أن قريشاً عزمَت على قتله ، ومن الجائز أن تقدم على ذلك وهو نائم متدثر بغطائه دون أن تعرف من الذي في الفراش ، ومع ذلك لم يتردد لحظة واحدة ليفتدي رسول الله ﷺ ، بنفسه ، والحق أن الشجاعة كانت أبرز صفاته في كل المواقف مع رسول الله ﷺ ، ففي بدر كان في طليعة من صرعوا المشركين هو وعمه حمزه ، وفي أحد كان من القلة التي ثبتت مع رسول الله ، وحمل اللواء عندما سقط من يد مصعب بن عمير ، عندما استشهد، حمله بيده اليسرى وظل يقاتل بيده اليمنى ، وفي غزوة الخندق صرع فارس فرسان قريش ، بل فارس كل العرب ، عمرو بن عبد ود ، الذي لم يجرؤ أحد غيره على مبارزته ،ويوم خيبر أعطاه الرسول الراية وقال : (لاعطين اللواء غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) [1] وأخبر أن الفتح سيكون على يديه ، وقد كان .

ويوم حنين كان أيضاً من القلَّة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ، وعلى الجملة فقد شهد كل غزوات الرسول، وأبلى فيها بلاء حسنا ، عدا غزوة تبوك، فقدخلَّفه الرسول في أهله يرعى مصالحهم، ولما تأذى من ذلك، وقال: (يارسول الله: تخلفني في النساء والصبيان .) قال له الرسول : (أما ترضى أن تكون

---

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ٢١٢ .

مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لانبي بعد)[١] . يشير الرسول بذلك إلى أن موسى عندما ذهب ليناجي ربه ترك اخاه هارون ليخلفه في قومه ، قال تعالى : (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين) الاعراف ، الآية ١٤٢ .

والحقيقة أن مناقب الامام - كرم الله وجهه - كثيرة ، ومن الصعب الإحاطة بها في هذه الدراسة ، وباختصار نقول : إضافة إلى كل ماسبق ، فقد كان من أحرص الناس على التمسك بالمثل الإسلامية العليا ، والقيم الفاضلة في كل المواقف ، فتربيته الأولى في بيت النبي اكسبته أعظم صفات الشرف والكرامة والعزة ، والبعد عن الدنايا ، وكل مايشين ، حتى في سياسته مع خصومه لم يلجأ ابداً إلى الخداع ولا الزيف ولا المحاباة ، ولم يستخدم اية وسيلة تتنافى مع مبادئ الشرف ، مترفعا عن كل مالا يتفق مع تعاليم الإسلام . وبعد إسلامه زاد رصيده من كل تلك الصفات العالية بمقدار قربه من صاحب الرساله ﷺ ، والأحاديث الواردة في فضائله ومناقبه كثيرة ° وقد ورد ذكر بعضها آنفا . ولقد كان رضي الله عنه موضع ثقة واحترام الصحابة جميعا ، وبصفة خاصة الخلفاء الراشدين الثلاثة قبله ، وكان كما رأينا من أكبر أعوان أبي بكر في قمع حركة الردة ، حيث كان يحرس أحد مداخل المدينة ليصد عنها غارات المرتدين ، أما في عهد عمر ، فكان ملازماً له ، وكان عمر لايكاد يقطع في أمر دون مشاورته والاستنارة برأيه ، وكان عمر يقول عنه : (قضية ولا أبا حسن لها) وكان مع عثمان كما كان مع أبي بكر وعمر ، معاونا ومشيرا ولما بدأت الفتنة واضطربت الأمور لم يحجب عنه نصحه ومؤازرته ، حتى آخر لحظة ، ثم أرسل اولاده مع بقية اولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه ، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار وقال لهم ماسقناه من قبل : من أن فعلهم أسوأ من فعل الكفار وأشنع ، ولكن قضاء الله نفذ .

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٨ .

بيعته بالخلافة

روِّعت مدينة الرسول ﷺ،بمقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وعم الذُعر والرعب الناس لهذه الفعلة الشنعاء ، التي أقدم عليها هؤلاء الأشرار ، وأسقط في أيدي كبار الصحابة ، الذين ربما لم يكن أحد منهم يتصور أن تصل الجرأة وقساوة القلوب بهؤلاء الجناة ، ويقدموا على إزهاق روح بريئة ، روح رجل بشّره رسول الله بالجنة ، ولم يرتكب إثماً ولا ذنبا يبيح دمه .

وسيطر الثوار على المدينة ، وظل الغافقي بن حرب ؛ زعيم ثوار مصر ، وأحد كبار زعماء الفتنة، يصلّي بالناس إماماً في مسجد رسول الله خمسة أيام، والمدينة ، بل الدولة كلها بدون خليفة ، والثوار أنفسهم لم يكن في وسع أحدهم أن يرشح نفسه لها ، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم ، ولذلك أخذوا يعرضونها على كبار الصحابة ؛ علي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفضوا جميعا ، بل إن عليا سبّ هؤلاء ولعنهم على فعلتهم الشنعاء ، وقتلهم عثمان ظلماً ، فلما أعرض الصحابة عنها ، هدّدهم الثوار بقتلهم جميعا - كما قتلوا عثمان - إن لم يقبل واحد منهم الخلافة، ازاء هذا الموقف العصيب ، الذي اضطربت فيه سفينة الأمة ، وماجت بها الأنواء ، وعصفت بها الرياح ، كان لابد من رجل شجاع يتقدم لحمل الأمانة ، وإنقاذ الأمة من تلك الأخطار المحدقة بها ، فلو وصلت تلك الأخبار إلى الأقاليم ، وأطراف الدولة ، قبل اختيار خليفة لربما كانت العواقب وخيمة ، لكل هذا اتجهت الأنظار إلى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وتركز فيه الأمل ، ليخرج بالأمة من هذا النفق المظلم ، فذهب إليه وفد من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وألحُّوا عليه الحاحا شديدا ، ليقبل الخلافة ، فهو وحده الذي يمكن أن يقدم على قبولها ، في هذا الظرف العصيب ، لأن قبول الخلافة وقتئذ كان ضربا من الفروسية والتضحية ، ومن كعلي في فروسيته وشجاعته ؟

فقبل : وهو يعلم خطورة ماهو مقدم عليه ،احتسابا عند الله تعالى ، ونزولا عند رغبة كبار الصحابة ، وانقاذا للأمة من المخاطر المحيطة بها. روى الطبري، مرفوعا إلى أبي بشير العابدي . قال : (كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه ، واجتمع المهاجرون والأنصار ، فيهم طلحة والزبير فأتوا عليا ، فقالوا : ياأبا حسن ، هلُمَّ نبايعك ، فقال : لاحاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم فقد رضيت . . فقالوا : مانختار غيرك ، قال : فاختلفوا إليه بعدما قتل عثمان رضي الله عنه ، مراراً ، ثم أتوه آخر ذلك ، فقالوا له : إنه لايصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر ، فقال : إنكم قد اختلفتم إليَّ وأتيتم ،وإني قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم وإلاَّ فلا حاجة لي فيه ، قالوا : (ماقلت : من شيء قبلناه إن شاء الله) فجاء فصعد المنبر ، فاجتمع إليه الناس ، فقال (إني كنت كارهاً لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم ، إلا أن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهما دونكم ، رضيتم ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم أشهد عليهم ، ثم بايعوه على ذلك . قال أبو بشير : وأنا يومئذ عند منبر رسول الله ﷺ ، قائم أسمع مايقوله) [1] .

كان علي هو أول خليفة يخطب قبل البيعة ، وكانت خطبة قصيرة كما ترى ، أراد بها أن يشهد الله عليهم ، ويشهدهم على أنفسهم ، وأنهم هم الذين الحُّوا عليه ليقبل أمرا كان له كارها ، لأنه يعرف مخاطره وتبعاته ، فلما وافقوا وبايعوه ، كان عليه أن يخطب مرة أخرى ، خطبة يوضح فيها أسلوبه في الحكم ، ويذكِّرهم بكتاب الله ، وما فيه من الهداية والخير ، فقال : بعد أن حمد الله تعالى وصلَّى على النبي : (إن الله أنزل كتابا هاديا ، بيِّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض ، ادوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة . إن

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

الله حرّم حرمات غير مجهولة ، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لايحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم ، تخفّفوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم ، اتقوا الله عباد الله ، في بلاده وعباده ، إنكم مسئولون ، حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله فلا تعصوه . . «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » الأنفال ، الآية ٢٦.

هذه خطبة مناسبة للمقام ، وللظرف الذي قيلت فيه ، فقد بدأها بالتذكير بكتاب الله ، وحثّ المسلمين على عمل الخير وتجنب الشر ، وحذّرهم حرمات الله والوقوع فيها ، وأهمها حرمة دم المسلم ، ولعله بذلك يعرّض بقتلة عثمان، ويحدد موقفه من هذه الفعلة الشنعاء ، وأنه لن يتساهل في القصاص منهم ، واقامة الحد عليهم ، لقتلهم نفسا حرّم الله قتلها إلا بالحق، وإذا كانت الظروف لم تسعفه ليقوم بذلك ، فليس ذلك ذنبه ، فهو لم يقصر ، ولكن الفتنة تفاقمت كما سنعرف ، ولفّت الجميع في ظلماتها ، وكانت بلوى ابتلى الله بها الأمة وامتحنها امتحانا عسيرا . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

علي والقرارات الصعبة

تمت بيعة علي في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة٣٥هـ. فاستقبل بخلافته عام ٣٦هـ . وتولى الخلافة في ظروف بالغة الصعوبة ، وكان في الحقيقة كارها لها ، ولولا إلحاح الصحابة عليه ، وشعوره بالمسئولية الدينية عن الأمة ماقبلها ، فقبوله لها كان فروسية وشجاعة أدبية نادرة ، وكان عليه أن يواجه الموقف الخطير ، الذي نتج عن استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، بكل تعقيداته ، وعليه أن يتخذ قرارات صعبة ،

فأول معضلة واجهته هي :

١ - القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه ، وكان ذلك مطلب الصحابة ، ففي أول يوم من خلافته ذهب إليه طلحة والزبير ، وطالباه بإقامة الحد على القتلة ، وهو نفسه كان مقتنعاً بذلك ، ولذلك قال لهما : (ياإخوتاه إني لست أجهل ماتعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولانملكهم ؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم - أي يعيشون بينكم - يسومونكم ماشاءوا - أي مسيطرون عليكم - فهل ترون موضعا لقدرة على شئ مما تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله لاأرى إلا رأيا ترونه أبدا) [١] .

كلام الامام واضح كل الوضوح ، فهو ليس أقل من غيره حرصا على إقامة الحد على قتلة عثمان ، ولعله عندما لمّح في خطبته إلى حرمة الدماء كان يومئ إلى ذلك ، وأنه لن يقصِّر في إقامة الحد على قاتل أبدا ،فضلا عمن قتلوا أمير المؤمنين ، لكن الظرف الذي هم فيه آنذاك لايمكنه من ذلك ، فإذا كان الذين نفذوا القتل في عثمان عدد محدود - قيل هم : الغافقي بن حرب ، زعيم ثوار مصر ، ومعه سودان بن حمران، وكنانة بن بشير التجيبي - إلا أن وراءهم نحو عشرة الاف من الثوار الذين ضلّلوهم، وأقنعوهم بسلامة موقفهم، فهم مستعدون للدفاع عنهم ، ولذلك عندما كانوا يسمعون قائلا يقول : من قتل عثمان ؟ كان العشرة آلاف يصيحون نحن جميعاً قتلناه . باختصار شديد لم يكن في وسع الإمام أن يقيم الحد في ذلك الظرف ، وكان رأيه الصبر والتريث، حتى تهدأ الأمور ، ويعود الناس إلى بلادهم ، وعندئذ يمكن التحقيق في الأمر ، وإقامة الحد على القتلة الحقيقيين، وقد اقتنع الصحابة بوجهة نظره، لكن الأمور تطورت تطورا سيئاً آخر، فالمصائب لاتأتي فرادى، كما يقول المثل العربي .

---

(١) الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص ١٩٥ .

٢ - الأمر الثاني الذي واجهه علي في الأيام الأولى من خلافته هو تغيير كل ولاة عثمان ، على الولايات الكبرى ، الشام ومصر ، والكوفة والبصرة [١]. واتخذ بالفعل قرارا بذلك ، فعزل معاوية بن أبي سفيان عن الشام ، وعيَّن بدله سهل بن حنيف ، وعزل عبد الله بن سعد بن أبي السرح عن مصر ، وعيَّن بدله قيس بن سعد بن عبادة ، وعزل عبد الله بن عامر عن البصرة ، وعيَّن بدله عثمان بن حنيف ، وعزل أبا موسى الأشعري عن الكوفة ، وعيَّن بدله عمارة ابن شهاب .

وهذا القرار الخطير روجع فيه علي ، ونصح بتأجيله من أقرب الناس إليه وأخلصهم له ؛ وهو ابن عمه ؛ عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وكانت وجهة نظر ابن عباس الانتظار فترة ، ولو لمدة سنة ، وبعدها تكون الامور قد استقرت ، ويتم التغيير المطلوب في ظرف أهدأ ، ولكن الإمام رضي الله عنه ، أصر على تنفيذ قراره ، وكانت وجهة نظره أن هؤلاء الثوار ثاروا غضبا من هؤلاء الولاة ، سواء أكانوا مخطئين أو مصيبين - ولن يسكتوا إلا إذا عزلوا .

وهنا اقترح عليه ابن عباس - إذا كان مصمما على رأيه - أن يعزل من يشاء ، ويبقى معاوية في ولاية الشام ، وكان هذا اقتراحا وجيها وذكيًا من ابن عباس ، فمعاوية لم يكن موضع شكوى من أحد من رعيته ، ولم يشترك احد من أهل الشام في الثورة على عثمان وقتله ، فعلى إذا أبقاه لا يلومه أحد ، وكان ابن عباس من ناحية أخرى يعرف أن معاوية لن يذعن لقرار العزل ، وسيبقى في ولايته ، ويسبِّب متاعب كبيرة للامام ، ولكن على الرغم من كل ذلك صمم علي على عزلهم جميعا بما فيهم معاوية ، ونحن بعد أن رأينا تتابع الأحداث وتطورها نرى أن قرار عزل معاوية كان غير صائب ، لأنه وال كفء

---

(١) انظر تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٤٤٢ ومابعدها ، تجد تفاصيل التغيير الذي أحدثه على رضي الله عنه في المناصب في الولايات الكبرى ، وماترتب عليه من نتائج .

وهو الوحيد الذي لم يستطع ابن سبأ ان يعبث في ولايته او يجند بها أحداً ، ولم يطل مكثه بالشام خوفاً من معاوية ، وقد حاول ان يصنع مع أبي الدرداء وعبادة بن الصامت ماصنع مع أبي ذر الغفاري رضي الله عنهم ، كشفا أمره وذهبا إلى معاوية وقالا له : هذا اليهودي الخبيث هو الذي اثار عليك أبا ذر ، فلما ادرك ابن سبأ ان امره قد انكشف ، هرب إلى مصر .

كيفما كان الأمر فقد ذهب الولاة الجدد إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم ، فذهب قيس بن سعد إلى مصر ، ودخلها بدون متاعب ، لأن واليها القديم ، عبد الله بن سعد كان تركها منذ علم بمقتل عثمان ، وذهب إلى فلسطين او اعتزل الفتنة ، وبقي هناك حتى مات في مدينة عسقلان سنة ٣٧ هـ .

كذلك وصل عثمان بن حنيف إلى البصرة وتولى شؤونها بدون مشاكل، لأن واليها ؛ عبد الله بن عامر : كان قد تركها وذهب إلى مكة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ،أما عمارة بن شهاب فلم يمكنه أهل الكوفة من دخولها ، وتمسكوا بواليهم ابي موسى الأشعرى ، فوافق الإمام على ذلك ، وأمَّر عليهم أبا موسى . كذلك لم يستطع سهل بن حنيف دخول الشام ، فقد منعه جند معاوية ، ومعنى ذلك أن معاوية يرفض قرار عزله ، وهنا لم يعامل الإمام علي الشام كما عامل الكوفة ، فبينما وافق على إبقاء أبي موسى واليا عليها ، بناء على رغبة أهلها ، فقد رفض اقرار معاوية في ولاية الشام ، مع أن تمسُّك أهلها به أشد من تمسك أهل الكوفة بأبي موسى الأشعري . وهنا يجب أن نتذكر نصيحة ابن عباس ، لعلي بابقاء معاوية في ولايته ، لأنه كان يمثل قوة كبيرة ، يحسب حسابها ، وأغلب الظن لو بقي معاوية في ولايته فلربما لم تكن هناك حروب ، لا في الجبل ولا في صفين ، ولكن هذه ارادة الله وقضاؤه ، ولاراد لهما .

بين علي ومعاوية :

دارت مراسلات عديدة بين علي ومعاوية ، رضي الله عنهما ، الأول يطالب الثاني ببيعته له بالخلافة ، والإذعان لأوامره ، باعتباره أصبح خليفة شرعيا ، بايعه معظم الصحابة في المدينة ، والثاني يطالب الأول بالقصاص أولا من قتلة عثمان ، باعتباره ولي دمه ، لأنه ابن عمه ، وبعدها ينظر في بيعته ، ونحن قد عرفنا وجهة نظر الإمام في قضية القصاص ، فهو لايرفضها ، وانما يؤجلها إلى أن تتهيأ لها الظروف المناسبة .

ولكن معاوية تمسك بالقصاص أولا ، وجعله شرطا لازما يسبق الحديث عن البيعة . ولم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة ، وفي النهاية وصلت رسالة من معاوية إلى علي فيها جملة واحدة هي (من معاوية إلى علي) وبعثها بيضاء ، مع رجل يدعى قبيصة من بني عبس ، وأمره بأن يدخل بها المدينة رافعا يده حتى يراها الناس ، ويعلموا أن معاوية لم يبايع عليا [١] إذ يخاطبه باسمه فقط ، دون أن يصفه بأمير المؤمنين ، ولما أدرك عليّ أن حمل معاوية على البيعة سلما أمر غير ممكن أخذ يعد العدة لحمله على البيعة بالقوة ، واعتبره واليا باغيا خارجا على طاعة الخليفة ، ومع أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء للحرب ، لأن عواقبها وخيمة ، ومنهم ابنه الحسن ، إلا أنه صمم على محاربة معاوية ، وبينما هو يستعد لذلك جاءته أخبار أخرى مفزعة من مكة ، تخبره بمسير عائشة وجماعتها إلى البصرة .

موقعة الجمل : سنة ٣٦هـ [٢]

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ، عائدة من أداء فريضة الحج ،

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٤٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٥٠٨ ومابعدها .

وسمعت بمقتل عثمان ، فعادت من الطريق إلى مكة ، وأعلنت سخطها على قتلته وأخذت تردِّدُ : (قتل والله عثمان مظلوما لأطلبنَّ بدمه) وهناك - في مكة - وافاها طلحة والزبير ، وبنو أمية ، وكل من أغضبه مقتل عثمان ، وأخذوا يتباحثون في الأمر ، فهداهم تفكيرهم إلى جمع جيش والمسير به إلى البصرة باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على عثمان وقتله ، وتوجهوا بالفعل إلى البصرة ، وكان هذا في الواقع اجتهادا خاطئاً منهم، لأنهم بتصرفهم هذا كما لو أنهم قد أقاموا حكومة أخرى ، غير حكومة الإمام ، المبايع شرعا من الأمة ، والذي يناط به وحده إقامة الحدود، والقصاص من القتلة، وكان أفضل من هذا وأسلم لهم وللأمة كلها ، أن يتوجهوا إلى المدينة ؛ إلى الإمام الشرعي ويشدُّوا أزره في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة ، ويتشاوروا معه في أفضل طريقة لحل كل المشاكل التي تواجهها الأمة الإسلامية ، بعد استشهاد عثمان ، ومنها بطبيعة الحال اقامة الحد على القتلة الاشقياء .

وصلت أخبار مسير عائشة ومن معها إلى البصرة إلى علي وهو يتأهَّب لقتال معاوية في الشام ، فاضطر لتغيير خطته ، فلم يكن ممكنا أن يذهب إلى الشام ويترك هؤلاء يذهبون إلى البصرة ، لذلك قرر الذهاب إلى البصرة لحسم الأمر معهم ، قبل أن يتوجه إلى الشام . خرجت عائشة ومن معها ، وكان معهم في البداية نحو ألف رجل ، ولكن هذا العدد تضاعف عدة مرات بانضمام الكثير اليهم ، نظرا المكانة عائشة عند الناس ، فكانوا كلما مرُّوا على قبيلة وعرفت أن أم المؤمنين معهم ، سارعت بالانضمام إلى جيشها ، حتى بلغ عدده نحو ثلاثين ألفا . فلما اقتربوا من البصرة، أرسل اليها واليها عثمان بن حنيف ، رسولين من عنده - هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي - يسألانها عن سبب مجيئها ، فقالت لهما : (إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزَّاع القبائل ، غزو حرم رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا لعنة الله ورسوله ، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين ، بلا ترة ولا

عذر ، فخرجت في المسلمين ، أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم)[١] وكذلك سألا طلحة والزبير ، عن سبب مجيئهما إلى البصرة ، فقالا : (الطلب بدم عثمان) فرجع الرجلان ، وأخبرا الوالي ، عثمان بن حنيف ، فقال : (إنا لله وإنا إليه راجعون ! دارت رحى الاسلام ، ورب الكعبة)

ادرك الرجل مايمكن أن تؤدي إليه هذه التصرفات من كوارث على الأمة، وكان واجبه يحتم عليه منعهم من دخول البصرة، فدارت بينه وبينهم معركة - عند مكان يسمى الزابوقة - قتل فيها ستمائة من الفريقين [٢] ، ولما رأوا كثرة القتلى ، تنادوا إلى الصلح ، والكف عن القتال ، وانتظار قدوم الامام علي إلى البصرة ، ليتصرف باعتباره المسئول الأول عن أمور الأمة ، وجرى بينهم الصلح على ان يتركوا للوالي ، دار الإمارة والمسجد وبيت المال ، وينزلوا هم أي مكان شاءوا من البصرة .

وصول علي إلى البصرة :

بمجرد وصول الإمام علي إلى البصرة ، وعلمه بما حدث هاله سفك الدماء ، فأرسل على الفور أحد صلحاء الصحابة ، وهو القعقاع بن عمرو التميمي إلى معسكر عائشة وطلحة والزبير ، ليعرف ماذا يريدون ، فذهب إليهم ، فسألهم فقالت عائشة : خرجنا لنصلح بين الناس ، وكذلك قال طلحة والزبير ، فسألهم ماوجه الإصلاح الذي تريدون ، قالوا قتلة عثمان ، قال : لقد قتلتم ستمائة من قتلة عثمان ، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم ، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الأن ، قالوا : فماذا ترى أنت ، قال : أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين ، واقترح عليهم تجديد البيعة للإمام علي ، ومقابلته ، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين ، فقبلوا وقالوا : له أصبت وأحسنت ،

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٤ ، ص ٤٦٢ .

(٢) انظر المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٤٦١ ، ٤٧٧ .

فرجع إلى علي فأخبره بذلك ، فسُرَّ به سرورا عظيما ، ومعني ذلك ان الجميع كانوا يريدون الاصلاح حقا ، كل حسب اجتهاده ، لكن عناصر الشر التي كانت لاتزال في معسكر علي أفسدت ذلك المسعي الخيِّر ، الذي قام به القعقاع، والذي فرح به المسلمون وكادوا يبيتون بخير ليلة ، منذ استشهاد عثمان، ولكن فرحتهم لم تتم للأسف الشديد .

السبئية يفسدون أمر الصلح ويبدؤن المعركة :

نقطة الضعف الخطيرة التي كانت في معسكر علي رضي الله عنه ، هي وجود كثيرين معه ممن اشتركوا في قتل عثمان والتخطيط له ، وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ والأشتر النخعي . وللحقيقة نقول : إن عليًا رضي الله عنه لم يكن له حيلة في وجود هم معه ، فلم يكن قادرا على إبعادهم ، لأنهم كانوا قوة كبيرة ، تسندهم عصبيات قبيلة كثيرة . وزعماؤهم الذين تولوا كِبْرَ الثورة على عثمان أدركوا أن الصلح بين علي وبين عائشة ومن معها ، معناه أنه سيتقوى بهم إذا انضموا إليه ، ويقيم عليهم الحد ، فقرروا إفساد الأمر كله ، وعقد لهم ابن سبأ مؤتمرا ، تدارسو فيه حالهم ، فاقترح عليهم الأشتر أن يقوم بقتل علي كما قتلوا عثمان فتهيج الدنيا من جديد ، ولا يقدر عليهم أحد [١] وحتى هذا الاقتراح الخطير لم يعجب ابن سبأ ، فهو لن يقنع بقتل علي وحده ، وإنما يريد أن يغرق الأمة كلها في حرب طاحنة ، فأمرهم بشن هجوم في ظلام الليل ، على جيش عائشة وطلحة والزبير بدون علم عليٍّ ، وفعلا بينما الناس نائمون مطمئنون لأنهم رأوا بوادر الصلح تلوح في الأفق ، إذا بهم يفاجأون بقعقعة السلاح ، وكانت هذه بداية حرب الجمل المشئومة ، التي راح ضحيتها خيرة الصحابة ؛ طلحة والزبير ، المبشران بالجنة ، ونحو عشرة آلاف من المسلمين[٢] ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦ ومابعدها ، نجد تفاصيل تلك المعركة المشئومة .

أسباب خروج عائشة ومن معها :

لقد سودت مئآت ، بل آلاف الصفحات في سرد أخبار هذه الأحداث ، وفي أسباب خروج عائشة ، وطلحة والزبير ، رضي الله عنهم ، واشتراكهم في هذه المعركة التي سميت باسم الجمل الذي كانت تركبه عائشة .

وخلاصة ماتطمئن إليه النفس بعد الدراسة المتآنية المحايدة ، انه لا عائشة ولا طلحة ولا الزبير ولا علي ، كانوا يريدون القتال ، وسفك الدماء ، ولا حتى يتصورون حدوث ذلك ، وكل مادفع عائشة ومن معها إلى الخروج هو اقتناعهم بأن عثمان قتل مظلوما ، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته ، ولم يكونوا أبدا معادين لعلي أو معترضين على خلافته [١] ، وقد رأينا ميلهم جميعاً إلى الصلح لولا أن السبئية أفسدوا كل شئ وأشعلوا الحرب ، ولقد ندمت عائشة ندما شديدا على ما حدث ، وقالت : (والله لوددتُ أنِّي مِتُ قبل هذا اليوم بعشرين سنة) .

ووردت نفس العبارة على لسان علي ، فكان قولهما واحدا ، كما يقول الطبري [٢] وهذا تعبير عن الندم والحزن على القتلى ، فكلهم مسلمون .

الدرس والعبرة :

هذه هي إحدى نتائج الفتنة التي حذر منهاالقرآن الكريم ، وحذر منها رسول الله ﷺ ، والتي أشعلها بِضع عشرات من الأشرار، وجروا وراءهم

---

(١) لقد ذكرنا آنفا أن طلحة والزبير ، رضي الله عنهما ، كانا من جملة بل في مقدمة الصحابة الذين ذهبوا إلى علي رضي الله عنه ، بعد مقتل عثمان ، ورجوه بالحاح أن يتولى الخلافة، لينقذ الأمة .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٥٣٧ .

الآلاف ، ولو أُخذَ هؤلاء الأشرار بالقوة والحزم والعقاب الشديد لانحسمت الفتنة وسُدَّ بابها من البداية ، وهذا درس من أقسى الدروس ، وليت المسلمين يعونه في كل أحوالهم وأزماتهم وأماكنهم ، ويسدون كل أبوابها . لأن الفتنة كما يقول الإمام ابن تيمية : (إنما يعرف مافيها من الشر إذا أدبرت فأمَّا إذا أقبلت فإنها تزَيَّنُ ، ويظن أن فيها خيرا ، فإذا ذاق الناس مافيها من الشر والمرارة والبلاء ، صار ذلك مبيّنا لهم مضرَّتها، وواعظا لهم أن يعودوا لمثلها ، ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين ، تبين له أنه مادخل فيها أحد، فحمد عاقبة دخوله فيها ، لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه [١] .

وخلاصةالقول : أن تبعة هذه المأساة تقع على عاتق السبئيَّة ، فهم الذين أشعلوا الفتن من البداية ،وعدوا علي خليفة المسلمين ، وقتلوه ظلما ، وهم الذين أشعلوا حرب الجمل ، أما الصحابة الذين اشتركوا فيها ، فأصدق تعبير عن موقفهم ما قاله العلامة ابن خلدون : (وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين ، وعلمت أنها كانت فتنة أبتلى الله بها الأمة) [٢] .

معركة صفين : [٣]

انتهت موقعة الجمل بهذه الخسارة الجسيمة في الأرواح ، وكان يجب أن يستفيد المسلمون من عبرتها ، ولكن الليالي كانت حبلى بما هو أفظع منها ، وأبت الفتنة إلا أن تجرَّهم إلى معركة أخرى أشد ضراوة ، وأكثر ضحايا ، وهي معركة صفين ، بين علي ومعاوية ، فقد كان علي لايزال على رأيه في أن معاوية على رأس الفئة الباغية ، ويجب قتاله ، فبعد الجمل توجه بجيش بلغ

---

(١) منهاج السنة النبوية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) المقدمة ، جـ ٢ ، ص ٦١٩ .

(٣) صفين موضع على شاطئ الفرات الغربي ، بين العراق والشام . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٤١٤ .

عدده نحو مائة ألف إلى صفين ، واستعد معاوية لمقابلته بجيش يقاربه في العدد. ودارت بينهما معركة شرسة في شهر صفر سنة ٣٧ هـ ، قتل فيها من الجانبين نحو سبعين الفاً ، خمسة وعشرون من جيش علي ، وخمسة واربعون من جيش معاوية ، ولما رأى الناس كثرة القتلى ، تنادوا من الجيشين يطلبون وقف القتال ، فجعل أهل العراق - جيش علي - يصيحون في أهل الشام - جيش معاوية - قائلين من لثغور العراق ، إن فنى أهل العراق ؟ ويرد الآخرون من لثغور الشام ، إن فنى أهل الشام ؟ أي أن الفريقين كانا يتوقان إلى وقف القتال ، وهنا جاءت فكرة التحكيم من عمرو بن العاص .

التحكيم : (١)

التحكيم ببساطة شديدة ، هو رفع المصاحف من قبل جيش معاوية والاحتكام إلى القرآن الكريم ، ووقف القتال فورا ، بدلا من سفك الدماء ، وكانت الفكرة من عند عمرو بن العاص وقد قبلها الطرفان ، وأوقفت الحرب، وكان هذا مطلبا ملحا لجميع الناس ، بعد أن أفزعهم عدد القتلى ، والحق أن الفكرة لم تكن جديدة ، وليست من ابتكار عمرو بن العاص ، وإن كانت جاءت في وقتها . ففي حرب الجمل ؛ التي سبقت حرب صفين ببضعة شهور أمرت السيدة عائشة رضي الله عنها - عندما رأت كثرة القتلى - كعب بن سور قاضي البصرة أن يرفع المصحف ويدعو الناس إلى الاحتكام إليه ، ووقف القتال ، إلا أن السبئيَّة الذين كانوا يرون أن وقف القتال ليس من مصلحتهم رشقوا كعبا بسهم فقتلوه عندما رفع المصحف (٢) ، وإذا كان السبئيَّة قتلوا كعبا، فإن الذين لم يستطيعوا قتل عمرو بن العاص ، حاولوا قتل الفكرة ذاتها فصوروها أنها خدعة منه ، لانقاذ جيش معاوية من الهزيمة ، وهذا هو الهوى في تفسير أحداث التاريخ ، الذي يبلبل أفكار الناس . فهل كان من الأفضل

---

(١) انظر تاريخ الطبري ، جـ٥ ، ص ٤٨ ومابعدها .

(٢) العواصم من القواصم ، مصدر سابق ، ص ١٥٨ ، وهامش ٣ من ذات الصفحة .

استمرار القتال، لتهلك البقية الباقية من الأمة الاسلامية ؟ سبعون ألفا قتلوا في صفين ، وقبلهم نحو عشرة آلاف قتلوا في معركة الجمل ، من جراء الفتنة التي حركتها مطامع وأهداف ذاتية محدودة ، ودسائس ومؤامرات خارجية ، عدد مهول ، ربما أكثر من جميع الذين استشهدوا في كل الفتوحات الاسلامية أضعافا مضاعفة ، فنحن عرفنا أن عمرو بن العاص ، دخل مصر فاتحا بأربعة آلاف ، ولما تكامل جيشه لم يزد على اثنى عشر ألفا ، فتح بهم بلداً من أكبر البلاد الاسلامية ، ولم يستشهد منهم إلا عدد قليل ، ومعركة اليرموك العظيمة استشهد فيها ثلاثة آلاف فقط من المسلمين .

على كل حال أوقفت الحرب ، وطلب من علي ومعاوية أن ينيب كل منهما عنه شخصا يتفاوض بإسمه ، بشأن القضايا محل الخلاف ، فأناب معاوية عمرو بن العاص ، وحاول على أن ينيب عنه ابن عمه ؛ عبد الله بن عباس ، لكن أنصاره - خاصة من أبناء اليمن بزعامة الأشعث بن قيس - رفضوا ذلك ، بحجة عصبية ، وأعلنوها صراحة ، كيف يكون الخلاف بين رجلين من قريش ، ثم يكون الحكمان رجلين من قريش أيضا ؟ اذن أين نحن ومادورنا ؟ هل مجرد شهود فقط ؟ نفس المنطق الذي ثاروا به على عثمان ،ونفس النقمة على قريش ، وزعامتها للأمة الإسلامية ، التي استحقتها بسابقتها إلى الاسلام فقط ، ولذلك فرض أهل اليمن على علي رضي الله عنه أبا موسى الأشعري ، لأنه يمني ، فوافق عليٌ على ذلك كارها - [1] وكان ذلك في شهر صفر سنة ٣٧هـ. واتفق على أن يأخذ الناس مهلة مدتها ستة شهور حتى تهدأ النفوس ، وتدمل الجروح ، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل ، فلمااجتمعا انتهيا - بعد مفاوضات طويلة - إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول ، وهي عزل علي رضي الله عنه عن الخلافة ، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء ، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ ٣ ، ص ٣١٩ .

كان علي متصرف في البلاد التي تحت حكمه - وهي كل الدولة الاسلامية عدا الشام - ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه - الشام - فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة) [1]

موقف علي وأنصاره من التحكيم :

اجتهد الحكمان فيما توصلا إليه ، وأعلناه على الناس ، فإن كان اجتهادهما صوابا فلهما أجران ، وإن كان خطأ فلهما أجر واحد ، غير أن عليا رضي الله عنه . لم يقبل تلك النتيجة ، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما ، لأن الخلاف لم يكن على الخلافة ، وإنما على إقامة الحد على قتلة عثمان ، وبيعة معاوية له ، أيهما يسبق الآخر ،ولذلك اعتبر نفسه في حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ماكانت عليه قبل التحكيم ، أي إلى حالة الحرب بينه وبين معاوية .

ظهور الخوارج :

حاول علي أن يدعو أنصاره لحرب معاوية من جديد ، لكنهم كانوا قد ملّوا القتال وتقاعسوا عنه ، والأخطر من ذلك هو انقسامهم إلى شيعة وافقوه على ماصنع ، وخوارج اعتبروا التحكيم كان من اساسه خاطئاً - مع أنهم هم الذين فرضوه عليه - والاشد خطورة من ذلك كله انهم اتهموه بتهمة شنيعة ، فقد كفروه ، لأنه حكَّم الرجال في القرآن ، وصاغوا شعارا أخذوا يرددونه ، قائلين : (الحكم لله لا لك ياعلي) وكان هو يقول لهم : (كلمة حق أريد بها باطل) وطالبوه بأن يعلن كفره ويتوب ، ويسلم من جديد ، وفي هذه الحالة يعودون اليه ويقاتلون معه ، أما إذا لم يفعل فسوف يقاتلونه ، ولا يمكن لمسلم أن يتصور كيف يُكَفَّرُ رجل من صحابة رسول الله ؛ المبشرين بالجنة ، ومن

---

(١) انظر العواصم من القواصم ، هامش ص ١٧٥ .

الذين رضي الله عنهم تحت الشجرة ، في بيعة الرضوان ، لكن هكذا بلغ التطرف بالخوارج ، حتى اضطر الإمام أن يحاربهم ويقتل معظمهم [١] في معركة شهيرة تسمى معركة النهروان [٢] ، وبعدها لم يستطع أن يجمع شمل أنصاره لقتال معاوية ، من جديد كما كان يريد ، بل أجبرته الظروف على التفاهم والاتفاق معه :

الاتفاق بين علي ومعاوية :

لاشك أن معظم متاعب الإمام علي رضي الله عنه ،كانت من أنصاره أهل العراق ، فقد كان في أخبث جند وأعصاه ، بينما كان معاوية يتمتع بطاعة مطلقة من أهل الشام ، وثقة لاحد لها ، وهذا من مفارقات الظروف . فبعد انقسام جبهة علي إلى شيعة وخوارج ازداد موقفه ضعفا ، لأن صراعه مع الأخيرين كبّده متاعب جسيمة . في الوقت نفسه كان موقف معاوية يزداد قوة ، خاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على مصر سنة ٣٨ هـ ، بجيش أرسله إليها، بقيادة فاتحها الأول ؛ عمرو بن العاص ، وبعد ذلك أخذ ينشر قواته في اطراف العراق ، بل وصل احد جيوشه إلى اليمن واستولى عليها ، وكلما مرّ الزمن اتسعت دولته وضاقت دولة علي ، وفي النهاية جرت بينهما مفاوضات طويلة كما يقول الطبري واتفقا : (على وضع الحرب بينهما ، ويكون لعلي العراق ، ولمعاوية الشام - ومصر طبعا - فلايدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة . . . وتراضيا على ذلك) [٣] ، وهكذا جرت تصاريف القدر مع علي رضي الله عنه وأجبرته الظروف - التي تكون أحياناً أقوى من

---

(١) الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ ومابعدها .

(٢) يقول ياقوت : هي ثلاث نهروانات ، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط وبها كانت الوقعة المشهورة بين علي والخوارج ، معجم البلدان جـ٥ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ١٤٠ .

الرجال- على أن يصالح معاوية ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريباً ، يحكمه حكماً مستقلاً ، وهو الذي رفض في البداية إبقاءه واليا على الشام وحدها ، يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ،

واصبحنا من حيث الواقع أمام دولتين إسلاميتين ، لكل منهما رئيس وعاصمة ، علي بن أبي طالب يحكم ماتحت يده من الكوفة ، ومعاوية يحكم ماتحت يده من دمشق .

ادارة الدولة وتثبيت الفتوحات في عهده :

عل الرغم من الظروف الصعبة التي واجهت الإمام عليا رضي الله عنه ، فقد أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد ، ولم يقصر في شأن من شؤونها ، فهو كان في الكوفة التي أتخذها عاصمة لدولته ، منذ أن خرج من المدينة المنورة، إلى البصرة ، وبعد معركة الجمل تحوّل إلى الكوفة وظل يحكم منها إلى أن لقي ربه، وعهد بإدارة بقية اجزائها إلى أقرب الناس إليه وأخلصهم له ، والذين رأى أنهم موضع ثقته ، فجعل ابن عمه عبد الله بن عباس واليا على البصرة ، وأخاه عبيد الله بن عباس على اليمن ، وأخاهما الثالث قثم بن عباس على مكة والطائف ، وعزل قيس بن سعد عن مصر ، وولى عليها محمد بن أبي بكر الصديق ، وهو ربيبه ، تربى في بيته ، لأنه كان متزوجا من أمه ، السيدة أسماء بنت عميس ، بعد وفاة أبي بكر ، وهكذا فعل على مافعله عثمان ، وهو تولية أقربائه ، وانتقد من أجله - بل ثارت عليه الثائرة من أجله - ونحن هنا لانقصد أن نلوم عليا - حاشا لله - ولا نلوم عثمان أيضا ، فكل منهما اجتهد لمصلحة الأمة ، وكان أمينا عليها ، فعهد بادارة ولايات الدولة إلى من رأى أنهم ينفذون أوامره وسياساته، ولم يول أيٌّ منهما أحدا محاباة أو من أجل القرابة وحدها -حاشا لله - وكما أدار الدولة بعدالة ونزاهة وتجرد - فانه كذلك لم يشغله شئ عن التصدي لمحاولات الانتقاض التي حدثت في بلاد فارس ، فقد

حاول الفرس تكرار مافعلوه بعد استشهاد عمر بن الخطاب ، فاستشار عليٌّ الناس في مواجهة انتقاضهم ، وطلب نصيحتهم في رجل حازم يقمع تمردهم، فقال له جارية بن قدامة : (ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي ، عالم بالسياسة ، كاف لماولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد - ابن أبيه -[1] فسيره إليها - إلى بلاد فارس - في جمع كثير ، فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرمت ، فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم ، يعد من ينصره ويمنِّيه : ويخوف من امتنع عليه ، وضرب بعضهم ببعض ، فدل بعضم على عورة بعض، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس ، فلم يلق منهم جمعا ولا حربا) [2] .

أما الروم فلم يتحركوا ، لأن الامبراطور قنسطانز لما عرض عليه بعض قواده أن ينتهزوا فرصة الحروب الأهلية التي جرت بين علي وأصحاب الجمل ، وبينه وبين معاوية ، ويغيرون من جديد على مصر والشام ، فإن الامبراطور رفض هذه الفكرة ، وقال لهم : لو فعلنا ذلك وأغرنا على مصر أو الشام ، فإن العرب سيتصالحون ويتَّحدُون ويقاتلونا جميعا ، ولن نقو عليهم ، فخير لنا أن نتركهم يقتل بعضهم بعضا ، وفي النهاية يضعف شأنهم جميعا " ، [3] أليست هذه هي خطط الاستعمار ، دائما لم تتغير قديما وحديثا ؟ .

---

(١) ولد زياد في الطائف لأمرأة بغيٍّ أسمها سمية ، فكان ينسب إليها احيانا ، وأحيانا كان يطلق عليه زياد بن ابيه - لأنه لم يكن له أب معروف ، وفي سنة ٤٤هـ ، اعترف به معاوية بن أبي سفيان أخاً له من أبيه ، فاصبح منذ ئذ يدعى زياد بن أبي سفيان .

(٢) الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٣) كان الامبراطور على حق في تخيله للموقف ، لأن معاوية لما علم بعزمه على غزو الشام، منتهزا فرصة انشغاله بالحرب مع علي ، كتب إليه مهدِّدا ، فقال له : (تالله لئن تمَّمت ما بلغني من عزمك - على غزو الشام - لأصالحن صاحبي - يقصد عليا رضي الله عنه - ولأكونن مقدمته إليك ، فلأجعلن القسطنطينية البحراء ، حممة سوداء) . انظر مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، لمحمد حميد الله ص ٥٤٤ .

على كل حال لم يجرؤ أحد على النيل من الدولة الاسلامية ، لأن هيبتها كانت قد ملأت قلوب أعدائها في الداخل والخارج ، وهذا من فضل الله تعالى.

استشهاد علي رضي الله عنه :

قضى علي رضي الله عنه أربع سنوات وبضعة شهور في الخلافة ، لم يذق فيها طعم الراحة ، وكانت الظروف كلها ضده ، وحاصرته المشكلات والمتاعب ، وأنهكته الحروب ، ثم جاءت النهاية المأساوية الأليمة ، على يد الخوارج ، أنصاره السابقين ، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف الى الحد الذي اعتبروا فيه عليا ومعاوية وعمرو بن العاص ، أئمة ضلالة ، وحملوهم مسئولية كل ما حدث ، وقرروا قتلهم جميعا [1] ، وأتفقوا على أن يتم التنفيذ في وقت واحد، وهو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠ هـ . تيمنا بذكرى انتصار الرسول في بدر ، هكذا صورت لهم نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة ، وأنتدبوا لتلك المهمة الخطيرة ، ثلاثة منهم ، هم عبد الرحمن بن ملجم، وعليه أن يذهب إلى الكوفة لقتل علي ، والبرك بن عبد الله ، وعليه أن يذهب إلى دمشق لقتل معاوية ، وعمرو بن بكر ليذهب إلى مصر لقتل عمرو ابن العاص ، وشاءت ارادة الله تعالى ان ينجو معاوية وعمرو من القتل ، وأن تكون الشهادة من نصيب علي رضي الله عنه ، حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم – عليه لعنة الله – بسيف مسموم في جبهته فشقّها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الكامل في التاريخ – مصدر سابق جـ٣ ، ص ٣٨٩ ومابعدها .

خلافة الحسن بن علي ٤٠ - ٤١ هـ

عندما امتدت يد الغادر ابن ملجم و طعنت الإمام ، كانت الطعنة قاتلة ، وتيقن الناس ألا أمل في حياته ، فدخل عليه أحد أنصاره - جندب بن عبد الله- وسأله : (يا أمير المؤمنين ان فقدناك - ولانفقدك - أنبايع للحسن ؟ فقال: (ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر) [١] وقول الإمام هذا من أقوى البراهين على بطلان مزاعم الشيعة بأن النبي ﷺ ، قد أوصى بالخلافة لعلي ، ولبنيه من بعده ، فلو كانت تلك الوصية المزعومة حقا ، لما كان هناك داع لهذا السؤال أصلا، ولكان الواجب على علي أن يوصي بها للحسن من تلقاء نفسه ، بل ان الإمام أضاف مايؤكد ألّا وصية هناك ، فقد قال لهم: (ولكن . أدعوا الله تعالى أن يجمعكم بعدي على خيركم كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا) يقصد أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وتصرف الإمام هذا هو التصرف السليم ، الذي يرسخ قاعدة الشورى ، التي اتبعت في بيعته هو والثلاثة الراشدين من قبله .

بعد وفاة الامام - رمضان سنة ٤٠ هـ - بايع أنصاره الحسن ابنه ، وكانوا يريدون منه أن يتأهب لقتال معاوية من جديد ، ولكنه رضي الله عنه ، كان يرى عدم جدوى ذلك ، بل هو كان ضد فكرة اقتتال المسلمين فيما بينهم من البداية، فعندما خرج أبوه من المدينة إلى البصرة ، قبل موقعة الجمل ، كان من رأيه الا يخرج من المدينة ، وقال له : (أخشى إن خرجت منها ألاّ تعود إليها أبدا) فهو رجل سلام وليس رجل حرب ، وقد زادته الأحداث التي شاهدها بنفسه اقتناعا بعدم جدوى مواصلة الحروب بين المسلمين ، كما رأى أن الأحداث وتقلبات أهواء أهل العراق ، كل ذلك غلب أباه ، وهو من هو فضلا وعلما وشجاعة ، فاقتنع أن أهل العراق لن تنتصر بهم قضية مهما كانت عادلة ، إضافة إلى أن كفة معاوية أصبحت هي الراجحة ، لكل ذلك مال إلى مصالحته

(١ تاريخ الطبري جـ ٥ ، ص ١٤٦ .

والتنازل له عن الخلافة وحقن دماء المسلمين ، وكان هذا عين الحكمة والصواب، فراسل معاوية الذي رحب بسرور بالغ بالصلح ، وجاء إلى الكوفة في شهر ربيع الأول سنة ٤١هـ بعد نحو ستة شهور من خلافة الحسن وبايعه الحسن والحسين ، وتبعهما الناس فبايعوه ، وبهذا قامت الدولة الأموية رسميا ، وأصبح معاوية خليفة وحيدا للأمة الاسلامية كلها ، ولقِّب لأول مرة بأمير المؤمنين ، وكان قبل ذلك يلقب بالأمير فقط .[1]

استبشر المسلمون خيرا بتلك المصالحة ، وحمدوا الله تعالى على انتهاء عهد الفتن والحروب وسفك الدماء ، وسموا ذلك العام عام الجماعة ، وترك صنيع الحسن هذا صدى طيبا عند جمهور المسلمين ، وعلماء الأمة ، فقد أثنى عليه كثير من علماء أهل السنة ورأوا ، فيما فعل تصديقا لنبوءة جده ؛ محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي قال عنه في حديث صحيح : (ابني هذا سيِّد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[2] .

بهذا العمل الشجاع أنهى الحسن رضي الله عنه فترة مؤلمة وحزينة من تاريخ المسلمين ، وأعاد للأمة وحدتها وسكينتها ، وكان مستريح الضمير مطمئن القلب قرير العين بما فعل ، ولم يعبأ بسفه الشيعة العراقيين ، وأنتقاداتهم الحمقاء ، بل شتائمهم ، فقد سبوه ووصفوه بأنه (مسوِّدُ وجوه المؤمنين)[3]

فلم يزد على أن قال لهم في هدوء : (لست مسوِّد وجوه المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك) ولولا حياؤه لكان عنده رد أقسى عليهم من ذلك ، لكنه نفحة من نفحات النبوة ، وريحانة الرسول ، فرضى الله عن الحسن وجزاه عن الأمة الاسلامية خير الجزاء .

وصلى وسلم وبارك على جده ، ورضي عن أبيه وكرَّم وجهه .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦١ .

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٣) العواصم من القواصم ، ص ١٩٧ .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم ، المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠ هـ) .

١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - طبعة دار الشعب بالقاهرة - تحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا وآخرين .

٢ - الكامل في التاريخ - طبعة دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥ م

الأشعري : أبو الحسن على بن اسماعيل (ت ٣٢٤ هـ) .

٣ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م .

البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦ هـ)

٤ - الجامع الصحيح - دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)

٥ - فتوح البلدان - تحقيق الدكتور صلاح الديْن المنجد - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

ابن تيمية : أبو العباس احمد بن عبد الحليم الحرّاني الدمشقي (ت٧٢٨هـ)

٦ - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية -دار الكتب العلمية - بيروت .

٧ - السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية - دار الكاتب العربي - بيروت .

٨ - الحسبة في الإسلام ، أو وظيفة الحكومة الإسلامية - دار الكاتب العربي - بيروت .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)

٩ - تاريخ عمر بن الخطاب - دار احياء علوم الدين - دمشق .

ابن حجر : أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .

١٠ - الإصابة في تمييز الصحابة - مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

١١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري -المطبعة السلفية بالقاهرة .

ابن حنبل : أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)

١٢ -فضائل الصحابة - تحقيق وصي الله بن محمدعباس - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الخزاعي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي (ت ٧٨٩ هـ)

١٣- تخريج الدلالات السمعية على ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية - طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ)

١٤ -مقدمة ابن خلدون - تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر - الطبعة الثالثة عشرة .

ابن خياط : أبوعمرو خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ)

١٥ - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري - مؤسسة الرسالة بيروت - ١٩٧٩ م .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠ هـ) .

١٦ - الطبقات الكبرى - دار صادر - بيروت .

السهيلي : ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١ هـ)

١٧- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام - مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

ابن سيد الناس :

١٨ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير - تحقيق لجنةإحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م الطبعة الثانية .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ).

١٩ - تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بالقاهرة .

الشيباني : محمد بن الحسن (ت ١٨٩ هـ) .

٢٠ - شرح كتاب السير الكبير باملاء السرخسي - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - مطبعة شركة الاعلانات الشرقية بالقاهرة .

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).

٢١ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم - طبع دار المعارف بالقاهرة - الطبعة الثانية .

ابن الطقطقا : أبو جعفر محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ).

٢٢ - الفخري في الآداب السلطانية -- دار صادر - بيروت .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد البر النمري -

٢٣ - الدرر في اختصار المغازي والسير طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه ، القاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ) .

٢٤ - فتوح مصر وأخبارها - تحقيق محمد صبيح -دار التعاون للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٧٤ م .

ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي (ت٥٤٣ هـ) .

٢٥ -- العواصم من القواصم - تحقيق محب الدين الخطيب - مكتبة أسامة بن زيد -- بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

ابن القيِّم : أبو عبد الله بن القيم الجوزي - (ت ٧٥١ هـ) .

٢٦ - زاد المعاد في هدي خير العباد .

ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ).

٢٧ - البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت .

الماوردي : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادي (ت ٤٥٠ هـ).

٢٨ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - الطبعة الثالثة - مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

المسعودي : ابو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ) .

٢٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الفكر بالقاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

النووي : يحيى بن شرف (ت٦٧٦ هـ) .

٣٠ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية بالقاهرة .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ او ٢١٨ هـ) .

٣١ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

ياقوت الحموي : ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ).

٣٢ -معجم البلدان - دار صادر - بيروت -١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

اليعقوبي : احمد بن اسحاق بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢ هـ)

٣٣ - تاريخ اليعقوبي - دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

ثانياً المراجع

احمد محمد الحوفي - دكتور -

٣٤ - من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

أنيس منصور :

٣٥ - الخالدون مائة ، أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم - الزهراء للاعلام العربي بالقاهرة - الطبعة السابعة ١٩٨٦ م .

جواد على (دكتور)

٣٦ - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - الطبعة الثانية بغداد ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

حسن خالد :

٣٧ - الشهيد في الاسلام - دار العلم للملايين - بيروت -

سليمان محمد الطماوي (دكتور)

٣٨ - عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة - دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٩ م .

سيد سابق - الشيخ -

٣٩ - فقه السنة - مكتبة المسلم - لم يذكر مكانها .

٤٠ - عناصر القوة في الإسلام - الطبعة الثانية .

شكري فيصل (دكتور)

٤١ -حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٥٢ م .

الصابوني : محمد على

٤٢ - صفوة التفاسير

٤٣ - مختصر تفسير الطبري

٤٤ - مختصر تفسير ابن كثير .

صادق عرجون (الشيخ -

٤٥ - نظام الحكم في الأسلام - مكتبة وهبة بالقاهرة .

طه حسين (دكتور)

٤٦ - في الأدب الجاهلي - الطبعة الثالثة عشرة - دار المعارف بالقاهرة.

٤٧ - الفتنة الكربى - طبع دار المعارف - بالقاهرة ١٩٦٢ م .

عبد الحي الكتاني :

٤٨ - نظام الحكومة النبوية المسمَّي التراتيب الإدارية - دار الكتاب العربي - بيروت -

عبد العزيز المحمد السليمان :

٤٩ - من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم - الطبعة الثامنة بالرياض ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

العقاد : عباس محمود .

٥٠ - عبقرية عمر - طبع وزارة التربية والتعليم - ١٩٦٩ م .

عون شريف قاسم :

٥١ - دبلوماسية محمد - طبع قسم التأليف والنشر جامعة الخرطوم .

محمد أبو زهرة : (الشيخ) .

٥٢ - خاتم النبيين - دار الفكر العربي بالقاهرة -١٩٩٣ م .

٥٣ - العلاقات الدولية في الإسلام - دار الفكر العربي بالقاهرة .

محمد البهي (دكتور)

٥٤ - الدين والدولة من توجيهات القرآن الكريم - دار الفكر العربي - بيروت ١٩٧١ م .

محمد احمد حسب الله ، ومحمد محمد عبد القادر الخطيب (دكتوران).

٥٥ - دراسات في السيرة النبوية - دار الوفاء للطباعة بالقاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .

محمد اسماعيل على (دكتور)

٥٦ - مبادئ القانون الدولي العام - مطبعة الجبلاوي بالقاهرة ١٩٨٣-١٩٨٤م .

محمد بيومي مهران (دكتور)

٥٧ - دراسات في تاريخ العرب القديم - طبع لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

محمد حسين هيكل (دكتور)

٥٨ - حياة محمد - الطبعة السابعة - دار القلم بالقاهرة .

٥٩ - الصدِّيق أبو بكر - الطبعة الثامنة - دار المعارف بالقاهرة .

٦٠ - الفاروق عمر - الطبعة السادسة -دار المعارف بالقاهرة .

٦١ - عثمان بن عفان -الطبعة الرابعة - دار المعارف بالقاهرة .

محمد حميد الله : (دكتور) .

٦٢ - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - الطبعة الخامسة - دار النفائس -بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

محمد رشيد رضا .

٦٣ - تفسير المنار- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣ - ١٩٧٥ م .

محمد ضياء الدين الريس (دكتور) .

٦٤ - النظريات السياسية الاسلامية - الطبعة السابعة - مكتبة دار التراث بالقاهرة ١٩٧٩ م .

محمد عبد الله دراز (دكتور) .

٦٥ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية - دار القلم - الكويت - ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

محمد محمد أبو شهبة (الشيخ) .

٦٦ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة -دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

محمد محمد زيتون . ومحمد جبر أبو سعده . دكتوران .

٦٧ - تاريخ الخلفاء الراشدين - مطبعة جامعة الأزهر - القاهرة .

محمود شيت خطاب (اللواء) .

٦٨ - الرسول القائد - دار القلم - الطبعة الثالثة .

محمود طه ابو العلا (دكتور) .

٦٩ -جغرافية شبه جزيرة العرب - مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٩٣ م .

منير محمد الغضبان :

٧٠ - المنهج التربوي للسيرة النبوية - التربية الجهادية - مكتبة المنار - الأردن - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

ناجي معروف (دكتور) .

٧١ - إصالة الحضارة العربية - الطبعة الثانية - مطبعة التضامن - بغداد ١٩٦٩ م .

ناصر سعد الرشيد (دكتور) .

٧٢ - سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام - دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٧م .

الندوي : أبو الحسن .

٧٣ - المد والجزر في تاريخ الاسلام - القاهرة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

وهبة الزجيلي (دكتور) .

٧٤ - آثار الحرب في الفقه الإسلامي - ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

يوسف بن اسماعيل النبهاني (الشيخ) .

٧٥ - وسائل الوصول إلى شمائل الرسول - مكتبة النهضة الجزائرية - الجزائر ١٩٨٩ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

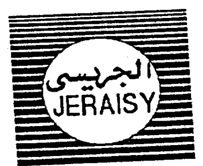
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب
٤٨٢١ / ١٩٨٤م



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٣٧٥٧٠٥٩ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة